

ركائز القدوة فى تفسير الدعوة

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق
جامعة الأزهر

(۲)

(٣)

(٤)
ركائز القدوة
في تفسير الدعوة

(٤)

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

(٦)

(٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله . والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن
تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ،،

فها هو المجلد الرابع من كتابي الذي وسمته بـ "ركائز القدوة في تفسير
الدعوة" ، ويبدأ بعون الله وتوفيقه بتفسير "سورة النساء" ... وأملى أن يجد فيها
الدعاة والعلماء توضيحاً للأسس التي يمكن الاستفادة بها من آيات القرآن الكريم
، وأخذها من مفاهيم الوحي العظيم ، وقد حاولت استخلاص أهم الركائز على
قدر استطاعتي .

وقد سرت به على نفس منهجي في المجلدات السابقة غير أني فيه
أكثر من ذكر أسباب النزول لعدة أسباب :

(١) تأكيد واقعية القرآن الكريم فبرغم أن العبرة بعموم اللفظ إلا أني رأيت أن
ارتباط الآيات بأسبابها برهان ساطع على أن القرآن الكريم نزل ليعالج
واقعاً ، ويعمل في مجال طاقات الإنسان وقدراته .

(٢) توضيح معنى الآية بواسطة معرفة الحدث الذي نزلت له ذلك أن الحدث
قصة عاشها أناس عديدون ، ومن المعلوم أن القصص بصورة عامة يشد
القارئ والمستمع إليه ، ولذلك يعد إيراد سبب النزول أحد عوامل تفهيم
القرآن الكريم .

(٣) إعادة المسلم المعاصر إلى الجو الإيماني الخالص الذي كان التلقى فيه
من الله تعالى هو المنهج الوحيد للمسلمين ، وكان هذا عاملاً رئيسياً في
إخراج خير أمة للناس .

(٨)

(٤) تفهيم الدعاة طريقة ربط دلالة الآيات بواقع المدعوين ، وبذلك يتمكنون من وضع القرآن الكريم في موضعه مع الناس ، يحييهم ، وينطلق بهم إلى العلا في إطار منهج الله تعالى ، ويبشرون من أطاع واستقام ، وينذرون من غفل وعصى .

(٥) توسعة دائرة الثقافة بعلوم القرآن الكريم ، وإمداد الدعاة بزاد من طرق الدعوة إلى الله تعالى .

إن كل آية في القرآن الكريم تعد برهاناً ، ودليلاً ، وعلامة على صدق دعوة الإسلام ، وهو يرسم للناس منهج الحياة ، عقيدة ، وشريعة ، وخلقاً ... وما سميت الآية آية إلا لذلك ، وما نزل القرآن الكريم إلا ليكون دستوراً للناس يحفظونه ، ويحافظون عليه ، ويتخذونه قاعدة عملهم ، وأساس عقيدتهم وطرق خلقهم ، وسلوكهم ، ومعاملاتهم .

فهو كلام الله تعالى : ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾^(١) .

وقد أنزله الله تعالى على رسول الله ﷺ ، وقال له : ﴿ كَتَبْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾^(٢) .

يجب أن يوضع القرآن الكريم في موضعه ، ويجب أن يجليه المسلمون في حياتهم ومعاشهم ... ولا يصح لمسلم أن يهجره ، ولا يجوز لأمة الإسلام أن تستعين بغيره إلا اجتهداً حوله في إطار ما شرع الله تعالى ... ولا أدعى لنفسى الكمال أو الاقتراب منه ... ولكن الذى أقوله عن ثقة : إن محاولتى في هذا التفسير نية جادة في إخراج تفسير للدعوة مع غيره من التفاسير المتخصصة ...

(١) سورة الإسراء ، الآية ٩ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ١ .

(٩)

إن أملى الكبير منذ أن أكرمنى الله وشرفنى بالتخصص في علوم الدعوة هو إظهار علوم الدعوة في إطارها العلمى ، لتأخذ منزلتها السامية في المجال العلمى كما هى سامية فى مجالها العلمى والحركى .

ولذلك أنادى إخوتى العلماء والدعاة للمساهمة المخلصة في إثراء علوم الدعوة ، وتدوين مؤلفاتهم التى أحاطوا بمعانيها المستفادة من وحى الله تعالى ، وعمل سلف الأمة ، وهم فرسانها ورجالها .

إن التدوين تسجيل للمعرفة ، وإبداعها في بطون الكتب ، وثنايا المكتبات وبذلك تبقى أمانة يقرؤها في كل جيل المحبون. للدعوة . المرغوبون. في المعرفة ، المؤمنون في تقدم علوم الدعوة إلى الله تعالى ، وأملى من إخوانى العلماء والدعاة أن يعينونى بالنصيحة ، وتصحيح الخطأ ، وإتمام أى تقصير يعترينى ، ومواصلة العمل فيما فيه خدمة للدعوة .

إن النقد في حد ذاته إثراء للفكرة ، وتصحيح للمسار ، وتوضيح لمنهج وبيان للأولى والأفضل .

إن الدعوة إلى الله تعالى هى الإسلام في حركته ، وضيائه ، وخدمتها خدمة للإسلام في الحقيقة .

وحاجة الدعاة ماسة للعلم والتعلم ، ورجائى أن أساهم في هذا الإطار بقدر استطاعتي .

إن سعادتي تتحقق بانتشار الفكرة ، والتقاء العلماء لخدمة الإسلام وإرضاء الله تعالى ، والتصدى لأى زيوف توجه للإسلام ... وليس لى بعد ذلك رجاء شخصى فقد أكرمنى الله بعبطائه ، ورزقنى بالقناعة التى تجعلنى لا أبغى إلا رضاه ، ولا أتمنى إلا نجاح الإسلام والمسلمين ، ولا أطلب منه سبحانه وتعالى إلا أن يجعل آخرتى خيراً من دنياى ، ويوسع مدخلى ، ويجعل قبرى روضة من رياض الجنة ، وينير أمامى ظلمته ، ويخفف سؤالى ، ويلهمنى الصواب ويكرمنى بما يكرم به ،

(١٠)

عباده الصالحين ، ويمتحنى بالنظر إليه سبحانه وتعالى ، وأن يرفعنى إلى رفقة
النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين .

اللهم :

حقوق رجائى فأنت عفو ، قدير ، وأنا عبدك أعترف بذنبى ، وأملى فيك
كبير ، يا أرحم الراحمين .

اللهم :

ألهمنى الصواب. حتى لا. أكتب إلا. ما يرضيك .، فأنت ولى المؤمنين
تخرجهم من الظلمات إلى النور .

اللهم :

هئ لدينك خير الناس ، وللدعوة خير العلماء ، وسدد عملهم ، واصرف
عنهم العجز والخور .

اللهم :

أنت ربى .، فبك عملى .، وعليك توكلى .، ورضاك مقصدى .، وخدمة
الإسلام هدفى ، ورفعة الدعوة والدعاة أملى وسعادتى .

اللهم :

لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وكن لى ولىا ، فأنت ربى عليك توكلت
... والاك أنيب .

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

غرة ربيع الأول ١٤٣٢هـ

٤ فبراير ٢٠١١م

م. نصر فى

التعريف
بـسورة "النساء"

(۱۲)

(١٣)

سورة "النساء"

يحتاج التعريف بسورة "النساء" إلى معرفة عدد من المسائل المتصلة بها على نحو الوجه الذى ذكرته مع سورة "آل عمران" .

— ١ —

نزول السورة

سورة "النساء" سورة مدنية فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ما نزلت سورة "النساء" إلا وأنا عند رسول الله ﷺ^(١) .
وقد أعرس النبي ﷺ بعائشة رضى الله عنها على رأس ثمانية أشهر من الهجرة ، وأيضاً فإن موضوعات السورة تدل على نزولها بعد الهجرة لأنها دارت حول التشريع ، وتحديد الواجبات ، والدعوة إلى الإصلاح الشامل ، والجهاد فى سبيل الله تعالى ، والحديث عن أهل الكتاب ، وتلك كلها موضوعات نزلت بعد الهجرة .

وذهب النحاس إلى أن آية منها نزلت بمكة . وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فقد نزلت بعد فتح "مكة"^(٢) ، حيث أمر الله تعالى فيها برد مفاتيح الكعبة لبنى شيبه لأنهم كانوا حملته فى الجاهلية وصار معهم حتى فتح "مكة" ، فلما تم الفتح أخذهم المسلمون منهم فردهم الرسول إليهم ، وجعله أمانة فى أيديهم إلى يوم القيامة .
إلا أن القول بمدنية هذه الآية مردود بأمور :
أولها : أن العبرة بالقرآن المدنى هو النزول بعد الهجرة ولو فى غير المدينة .

(١) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ١ ص ١٢ .

(٢) تفسير القرطبى ج ٥ ص ١ .

ثانيها : أن النبي ﷺ قرأ الآية مستشهدا بها ، ومبيناً للحكم الموجود فيها قبل ذلك .

ثالثها : لا مانع من نزول الآية أكثر من مرة والعبرة بنزولها الأول .
رابعها : موضوعات السورة تؤكد مدنيته فكلها لتفصيل الأحكام التكليفية ، ومناقشة المنافقين ، وأهل الكتاب ، وبناء الجماعة والأمة ، ورد الأمانات إلى أصحابها ، وكل واحد من هذه الموضوعات نزل في المدينة .

وسميت السورة بسورة "النساء" لورود ذكر النساء فيها ، كما سميت بسورة "النساء الكبرى" ، تمييزاً لها عن سورة "الطلاق" المسماة بسورة "النساء الصغرى" .

وعدد آياتها مائة وست وسبعون آية^(١) ، ومن جعل قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ آية مستقلة عدها مائة وسبع وسبعون آية^(٢) ، ومن جعل قوله تعالى : ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ جزء آية^(٣) مثل قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ عدها مائة وخمس وسبعون .

وسورة "النساء" نزلت بعد "المتحنة" ، وهى ثانى سور القرآن الكريم طولا بعد سورة "البقرة" ، وهى رابع السور فى مصحف عثمان ؓ .

وقد استغرق نزول السورة مدة طويلة بدأت بعد الهجرة ، واستمرت إلى قبيل وفاته ﷺ ، فلقد نزل فيها قوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ ۖ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ بعد الهجرة ، وبينت أن

(١) وبهذا قال الكوفيون .

(٢) وبهذا قال الشاميون .

(٣) وهم الباقون . انظر تفسير الألوسى ج ٤ ص ١٧٨ .

هذه العقوبة ثابتة لمن يأتين الفاحشة من النساء حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا بإتيان حكم جديد يغير هذا الحكم ، وقد جاء هذا السبيل بنزول آية حد الزنى فى سورة "النور" وهو قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وبذلك جعل الله لهن سبيلا ، وانتهت العقوبة المذكورة فى سورة "النساء" وبين الآيتين خمس سنوات تقريبا .

ولأهمية سورة "النساء" كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الولاة : علموا نساءكم السور الثلاث النساء ، والنور ، والأحزاب ^(١) .
وشرع الإسلام تصدير خطبة الجمعة بآيتها الأولى مع غيرها من الآيات الأمرة بالتقوى لما فيها من الأمر بالخوف من الله تعالى ، والاستسلام له .

- ٢ -

موضوعات السورة

تهدف سورة "النساء" كسائر سور القرآن الكريم إلى إنشاء المجتمع المسلم بأفراده ، ومجموعه على تقوى الله تعالى ، وحسن التوجه إليه سبحانه ، وخلوص العبادة له ، وبذلك ترتبط النفوس والقلوب بحب الله ، وتلتزم الجوارح بطاعة الله ، وتعمل الأمة على تطبيق تعاليمه الى أنزلها سبحانه وتعالى لتكون المنهج الشامل لسائر القضايا المفيدة للناس أجمعين .
ولذلك تبدو سورة "النساء" فى آياتها أمرة ، موجهة للفرد ، وللناس لإنشاء المجتمع الإسلامى الصحيح .

(١) من هدى سورة "النساء" للأستاذة حنان لحام ص ١٩ .

لم تنزل السورة خاصة بسير السابقين وقصصهم ، ولا لمحاورة انحرافات أصحاب الأديان والمذاهب الأخرى ، وانما نزلت السورة للإنشاء والبناء ، فجاءت توجهاتها أمرا ، وطلبا ، ونصحا ، وارشادا ، ونهيا ، وتخويفا .
ومن كلمات السورة :

- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُقُوا رَبُّكُمْ﴾^(١) .
- ﴿وَأَتُوا آلِيَتَمَى أُمُولَهُمْ﴾^(٢) .
- ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَدِكُمْ﴾^(٣) .
- ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾^(٤) .
- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أُمُولَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾^(٥) .
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمْنَتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾^(٦) .
- ﴿فَلْيَقْتِلا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾^(٧) .
- ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾^(٨) .
- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُؤُونًا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾^(٩) .
- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَقَامِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾^(١٠) .

(١) سورة النساء ، الآية ١ .
 (٢) سورة النساء ، الآية ٢ .
 (٣) سورة النساء ، الآية ١١ .
 (٤) سورة النساء ، الآية ٢٠ .
 (٥) سورة النساء ، الآية ٢٩ .
 (٦) سورة النساء ، الآية ٥٨ .
 (٧) سورة النساء ، الآية ٧٤ .
 (٨) سورة النساء ، الآية ١٠١ .
 (٩) سورة النساء ، الآية ١٣٥ .
 (١٠) سورة النساء ، الآية ١٧٠ .

والآيات فى السورة عديدة ، وكلها تسير على هذا النمط ، لتربى أمة ، وتنشئ أفرادا يعرفون حقوقهم ، وواجباتهم ، ويؤمنون بكل ما يأتيهم من عند ربهم ، ويؤدونه حبا له ، وسعادة به ، وشعورا بالرضى والطمأنينة .

إن سورة "النساء" تصنع الإنسان صناعة ربانية ، ولذلك نجدها تشرع لكل الناس ، وتوجههم نحو تقوى الله تعالى ، وتأمّر بمراعاة حق الضعفاء من النساء ، واليتامى ، وتقوى روابط الأسرة فتدعو إلى بر الوالدين ، وتحدد المحارم من النساء ، وتبين واجبات الزواج من مهر وعقد ، وتخرج السورة من إطار البناء الفردى والأسرى إلى البناء الاجتماعى فتأمر بالأمانة ، والتعاون ، ومراعاة حق الأخوة ، وتوضح قواعد التوارث ، وطرق انتقال المال من الأصول إلى الفروع ... وهكذا .

وتعيش السورة كذلك مع علاقات المسلمين بغيرهم فتتحدث عن الجهاد والقتال وصلاة الخوف .

وتعرف السورة بأهم صفات المنافقين ، وتحذر من مسلكهم ، وتناقش اليهود والنصارى وتطالبهم بعدم الغلو فى الدين .

ويمكن إجمال موضوعات السورة فى القضايا التالية :

(١) تتضمن السورة منهج بناء الإنسان فتأمره بتقوى الله تعالى ، والتزام العدل ، والمحافظة على الأمانة ، وطاعة الله ورسوله ، وحمل النفس على الاستقامة وحسن الخلق ، والاهتمام بالقرآن الكريم ، وتدبر معانيه وتطبيق ما جاء فيه .

(٢) تضع السورة منهج رعاية الضعفاء ، وذلك بالاهتمام بتربية اليتيم والمحافظة على ماله ، وعدم استغلاله ، وصيانة حق المرأة فى الزواج ، وأهمية المحافظة عليها ، والابتعاد عن استغلال الفقراء والمساكين .

(٣) تنادى السورة بملازمة مكارم الأخلاق ، والبعد عن الكبائر والفحشاء ، وتمنى ما لدى الغير ، وترك البخل ، والرياء ، وعدم اتباع الشيطان .

- (٤) تحدد السورة منهج إقامة الأسرة والزواج ، وتنتهى عن المحرمات ، وتتحدى بتجنب السفاح والزنى ، وتوضح قوامة الرجل فى إطار ما لأفراد الأسرة من حقوق وما عليهم من واجبات .
- (٥) تتحدث السورة عن أعداء الإسلام ، ولذلك تتكلم عن المنافقين واليهود ، وتبين ما بقلوبهم ، وآمالهم بالنسبة للإسلام والمسلمين .
- (٦) تبين السورة أحكام الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وأهميته ، وآدابه كما توضح أحكام الصلاة أثناء القتال ، وخوف الأعداء .
- (٧) تتحدث السورة عن أهل الكتاب ، وتفصل القول فى رفع عيسى عليه السلام إلى الله تعالى .

وهكذا ...

تقوم السورة بدورها فى تربية الإنسان ، والأمة ، وتحدد طرق التعامل بين الناس ، وذلك بمنهجها المؤثر الذى يربط هذه الحقائق بالدعوة ، ويضع الإنسان فى إطار وجدانى يحببه فى الإيمان ، ويزين الخير فى القلوب .

والسورة وهى تتناول موضوعها تحده بدقة ، ولا تكرر ، وتورده فى آيات طوال شأن السور المدنية كلها .

وكل هذه الموضوعات بأحكامها الشرعية يجب أن توضع فى موضعها من دين الله تعالى وهو ضرورة الاتباع ، وطاعة الرسول كما جاء فى آيات السورة يقول الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ ﴿١٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى

الطُّغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٢٠﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ (٢) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ط وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ (٤) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَتُضْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٥) .

إن الإسلام إصلاح للإنسان ، وبناء للمجتمع ، وأمن للناس أجمعين ... يراه الناس منهجا يشرع ويبني ، ويحكم ويتحكم ، وينير طريق الدنيا ، ويحقق متاع الآخرة ...

إن الإسلام دين الله تعالى الذى يجب أن يوضع فى موضعه الذى نزل له .

(١) سورة النساء ، من الآية ٥٩ : ٦١ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٨٠ .

(٤) سورة النساء ، الآية ١١٥ .

المناسبة بين سورتي "النساء" و"آل عمران"

جاء ترتيب سورة "النساء" بعد سورة "آل عمران" لما بينهما من ترابط وصلة ، وتناسب ... وأهم جوانب المناسبة بين السورتين ما يلي :

أولاً : جاءت الآية الأخيرة في سورة "آل عمران" أمره بالتقوى ، وجاءت الآية الأولى في سورة "النساء" بنفس الأمر ، وكأنهما آية واحدة ، فتشابه الطرفان ، والتقيا في أمر واحد ، أكده ، وبيننا سببه ، وأثره .

ثانياً : عاشت آيات سورة "آل عمران" طويلاً مع قصة "أحد" وعرضتها على المسلمين مبينة صور التقصير ، وطرق العلاج ، وأرشدت إلى المنهج الذي به ينتصر المسلمون ، ويتخلصون من الخوف وحب الدنيا ، وتناولت سورة "النساء" غزوة "أحد" من ذيلها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي آلِ النَّفِثِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ۖ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۚ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۝ (١) ۚ .

فقد ثبت أنها نزلت في غزوة "أحد" مشتملة رغم قصرها على معان عدة وأشارت إلى المنافقين ، وأثرهم ، ووجوب الحذر منهم ، وعدم الخضوع لمكرهم ومكائدهم .

ثالثاً : تحدثت سورة "آل عمران" عن غزوة "حمراء الأسد" ، وأشارت سورة "النساء" إليها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۚ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ ۚ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (٢) ۚ .

(١) سورة النساء ، الآية ٨٨ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٠٤ .

(٢١)

رابعاً : دعت السورتان إلى الجهاد ، وبينتا الآداب المطلوبة فيه .
خامساً : تكلمت السورتان عن المنافقين وأهل الكتاب .
فإن قيل : ولم جاءت سورة "النساء" بعد سورة "آل عمران" ، ولم تأت قبلها؟

أقول : جاءت سورة "آل عمران" بعد سورة "البقرة" لما بينهما من تناسب ، ولو تقدمت سورة "النساء" لا نقطع التواصل بين السورتين .
وأيضاً فإن تأخير سورة "النساء" عن "آل عمران" أنسب لورود تفاصيل في سورة "آل عمران" عن أحداث وقعت مثل "أحد" ، وغزوة "حمراء الأسد" ، وجاءت سورة "النساء" مشتملة على إشارات موجزة عن هذه الأحداث ، والتفصيل يقدم على الإيجاز ، والكل يقدم على البعض ، وكأن ما جاء في سورة "النساء" تلخيصاً لما جاء مطولاً في سورة "آل عمران" (١) .

■ ٤ ■

أسلوب السورة

أسلوب السورة هو أسلوب القرآن المدنى من حيث طول الآيات ، وتوجيه الناس بالأحكام التشريعية العملية ، والخلو من التكرار ... لأن المسلم في المدينة قد دخل في الإسلام ، وعنده الرغبة في فهم أحكام دينه باهتمام كبير بلا حاجة إلى مرغبات صوتية تدعو إلى الآيات ، ولم يكن منكراً أو متردداً حتى تتكرر أمامه الآيات .

ويتلون الأسلوب في السورة بين النداء ، والأمر ، والنهى ، والخبر ، والتأكيد ، والبيان لتحقيق التأثير المطلوب .
وتشمل السورة على ألوان عديدة للترغيب والترهيب ، وصور كثيرة من فنون البيان ، وبلاغة البديع في سهولة ويسر .

(١) انظر تفسير الألوسى ج ٤ ص ١٧٩ .

(٢٢)

وتوضح السورة الأحكام الواردة فيها بتفصيل تام ، وبذلك تضع المسلم أمام الواجب عليه لئلا يكون له عذر بعد ذلك .

— ٥ —

فروق بين سورة "النساء" والسور المكية

نزل القرآن الكريم لصيانة الإنسان ، وتطهير المجتمع من الأرجاس والأوزار فى إطار من الواقع ، ومراعاة أحوال الناس ... ولذا نراه فى السورة المكية يعرف بالعقيدة ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق وحث الناس على الطهارة ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

ونجد الدعوة إلى الفضيلة ، وملازمة الأخلاق الطيبة فى القرآن المكي والمدنى على سواء ... إلا أن القرآن لكى لم يتحدث عن العقوبات التى يستحقها مرتكب الجريمة أيا كان نوعها وأثرها ...

ومن أمثلة ذلك أن القرآن المكي نهى عن الزنا ، وحث على الابتعاد عن دواعيه ولم يتكلم عن العقوبات . ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (١) .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (٢) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿١﴾ فَمَنْ أَبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٢﴾ (٣) .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (٢) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٢﴾ فَمَنْ أَبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣﴾ (٣) .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٣٢ .

(٢) سورة المؤمنون ، من الآية ٥ : ٦ .

(٣) سورة المعارج ، الآيات ٢٩ - ٣١ .

والفرق واضح بين تناول سورة "النساء" المدنية للموضوع أيا كان وبين تناول السور المكية لنفس الموضوع حيث نرى السور المدنية تضع العقوبات المناسبة لكل فعل لأن وجود سلطة حاكمة فى المدينة بعد الهجرة ناسب أن تقوم هذه الحكومة بتطبيق شرع الله فى حياة الناس ، والمحافظة على حقوق سائر المقيمين فى الدولة الإسلامية ... ولم يكن ذلك الحال موجودا فى مكة قبل الهجرة ، ولذلك كان حديث القرن المكى عن الجرائم التى يقوم بها بعض الناس حديثا وصفيا عاما بلا تحديد عقوبة محددة له .

لقد تحدثت سورة "النساء" عن عقوبة من يقع فى الزنا فقال تعالى :

﴿ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَآبِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍۭ قَدْ جَآءَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ نُورٌۭ وَكِتَآبٌۭ مُّبِينٌۭ ﴿١﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍۭ مُّسْتَقِيمٍۭ ﴾ (١) ...

وسبب ذلك واقعية الإسلام لأنه يعتمد فى تطبيق العقوبة على وجود سلطة حاكمة قادرة فى إطار دولة مسلمة تحرس الدين ، وتصور الدنيا ، وتأخذ الناس بحكم الله تعالى .

ولذلك لما جاء النهى عن الزنا فى سورة "النساء" المدنية جاء النهى مصاحبا للعقوبة المقررة لوجود السلطة والدولة فى المدينة بعد الهجرة ، ومن هنا اختلفت السور المدنية عن السور المكية .

إن الإسلام دين يقوم على اعتقاد القلب ، وعمل الجوارح ، والانخراط فى إطار سلطة تحكم الواقع ، وتطبق شرع الله تعالى كاملا .

(١) سورة النساء ، الآية ١٥ ، ١٦ .

(۲۴)

سورة "النساء"

التفسير

(۲۶)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ضرورة تقوى الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تتأدى الآية الناس جميعا لتأمرهم بتقوى الله تعالى ، وإخلاص العبادة له سبحانه وتعالى ، فقد خلقوا. لذلك ، وبينت سبب ذلك وعقلته ، فلقد خلق الله الناس من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ... والأمل منهم هو الطاعة والانقياد .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾ هذا نداء للناس جميعا يشير إلى قرب الله تعالى من خلقه مع التنبيه المتصل بالنداء لإيقاظ العقل ليفهم ، ويعقل .
و "ال" في "الناس" لاستغراق أبناء آدم جميعا ... وهذا أولى من جعل الألف واللام للعهد ليراد بالناس أهل مكة لأن معنى الآية يشير إلى أنها تعنى الناس جميعا .

والنداء يدل على الاهتمام ، والتتبيه معه يدل على عظمة وخطورة ما يتضمنه النداء. ، وهو هنا يأمر بتقوى رب الناس. لما أمدهم بآلائه ،. وتفضل عليهم بنعمته ، فلقد أكرمهم بالخلق والإيجاد وذلك فى قوله تعالى .

﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ والتقوى المأمور بها تعنى الحذر من معصية الله تعالى ، وضرورة اتباع أوامره ، والاستعداد لملاقاته سبحانه وتعالى .

وقد خص الله الناس جميعا بهذا النداء فهم أمة الدعوة ، وعرفهم من خلاله بالعوامل التى تجمعهم ، وتوحد قلوبهم فى إطار الإيمان بالله من عدة زوايا :

- فهو ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ المنعم ، المتفضل ، المربى للجميع منذ الأزل إلى الأبد ، وقد أكرمكم بالتقوى ، وفضل بينكم بطاعتكم فيما أمركم به .

- ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ الجملة مكونة من الصلة وموصولها ، وهى صفة لـ

﴿ رَبُّكُمْ ﴾ مبينة لعله استحقاقه أن يتقى ويعبد ، وقد أوجد الله سبحانه

وتعالى الخلق من نفس واحدة ، هى نفس آدم عليه السلام الذى خلقه من تراب

ونفخ فيه من روحه ، فجميع الخلق من نفس واحدة ، وبعضهم من بعض

وحق بعضهم على بعض مثل حق الأخ على أخيه لاشتراكهما معا فى الأبوة والأمومة .

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أى وأوجد من هذه النفس الواحدة زوجها ، والمراد

بها حواء عليها السلام ، فلقد خلقها الله من ضلع آدم عليه السلام .

يقول السدى : اسكن الله آدم الجنة ، فكان يمشى فيها وحشا ليس له زوج

يسكن إليها ، فنام نومة ، فاستيقظ ، فإذا عند رأسه امرأة قاعده ، خلقها الله من

ضلعه ، فسألها : ما أنت ؟

قالت : امرأة .

قال لها : ولم خلقت ؟

قال : لتسكن إلى^(١) .

فكان يأنس بها ويألفها .

وذلك معنى قوله ﷺ : "استوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شئ في الضلع أعلاه ، إن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا"^(٢) .

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ أى وأوجد منهما خلقا كثيرا متتابعا

متفرقا لأن البث يفيد الكثرة ، والسرعة ، والتنوع ، والتفرق ، والانتشار ، وهو ظاهر فى الناس حيث كثرة التوالد ، وتتابعه ، واستمراريته ، وتفرقه في الأرض كلها .

ووصفت الآية الرجال بالكثرة دون النساء لبيان أهمية دور الرجل مع المرأة فعليه العمل الشاق ، والحركة المستمرة ، والإنفاق الدائم ... ولا يعنى ترك وصف النساء بالكثرة انعدامه لأن المعنى يفيد نساء كثيرات أيضا .

وقد أمرت الكلمات الناس رجالا ونساء بتقوى الله بطاعته ، والحذر من مخالفته فهو الخالق ، الموجد ، القادر ابتداء وانتهاء فربطت بين الواجب ، ودليله ، وأظهرت النعم التى أكرم الله بها عباده أجمعين .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾ كررت الآية الأمر بالتقوى للتأكيد

مع إظهار سبب آخر لها ، فهو الله الذى تسألونه فيعطيك ، وتتادونه فيجيبكم وهو الذى تسألون به غيركم وتقولون : أسألك الله ، وأنشدك بالله ، وأعزم عليك بالله .

وهكذا ...

(١) تفسير الطبرى ج ٧ ص ٥١٥ ، ٥١٦ .

(٢) مجمع الزوائد بنحوه - كتاب النكاح . باب (٦٢) ج ٤ ص ٥٥٩ .

(٣٠)

فالتقوى أولاً لتأكيد العبودية للخالق ، والتقوى ثانيا دعوة للمنعمة المتفضل
الذى يجيب الدعاء والطلب .

﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ عطف على الله ، والمعنى وانتقوا الأرحام ، وأحذروا قطعها
فإن قطعها مهلك .

ويجوز أن يكون المعنى : وانتقوا الأرحام التى تسألون بها على جر الأرحام
عظفا على الضمير فى ﴿يَهْءِ﴾ والأرحام جمع رحم ... ومعناه القرابة مطلقا ،
ويقع على كل من بينه وبين غيره نسب وإن بعد ، وإذا أطلق ينصرف إلى
أقارب الأم إلا أنه لا يخصهم وحدهم ...

والأرحام مشتق من الرحم لأن الأقرباء يجتمعون على رحم واحدة . وقيل :
هو مشتق من الرحمة لأن الأقارب يتعاطفون ويتوادون فيما بينهم .

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أى أن الله كان ومازال وسيستمر حافظا أفعالكم
علينا بأخباركم محيطا بأحوالكم وأسراركم فاطيعوه ، واستقيموا على أمره .

- ٣ -

معنى الآية

ينادى الله الناس جميعا ليتقوه بطاعته ، ويحذروا معصيته فهو الخالق
لسائر الناس ، خلقهم من نفس واحدة هى نفس آدم من تراب ، ثم خلق حواء
من ضلع آدم ليسكن إليها ، ومنهما خلق سائر الناس ، وملا الكون من ذريتهما
فانتقوا الله الذى تستعينون به ، وتتساعلون به ، وانتقوا القرابة ، لا تقطعوها فإنكم
تتساعلون بها ، وتحتاجون إليها ... واعلموا أيها الناس أن الله عليم بأحوالكم ،
وأعمالكم ، وأقوالكم ، وهو جدير بخلوص التقوى ، والعبادة له سبحانه وتعالى .

- ٤ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

(٣١)

الركيزة الأولى

أهمية الاستعداد للقضايا الهامة

تتضمن سورة "النساء" كثيرا من التشريعات الهامة في البناء الاجتماعي والتنشئة الفردية والأسرية ، والعلاقات الداخلية والدولية ، وتلك أمور مشروعة على المكلف تحتاج لكثير من الاستعداد ، والصبر ، ولذلك صدر الله السورة بالأمر بالتقوى وأكد ، وعرف الخلق بسعة علمه ، وكمال قدرته ، وعظيم فضله ليبذلوا الجهد في الطاعة ، والقيام بالتكاليف المشروعة ، ويتقوا الله في سائر القضايا التي أمروا بها خلال السورة .

ومن هذا نستفيد ركيزة دعوية وهي ضرورة الاستعداد لتحمل المشاق والقيام بها على وجهها ، وذلك يقتضى أن يعرف الإنسان طريقه ، ويحدد حاجاته ، ويرسم المنهج الذى يحقق له ما يريد .

على الإنسان المسلم أن يخطط للنجاح ، ويستعد ليكون عبدا رابيا ، سالكا للطريق المستقيم ... وليعلم أن الله رقيب عليه .
إن الدنيا دار تكليف وعمل ، والمسلم مسئول عن دينه فعليه أن يتقى الله حق التقوى ليلقاه حين يموت مسلما صادقا آمينا .

الركيزة الثانية

تدبر خلق الإنسان

طريق الإيمان بالله الخالق

تبين الآية أن الناس جميعا جاءوا إلى هذا العالم بعد العدم ، فقد كان الله ولا شئ معه ... ثم كان الإنسان بإرادة وقدره خارجة عنه ... ولابد للإنسان أن يدرك قدرة الله التى أوجدته .

فمن أين هى يا ترى ... ؟ ...

إنها إرادة الله التى شاءت إيجاد هذا الإنسان على نحو ما خلق به ...
وهى قدرة الله تعالى التى خلقت ، وسوت ، وصورت .

(٣٢)

لا يمكن للإنسان أن يدعى أنه خلق نفسه لاستحاله ذلك عقلا ... ولا يدعى الصدفة في الخلق لأنها لا تتكرر ... ولا يدعى التلقائية في الإيجاد حيث لا عقل للغائب المعدوم ... إنها إدارة الله وقدرته ... وهو على كل شيء قدير .

لو نظر الإنسان لنفسه ، وما تكون منه ... وما يؤديه من عمل ... وسأل نفسه :

- كيف يفهم العقل ؟
 - كيف ترى العين ، ويتكلم اللسان ، وتعمل الجوارح ؟
 - كيف تستطيع المفاصل التنثنى والحركة ؟
 - كيف تعمل الأجهزة الهضمية ، والهوائية ، والإخراج في الإنسان ؟
 - كيف يعمل القلب ، والكبد ، والعروق ... ؟
- لو فكر الإنسان في نفسه ، ورأى العناية ، والدقة ، وتكامل الوظائف النفسية والعقلية ... لأمن بصانع ذلك وهو الله رب العالمين .
- لو رأى كل ذلك ... وفكر فيه . لعلم قدرة الله تعالى ، وآمن به حق الإيمان .

لن يعلم الإنسان قيمة ما خلق الله فيه إلا بالتدبر ، ولو تصور فقدان جزء مما خلق فيه لعلم قيمته ... لو فقد العين فإنه لا يرى ... ولو فقد الأذن فإنه لا يسمع ... ولو فقد الأرجل فإنه لا يمشى ... وهكذا ... وهكذا ... وعليه أن يؤمن بأن الله هو الخالق العظيم ، وفق آلية أرادها سبحانه وتعالى ... وقدرها ... وقضى بها ... وهو على ما يشاء قدير .

الركيزة الثالثة

الإسلام دين الإنسانية العامة

(٣٣)

تبين الآيات أن البشر جميعا خلقهم الله من نفس واحدة بعدما خلق منها زوجها ... هذه الحقيقة توضحها الآية ، وتدعو الناس بذلك إلى الإيمان بأنهم من نفس واحدة ، وبذلك فهم جميعا يكونون الإنسانية بخصائصها مهما تعددت ألوانهم ، واختلفت ثقافتهم .

وحين يؤمن الناس بهذه الحقيقة اليقينية تنتفى بينهم العنصرية ، والاستعلاء الطبقي ، وتتأكد المساواة بين البشر في الحقوق والواجبات .
وحين يلتزم الناس بهذه الحقيقة لصاروا جميعا إخوة متحابين متعاونين في صورة إنسانية أخوية ، وتنتهى حينئذ الحروب والصراعات ، والتنافس المقيت .
وليس إلا الإسلام لإنقاذ الناس ، وتحقيق الإنسانية الصحيحة التى تؤاخذ بين الناس ، وتجمعهم على الحب والتعاون والسلام .

الركيزة الرابعة

المرأة شقيقة الرجل في البث والإيجاد

وصلت الحضارات المدنية القديمة إلى إهانة المرأة واعتبارها رجسا من عمل الشيطان ، وجاء الإسلام ليعيد للمرأة كرامتها ، ويبين أنها الطرف الثانى في وجود الناس جميعا ، رجالا ونساء ... هكذا منذ آدم عليه السلام إلى يومنا ... والى أن تقوم الساعة ... وقد جعل الإسلام إلى الإيمان بهذه الحقيقة جزءا من الإيمان بالله ، والتزاما بشرعه المكين .

ولو آمن الناس بهذه الحقيقة لعلم الجميع دور المرأة مع الرجل ، ولأدرك مالكليهما من حقوق وكرامة ... ولعلم الرجل والمرأة الصورة التى وضعها الله فيهما . فالرجل هو عماد الأسرة ، وسنده فيها هى زوجته ، ومنهما وجد الناس بتكاثر الرجال والنساء .

(٣٤)

إن تحقيق الكرامة للرجل والمرأة في إطار التنوع الوظيفي ، والواجب المهني أمر معلوم من اللحظة الأولى ، وقد حافظ الإسلام عليه ، وكرم به ، وشرعه للمسلمين على الزمن كله .
ولذلك ...

كان تكريم الإسلام للرجل والمرأة على أساس هذا التصور هو المنهج الصحيح للحياة الأسرية الناجحة ... وجاءت الحضارة الحديثة ، وأدعت أنها تكرم المرأة بتحقيق المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة وهذا ظلم كبير ، واهانة لطبيعة المرأة واستعداداتها ، لأن عمل المرأة في المناجم ، والمصانع والحروب يؤذيها ، ويتناقض مع أنوثتها ، وكيف يحصل الرجل مثلها على أجازه حمل وارضاع ؟

إن الحضارة الحديثة وهي تساوى المرأة بالرجل توظفها سائقة للقطار ، ومجندة على الحدود ، وعاملة بناء على سلال الطبقات العليا للبناء ... إن كل هذا يتناقض مع أنوثة المرأة ، وليونة بدنها ، وعدم قدرتها على تحمل المشاق .
إن للمرأة رسالتها التي هيئت لها ، وتكريمها يكون بهذه الرسالة .
وكيف تباشر المرأة القوامة أثناء الحيض ، والنفاس وحين الحمل والولادة والإرضاع .

إن الله تعالى خلق الرجل والمرأة جنسين متغايرين يكمل كل منهما الآخر ، فلو كانا متماثلين ما أحتاج أحدهما إلى الآخر ... ولما كان لتزواجهما معنى وفائدة .

إن الإسلام كرم المرأة فجعلها زوجة تحاط بالرعاية والمعروف ... وجعلها بنتا تحاط بالإحسان وحسن التربية وأخذ المهر ، وينفق عليها الزوج أو وليها ... وجعلها أما تحاط بالبر وحسن الخلق .

إن الإسلام جعل حقوق المرأة جزءا من طاعة الله تعالى ، وصان لها حرية العقيدة ، والفكر ، والتملك ، واختيار الحياة الزوجية التي تريحتها وتسعدها بالذرية ، والعمل الصالح ، ونشدان جنات النعيم .

الركيزة الخامسة

صلة الأقارب القوية أساس الجماعة القوية

تتأدى الآية بصلة الرحم ، والعناية بالأقارب ، لأن قرابة الإنسان هي البيئة الأولى التي ينشأ فيها ، فلو نشأ الصغير على الحب ، والتراحم ، والترابط لشاب على ذلك ، وكبر عليه ، ولنشره مع الأبعدين من الناس .
ومن هنا ...

كان اهتمام الإسلام بالأسرة وعنايته بالقرابة لتكوين مجتمع صالح متين وقد أمر سبحانه وتعالى بتقوى الله بطاعته ، وتقوى الأرحام بوصلها والإحسان إليها ، ولأهمية هذا المجال جاء في الحديث الشريف :

- عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : "الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله" (١) .
- وعن أنس رضي الله عنه أنه قال : "من سره أن يبسط عليه في رزقه ، وينسأ له في أثره فليصل رحمه" (٢) .
- وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "لا يدخل الجنة قاطع" (٣) .
- ومن أقوال الحسن البصري رضي الله عنه : "من سألك بالله فاعطه ، ومن سألك بالرحم فاعطه" (٤) .

(١) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة . باب صلة الرحم ج ١٢ ص ١٧ .

(٢) سنن أبي داود . كتاب الزكاة . باب في صلة الرحم ج ٥ ص ١٣ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب إثم القاطع ج ١٨ ص ٣٨٣ .

(٤) تفسير الخازن ج ١ ص ٤٧٣ .

وجوب المحافظة على أموال اليتامى

يقول الله تعالى :

﴿ وَءَاتُوا آلَ يَتِيمَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت الآية في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم كان في حجره ، فلما بلغ اليتيم طلب المال الذي له ، فمنعه عمه ، فترافعا إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ... فلما سمعها العم قال : أطعنا الله والرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير ، ودفع إلى اليتيم ماله . فقال النبي ﷺ : "من يوق شح نفسه يطيع ربه فإنه يحل جنته ... فلما قبض الصبي ماله أنفقه في سبيل الله . فقال النبي ﷺ : ثبت الأجر للغلام ، وبقي الوزر على أبيه" (١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

(١) أسباب النزول ص ١١٩ .

(٣٧)

لما بينت الآية السابقة ضرورة تقوى الله ، وعدم قطيعة الرحم ، جاءت هذه الآية لتدعو إلى المحافظة على أموال اليتامى ، فهي صلة للرحم ، ومحافظة على حقوق الضعفاء من الأهل والأقارب ، ووضحت أن التحايل في الاستيلاء على أموال اليتامى بضمه إلى غيره من المال لأخذه كله أو بعضه إثم كبير ، وظلم عقابه وخيم .

- ٣ -

موضوع الآية

تتحدث الآية عن إيتاء اليتامى أموالهم بعد رشدهم ، وتنتهى عن العدوان عليها والأخذ منها بأى صورة غير مشروعة ، لما في التعدى عليها من إثم كبير .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ الأمر في الآية للأولياء والأوصياء الذين

يقومون على اليتامى ، وعلى أموالهم بالرعاية والعناية .

ومعنى "آتوا" أعطوا ، والمراد به حافظوا على الأموال ، وصونوها لليتامى حتى تعطوها لهم كاملة تامة .

واليتامى جمع يتيم ، وهو من مات أحد أبويه وهو دون البلوغ ، فإذا بلغ الصغير ، وصار قادرا على الاستغناء زالت عنه صفة اليتيم .

ومال اليتيم كل ما ورثه ، أو ملكه ، أو آل إليه من طريق مشروع كالهبة وريع الوقف ، وأجرة العقار ، وعائد الأرض ... وهكذا ...

ومعنى هذا الأمر أن على الأولياء ، والأوصياء إعطاء اليتامى أموالهم التى قاموا عليها لهم إذا بلغوا ، وكانوا راشدين ، مع عدم اخذ شئ منها إلا

بحقها كأموال إطعامهم ، وكسوتهم ، ونفقة تعليمهم وعلاجهم ، والجزء المقدرة لهم ... وهكذا .

﴿ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ أى لا تستبدلوا الخبيث الذى هو حرام عليكم فتأخذونه وتتركوا الحلال من أموالكم التى أحلها الله لكم ، والمعنى لا تفعلوا الحرام وتتركوا الحلال وله صور عديدة ذكرها العلماء ، ويمكن اكتشاف غيرها ... أهمها :

- يقول السدى والنخعى والزهرى : كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ، ويجعلون مكانه الردى ، وربما كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة ، ويجعل مكانها الهزيلة ... وكانوا يأخذون الدراهم الجيدة ، ويجعلون مكانها الدراهم المزيفة ... ويقولون شاة بشاة ، ودرهم بدرهم فنهوا عن ذلك وهو استبدال مال بمال .
- وقال غيرهم : هو الربح والتكسب في مال اليتيم من غير علمه ، وهذا أخذ لربح مال اليتيم ، وحرمان صاحب المال منه .
- وقال آخرون : هو حرمان اليتيم من ماله الذى ورثه كعادة أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورثون النساء والصغار ، ويورثون بالمال الرجال والكبار فنهوا عن ذلك ، وهذا حرمان لليتامى من حقهم .
- وقيل : المراد به أنهم كانوا يأكلون من مال اليتيم بدل مالهم فنهوا عن ذلك^(١) .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ﴾ أى لا تخطوا أموال اليتامى بأموالكم وتأكلوها كلها أو بعضها مستترين في أموالكم بعد خلطها ... والآية وإن نهت

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٤٧٤ .

(٣٩)

عن أكل أموال اليتامى بعد خلطها بأموال الولي لأن ذلك يهلك مال اليتيم ،
ويضيعه فإنها تشمل أيضا النهي عن كل تصرف يؤدي إلى إهلاك مال اليتيم
وانما خصت الآية الأكل بالنهي لأنه التصرف الأعم في الإهلاك ، والشائع بين
الأولياء .

﴿ إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا ﴾ والحب الإثم ووصفه الله بالكبير لشدة
وقسوته ، والضمير في ﴿ إِنَّهُ ﴾ راجع إلى أكل أموال اليتامى ، واهلاكه ، وعدم
المحافظة عليه .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية ضرورة المحافظة على مال اليتيم فتأمر الأولياء والأوصياء
بصيانته وعدم التعدى عليه ، وتحتم عليهم ترك الحيل في أخذ مال اليتيم
كاستبدال غيره به ، أو أكل نتاجه وربحه ، أو إعطائه لغيره ، أو أكله والإنفاق
منه لأن ذلك إثم كبير سيلقى فاعله جزاءه في الآخرة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة رعاية حق الضعفاء

اليتيم هو الشخص الضعيف الذي يموت أحد أبويه قبل بلوغه ، ولذلك
حرص الإسلام على المحافظة على هذا الشخص ، ورعايته نفسيا ، وعاطفيا
وماليا ويفهم من الآية أن صيانة حقوق الضعفاء أمر واجب في المجتمع ، أنى
كان سبب ضعفه ، والأسباب كثيرة فقد يكون الكبير ضعيفا لمرضه ، أو كبره أو عدم
وجود قرابة له ، أو غربته ... وهكذا ... والواجب أن يهتم الإنسان بحق غيره لا
يعتدى عليه ، ولا يضره ولا يحتال بأى شئ يسئ إليه ... وبذلك تستمر العلاقات

(٤٠)

الاجتماعية طيبة ... ويوم أن يقوى الضعيف سيتعامل مع غيره بمثل ما تعامل الغير معه ... وهكذا يبني الإسلام النفوس ، ويصون وحدة الجماعة .
لما نزلت الآية خاف الصحابة من إثم يقعون فيه فاجتنبوا اليتامى واعتزلوهم فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَحَايَئْتُهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ ﴾ ^(١) فلم الصحابة أن التماسك الاجتماعى ، والحرص على مصلحة الآخر ، ومعاملة الضعفاء بما يفيدهم خير وأولى .

الركيزة الثانية

الرقابة الحقيقية هى رقابة الدين

استمع الصحابة رضوان الله عليهم لأوامر الله ، وأطاعوها فنهضوا ، ونهض معهم المجتمع كله ... أما الآن فالتشريع هو التشريع ومع ذلك تضع أموال اليتامى ، وتسقط حقوق الضعفاء مع وجود الأوصياء والأولياء تحت رقابة الهيئات الحكومية ، والمؤسسات الرسمية ، وذلك يؤكد أن الرقابة المؤثرة هى الإحساس برقابة الله تعالى ، ولا يتم هذا الإحساس إلا بتقوى الله تعالى الذى أمر الناس بها فى الآية الأولى .

إن تقوى الله هى التى توقظ الضمير ، وتربطه بالله تعالى العليم الخبير ، المطلع على النوايا والأسرار .

إن الله محيط بعباده ... والأولى الارتباط به ، والرضى بقضائه وقدره والحكم بما أنزل ، والبعد عن قوانين العبيد لبعدها عن رقابة الباطن ، وعدم إحاطتها بالنوايا والقلوب .

إن تقوى الله تعالى تؤدى إلى الالتزام بشريعة الله تعالى التى لا تتبدل ولا تتغير ، لأن المكلف المؤمن يجد فى نفسه ما يلى :

(١) الالتزام بالشريعة ركن أساسى فى الإيمان الذى من آمن به .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٠ .

(٤١)

(٢) الشعور برقابة الله تعالى الذى لا تخفى عليه خافية في الأرض ، ولا في السماء .

(٣) الجزاء الإلهى عادل ، ولا مناص في الهروب منه .
ولذلك يتم الالتزام بتعاليم الله تعالى .

جواز تعدد الزوجات

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ۚ مَثْنَىٰ وَثُلَّةَ وَرُبُعٍ ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَلِكَ

أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۗ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

سأل عروة بن الزبير رضي الله عنه عائشة رضي الله عنها عن الآية فقالت له : يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها ، تشاركه في ماله ، فيعجبه ماله وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها ، بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ، ويبلغوا بهن أعلى سننهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن^(١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ ج ١٤ ص ٦٠ .

(٤٢)

ويقول عكرمة رحمته الله : كان الرجل من قريش يكون عنده النسوة ، وعنده الأيتام فيذهب ماله ، فيميل على مال اليتيم فنهوا عن زيادة الزوجات عن أربع من أجل المحافظة على مال اليتيم ، وعدم الأخذ منه .
وقيل : نزلت الآية أمرة الرجال بالعدل ، وتجنب أسباب الحيف ، وكأن الآية تقول لهم : كما تخافون أن تعدلوا بين اليتامى فخافوا أن لا تعدلوا بين النساء فأنكحوا واحدة إلى الأربع ، فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة ضرورة المحافظة على مال اليتيم جاءت هذه الآية لبيان أهمية العدل حين رغبة الوالى في نكاح يتيمة تولى أمرها ، فإن النساء كثير وله أن ينكح منهن مثنى وثلاث ورباع حتى لا يظلم اليتيمة ، ولا يجور على مالها وحققها .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين ضرورة عدم ظلم اليتيمة فمن رغب نكاحها من الأولياء فليوفئها حقها في المهر كاملا ، فإن خاف من عدم القسط فليتزوج غيرها ، وليعدد الزواج إن أراد ، لا يزيد على أربع بشرط العدل بينهما فإن علم عدم العدل فليكتف بواحدة حتى لا يجور ويظلم .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

(١) تفسير الطبرى ج ٧ ص ٥٣٦ .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ

النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ﴾ أى وإن علمتم وغلب في ظنكم عدم العدل حين رغبتكم في الزواج من اليتامى الموجودات تحت ولايتكم فاتركوا نكاحهن ، وتخيروا سواهن حتى لا تقعوا في ظلمهن كما في أسباب النزول ، وذلك أن اليتيمة الغنية ذات المال الكثير قد يرغب وليها في نكاحها ، فإن كانت جميلة رغب في مالها وجمالها معا ، وينقصها صداقها ... وإن كانت غير جميلة رغب في نكاحها لمالها فينقصها صداقها ، ويتزوجها ويأخذ مالها ثم يطلقها ، فنهى الله عن ذلك وأمر الأولياء في الحالتين بعدم تزوج اليتامى اللاتي يتولى أمرهن ، والنساء غيرهن كثيرات ، فليتزوج منهن مثنى وثلاث ورباع .

وعبرت الآية عن العلم بالخوف لينتبه الولي منذ البداية ، ويصدق مع نفسه ، ولا يتمادى في أحلامه ، ويقع في الحيف والظلم .
فمن علم من نفسه حسن العشرة فعليه أن يدفع لموليته الصداق كاملا كقرباناتها مالا وجمالا .

ومعنى ﴿ مَا طَابَ ﴾ أى ما حل لكم شرعا من النساء الحليلات .

﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ﴾ هذا اسم عدل به عن العدد ، والواو بمعنى "أو"

والمعنى اثنتان ، أو ثلاثا ، أو أربعا بشرط توقع العدل والعلم به ، ووجود الباءة بكافة معانيها المادية والمعنوية وفق شرع الله تعالى ، وبإباحة التعدد في الزوجات لا يضطر الولي إلى ظلم اليتامى ، فالنساء بمالهن وجمالهن كثيرات وإباحة الزواج بهن مشروع ، وقلب المؤمن وعقله صمام عمله وسلوكه .

وتحديد الزوجات بأربع مفهوم من الآية ، ومنضبط بقوله ﷺ لغيلان الثقفي وقد أسلم وعنده عشرة نسوة : "اختر منهن أربعاً ، وفارق ما عداهن" (١) .

وتربط الآية التعدد بالعدل الذى التزم به رسول الله ﷺ وقال عنه ﷺ :
 "اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك وتملك" (١) .

لقد تناول العلماء تعدد الزوجات بالأبحاث المطولة ، والدراسات الكثيرة
 واكتفى هنا بإيجاز يقتضيه المقام .

إن الإسلام لم ينشئ التعدد ، ولكنه حدده ... ولم يأمر بالتعدد ، وإنما
 رخص فيه وقيده ... وما شرعه الله إلا لضرورات إيمانية وحياتية لا بد منها .

فهو من الناحية الإيمانية يشرع الله للناس بعلمه المحيط ، وبصره بالمخلوق
 وإدراكه لمكوناته الذى ركبه من شهوات وغرائز ، وعقل وفهم ، وحس وجوارح ،
 وكل ذلك يحتاج لإشباع يكافئه ، ويناسبه ، ولا يقدر على ذلك إلا الخالق
 الحكيم ... أما المتحذلقون والمتفيهقون فلا يبصرون إلا تحت أقدامهم ، ولو
 عادوا لشهواتهم ، ودواخل نفوسهم لأدركوا أن كلامهم بعيد عن أمانيتهم ورغباتهم
 ، ولو صدقوا الله ، ورجعوا عن غرورهم ، وآمنوا بما أنزل الله على رسوله لكفر
 الله سيئاتهم ، وأصلح بالهم .

والتعدد من ناحية الحياة الواقعية ضرورة لا بد منها ، وصور الواقع عديدة
 والعقل يتصور إمكان وقوع هذه الصور .

من هذه الصور الواقعية أنه بعد الكوارث والحروب يكثر عدد النساء عن
 عدد الرجال ، فإذا تزوج كل رجل امرأة واحدة فإن النساء المتبقيات أمام أحد
 احتمالات ثلاثة ... هي :

الأول : أن يعشن حياتهن بعيدا عن الزواج ، تعيش المرأة وحدها ، وتنفق
 على نفسها ، وتتولى أمورها بنفسها .

الثانى : أو يعشن عشيقات مسافحات مع رجال آخرين بلا عدد وبلا حقوق .

الثالث : أو يتزوجن برجال تزوجن بأخريات ، وبذلك يكون التعدد .

(١) كنز العمال ج ٧ ص ١٢٩ .

(٤٥)

إن الاحتمال الأول ضد الفطرة ، وضد الطاقة ، ولا نتيجة له إلا الحرمان والتعنت .

والاحتمال الثانى ضد الطهارة ، والعفة ، والنظافة ، ولا يقيم مجتمعا ، ولا أسرة .

أما الاحتمال الثالث فهو التعدد وهو الذى أباحه الإسلام لنظافة الفطرة ، واشباع الطاقة ، والمحافظة على كرامة الفرد والمجتمع .
وصورة أخرى :

قد تصاب المرأة بمرض ، أو شيخوخة ، أو حرمان من الإنجاب ، وحينئذ تجد نفسها أمام احتمالات ثلاثة ... هى :

الأول : أن يطلقها الزوج ليتزوج بأخرى ليشبع طاقته ، ويرزق بذرية ، وهو في هذه الحالة لا يعدد وتعيش المرأة وحيدة مطلقة .

الثانى : أن يستمر معها مضطرا بلا تعدد ، وفى ذلك حرمان له واضاعة لطاقته ، ودفع له إلى الفساد وفعل الحرام .

الثالث : أن يباح للرجل أن يتزوج بأخرى يقضى معها وطره ، ويأتيه الولد ويحافظ على حقوق زوجته الأولى ... وهذا هو التعدد المباح في الإسلام .

إن الاحتمال الأول يضيع الزوجة ، ويتركها بلا عائل ، وقد شاخت وعجزت ، وهو احتمال ترفضه الأخلاق الكريمة .

والاحتمال الثانى حرمان ، وهدم للطاقة ، وضد احتمال الرجل ، ويؤدى إلى كراهية المرأة ، وتمنى التخلص منها لكونها تمنعه من الضرورات التى يحتاج إليها .

أما الاحتمال الثالث فهو التعدد الذى أباحه الإسلام .

وصورة أخرى :

(٤٦)

رجل به شبق تزوج امرأة تأنف من الجماع يريد حلا ... هل نقوله له :
طلق زوجتك وتزوج بأخرى ترضيك ... أم نقول له أمسك عليك زوجك ، وتزوج
بأخرى مع المحافظة على حقوق زوجاتك بالعدل كما أمرك الله تعالى .
قابلت رجلا مرة يعدد في الزواج .

فسألته : لم تعدد ؟

قال : إنى أعشق المرأة وأتمناها ، وأعجز عن مقاومة نفسي . فهل أتزوجها
وأشبع رغبتى ؟ أم أعيش في هواها ، وأمنى النفس بها وهى محرمة علي ؟ إنى
أملك بآفة النكاح بأكثر من واحدة فلم الحرمان والنساء كثيرات ... ؟
سمعت قوله ، ولم أتكلم ... وكنت معه في تصرفه ...

إن الله أباح التعدد ولم يأمر به ... ولو استفاد به المسلمون في إطار ما
شرع لهم لكانوا صورة طيبة للتعدد .

إلا أن الكثير جعلوا التعدد قضيتهم ، وحولوه إلى مسرح للمتعة والتلذذ ،
واستسهلوا الطلاق والنكاح ، ووضعوا نعمة الله في غير موضعها ، وبذلك جعلوا
التعدد صورة فوضوية .

إن الإسلام أباح التعدد ، وضبطه بالعدل ، وأحاطه بالحقوق والواجبات
لكل زوج ، ولكل زوجة .

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ أى تزوجوا واحدة فقط إن علمتم

عدم العدل بين الزوجات .

والعدل بين الزوجات نوعان :

نوع يملكه الإنسان كالنفقة ، والمعاملة ، والمبيت وهذا عدل يملكه الزوج ،
ويقدر عليه ، وهو المأمور به .

ونوع لا يملكه الإنسان لوجوده في مشاعر القلب ، وأحاسيس النفس ،
وترايط الروح ، وهذا لا يملكه الإنسان ، ولا يتحكم فيه ، وهو خارج عن

(٤٧)

استطاعته ، وعلى الزوج مع النوع الثانى أن يضبطه بقدر استطاعته ، ويعمل على قهر قلبه بكل ما يمكنه ، وقد تكلم الله عن النوع الثانى بقوله سبحانه : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ ^(١) .

وفيه يقول النبى ﷺ : "اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما لا أملك وتملك" ^(٢) .

يحاول بعض الذين يعارضون التعدد أن يجعلوا الآية التى تتكلم عن النوع الثانى وهى عدم استطاعة العدل بين الزوجات نعم النوعين ، ويقولون : إنها تحرم التعدد لاستحالة العدل مطلقا .

وقد بعد هؤلاء عن الحق والصواب لأن الآية التى يستدلون بها تتحدث عن النوع الثانى الذى لا يملكه صاحبه ، ولذلك سمحت به ، وقالت : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ۝ ^(١) .

أما العدل المطلوب فهو موجود فى الآية الأولى وهو النوع الأول ، وإذا خاف الرجل من وقوعه لا يتزوج بأخرى بالإجماع .

﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۝ ^(٢) والمراد بالنساء المملوكات اللواتى وقعن فى

الأسر خلال حرب مشروعة قام بها المسلمون لاعلاء كلمة الله تعالى ، والتمتع بهن مشروع بلا عدد فى أطره الشرعية ، فهن لرجل واحد يملكهن ، فلو تزوجن من غير مالكن حرمن عليه .

(١) سورة النساء ، الآية ١٢٩ .

(٢) كنز العمال ج ٧ ص ١٢٩ .

(٤٨)

﴿ ذَٰلِكَ أَدَّتْ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ "ذلك" إشارة إلى ما تضمنته الآية من العدل في نكاح اليتيمات ، وحين التعدد ، وحين ملك اليمين ، فما شرع الله هو الحق وأقرب الطرق لعدم الجور ، وتحقيق العدل .
ومعنى ﴿ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أى لا تظلموا وتجوروا على حقوق الزوجات إن اطعتم الله والتزمت تعاليمه ...
وقيل المعنى : أن لا يكثر عيالكم فتلجأون إلى الظلم والعدوان للإنفاق عليهم .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية ضرورة العدل عند نكاح الأولياء اليتامى ، فمن خاف ، أو توقع عدم العدل فليتزوج غيرهن ما شاء مثنى وثلاث ورباع ، وما ملكت يمينه فذلك خير له وأقرب إلى العدل والإنصاف .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

إصلاح الإسلام للواقع البشرى

تشير الآية إلى قضيتين هامتين موجودتين في المجتمع وحولهما كلام كثير نوجزه في قضيتين ... هما :

— قضية تعدد الزوجات .

— نكاح الإماء المملوكات .

وقد جاء الإسلام وهاتان القضيتان من القضايا الشائعة في المجتمع البشرى إذ كان للرجل قبل الإسلام أن يتزوج كما يشاء بأى عدد يريد ، وبلا شروط وبلا ضوابط .

وكان الرق منتشرًا وله أسواقه في العالم كله ... وبذلك عم التعدد والرق وانتشر ، فلما جاء الإسلام عالج هذا الواقع بحكمة وأناه .

فبالنسبة للتعدد حدده بأربع ، واشترط معه العدل ، والقدرة على الباءة المادية والمعنوية، وشرعه لضرورات واقعية، تحتمه، وتجعله حلاً لمشكلات عديدة .

وبالنسبة للرق فقد ضيق الإسلام منابعه ، وحصره في أسرى الحرب المشروعة ، ووسع في نفس الوقت طرق تحرير الإماء ، وجعله في كفارات الظهار ، والإفطار ، والقتل ، واليمين ، وشرع المكاتبه ، ودعا إلى مساعدة المكاتبين ، والمدبرين مادياً ليتمكنوا من الحرية في وقت قريب .

والأمة المملوكة لسيدها أجاز الإسلام لوليها أن ينكحها بلا عقد ، ولا عدد ولا مهر وهنا يكون السؤال عن فوائد هذا للإماء .

إن الأمة امرأة لها طاقاتها ، وشعورها ، وأحاسيسها ، وقد أوقعتها الحرب في الرق ... وهنا يتيح الإسلام لسيدها أن ينكح من يملك من الإماء ، وذلك يحقق للأمة فائدتين :

أولاهما : إشباع حاجة المرأة من الرجل بطريقة مباحة .

ثانيهما : الإسراع في تحقيق الحرية للإماء لأنهن بالنكاح يتحولن إلى أمهات أولاد يتحررن بحرية أبنائهن ولا يجوز بيعهن بعد ذلك ، وبذلك يعيشن في عالم الأحرار .

إن الإسلام يتعامل مع الواقع ، ويشرع له ما يحسنه ويعدل به برفق وأناة ، وبذلك يتحقق الخير والسلام في هدوء .

المهر حق خالص للمرأة

يقول الله تعالى :

﴿ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ مَحَلَّةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ

هَبِيئًا مَّرِيئًا ۖ ﴾

(٥٠)

- ١ -

سبب نزول الآية

كان ولى المرأة يأخذ المهر لنفسه ، لا يعطى للمرأة شيئا منه ، وكان البعض يتبادل نكاح ابنته لرجل آخر على أن ينكح ابنته بلا مهر وهو ما يعرف بـ "نكاح الشغار" فنزلت الآية تنهى عن ذلك^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن أمرت الآية السابقة بالعدل في نكاح المرأة جاءت هذه الآية تأمر بإعطاء المرأة مهرها فهو حقها الخالص .

- ٣ -

موضوع الآية

تأمر الآية بإعطاء الزوجة المهر فهو مالها ، وهو حقها وحدها ما لم تتنازل عنه كلياً أو جزئياً ، فإن تنازلت فهو حقها أيضاً .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ﴾ أى أعطوا النساء مهورهن ، والخطاب للأولياء والأزواج .

وسمى المهر صدقة لبيان أن المهر يدل على صدق النية ، والإخلاص في طلب الزوجة ، كما يدل على أن الزوج يعطى زوجته المهر بطيب نفس ، رمزا على صدقه في الحياة الزوجية .

وجاء الأمر بإيتاء المهر لبيان ضرورته فهو رمز على استعداد الزوج للعطاء والانفاق .

﴿مَحَلَّةٌ﴾ أى هدية واجبة لهن ، أوجبها الله تعالى تكريما لهن .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٤٧٧ .

(٥١)

﴿ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ أى إن

طابت نفس الزوجة ، ورضيت ، وأعطت زوجها المهر ، أو جزءا منه فللزوج أن يأخذه بعد رضاها هنيئاً مرئياً .

و ﴿ هَنِيئًا ﴾ تعنى طيبا حسنا خاليا من التنغيص ، واللوم ، والسوء .

و ﴿ مَّرِيئًا ﴾ تعنى منتجا للخير وحسن العاقبة .

وخصت الآية الأكل بالذكر لشيوعه وظهوره مع أن للزوج أن ينفقه في الوجه الذى يحتاج إليه .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن المهر حق خالص للمرأة ، فرضه الله لها لتكريمها ، واطهار النية الحسنة في حسن معاملتها ، وليس لأحد سواها من المهر شيئا ، فإن رضيت وطابت نفسها ، وأعطت المهر أو جزءا منه لزوجها وهى راضية فله أن يأخذه وينفقه .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

المهر رمز تكريم للمرأة

جعل الله المهر شرطا من شروط الزواج ، يقل ويكثر تبعا لقدرة الزوج وطاقته ، وبالقدر الذى يكرم المرأة ، ويناسب مستواها بصورة عامة .

والمهر حق خالص للزوجة تتصرف فيه كما تشاء فإن أعطته لزوجها راضية فلا حرج عليها ، وهنا بعض النقاط أحب ذكرها :

أولاً : المهر رمز خالص للتكريم لا يقابله عوض ، وما قيل من أن العوض هو حق الاستمتاع مردود لأن حق الاستمتاع مقرر للزوج والزوجة ولاد دخل للمهر في ذلك .

ثانياً : كان المهر في أول الإسلام يدفع قبل العقد أو معه ... وقد استحدث الناس أن يؤخر جزء من المهر دينا على الزوج يسدده وقت ميسرته ولا شئ في ذلك فهو تيسير على الزوج مع ضمان حق المرأة في مهرها .

وقد استحدث الناس أيضا أن ينفق المهر في تأسيس بيت الزوجية على أن تملكه الزوجة ، وهو أمر جائز مادامت الزوجة راضية به .

ثالثاً : يلجأ بعض الناس إلى كتابة مبلغ كبير من المال على الزوج ويسمونه صداقا مؤجلا عليه يدفعه عند الطلاق إن وقع ... وهذا لا يعد مهرا في الحقيقة وإنما يعد قيда على الرجل يمنعه من الطلاق أو أى عمل لا ترغبه المرأة .

والأولى اعتباره جزءا من المهر تأخذه الزوجة في أى وقت تريد ... لأن اعتباره قيدا على الزوج صورة ليست من الإسلام فى شئ .

الحجر على السفهاء

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

(٥٣)

لما تحدثت الآيات السابقة عن المحافظة على مال اليتيم ، ومهر الزوجة جاءت هذه الآية لتأمر برعاية أموال السفهاء حتى لا يضيعوها .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية طرق تنمية أموال السفهاء ، والمحافظة عليها ، والإنفاق منها عليهم ، وعدم تسليمها لهم ، وتعليمهم وإرشادهم ، وتربيتهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ والسفهاء جمع سفيه ، وهو من اتصف

بالسفة وهو اضطراب في الرأى والفكر يتبعه اضطراب في العمل والإنفاق .

والسفهاء هم الذين لا يحسنون التصرف في المال لصغر سنهم ، أو لضعف عقلم ، أو لسوء سلوكهم وتصرفهم ، أو لغياب المثل العليا في حياتهم ... أو لأى سبب يؤدى إلى العجز عن تدبير المال كسبا وإنفاقا .

وخص بعضهم السفهاء بالأولاد الصغار ، والنساء ، والتعميم أولى ، ودخول هؤلاء معهم مقرر إذا بدا منهم سفه .

والأمر في الآية ﴿ وَلَا تُؤْتُوا ﴾ للأولياء ، والأوصياء ، أمروا بعدم إعطاء

السفهاء أموالهم حتى لا يضيعوها بإنفاقها في غير أبوابها .

والمال مال السفيه وقد جعله الله مال الولي بقوله لهم : ﴿ أَمْوَالَكُمُ ﴾

ليتصرفوا فيه كأنه مالهم ، وللاشارة إلى أن وظيفة المال يستفيد بها الجميع ، ولا بد من المحافظة عليه .

﴿ اَلَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴾ أى ان هذا المال جعله الله تحت أيديكم

لتقوموا عليه بالحفظ والتنمية ، ولذلك يأمركم بعدم اعطائه لأصحابه السفهاء .

﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ وهذه أوامر عطف على الأمر السابق لبيان كيفية الإنفاق على السفهاء ليعطوهم منه ما يحتاجون إليه في الطعام ، والشراب والمسكن ، والتعليم ، وسائر ما يحتاج إليه السفهاء في معاشه ، وحياته .

وخصت الآية الكسوة بالأمر بعد دخولها في عموم الرزق لأهميتها في مظهر الضعيف وتكريمه ، ولأن إهمال الضعيف يظهر في ملابسه غالباً .

وذكرت الآية ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ ولم تقل "منها" لتوجيه الأولياء إلى تنمية مال السفهاء بالتجارة ، والمرابحة ... وغيرها حتى يكون الرزق من ربح المال لا من المال فينقص . يقول النبي ﷺ : "أتجروا في مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة" (١) .

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهذا أمر آخر للأولياء ليوجهوا السفهاء ، وينصحوهم برفق ولين ، وحسن خلق محافظة على إنسانيتهم ، وتربية لهم حتى يشبوا ، بعيداً عن حالة السفه ، وهم أناس كرام أسوياء .

والقول المعروف هو الكلام الجميل المؤثر في النفس والعقل ، وهو يساعد على إزالة السفه .

- ٤ -

معنى الآية

يأمر الله تعالى الأولياء والأزواج بعدم إتيان السفهاء أموالهم حتى لا يضيعوها مع الإبقاء عليها ، وتنميتها ، والإنفاق عليهم من ريعها ، وحسن معاملتهم حتى يشبوا ، ويدعو مرحلة السفه .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

(١) فيض القدير ج ١ ص ٥٠٣ .

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

ضرورة رعاية السفهاء

المال عصب الحياة ، ولذا وجب إنفاقه في طرقه المشروعة ، وحين يوجد المال مع بعض السفهاء الذين يعجزون عن تدبير المال ، ولا يحسنون إنفاقه ، وتصريفه يجب منعهم من التصرف في أموالهم ، واختيار أولياء ينوبون عنهم في تدبير المال ، وينفقون عليهم منه .

وهذا منهج إسلامي للمحافظة على المال ، وفى نفس الوقت يراعى إنسانية السفهاء ، فينفق عليهم ، ويحقق لهم كرامتهم ، ويساعدهم في الخروج من مرحلة السفاهة التى لا ذنب لهم فيها .

إن الإسلام يشرع التعاليم التى تساعد الضعفاء حتى يتم رشدهم ، ويزول عنهم ضعفهم ، ويحدد مسئولية الأولياء عن أموال غيرهم ، ويعرف بالمنهج الواقعى في رعاية السفهاء ، وتربيتهم وارشادهم إلى الحق والصواب وعدم إهمال أى جانب في تنشئتهم نفسيا ، وعلميا ، واجتماعيا ، ودينيا . هذا هو الإسلام ... والأمل في فهمه والعمل به كبير .

كفالة اليتيم حتى يبلغ رشيدا

يقول الله تعالى :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ^ط وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ^ع فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ^ع وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦١﴾ ۝ .

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت الآية في ثابت بن رفاعه وفي عمه ، وذلك أن رفاعه مات وترك ابنه ثابتاً ، وهو صغير . فجاء عمه إلى النبي ﷺ وقال له : إن ابن أخى يتيم في حجرى . فما يحل لى من ماله ؟ ومتى أدفع إليه ماله ؟ ... فنزلت (١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما ذكرت الآية السابقة عدم إتيان السفهاء أموالهم حتى لا يضيعوها جاءت هذه الآية أمرة الأولياء بتدريب اليتامى على تدبر المال حتى يبلغوا راشدين ، وحينئذ يأخذون أموالهم كاملة مع الإشهاد على ذلك ، كما تحدد للأولياء المال الذى يأخذونه من مال اليتيم إذا كانوا فقراء ، وليعلموا أن الله سبحانه كلاً على عمله .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين منهج معاملة اليتيم ، وتدريبه على أمور الحياة وتدبير المال وتوضح أنه إن بلغ رشيداً يأخذ ماله مع الإشهاد عليه ، ولولية أن يأخذ من مال اليتيم بالمعروف إن كان فقيراً ، وإن كان غنياً فليستعفف ، وهو خير له .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿وَابْتََلُوا الْيَتَامَى﴾ والأمر للأولياء ، ومعناه اختبروا اليتامى في بعض ما لهم ، وهو اختبار يختلف باختلاف أحوالهم ، فإن كان اليتيم من أسرة تعمل بالبيع والشراء يعطى بعض ماله ليتدرب فيه ، ويختبر في تصرفه معه ... وإن لم يكن من أهل البيع والشراء يعطى له بعض المال لينفقه في جوانب اهتماماته ومستقبله ... ويختبر في إنفاقه على نفسه ، وحياته ... وتختبر المرأة بالنفقة في بعض شئون بيتها وشراء حاجاتها ... فإن ظهر من هذا الاختبار

(١) أسباب النزول ص ١٢٠ .

حسن التصرف للذكر والأنثى دل على الرشد ، وحينئذ يأخذ ماله حين بلوغه ...
وان بقى على سفهه لا يأخذ المال وان كان شيخا كبيرا .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾ أى يستمر الاختبار ، والابتلاء إلى وقت
البلوغ لأنه تدريب على العمل ، والسعى في المستقبل ، مع كونه اكتشافا للرشد
والبلوغ له علاماته ، وصوره للذكر والأنثى ، وقد بينها الفقهاء بالتفصيل .
﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ زُشْدًا ﴾ أى إن رأيتم وعلمتم رشدًا منهم بعد اختبارهم
وابتلائهم .

والرشد صلاح في الدين ، وصلاح في المال ، وصلاح الدين معناه اجتناب
الفواحش والمعاصى التى تسقط بها العدالة ... وصلاح المال أن لا يكون مبذرا
ينفق ماله فيما لا يكون فيه محمده دنيوية ولا أخروية ، ولا يحسن التصرف في
ماله .

﴿ فَأَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ أى إن ثبت عندكم رشدهم حين بلوغهم فادفعوا
إليهم أموالهم ليتصرفوا فيها فقد صاروا رجالا راشدين .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ أى لا تأخذوا من أموال
اليتيم على وجه الإسراف ، أو مبكرين في الأخذ قبل رجوع المال إليهم لأن هذا
حيف وظلم لا يليق بالأولياء ، وانما الإنفاق من مال اليتيم يكون بالحسن حتى
يبلغوا راشدين ليأخذوا أموالهم .

﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ^ط وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

أى إن كان الولي غنيا فليستعفف عن مال اليتيم ، ولا يأخذ منه شيئا ، وان كان
فقيرا فليأخذ منه القليل الذى يكفيه .

وآثرت الآية ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ بدل فليعف لأن الاستعفاف يعنى تقدم الطلب ، وحث النفس على التعفف ، والتحذير من وساوس النفس والشيطان تجاه مال اليتيم .

والولى الفقير يأكل بالمعروف وفق عادة الناس ، ومقدار مال اليتيم .

﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ والآية تدل على ضرورة الإشهاد حين تسليم مال اليتيم إليه ، والأولى أن تسلم معه بيانات الإنفاق والكسب والصرف ليكون بينة مع اليتيم تدله على إخلاص الولي ، وحسن رعايته للمال حتى يبقى الود والحب بينهما .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أى أن إجراءات التسليم والإشهاد واجبه لإثبات براءة الذمة إلا أن علم الله تعالى فوق التسليم والشهادة يحاسب بدقة ويجازى الكل بما قدمت يداه .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن على أولياء اليتيم أن يدرّوه ببعض المال ، ويختبروا مع تدريبه حسن تصرفه مع المال ، ورشده معه ، فإن أبان لهم رشده سلموه أمواله حين بلوغه ، ولا يصح لهم أن يسرفوا في الإنفاق ، أو يسرعوا إلى إنفاقها قبل بلوغه ، والحكم في ذلك أن الغنى لا يأخذ من اليتيم شيئاً ، والفقير يأكل منه بالمعروف .

ومن الواجب على الوالى أن يشهد على تسليم المال لليتيم بالقول والكتابة واليمين منعاً للوم يناله بعد ذلك ، وليعلم الجميع أن الله رقيب يحاسب كل إنسان على ما قدمت يداه .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الرعاية الكاملة لليتيم

تبين الآية أن اليتيم مخلوق ضعيف ، وواجب المجتمع رعايته ، ولذلك شرع له وليا من قرابته ينمى له ماله ، وينفق عليه منه ، ويرعاه نفسيا ، واجتماعيا ، ودينيا ، وتربويا ، ولذلك قال الله تعالى عن هذه الرعاية : ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾^(١) ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَحَالَطُوهُمْ فَاِخْوَنُكُمْ ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ ... ﴾ إن هذه الآيات ترشد إلى حسن كفالة اليتيم .

إن اليتيم سيتحول بعد بلوغه إلى رجل مسئول عن نفسه ، وعن غيره والإحسان إليه إحسان إلى المجتمع كله ، واصلاح للأمة كلها . وقد ضربت الآية صورة لتربية اليتامى ، وهى ابتلاؤهم ببعض المال ليتصرفوا فيه مع الناس ، ويختلطوا بغيرهم ، ويتعلموا منهم العادات والتقاليد ... وبذلك يتعلمون بالمخالطة والاشتراك مع الآخرين .

إن الإنسان مدنى بطبعه ، وهو سريع الاستفادة من غيره ، واختلاطه مع غيره تعلم وتعليم لابد منه للصغار والكبار ، ولذلك كانت ضرورته لليتامى ، ولسائر الضعفاء .

الركيزة الثانية

المحافظة على مال اليتيم

(١) سورة الإسراء ، الآية ٢٣ .

(٦٠)

اليتيم هو صاحب المال ومالكه ، وقد هيا الله من الأوصياء من يتعهد بالتربية ، والتنشئة الإسلامية الصحيحة ، وذلك بمخالطته ، والتعامل معه ، والاهتمام بكافة الجوانب النفسية والاجتماعية .

والمال هو صلب الحياة ، وهو المحرك لسائر الأعمال ، ولذلك وجب الاهتمام بمال اليتيم ، وتدريبه على صيانتها وتصريفه .

وقد سبق الإسلام كافة النظم في أمره بتدريب اليتيم في صغره على بعض التصرفات المالية ليكتسب منها عدة مهارات يحتاج إليها في مستقبله ... إنه يحتاج إلى مهارات اجتماعية ، واقتصادية ليتمكن من الالتقاء بعدد من الناس ، كما يحتاج إلى مهارات أخلاقية ، يكتسبونها من خلال تدبير المال وتصريفه ... إن التجارة أعظم مدرسة للتربية الجادة ، والفهم السريع ، وحسن التعامل في الأخذ والعطاء ... ولا عجب إن كان تسعه أعشار الرزق فيها .

وابتلاء اليتيم في ماله يحتاج من وليه إلى توجيهه وتدريبه ، والإشراف عليه في عمله ، ولا يصح للولي أبدا أن يضيع مال اليتيم بأى وجه من الوجوه ، ولا يتحايل على إضاعته قبيل بلوغه ، وليس له إلا أن يأكل منه بالمعروف إن كان فقيرا .

على المسلم بصورة عامة أن يدرك أن الله مطع عليه ، وسيحاسبه على ما قدمت يداه بدقة بالغة ، وعدل رحيم .

حقوق الرجال والنساء في الميراث

يقول الله تعالى :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ .

(٦١)

- ١ -

سبب نزول الآية

توفى أوس بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ، وترك امرأة يقال لها أم كحة وثلاث بنات له منها ، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه ، يقال لهما سويد وعرفجة ، فأخذوا ماله ، ولم يعطيا لامرأته ولا لبناته شيئا .
وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكرا ، إنما يورثون الرجال الكبار فقط .

وكانوا يقولون : لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل ، وحاز الغنيمة .
فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك معى بنات ، وأنا امرأة وليس عندي ما أنفق عليهن ، وقد ترك أبوهن مالا حسنا ، وهو عند سويد وعرفجة لم يعطيني ، ولا بناته من المال شيئا وهن في حجري ، ولا يطعماني ولا يسقياني ولا يرفعان لهن رأسا .
فدعاهما رسول الله ﷺ وسألهما .

فقالا : يا رسول الله ولدها لا يركب فرسا ، ولا يحمل كلا ، ولا ينكى عدوا .
فقال رسول الله ﷺ : انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن ،
فانصرفوا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة ضرورة العناية باليتامى في أموالهم ، وانسانيتهم جاءت هذه الآية لتبين أن الرجال والنساء شركاء في الإرث بعيدا عن القوة والضعف الذي يتصف به الورثة .

(١) أسباب النزول ص ١٢٠ .

(٦٢)

- ٣ -

موضوع الآية

توضح الآية أن الرجال والنساء سواء في الإرث لكل منهم نصيب قدره الله تعالى بحكمته وادابته سبحانه وتعالى .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا

تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ أى الرجال والنساء متساوون في مبدأ الإرث من آبائهم وأقربائهم ، فلكل واحد من الرجال والنساء نصيب في الإرث في إطار تنظيم الإسلام لتوزيع التركة .

ونصت الآية على التركة ، وبينت أنها من الوالدين والأقربين لأن الأبناء والبنات امتداد لآبائهم وأقربائهم ، وبين الأصول والفروع قيم كثيرة ليس هو المال وحده ، فبينهما توارث الخلق ، والطبع ، والتوجهات العامة ، والخلقة ، والصورة ، ولا يصح حرمان بعضهم من بعضها ، ولتأكيد ذلك كررت الآية أن التركة من الوالدين والأقربين مع الرجال والنساء ، فلكل منهم نصيب .

﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾ أى ان توزيع التركة على الرجال والنساء شامل

لكل التركة قل مقدارها ، أو كثر فلكل نصيبه المقدر بصورة عامة .

﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ أى قدرا محددا فرضه الله تعالى لا يصح تجاهله أو

التعدى عليه .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن الرجال والنساء يرثون آباءهم وأقرباءهم فلكل منهما نصيبه

الذى حدده الله ، وفرضه على الناس .

(٦٣)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

في الآية ركيزة هامة ... هي :

للنساء حق كالرجال في البنوة والقربة

الإسلام دين الفطرة ، وقد ربط الناس بروابطهم الذاتية ، وأقام بينهم ما يقوى هذه الروابط .

إن الآباء يهتمون بأبنائهم ، وتتعلق بهم القلوب والأرواح ، ولهم على أبنائهم حقوق ، وللأبناء على آبائهم واجبات .

وفى إطار الأسرة توجد القرابة ، فيها تكون النصرة ، والتعاون ، وتحمل الديات والمغارم .

ومن هذا الباب نادى النبي ﷺ في أهل مكة بقول الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ^(١) فقد طلب منهم أن يؤدوا له حق قرابته في النصرة ، والنصح ، والتعاون في الأمن والسلام .

والرجال والنساء مرتبطون بأبائهم وأقربائهم بعدد من الوشائج ذات التأثير في الخلق ، والسلوك ، والتعقل ، والترابط وسط مجتمعات البشر وكتلهم .

ولا يصح إزاء هذا الترابط حرمان النساء من ميراث المال خاصة دون بقية الوشائج التي لافكاك منها .

فكان من العدل أن لا يحرموا من المال كغيره من الوشائج .

ومن هنا ...

(١) سورة الشورى ، الآية ٢٣ .

(٦٤)

ندرك ما في الآية من رعاية للفطرة ، ومحافظة على الجماعة ، وتكريم للرجال والنساء معا .

واختلاف مقادير الإرث بتقدير الله تابع للحكمة والمصلحة كما قدرها الله تعالى ، ولا دخل للعقل فيها .

وإذا وجد في الناس من يحرم النساء من الإرث فهو عدوان منهم على حق غيرهم ، وإهمال للفطرة ، ومعصية لله تعالى ، وإهمال لشريعته وفروضة .

إعطاء الأقرباء بعض المال من التركة

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية أن الرجال والنساء متساوون في إرث الآباء والأقارب جاءت هذه الآية لتشير إلى إعطاء الأقارب الذين يحضرون قسمة المال جزءا منه .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن من يحضر القسمة من الأقارب ، واليتامى ، والمساكين ، فلهم أخذ جزء منه مع القول الطيب ، والتعامل الحسن .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ أى إذا وجد

بعض ذوى القربى واليتامى والمساكين وقت قسمة مال التركة ممن لا يستحقون إرثا بسبب الحجب ، فلهم جزء من المال ، لأنهم يشعرون بالحرمان مع قرابتهم من الميت ، ويبقى في نفوسهم ألم مكتوم نتيجة حجب غيرهم لهم ... ولذلك شرع الإسلام تطيبيا لخاطرهم إعطاءهم جزءا من التركة ، والاعتذار لهم عن حرمانهم الذى حل بهم .

﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أى أعطوهم بعضه ، وهو

جزء يسير قبل توزيع المال على الورثة ... مع التحدث معهم بلا من ولا أذى .
وقد فصل العلماء في الآية .

فذكر بعضهم : أن القسمة تعنى قسمة مال الوصية ، وللقرباء نصيب فيها لأن الوصية لهم .

وقال غيرهم : إن القسمة في مال التركة ، والأمر بالرزق للإباحة وليس واجبا إعطاؤهم .

وقال آخرون : إن القسمة في مال التركة والأمر للجوب ، ويجب تطبيقه ، وقد ذهب إلى هذا رأى بعض العلماء المحدثين معللين ما ذهبوا إليه بعدم وجود مخصص لنوع القرابة ، وورود القسمة جاء في إطار آيات التركة وهذا الرزق للأقارب موافق للاتجاه الإسلامى العام في التعاون والتكافل ، والأخوة وهو ضرورى لمنع التحاسد والكراهية ، ولذلك كان الإعطاء بقدر قليل مع القول الحسن واجبا .

وذهب البعض إلى نسخ الآية بآية المواريث .

وأيا كان المراد فالواجب المحافظة على روح الإسلام الذى يدعو إلى التماسك والترابط ، والإيثار ، وذلك في قوله تعالى :

(٦٦)

- ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(١) .
- "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً"^(٢) .
- ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٣) .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الأقرباء واليتامى والمساكين ممن لا نصيب لهم إذا حضروا
قسمة التركة فلهم أن يأخذوا جزءاً منه بلا من ولا أذى .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

في الآية ركيزة هامة ... هي :

ضرورة الترابط الاجتماعي

يحرص الإسلام على وحدة الجماعة المسلمة ، ولذلك قرب بين أفرادها ،
وأمرهم بمراعات الخواطر النفسية ، والأمانى القلبية في التعامل فيما بينهم .
فغير الورثة يأخذ المال إن حضر القسمة إرضاء له ، ومحافظة على نظافة قلبه
وضميره .

إن المهاجرين حينما هاجروا إلى المدينة آثرهم الأنصار على أنفسهم ،
وتنازلوا لهم عن أموالهم ، وبيوتهم ، فصنعوا مجتمعاً إسلامياً متماسكاً .
وهذا ما توجه له الآية ، وتؤسسه .

وعلى الدعاة :

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٩٢ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الصلاة . باب تشبيك الأصابع ج ١ ص ٤٥٤ .

(٣) سورة الحشر ، الآية ٩ .

(٦٧)

أن يهتموا بهذه القضية ، لأن قطيعة الرحم ، وتباعد الأقارب يؤدي إلى تفكك المجتمع ، وضياح القيم النبيلة ، واهمال التعاون على البر والتقوى .
إن الإسلام يعنى تسيير حياة الناس في خلق كريم ، واخوة راقية ، وعمل متواصل يرضى الله ورسوله .

ولن ينهض المسلمون أبدا ما بعدوا عن الإسلام ، وتعاليمه لأنهم أهملوا أنفسهم ، ولا يصح في عالم العقلاء ادعاء أمر والعمل بما يناقضه .

الحرص على اليتامى

يقول الله تعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما أمرت الآية السابقة بإعطاء الأقرباء جزءا من المال تطيبيا لخاطرهم جاءت هذه الآية لرسم الطريق الصحيح لنشأة الصغار نشأة سوية في إطار دين الله تعالى ، وذلك بعدم زيادة الوصية عن الثلث ، والمحافظة لهم على المال .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآية وجوب المحافظة على الصغير ، واليتيم وتوجيه الآباء إلى تقوى الله ، والاستقامة على منهجه سبحانه وتعالى ، فلا يزيدوا في الوصية عن الثلث ، وليعلم المعتدى على مال اليتيم أنه يأكل في بطنه نارا يصلها يوم القيامة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ

فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى أن الذى يخاف على ولده إذا تركه ضعيفا فقيرا يحتاج إلى المساعدة والمعونة عليه أن يسلك منهج الإسلام لولده الصغير ، وأول المنهج أن يتقى الله في ماله فلا يوصى بأكثر من الثلث .

قيل : إن الآية خطاب للذين يجلسون عند المريض ، وقد حضره الموت فيقولون له : انظر إلى نفسك ، وغدا ستكون بين يدي الله تعالى ، ولن ينفعك ولدك وورثتك ، فقدم لنفسك فلا يزالون به حتى يأتى على ماله كله فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يأمره بالنظر إلى ولده ، ولا يزيد الوصية عن الثلث .
والمعنى : إن الخوف على الضعيف يحتاج إلى تقوى الله في الوصية ليبقى له المال الذى يعيش به .

﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أى على من حضر عند الوالد حين موته أن

يقول كلاما طيبا ويأمره بعدم زيادة الوصية عن الثلث .

- ٤ -

معنى الآية

على جلساء المريض الذين يخافون على أولادهم الصغار أن يتقوا الله ولا يدعون المريض إلى الوصية بكل ماله ، وإنما يأمرونه بعدم زيادة الوصية عن الثلث ، ويقولون له قولا طيبا صوابا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

الوصية في الثلث لا تزيد

تأمر الآية الذى يجلسون مع المريض إذا حضرته الوفاة أن يأمروا المريض بعدم زيادة الوصية عن الثلث فأبناء المريض مثل أبنائهم ، وخوفهم على أبنائهم يؤدي إلى خوفهم على أبناء المريض فليتقوا الله في نصائحهم ، ولا

(٦٩)

يأمرنا بزيادة الوصية على الثلث ، وبهذا يجد اليتيم ما يعيش به ، ويكرم الفقراء بثلث المال ، ويستمر بين الناس الحب والخير .
أما أن يتحول الصغير إلى محتاج فقير ، وينتقل مال أبيه كله إلى الموصى لهم فهذا لا يجوز ، ولذلك أمر الله الناس بالعمل على عدم زيادة الوصية عن الثلث .

سوء عاقبة

من يأكل مال اليتيم ظلما

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۖ ﴾

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت الآية في رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد ولي مال ابن أخيه اليتيم فأكله فأنزل الله هذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما أمرت الآية بتقوى الله في مال المال ، وعدم زيادة الوصية عن الثلث جاءت هذه الآية تبين عقوبة من يأكل مال اليتيم ظلما .

- ٣ -

موضوع الآية

(١) أسباب النزول ص ١٢١ .

(٧٠)

الآية تتكلم عن مصير آكل مال اليتيم ظلما عند الله في الآخرة .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِمِ ظُلْمًا ﴾ أى الذين يأخذون أموال

اليتامى لأنفسهم من أنها ليست لهم فقد عملوا سوءا وارتكبوا فعلا محرما .

﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ أى سيأكلون يوم القيامة النار وهذه

إشارة إلى شدة عذابهم فإنهم أخذوا أموال ضعيف محتاج إلى ماله فأكلوه ،
ولذلك يجعل الله جزاءهم يوم القيامة نارا يأكلونها فتخرج النار من أجسادهم ،
وجوارحهم ليعرف من يراه أنه آكل مال يتيم .

﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ أى سيقرقون بنار مستعرة شديدة الايقاد

والإحراق .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن آكل مال اليتيم يرتكب جرما كبيرا ، ولذلك سيملا الله جوفه
بالنار يوم القيامة ، ويعذبه بنار موقده شديدة الإحراق .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

عاقبة ظلم اليتامى والضعفاء

قد يقدم البعض على آكل مال اليتيم لضعفه وصغره ، ويتصور نفسه قد
ظفر بشئ ... والحقيقة ليست كذلك ... لأن الله تعالى سيعاقبه على ذلك عقابا

(٧١)

شديدا يوم القيامة وسيأتى يوم القيامة ، وقد آكل نارا ، واشتعل جسده بالنار
جزاء ما قدم من ظلم وعدوان .

فليحذر الناس من مال اليتيم لأن التعدى عليه يوصل إلى نار جهنم وبئس
المصير .

وعلى أمثال اليتيم يكون الحكم في أكل الضعفاء ظلما كالمرأة ، والمريض
، وضعيف العقل ، فلا يجوز أكل أموالهم ظلما .

آيات المواريث

يقول الله تعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۚ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبُوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ الشُّدُسُ ۚ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ ۚ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٥﴾ ۖ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُن لَكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ ۚ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ ۖ .

- ١ -

سبب النزول

وردت عدة أسباب لنزول الآيات ... هي :

روى عن جابر رضي الله عنه قال : مرضت فأتاني رسول الله ﷺ يعودني ، وأبو بكر وهما يمشيان ، فوجداني أغمي علي ، فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صب وضوءه علي فأفقت فإذا النبي ﷺ جالس فقلت : يا رسول الله كيف أصنع في مالي ؟ ... كيف أقضى في مالي ؟ ...

(٧٣)

فلم يجبني بشئ حتى نزلت آية الميراث .

وفي رواية ﷺ فقلت : لا يرثني إلا كلاله فكيف الميراث ؟ فنزلت :
﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ وفي رواية أخرى فلم يرد على شيئا حتى نزلت
آية الميراث يستفتونك قل الله يفتيكم^(١) .

وقال مقاتل والكلبي : نزلت في أم كحة امرأة أوس بن ثابت وبناته .
وقال عطاء : نزلت في سعد بن الربيع النقيب استشهد يوم أحد وترك بنتين
وامرأة وأخا .

فعن جابر ﷺ قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى
رسول الله ﷺ فقالت : "يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما
معك يوم أحد ، شهيدا ، وأن عمهما أخذ مالهما ، فلم يدع لهما مالا ، ولا
ينكحان إلا ولهما مال .

قال ﷺ : يقضي الله في ذلك فنزلت آية الميراث ، فبعث رسول الله ﷺ إلى
عمهما فقال له : أعط ابنتي سعد الثلثين ، وأعط أمهما الثمن ، وما بقي فهو لك^(٢) .
وقال السدي : كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواري ولا الضعفاء من
الغلمان ، ولا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال ، فمات عبدالرحمن أخو
حسان الشاعر وترك امرأة وخمس بنات ، فجاء الورثة وأخذوا ماله فشكت امرأته
إلى النبي ﷺ فأُنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة^(٣) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

الآيات السابقة تحدثت عن المحافظة على حقوق الضعفاء من النساء
واليتامى ، وجاءت هذه الآيات لتبين حقوق الجميع صغارا وكبارا في تركة من
مات منهم .

(١) تفسير البغوي ج ١ ص ٢٨٥ .

(٢) تفسير فتح القدير ج ١ ص ٤٦٣ .

(٣) تفسير الخازن ج ١ ص ٤٨٥ .

(٧٤)

- ٣ -

موضوع الآيات

الآيات توضح بالتفصيل كيفية توزيع تركة الميت ، وتحدد الأنصباء لكل وارث .

- ٤ -

وقفة هامة قبل آيات الميراث

قبل أن نبدأ في تفصيل آيات الميراث أحب بيان ما يلي :

(أ) تبدأ آيات المواريث ببيان أن الله أرحم بعباده من آبائهم وأقربائهم ، ولذلك يوصي الآباء بتوريث الأبناء وفق حكمه ، وتقديره لنصيب كل منهم ، ويتبع هذه الوصية بتوجيهات عدة تبين أن توزيع الميراث وفق ما جاء في الآيات فريضة من الله العليم الحكيم ، وهو حدود الله التي لا يصح الاعتداء عليها ، ولذلك قال الله تعالى :

- ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ ﴾ .

- ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

فهل يجزئ بعد ذلك عاقل على مخالفتها ... !!

(ب) تولى القرآن الكريم تحديد انصباء الورثة ، وضبطها ، وفصل فيها لأهميتها وضرورتها للناس ، وقد سمى العلماء علم الميراث بـ "علم الفرائض" وعدوه نصف العلم ، يقول النبي ﷺ : "العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل ، آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة" (١) . ويقول ﷺ : "تعلموا الفرائض ، وعلموها الناس فإنه نصف العلم ، وهو أول شيء ينسى ، وأول شيء ينتزع من أمتي" (٢) .

(١) سنن أبي داود - كتاب الفرائض - باب ما جاء في تعليم الفرائض ج ٤ ص ١٥٩ ط . الفقى

(٢) سنن ابن ماجه - كتاب الفرائض - باب الحث على تعليم الفرائض ج ٤ ص ١٨٠ .

(ج) يبين صدر الآية الأولى أن الميراث وصية الله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾

وقد حث الله الناس على الوصية ، وقدمها في هذه الآيات على توزيع التركة وكرر ذلك في قوله : ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ ، وقد حدد رسول الله ﷺ وصية الإنسان في ماله بالثلث ، فكأن الله تعالى أوصى بالثلثين ، وترك للعبد أن يوصي بالثلث ، ولذلك يقول النبي ﷺ : "إن الله تعالى قد تصدق عليكم في آخر أعماركم بثلث أموالكم ليجعلها لكم زيادة في أعمالكم فضعه حيث شئتم" (١) ...

وقد أراد بعض الصحابة أن يوصى بجميع ماله ، فمنعه النبي ﷺ وقال : الثلث والثلث كثير : إنك إن تزرر وريثك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس (٢) .

وبذلك تكون وصية الله ثلثي المال ، ووصية الإنسان الثلث الأخير ، وقد ضبط الله الوصية ، وحددها ، وأمر الناس أن لا يضرروا بوصيتهم الورثة ولذلك عد الفقهاء الأضرار في الوصية من الكبائر ، والأولى بالإنسان أن ينظر في ماله وقدره ، وورثته وعددهم ، فإن كان المال قليلا والورثة كثيرون فالأولى عدم الوصية ، وإن كان في المال كثرة فليوازن بين ورثته وتركته ، وليعلم أن من الخير له أن يدع الورثة أغنياء .

(د) تتضمن الآيات حكمة الله الدقيقة في توزيع التركة . فقد غير ما كان عليه الناس ، فأعطى للمولود الصغير ولو كان بنتا ، وورث من لا صلة له بالحرب والقتال ، وبين أن ذلك هو حد الله وتشريعه ، ولا يجوز الاعتداء عليه مطلقا ، وهو سبحانه عليم بكل ما يفعله الناس ، وسيحاسبهم على طاعتهم ، والتزامهم بشريعته .

(١) مجمع الزوائد - كتاب الوصايا . باب الوصية بالثلث ج ٤ ص ٣٨٦ .
(٢) سنن الترمذي - كتاب الوصايا . باب ما جاء في الثلث ص ٨٤٠ دار المعرفة .

(هـ) جاء الميراث في سور "النساء" في ثلاث آيات فقط هي الآيتان الأوليتان هنا ، والآية آخر سورة "النساء" ، وهى قوله تعالى : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنَّ امْرَأًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِيْهَا إِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ۚ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ ۚ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ۚ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضْلُوا ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ .

أما في سورة "الأنفال" فقد نزل عن الميراث قوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا
الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ لنسخ ما كان بين المهاجرين والأنصار
من التوارث عندما آخى النبي ﷺ بينهم .

وتتناول هذه الآيات الأربعة الميراث كله ، فتتضمن الآية الأولى في سورة "النساء" الميراث بين الآباء والأبناء أى بين الأصول والفروع .
وتتضمن الآية الثانية الميراث بين الأزواج والزوجات والكلالة من جهة الأم .

وتتضمن الآية الثالثة في آخر السورة ميراث الأخوة والأخوات والكلالة من جهة الأب ، وتتضمن آية الأنفال ميراث ذوى الأرحام .

(و) أسباب الإرث ثلاث هي النسب ، والمصاهرة ، والولاء ، وموانعه ثلاثة هي الرق ، والقتل ، واختلاف الدين .

(ز) توزيع المال على الورثة يجب بعد قضاء الدين أولاً ، ثم تنفيذ الوصية ثانياً والباقي بعد قضاء الدين ، وتوزيع الوصية هو المال الذى يورث وفق تحديد الله وشرعه ، فهي وصية الله تعالى .

(٧٧)

- ٥ -

توزيع التركة

يتم توزيع التركة وفق نظام دقيق قائم على تحديد نصيب كل وارث في هيئة مبادئ عامة ... وهى :

- أولا -

ميراث الآباء والأبناء

تتضمن الآية الأولى بيان انصباة الأبناء والآباء ، وهى قوله تعالى :
﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ
أُنثَيَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۚ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمَا النِّصْفُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ
فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ النِّصْفُ ۚ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ
دَيْنٍ ۚ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا ۚ فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ ۚ إِنْ
اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ والآية تبين ما يلى :

أولا : إذا مات الأب أو الأم وليس لهما وارث إلا الأبناء فيراعى الآتى :

(١) إن كان الأبناء ذكورا فقط . قسمت التركة بينهم بالتساوى ، ولو كانوا ولدا

واحدا أخذ التركة كلها بعد إعطاء نصيب من له نصيب في الميراث

كالأب أو الأم أو الزوج أو الزوجة .

(٢) إن كان الأبناء إناثا فقط . فإن كن واحدة أخذت النصف ، وإن كانتا

اثنتان أو أكثر فلهن ثلثا التركة وللآباء نصيبهم .

(٣) إن كان الأبناء ذكورا وإناثا توزع التركة بينهم للذكر ضعف الأنثى .

(٤) أبناء الأبناء يحلون محل الأبناء إن فقدوا .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ۚ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۚ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ ﴾ هذا بالنسبة للأبناء أما الآباء فيراعى معهم الآتى :

- (١) إن اجتمع الآباء في الإرث مع أبناء للميت فلكل من الأبوين السدس .
 - (٢) إن لم يكن معهما وارث فلأُم الثلث وللأب الثلثان .
 - (٣) أن كان للميت إخوة فإن الأم تأخذ السدس والباقي بعد توزيع الانصباء للأب .
- وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ ۚ ﴾ وتختتم الآية بقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيٍّ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دِينٍ ۚ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ ﴾ أى أن سداد الدين ، وتنفيذ الوصية مقدمان على الإرث .
- فعن أبى قتادة رضي الله عنه جاء رجل إلى رسول الله وقال له : يا رسول الله . أُرِيتَ إن قُتِلت في سبيل الله أنكفر عنى خطاياى ؟
- قال ﷺ : نعم إلا الدين . فإن جبريل أخبرنى بذلك ^(١) .

وبعد سداد الدين يكون تنفيذ الوصية التى نص عليها الميت قبل موته ، وقد نص بعض الفقهاء بوجوب وصية لأبناء الأبناء حتى لا يحرموا من ميراث جدهم مع وجود أعمامهم وتكون الوصية لهم في حدود الثلث ، وإن لم ينص عليها الميت .

وقطعا للتحايل في توزيع التركة للآباء ، أو الأبناء بين الله ضرورة ترك الأمر لحكم الله تعالى فهو تشريعه وفرضه ، والإنسان لا يدرى حقيقة النفع ، ولا مصدره ، ولا يعرف أيا من الآباء أو الأبناء أنفع له .

(١) في ظلال القرآن ج ٢ ص ٦١ .

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وهو سبحانه بعلمه وحكمه يحدد نصيب كل واحد من الورثة ، ويعلم من أطاعه ، ومن عصاه ، ويجازى كلا بما يستحق .

- ثانيا -

ميراث الأزواج والكلالة

يتحدد ميراث الأزواج والكلالة فى قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ والآية تبين ميراث الأزواج والكلالة ... فالزوج يرث زوجته كما يلى :

(١) إن ورث الزوج زوجته وليس لها ولد منه أو من غيره فله نصف تركتها .

(٢) وإن ورثها ولها ولد منه أو من غيرها فله الربع .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ .

والزوجة ترث زوجها كالاتى :

(١) إن لم يكن للزوج ولد منها أو من غيرها فلها الربع .

(٢) وإن كان له ولد منها أو من غيرها فلها الثمن ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ ﴾ .

(٨٠)

ومن المهم العلم بأن الولد في ميراث الزوجين يطلق على الذكر والأنثى وبلا فرق بين الولد وولد الوالد ، وولد البنت ... وهكذا .

والكلالة هم أقرباء الميت من غير أصوله وفروعه وأصهاره ، فليسوا أبناء ، أو آباء ، أو أزواج ، أو زوجات ، وإنما المراد بهم أقرباء الميت من غير أصوله وفروعه .

سئل أبو بكر رضي الله عنه عن الكلالة فقال : الكلالة ما خلا الوالد والولد . فلما استخلف عمر رضي الله عنه سئل عن الكلالة قال : إني لأستحي من الله أن أرد شيئاً^(١) .

والكلالة اسم للميت الذي لا أصل له ولا فرع .

وقال البعض : هم أقرباء الميت الذين يرثونه من غير أصوله وفروعه وهو رأى الجمهور . يقول جابر رضي الله عنه : إنما يرثني كلالة .

وقيل : الكلالة اسم للوارث ، والخلاف لفظي لأن المؤدى واحد في النهاية ، فهذا يرث بالكلالة ، وذلك يورث بالكلالة .

وتشمل الكلالة الأخوة ، والأخوات لأم وأب ، أو لأب فقط ، أو لأم فقط والأعمام ، وأبناءهم ... وهكذا .

وميراث الإخوة لأب وأم ، أو لأب فقط يختلف عن ميراث الأخوة لأم ، وقد تحدثت الآية هنا عن الإخوة لأم ، ونصيبهم من التركة ، وهم الكلالة كالتالي :

(١) يتساوى الذكور والإناث منهم في الميراث ، ولكل منهما السدس .

(٢) إن كثر عدد الأخوة لأم عن اثنين فإنهم جميعاً يشتركون في الثلث بالتساوى ذكورا وإناثاً .

وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ

أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾ .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٤٩٢ .

﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ ذلك هو الشرط الدائم في توزيع التركة ليأتى التوزيع بعد سداد الدين ، وتوزيع الوصية .

﴿ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ أى من غير ضرر يلحقه الميت بورثته بأن يجعل الوصية أكثر من الثلث ، أو يوصى بدين ليس عليه ، أو يقر بمال لم يلزمه .

﴿ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى توزيع التركة على النحو المحدد فريضة الله التى أوصى بها المكلفين .

ومن رحمة الله بعبده أن حدد توزيع التركة بهذه الدقة الواضحة ، وحث على الالتزام بها فجعلها وصيته المفروضة على المسلمين . فبدأت الآية الأولى بقوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ﴾ وانتهت الآية الثانية بقوله تعالى : ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ وبين خلال الآيتين أن الله عليم حكيم .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ وهو سبحانه وفق علمه المحيط يضع كل شئ في موضعه فيقدر ما يشاء لمن يشاء ، وهو سبحانه العليم بأعمال عباده فمن أطاع فاز ونجا ، ومن عصى خاب وخسر .

وختمت الآية بـ ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لبيان أن الله يمهل عباده ليقربوا منه ، ويطيعه من عصاه ، وبيتعدوا عن أغواء الشيطان فيصفح عنهم مع القدرة على معاقبتهم ، ويسامحهم في جهلهم وعصيانهم .

- ٦ -

معنى الآيتين

الآيتان تتناولان توزيع التركة بين الآباء والأبناء ، وبين الأزواج والزوجات ، ومع الكلالة من قبل الأم فقط من التنبيه على أن هذا فرض قدره الله وأمر به ، وسيحاسب الناس على طاعته ومعصيته .

(٨٢)

- ٧ -

ركائز الدعوة في الآيتين

حين نتدبر في الآيتين ، ونعيش مع أنصباء الورثة نخرج بركيذتين :

الركيزة الأولى

عدل الله تعالى في التقدير

لم يقبل بعض الناس مقادير الإرث وأبوا طاعة الله تعالى ، ورأوا أن تورث الصغير ، والمرأة ، وتساويها مع الرجال ، والكبار عمل غير سديد ... كما اعترض البعض على عدم مساواة المرأة بالرجل في الميراث ، وحين ننظر في هذا الاعتراض نجد عدم جدواه ، لأن الصغير يكبر ، ويصير سويًا ويعيش كغيره من الكبار ، وحاجته حاجتهم ، ووظيفته وظيفتهم . كما أن الرجل يلتزم بمهام اجتماعية ومالية تجعله ينفق الكثير من ماله على نفسه وغيره ، الأمر الذي يجعله في حاجة إلى المال أكثر من الأنثى .

الركيزة الثانية

مراعاة الإرث للفطرة البشرية

يراعى الميراث الإسلامى الفطرة البشرية .

فهو يراعى التكافل العائلى فيقدم الأقرب فالأقرب إذ يبدأ بالأبناء الأحب إلى قلب الأب ، وبعدهما جاء الحديث عن الوالدين ثم الأخوة ، ثم أصحاب الفروض ثم العصبية ثم ذوى الأرحام .

يراعى الميراث مبدأ الوحدة في الأصل الإنسانى فيورث الأم ، والأب ، والإخوة ، والأخوات ، والذكور ، والبنات من الأبناء .

ويراعى ربط الأصول بالفروع ، ويديم المال في مجراه الطبيعى وينقله من الآباء إلى الأبناء .

ويراعى القرابة والأسرة فيورث الكلالة بعمومها .

(٨٣)

وهو نظام يفتت الثروة ، ولا يدعها في يد واحدة ، وبذلك يستفيد المجتمع ، ويستفيد الأفراد .

ملاحظة أخيرة :

وضحت السنة النبوية ، وفصل الفقهاء مسائل الميراث والحجب الكلى ، أو الجزئى ، والتعصيب بالنفس أو بالغير ، أو مع الغير ، وقد آثرت ترك هذه المسائل للفقهاء ، وهى مفصلة في كتبهم .

ضرورة تطبيق أحكام الميراث

يقول الله تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

بعد أن وضحت الآيات السابقة تفاصيل أنصبة الميراث جاءت هاتان الآيتان لبيان ضرورة الالتزام بتطبيق الأنصبة المحددة في آيات الميراث لأنها حدود الله تعالى ، وتعاليمه .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تتناول الآيتان التحذير من التعدى على حدود الله ، وإهمال فرائضه التى قدرها في الميراث ، وصيانة حقوق اليتامى والنساء ، وتوضح أن كلا إنسان سيحاسب على ما يفعله في هذه القضايا طاعة أو معصية .

(٨٤)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ "تلك" إشارة إلى الأحكام السابقة في النكاح ، وأموال اليتامى ، والمواريث . والمعنى أن هذه الأحكام شريعة الله ، وفريضة للناس لا يصح تجاوزها أو تغييرها فقد حددها الله تعالى ، وبينها ، ولم يتركها لاجتهاد الناس .

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى أن من يطع الله ورسوله في الالتزام بأحكامه سبحانه وتعالى يشبهه الله على طاعته تلك جنات تجري من تحتها الأنهار ، يقيمون فيها باستمرار لا انقطاع فيه .

﴿ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وهذا الجزاء الحسن عظيم مقداره وقدره فهو في الدار الآخرة حيث المتع الدائمة ، والنعيم المقيم .

﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ﴾ وفى مقابل الفائزين بالطاعة يوجد عصاة لحدود الله لا يقومون بها ، ولا يلتزمون بحدودها ، ويتهاونون فى أداء فرائض الله تعالى .

﴿ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أى وجزاء من يعصى الله تعالى ، ولا يطبق فرائضه ، ولا يقيم حدوده دخول جهنم بنارها وحرها ، ويخلد فيها وسط عذاب شديد ومهين .

وانما يخلد العصاة في النار لأنهم لم يرضوا بحكم الله ، ورضوا بما عداه وتعمدوا تحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، وهذا يؤدى بهم إلى الكفر ويخلدهم في نار جهنم وبئس المصير .

(٨٥)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الأحكام الواردة في سورة "النساء" هي حدود الله وفروضة أنزلها سبحانه وتعالى ليلتزم بها المسلمون فمن أطاع فاز ونجا ، ومن عصى خاب وخسر .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

توضح الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

جزاء الله موافق للعمل

حدد الله حدوده ، ووضح شريعته ، وحث على الطاعة والالتزام ، ويبدو أن هناك في الناس من يغره عقله ، ويتعالى على طاعة الله ، ولا يرضى بحكمه ، هؤلاء الناس يتعدون على حدود الله المعلومة ، ويتجاوزونها إلى المعاصي والمخالفة .

وهنا تأتي الآيتان لبيان أن الله تعالى عليم بفعل عباده . فمن أطاع حدوده وطبق شريعته سيسعد في الآخرة بالجزاء الذي أعده الله له حيث الجنات بكثرتها ، وسعتها ، وجمالها ، ولونها ، وجريان الماء تحتها ، وفيها ما فيها من متاع ونعيم .

وأما العصاة الذين يخالفون أمر الله ، ويعصون شريعته ، ويتعمدون المعصية ، واستبدال السوء بالخير ، هؤلاء لهم عذاب أليم ، ونار مستعرة يخلدون فيها ، تهيئهم ، وتبين حقارتهم ، وضآلتهم .

الركيزة الثانية

الترغيب والترهيب

تشير الآيتان إلى المصير الحتمى الذى ينتظره الناس ، وينبنى هذا المصير على ما يقوم به الإنسان في الدنيا ، فهو إن أطاع الله ، والتزم حدوده ، وسلك سبيله يدخله الله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وهو إن عصى الله تعالى ، وخالف تعاليم رسوله ﷺ يدخله نار جهنم ، تحرقه ، وتؤلمه ، وتهينه .

وقد جاء هذا الترغيب والترهيب عقب آيات الميراث لينتبه الناس ، ويوزعوا تركة موتاهم وفق حكم الله تعالى ، وعلى نمطها تكون تعاليم الدين كله .

والترغيب والترهيب باب واسع في فن الدعوة إلى الله ، والعلماء والدعاة يجعلونه وسيلتهم في دعوة الناس لأن الإنسان يحب ذاته ، ويتمنى النجاة والفوز في الدنيا والآخرة ... ويخاف الخسران في الدنيا والآخرة .

إن الدعوة وهم يقدمون الإسلام للناس يوضحون مزاياه الذاتية ، ومدى تحقيقه للمصالح الإنسانية ، ويعرفونهم بما فيه من مزايا وفوائد مقارنة بغيره من المذاهب والأديان ... وتلك كلها مرغبات تجمل الطلب ، وتحبب الناس في الإيمان ... والدعاة مسئولون عن تحبيب المدعوين في الإيمان ، وتقديمه لهم جميلا مزيئا .

ويمكن للدعاة أيضا بيان مضار الفساد ، وأثر المعاصى ، وعواقب مخالفة الله على النفس والذرية والمجتمع كله ، وذلك من الترهيب .

وأوضح الطرق لهذا الفن هو تتبع أساليب الرسل في القرآن الكريم والافتداء

بها .

عقوبة المرأة إذا أتت بفاحشة

يقول الله تعالى :

﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً
مِّنكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ
اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حقوق المرأة ، وامرت بضرورة المحافظة عليه
جاءت هذه الآية تبين عقوبة المرأة إذا ارتكبت جريمة الزنا ، وقد تغير هذا الحكم
بنزول آيات الحدود في سورة "النور" ، وفيها ثبت حكم الله تعالى الثابت في الزناة .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية عقوبة المرأة إذا ثبت ارتكابها الفاحشة بشهادة أربعة شهود من
الرجال ، وكان هذا الحكم بعد الهجرة إلى أن استبدل به أحكام آيات سورة
"النور" .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَالَّتِي ۝﴾ اسم موصول مفردة "التي" وصلته تعرف به ، وهي
﴿يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ ۝﴾ والفاحشة هي كل فعل قبيح سئ في
العقل والشرع يصاحبه الإنكار حين ذكره وتصوره ، ويستقبحه كل من يسمعه أو
يتكلم عنه ... وهو مخصوص بشهوة الفرج الحرام ... ولذلك أجمع العلماء على
أن المراد بالفاحشة هنا الزنا لما فيه من قبح وعدوان .

وعبرت الآية بقوله تعالى : ﴿ مِنْ نِسَائِكُمْ ﴾ لبيان أن الحكم يعم جميع نساء المسلمين بلا فرق .

﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ ﴾ والآية خطاب للأولياء ، والأزواج والآباء . والمعنى اطلبوا أربعة شهداء من بينكم يتصفون بالعدالة والذكورة ، وأن يكونوا من المسلمين يشهدون بأنهم رأوا عملية الزنا ، وأنهم شاهدوها بوضوح .
﴿ فَإِنْ شَهِدُوا ﴾ أى شهد الأربعة بوقوع الزنا على الوجه المعتد به .

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ ﴾ أى احبسوهن في البيوت عقب الشهادة ، ويستمر حبسهن حتى يأتى أجلهن ، ويتوفاهن ملك الموت فيخرجن للقبر ، والدار الآخرة .

﴿ أَوْ تَجْعَلِ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ يعنى أن عقوبة الحبس تستمر إلى الموت إلا إذا نزل من الله حكم آخر يسلكونه ، ويطبق عليهن .

وفى هذه الكلمات إشارة إلى إمكانية أن يستبدل الله بهذا الحكم حكما آخر فقد قضى الله به لمدة يأتى بعدها حكم آخر ، وهو السبيل الذى سيجعله الله تعالى وقد حدث فنزلت الآيات في سورة "النور" بالحكم الجديد ، وهو قوله تعالى :
﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

روى أن النبى ﷺ لما نزلت الآية قال : "خذوا عني ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلا . البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب والرجم" (١) .

(١) معرفة السنن والآثار . كتاب النكاح . باب الحكمين في الشقاق ج ١٢ ص ١٣١ .

(٨٩)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية العقوبة التي أمر الله بها أولا للمرأة إذا زنت وهي حبسها في البيت لا تخرج منه بعد ثبوت الزنا بأربعة رجال مسلمين ، عدول ، يشهدون بارتكابها هذه الفعلة الشنيعة ، وبينت الآية أن المرأة التي زنت تبقى حبيسة البيت إلى أن ينزل الله لها حكما آخر أشار إليه سبحانه وتعالى في الآية ... وقد نزل ...

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... وهي :

الحبس للمرأة الزانية دون الرجل

قد يتعجب إنسان من تشريع عقوبة الحبس للمرأة الزانية ، وتحديد عقوبة أخرى للرجل الذي زنى بها ... لأن ثبوت الزنا يلحق بالطرفين والعقل يرى ضرورة تساويها في العقوبة .
والآية التالية تتحدث عن عقوبة الرجل وتحصره في الأذى القولي أو العملي ... وليس فيه الحبس .

وحين نتأمل في حكمة التشريع ندرك بعض أسرار هذا التباين في الحكم .
إن المرأة هي الداعية إلى الزنى ، ولو تعففت ، وتطهرت ، والتزمت الخلق الكريم في خلقها ، وملبسها ، وحركتها فسيهابها الرجال ، ويبتعدون عنها وقد جعل الله عقوبتها حبسها في بيتها ، وبذلك تتزوى بعيدا عن الرجال ، وتبقى العفيفات حرائر في الحركة والخروج .
وأیضا فإن حبس الرجل يضر به وبغيره لأنه يخرج للعمل والسعى ، والأسرة محتاجة إليه للنفقة والمعاش .

(٩٠)

وايذاؤه أمام الناس مؤلم ومهين ... وقد تغير الحكم بالجلد والرجم كما هو ثابت .

والتدرج في عقوبة الزنى منهج اتبعه الإسلام لتربية المجتمع على الطهارة ، فلقد جاء الإسلام ، وصور التقاء المرأة بالرجل عديدة أغلبها قائم على الفواحش التي حرمها الإسلام ، ولذلك كان التغيير على مراحل هو المنهج التربوي المفيد للأفراد والجماعات .

لقد ابتدأ الإسلام بتحديد التعدد ، وشرع صورة النكاح المشروع ، وحرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتدرج في العقوبة على النحو المذكور ... أملا في الإصلاح العام للأفراد والجماعات .

وقد شدد الله في إثبات عقوبة الزنى فجعل شهوده أربعة رجال ، عدول ثقات ، يشهدون أنهم رأوا عملية الزنى رأى العين ، ولا يكفى منهم علمهم بالزنى ، أو برؤية الرجل والمرأة معا ... وذلك لأن الزنى جريمة خطيرة فلا بد من إثباتها بصورة واضحة لا تحتمل تفسيراً ولا تأويلاً ، وشدد الله العقوبة نفسها لتكون زاجرة عنها .

إن المجتمعات التي فرطت في أعراض نسائها ، وأباحت له حرية اللذة والمتاع تفككت روابطها الاجتماعية ، وضعفت قرابة الأسرة ، ونسيت أخلاق الشرف والطهارة ، وضاعت كثير من القيم الإنسانية النبيلة .

عقوبة مرتكب الفاحشة من الرجال

يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا^١ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا^٢ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٠﴾ ۝

- ١ -

صلة الآية ما قبلها

لما بينت الآية السابقة حكم ارتكاب المرأة للفاحشة جاءت هذه الآية لتبين حكم ارتكاب الرجل للفاحشة .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية حكم ارتكاب الرجال للفاحشة وتحضهم على التوبة فإن تابوا وأصلحوا يكون تركهم ، والتعاون معهم ، وعسى أن يتوب الله عليهم ، وبرحمه بفضله سبحانه وتعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ ﴾ "والذان" مثنى الذى جاء عطفًا على اللاتى مثنى التى الذى جاءت في الآية السابقة .

والفاحشة المقصودة تكون من رجل وامرأة ، ولذلك ثنى الله تعالى "اللتان" و "الذان" وجعل كل آية لجنس معين حيث خصت الآية السابقة فاحشة النساء ... وجاءت هذه الآية تخص فاحشة الرجال .

وتكلمت الآية عن الضمير ﴿ يَأْتِيَنِهَا ﴾ العائد على الفاحشة لشناعة ذكرها وانكار مسماها .

وقد وضحت الآية الأولى عقوبة النسوة مرتكبات الفاحشة ، وبينت أنه الحبس في البيت ، وعدم الخروج منه إلا إلى القبر عند موتهن ، أو إلى ينزل حكم جديد لهن يبعدهن عن الحبس .

أما هذه الآية فتحدد عقوبة الرجل إذا أتى الفاحشة وتبين العقوبة التي يستحقها وهي :

﴿ فَأَذُوهُمَا ﴾ أى ألحقوا بهم ألما يسئ إليهم قولاً أو عملاً ، وذلك بشتهم وتوبيخهم ، أو تعييرهم ، أو ضربهم بالحذاء ، أو طردهم من مجالس الكرام .

﴿ فَإِنْ تَابَا ﴾ أى رجعا عن الفاحشة وعزما على عدم العودة إليها .

﴿ وَأَصْلَحَا ﴾ أى واستقاما وبعدا عن هذه الفاحشة ، وذكر الصلاح بعد التوبة دليل على أهمية العمل مع التوبة ، لأن النفس إذا انحرفت لا يصلحها إلا العمل المصاحب للنية والعزم ، والشهوة تجر غيرها ولا يوقفها إلا الرجوع إلى الله والصلاح والاستقامة .

﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ فاتركوهما وشأنهما ولا تعودوا بهما للماضى فقد

تابا وأصلحا ، ولذلك لا يجوز معايرتها ، ولا شتمهما بما فعلا بعد صلاحهما .

وما المراد بالتنبيه في قوله تعالى : ﴿ تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾ ؟

قيل المراد به طرفا الفعل الفاحش من الرجال اللاتطين ، والزناة من الرجال مع النسوة ، وقد حددت الآية السابقة طريقة إيذاء النساء خاصة ، وجاءت السنة العملية والقولية تبين طرق إيذاء الرجال قبل انتقال الرجال والنساء إلى الحكم الوارد في آيات سورة "النور" .

والإعراض عنهما يعنى الكف عن إيذائهما ، ونسيان ما مضى .

(٩٣)

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ وهذا بيان بان الله تعالى يقبل توبة من يتوب ويصلح ، وعلى المسلمين أن يتعاملوا معهما بإحسان فقد قبل الله توبتهما ، ورحمهما ، وليس للإنسان اعتراض على حكم الله ، وعليه المسارعة في امتثال خلق الإسلام الذي أمر الله به .

وتوسعة لباب التوبة جاءت الجملة الأخيرة مؤكدة بـ ﴿ إِنَّ ﴾ واسمية الجملة ، وابرار الاسم الجليل ﴿ اللَّهُ ﴾ وصيغة المبالغة في صفتي تواب ، ورحيم ، ليتيقن الجميع من سعة رحمة الله ، ويسارعوا إلى التوبة والصلاح .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الرجال إذا ارتكبوا الفاحشة من زنا أو لواط فقد استحقوا الإيذاء بالقول والفعل ، فإن تابوا واصحلوا فإن الله يتوب عليهم فهو سبحانه تواب رحيم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

تساوى عقوبة الرجال والنساء

قد يتصور البعض أن عقوبة المرأة أسهل وأيسر من عقوبة الرجل لأن المرأة تحبس حتى تموت ، أما الرجل فإنه يؤدي بضرب النعال ، والشتم ، والتعيير حتى يتوب .

وليس الأمر على هذا التصور ... لأن شتم الرجل على ملا من الناس وضربه بالنعال أمامهم مهين لرجولته ، مسئ لكرامته ، يجلب له الصغار ، ويذله بين معارفه ، والمقيمين معه .

إنها عقوبة يعزله اجتماعيا ، وتقطعه عن الناس ... ولذلك جعل الله نهايتها التوبة فإن تاب واستقام قبل الله توبته ، وحسن أمره بين الناس .
إنها عقوبة شديدة شرعها الله ابتداء ، وغايرها عن عقوبة المرأة لتناسب كل عقوبة من ستقع عليه .

إن العقوبتين وإن اختلفتا صورة إلا أنهما يتساويان أثرا ونتيجة ، ولكل إنسان طبيعة خاصة ، ولذلك جعل الله العقوبة ملائمة لمرتكب الجريمة .
وتساوى العقوبة عند تساوى الجريمة في التأثير أولى من تساويها في الكيف والصورة ، وقد أنزل الله حكم الزناة والزانيان وجعله حدا موحدا في سورة "النور" ليتحقق التساوى كما وكيفا .

الركيزة الثانية

نشر خلق التسامح الإيجابى بين المسلمين

تدعو الآية المسلمين إلى مساعدة مرتكبى الفاحشة إن تابوا واعرضوا عن جريمتهم ، وعادوا إلى الله ، لأن الله يقبل توبتهم ويعفو عنهم .
إنه تسامح يتم بعد إنزال العقوبة ، وطهارة الجناة من جرمهم ، وبذلك ينال كل ذى حق حقه ، وتسود روح التعاون والتناصر بين الناس ، ويحس كل فرد بأنه شريك في هذا المجتمع الذى يعيش فيه .
قد يخطئ الإنسان ، وكل بنى آدم خطأ فإذا عوقب وتاب زالت خطيئته واستحق أن يعيش وسط الناس فهو واحد منهم له ما لهم ، وعليه ما عليهم .

التوبة المقبولة عند الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة ان الله يتوب على من ارتكب الفاحشة إن تاب واصلح جاءت هذه الآية لتوضيح التوبة المقبولة من الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآية

تتحدث الآية عن التوبة التي يقبلها الله وهي التي يقع صاحبها في بعض المعاصي بسبب سفه ، أو ضعف ، أو عدم علم ، ويتوب بعدها فهذه التوبة يقبلها الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى أن التوبة تكون مقبولة عند الله كما قضى

وقدر في حالات معينة ، وصدرت الآية بـ ﴿ إِنَّمَا ﴾ الدالة على انحصار قبول

الله للتوبة في الحالات التي بينتها الآية .

والتوبة تعنى الاعتراف بالذنب ، والندم على فعله ، والعزم القوى على عدم الرجوع إليه ، وهي أعلى درجات الاعتذار لاشتغالها على الاعتراف ، وطلب المغفرة .

وقبول التوبة من الله تعالى تكون إذا وقعت مرات قليلة ، ولذلك جاء ﴿السُّوءَ﴾ مفردا ، وأن لا يكون متعمدا مستهترا في معاصيه بأن تعتريه لحظة ضعف ، أو سفه ، أو شهوة جامحة ، وأن لا يتمادى في المعاصي ، ويرجع بعد الخطأ كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ جَهَنَّمُ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ .

فالسوء هو العمل ، أو القول الذى يسئ لصاحبه ، ويجعله موطن الأذى والمراد بالجهالة إما الضعف ، أو السفة ، أو عدم العلم ، فتلك حالات توقعه في الخطأ ، وكأنه لا يعرف الحكم . والتوبة القريبة هى التى تقع عقب المعصية ، وقيل هى التى تقع قبيل مرض الموت فهو قريب وان بعد ، لأن كل آت قريب .

﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ اسم الإشارة يعود لهؤلاء التائبين عن قرب بلا تسويف ، ولا مماطلة ، فهؤلاء يتوب الله عليهم ، بأن يهديهم ويصلح بالهم ، ويوفقهم للخير ، وينصرهم ويعرفهم بالجنة ويقدرها لهم .

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى أنه سبحانه وتعالى كان وما زال وسيستمر إلى الأبد عليما بالنفوس وحركاتها ، وما يشينها ، وما يشقيها ، ويعلم سبحانه أن قبول توبتها خير علاج لها ، وهو سبحانه الحكيم الذى يكون قدره مع مشيئته وفق مصلحة الدين والناس .

عن عبد الله ابن عمرو العاصي أن رسول الله ﷺ قال : "من تاب قبل موته عاما تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بشهر تيب عليه حتى قال : يوما ... حتى قال : ساعة ... حتى قال : فوفا ...

فقال له الرجل : أرايت إن كان مشركا أسلم ؟

قال ابن عمرو : إنما أحدثكم كما سمعت من رسول الله ﷺ (١) .

(١) غاية المقصد في زوائد المسند - كتاب التوبة . باب متى تقبل التوبة ج ٢ ص ٢٧٢٤ .

(٩٧)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية ان الله تعالى أوجب على نفسه سبحانه وتعالى قبول توبة العبد إذا أقر بذنبه ، ورجع عنه ، وعاد إلى الله تعالى قبل أن يأتيه أجله مقرا بذنبه نادما عليه ، عازما على عدم الرجوع إليه ، وهذا القبول الإلهي لتوبة العصاة يتضمن الهداية ، والتوفيق ، والنصرة ، والسعادة الدائمة في الدنيا والآخرة ، وهو سبحانه العليم الحكيم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

ضرورة الأمل الدائم

في رحمة الله تعالى

كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ... هذه هي الحقيقة الفطرية في الناس ، وقد فتح الله باب التوبة ، وجعله طريقا لباب الأمل ، وعدم اليأس ليستمر الخير في الحياة ، ولا يتوقف الإنسان إن انتابه شيطان ، ووقع في معصية .

إن رحمة اله واسعة ، ومن رحمته أن فتح باب الغفران لمن يلجه ، ودعا المسلمين إلى عدم اليأس ، وترك القنوط فقال سبحانه : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾^(١) .

إن الله بعلمه وحكمته يعلم طاقات عباده ، ويقدرها ، ويحاول إشباعها بطرق مشروعة ... فإن حاد إنسان عن طريق المشروعية فإنه ينبهه ، ويدعوه إليه ، ويفرح بعودته إلى الصراط المستقيم .

(١) سورة الزمر ، الآية ٥٣ .

إن الله لا يعاند عباده الضعفاء ، ولكنه يعفو عنهم ، ويسامحهم لاصلاح أمورهم ، واصلاح المجتمع كله .

في وسط الجماعة المسلمة يقع المسلمون في أخطاء ، ويرتكبون كثيرا من المعاصي إلا أنه سبحانه يناديهم ليقبلوا عما وقعوا فيه ، ولا يتركهم يتمادون ويغرقون ، ويضيعون ، حتى لا تضيع معهم القيم ، وتسقط الجماعة في عالم اللهو والعبث .

إن طاقات الإنسان تنطلق وأمامها طريقان :

طريق الله : يدعوا إلى الطاعة ، والاستقامة ، والعمل للآخرة ، وينادى بالخروج من ظلمات الشهوة المادية إلى نور الحرية والعدل والدين .

وطريق الشيطان : وفيه يزين الشيطان المعاصي ، وينادى بارتكابها ، ويهون فعلها ، ويدعو إلى اللذة السريعة ، والمتعة العاجلة ... أما الآخرة فهو برئ منها لأنه على يقين من خسارته فيها .

وعلى الدعاة :

إن يوضحوا للناس هذه الحقائق ، ويرشدوهم إلى التوبة ، وينادوهم بالنقطة في عفو الله ورحمته .

وعلى الله فليتكلم المتوكلون .

التوبة التي لا تقبل

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة التوبة المقبولة عند الله تعالى جاءت هذه الآية لتبين التوبة التي لا يقبلها الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآية

يدور موضوع الآية حول صنفين من الناس لا يقبل الله توبتهما :
أولهما : الذى يعلن توبته عند حضور الموت .
وثانيهما : الذين يموتون على الكفر ولا يتوبون فلهذين الصنفين عذاب أليم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ ﴾ هذا نفى للتوبة أصلاً والمراد أن الله لا ينظر إليها ولا يقبلها ، فكأنها لم تكن ، ولذلك جاء نفيها بـ "ليست" ، ولئن كان سبحانه وتعالى في الآية السابقة أوجب على نفسه قبول توبة الذى تحدثت عنهم الآية السابقة فإنه سبحانه في هذه الآية ينفى التوبة عن الذين تكلمت عنهم الآية ... وهم صنفان :

الصف الأول : ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ

أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكَفَّارَ ﴾ هذا هو الصف الأول الذى لا تقبل

توبته ، وهو متصف بعدة صفات ... أهمها :

- ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ فهو مكثّر في المعاصي مستغرق في

البعد عن الله تعالى ، فعلهم مستمر ، وسيئاتهم عديدة زين لهم الشيطان أعمالهم ، فأصمهم ، وأعمى أبصارهم ، وذلك مستفاد من المضارع

﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ ومن الجمع ﴿ السَّيِّئَاتِ ﴾ .

يدعى هذا الصف انهم على الحق ، ويغترون بسلطانهم ، وجاههم ... وما دروا أن ما هم فيه هو عطاء الله فيهم ابتلاء واختبار .

- إن هذا الصف مستمر في المعاصي ، يتمتع بالفحشاء والمنكر يعيش مع شهوته ، ومتع الدنيا بلا بحث عن حلال أو حرام ... إنه مستمر حتى يأتيه أجله ، ويهل عليه ملك يموت ، ولا يتذكر التوبة إلا في هذا الوقت .

- ﴿ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكَفَّارَ ﴾ يعلن أهل

هذا الصف توبتهم عند حضور ملك الموت ، وعند تحقق الموت .

الصف الثانى : ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ ويتصف هذا

الفريق بكفره بالله ، وعدم إيمانه بالإسلام ، ولا توبة له أصلا ، لأنه كافر لا يؤمن بأركان الدين وحقائقه .

والفرق بين الصنفين أن الصف الأول مسلم يعيش في المعاصي ويستمرئها

ولا يقلع عنها ، وهو يعلم أنها منهى عنها . والصف الثانى كافر بالإسلام لا صلة له به .

(١٠١)

﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ "أولئك" إشارة للصنفين اللذين

لا يقبل الله لهم توبة ، والإشارة تدل على هوانهم ، وبعدهم عن الصواب .
وقد هيا الله لهم عذابا متنوعا شديد الألم والإيذاء يستحقونه بفعلهم إلا أن
الصنف الأول يخرج من النار عد انتهاء عقوبته والكافر مخلد في النار .
وتبين الآية أن الله أعد لمن لا تقبل توبته نارا مسعرة يعذبون فيها .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تشير الآية إلى ركيزة هامة ... هي :

أهمية التوبة والخوف

من الله تعالى

الدنيا قصيرة العمر مهما امتدت ، ولا قيمة لها بجوار الآخرة . يقول الله
تعالى : ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ
الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١) ، ولذلك أوجب الله على الإنسان أن يتوب

عن معاصيه في الدنيا حتى لا يأتيه الموت وهو موغل في معاصيها .
إن الإنسان يوم يموت لا يأخذ معه إلا ما قدمت يداه ، ولن يحاسب إلا به .
وقد عرفنا الله طريق محو الذنوب وهو التوبة والاقلاع عنها ... فلم
التسوية ؟ ولم التوغل في المعاصي ؟ ... ولم نسيان الآخرة ؟ ...

إن الله حليم بعباده ، يدعوهم ، ويبين لهم ، ويحذرهم من المعاصي والهوى
... ويوضح لهم النهاية المحتمة ويؤكد أنه سبحانه : ﴿عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^(٢) .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٦٤ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٣ .

ألا ...

فليعلم الإنسان انه راجع إلى الله تعالى ، وسينال جزاء عمله بعدل ، وعليه أن يعد نفسه ليوم أكد الله تعالى أنه يوم : ﴿ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾^(١) في هذا اليوم يرى الإنسان دنياه أمامه ماثلة ، ويشاهد عمله مصورا في وقت لا يقدر على تغيير شئ فيه . يقول الله تعالى عن هذا اليوم : ﴿ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَبًّا ﴾^(٢) . ويقول سبحانه أيضا عن هذا اليوم : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٩٠﴾ وَتُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٩١﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٩٢﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٩٣﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٩٤﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٩٥﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٩٦﴾ ﴾^(٣) .

في هذا اليوم ينال كل إنسان جزاء عمله بدقة يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٩٧﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٩٨﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(٤) .

على الإنسان أن يسارع إلى التوبة ، ويخاف الله وعذابه ، وليأخذ درسا من الماضي ، ولا يكون مثل فرعون ، فلقد بقى على ضلاله حتى الموت وشاهد الغرق فقال ما حكاه الله عنه : ﴿ * وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمُ

(١) سورة الشعراء ، الآية ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) سورة النبأ ، الآية ٤٠ .

(٣) سورة النازعات ، الآيات ٣٥ . ٤١ .

(٤) سورة الزلزلة ، الآيات ٦ . ٨ .

(١٠٣)

فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ ۖ بَنُوا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١﴾ فرد الله توبته ، ولم يقبلها ورد عليه بقوله تعالى : ﴿ ءَالْعَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ۖ فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٢﴾ .
ألا ...

فلينتبه الغافلون ، فإن وعد الله حق ... وان ريك لبالمرصاد .

تكريم الإسلام للمرأة

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا سَحْلٌ لَّكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآءَاتِيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ۖ .

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت في أهل المدينة ، وذلك أنهم كانوا قبل الإسلام ، وفي أول الإسلام إذا مات الرجل ، وخلف امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من ذوي عصبته ،

(١) سورة يونس ، الآية ٩٠ .

(٢) سورة يونس ، الآية ٩١ ، ٩٢ .

(١٠٤)

فألقي ثوبه على تلك المرأة ، أو على خبائها فصار أحق بها من نفسها ومن غيره
فإن شاء تزوجها بغير صداق ، وإن شاء زوجها غيره وأخذ هو صداقها .
وإن شاء عضلها ومنعها من الأزواج يضرها بذلك لتفتدي منه بما ورثت
من الميت .

أو تموت هي فيرثها .
فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقي عليها ولي زوجها ثوبه كانت أحق
بنفسها .

وكانوا على ذلك حتى توفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري وترك امرأته
كبيشة بنت معن الأنصارية فقام ابن له من غيرها يقال له قيس بن أبي قيس
فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ، ثم تركها فلم ينفق عليها ، يضارها بذلك
لتفتدي منه .

فأتت كبيشة رسول الله ﷺ فقالت له : يا رسول الله إن أبا قيس توفي ،
وورث نكاحي ابنه فلا هو ينفق علي ، ولا هو يدخل بي ، ولا يخلي سبيلي .
فقال : أقعدي في بيتك حتى يأتي أمر الله فيك فأنزل الله عز وجل الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حاجة الإنسان للتوبة لينال رضا الله تعالى جاءت
هذه الآية لتبين للإنسان سبيلا مهما ينال به رضوان الله تعالى ، ويحقق تكريم
الله للنساء والزوجات .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أنه لا يصح من الرجل المؤمن الذي يطيع الله ، ويتبع منهجه أن
يرث المرأة ، ونكاحها من غير رضاها ، ولا يصح منه أن يمنع زواجها من غيره

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٤٩٨ .

ويوقف تزويجها على أخذه مهرها الذى أعطائها إياه ، أو المطلوب منه ولا يحق له أن يحتال لأخذ مالها ما لم تأت بسبب يجعله مستحقا لاسترجاع ما أخذته منه ... وعلى المسلم أن يعاشر زوجته بالمعروف والإحسان .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ في الآية نداء للقريب مصاحب لحرف التثنية

"ها" لبيان أهمية النداء وضرورته .

والمنادى هم ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فقد صبغهم الإيمان ، وصار سمة لهم يعرفون به ، وناداهم الله بوصف الإيمان حثا لهم على الطاعة ، وبيانا لديدنهم الذى يلزمونه وهو طاعة من آمنوا به وهو الله تعالى .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ وهذا هو المنادى به يوجهه الله

إلى الأزواج نهيا لهم على إرث ذات المرأة ، أو إرث نكاحها ، أو إرث ما لها بغير رضاها ، كما كان يحدث قبل الإسلام كما جاء في سبب نزول الآية .

وهو نهى متعلق بما كان قبل الإسلام ، ومستمر مع أحكام الإسلام على الزمن كله لتحقيق حرية المرأة ، وضرورة الارتفاع بها إلى كرامة الإنسان ، وعزته ، واعطائها الحق في اختيار من تعاشره ، بكرا أو ثيبا ، مطلقة أو مات عنها زوجها ، ومع ضمان حقها في مالها .

وقد أحل الله للمرأة حقها ، وحرّم على الرجل التعدى عليها ، ونادى في المؤمنين أن الله لن يحلّ لهم إكراه المرأة على زواج ، أو مال ، فهي حرة لها ما للرجل من حقوق .

إن الله رفع شأن المرأة في النكاح ، وفى الحياة العامة ، وأعطائها حريتها في الاختيار ، والحركة عملا ، وقولا ، وتطبيقا .

(١٠٦)

جاءت فتاة إلى النبي ﷺ وقالت له : يا رسول الله إن أبى . ونعم الأب هو . زوجنى من ابن أخيه ليرفع من خسيسته ... فجعل الرسول ﷺ الأمر إليها ... فقالت له بعد ذلك : يا رسول الله فإنى قد أجزت ما صنع أبى ، ولكنى أردت أن تعلم النساء أن ليس لآبائهن من أمورهن شئ^(١) .

ويقول عمر رضي الله عنه : والله إنا كنا قبل الإسلام ما نعد المرأة شيئاً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينما أنا في أمر أأتمره إذ قالت لى زوجتى : لو صنعت كذا ... وكذا .

فقلت لها : ومالك أنت ولما هنا ! وفيم تكلفك في أمر أريده ؟
فقالت لى : عجباً لك يا ابن الخطاب . ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبانا .

فقام عمر ، فأخذ راءه حتى ذهب إلى حفصة وقال لها : يا بنية، هل تراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبانا ؟
فالت حفصة : والله إنا لنراجعه^(٢) .

ولهذا ... وغيره حرم الله أن يرث الزوج المرأة نكاحاً ، أو مالا ، أو مصيراً
﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآءِ اتَّيْتُمُوهُنَّ ﴾ نهى الله المؤمنين الأزواج في هذه الآية عن منع المرأة من الزواج وعضلها .

والعضل هو العقد على المرأة ، واکراهها ، وحبسها ، ومنعها من الزواج بغيره حتى يأخذ منها ما أعطاه لها فهو عاقد عليها لا يعاشرها ، ولا يطلقها فيمنعها بذلك من التزوج بغيره لترجع إليه ما أخذت من مهر ، ونفقه كلا ، أو بعضاً من ذلك .

(١) سنن ابن ماجه . كتاب الطهارة . باب من توضأ فترك موضعاً ج ٥ ص ٤٢٥ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب تبغى مرضاة أزواجك ج ١٥ ص ٢٠٧ .

إنه يمنعها من النكاح ويلحق بها الضرر لتضييق بعشرته ، وتفتدى نفسها بالمال الذى أخذته ... فنهاهم الله عن ذلك لما فيه من إكراه المرأة على رد المال الذى أخذته وهو حقها .

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ هذا استثناء من الحكم السابق وفيه أنه يجوز للرجل أن يأخذ من المرأة ما أعطى إذا أتت بفاحشة ظاهرة ، فحينئذ يحل للرجل إضرار المرأة لتفتدى نفسها .
والمراد بالفاحشة الفعل القبيح الذى لا يقبله عقل سليم ، ولا تقره عادة سائدة .

وقال بعض العلماء : هو كل عمل سئ يفسد الحياة الزوجية بطرق العناد ، والمشاكسة ، والمباغضة ، والفحش في القول والسلوك ، وكل هذا يفسد الحياة الزوجية .

وقال آخرون : الفاحشة المرادة هى الزنا ...

والأولى : أن يكون المراد بالفاحشة هو كل ما يؤدى إلى حياة زوجية سيئة مليئة بالمنغصات ، والهموم ، والآلام قولا ، أو فعلا ، أو خلقا ، أو سلوكا .

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يأمر الله الأزواج بحسن معاشرة الزوجة .

والعشرة هى المخالطة ، والمشاركة في الحياة العامة والخاصة ، وربط المعاشرة بالمعروف لتستمر المعاشرة في إطار ما استحسنة الناس ، وتعارفوا عليه قولا ، وفعلا ، وسلوكا ، وحالا .

إن العشرة بالمعروف تعنى الكلام الطيب ، والمعاملة بالحسنى ، والمشاركة في المودة والأنس ، وأن يظهر الرجل اهتمامه بزوجته ، وتحقيق ما تريد في حدود طاقته وسعته .

وأمرت الآية الرجل بالمعاشرة الحسنة لأنه رب الأسرة الذى يستطيع الإحسان ، والتجاوز عن الأخطاء ، وامكانية إصلاح المسار العائلى ، ونشر المودة والرحمة مع الزوجة في هدوء جميل ، ورحمة طيبة .

﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا

كَثِيرًا ﴾ يبين الله تعالى للأزواج في هذه الآية أن لا يخضعن أحكامهم

للخاطر الطارئة ، ولا يسرعن في هدم أسرة تكونت بميثاق الله تعالى .

إن الأسرة بعد إقامتها تعيش لأهدافها السامية من تنشئة الأولاد ، وترابط المجتمع ، وتحقيق التراحم بين الجماعات ، وبذلك لا يصح للكراهية حين ظهورها أن تقوض البناء الأسرى الموجود .

على الزوج المسلم أن ينظر للحياة الزوجية من جميع الجوانب الإيجابية والسلبية ، ويفكر في الجوانب العاطفية ، وتأثيرها عليه ، وفي الأولاد ، وفي الاستقرار الاجتماعى ، وعليه ان يخضع العقل والروح لله تعالى ، ويؤمن بما أشار إليه سبحانه وتعالى فعسى أن يكون الخير فيما يتصوره العقل شرا ... ولربما كانت الزوجة بكل ما فيها خيرا من سائر النساء سواها .

لا يصح في حياة الأسرة المسلمة سيطرة توجهات الحب والكراهية عند الطرفين ، بل لابد من سيطرة الحق والواجب الذى شرعه الله تعالى للرجال والنساء .

ولابد للزوجين المسلمين أن يتوكلا على الله ويعتمدا عليه فهو سبحانه الذى يجعل الصعب سهلا ، ويحول الكراهية إلى حب وسلام .

ومن عموميات هذه الآية عدم خضوع المسلم للهوى ، وعدم الجرى وراء المسميات ، وعدم الانخداع بالبريق الخادع المزيف ، والله هو مالك الحياة وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وتطبيق هذا المفهوم في الحياة الإسلامية من القضايا الهامة .

(١٠٩)

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية عدم جواز أن يرث المسلم المرأة نكاحا ، أو مهرا ، ولا يصح عضلها ومنعها من النكاح لجبرها على رد مهرها إليه ... لكنها إن أتت بفعل قبيح سئ يفسد الحياة الزوجية فعليها أن ترد ماله إليه ، وله أن يكرهها على ذلك . وعلى المؤمنين ان يحافظوا على الحياة الزوجية ، ولا يسترسلوا بها في الهوى ، والتفرق بدعوى الكراهية لأن الحقيقة يعلمها الله تعالى ، وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... منها :

الركيزة الأولى

تكريم الإسلام للمرأة

كرم الإسلام المرأة ، وأنقذها من المساوئ التي عاشت فيها قبل الإسلام وأحاطها بسياج من التكريم أما ، وبنات ، وأختا ، وزوجة لتعيش في عزتها ورفعته .

فأمر الرجال بمعاملة المرأة بحرية تامة في اختيار زوجها ، فلها أن تختار زوجها ، وتقرر مصيرها وتخضع لحكم الله تعالى . وبين سبحانه وتعالى أنه لا يصح أن يرث الرجل المرأة نكاحا ، أو مهرا أو كيانا يتصرف معه كما يتصرف مع الدواب والعقار .

والمرأة قد تكره الرجل ولا تطيق العيش معه لكن الإسلام نهى الرجل عن إكراه المرأة وكراهيتها ، وأمره بمعاشرتها بالحسنى ، والمحافظة على كافة حقوقها لما فيه من خير كثير يعلمه الله تعالى ، ولبيان أن زمام الحياة الزوجية بيد

(١١٠)

الرجل وعليه أن يلتزم بالمعروف ، ويعمل بما يؤدي إلى القضاء على تفوز المرأة لتستمر الحياة بينهما في ود ووثام .
وليس بعد ضمان الحرية تكريم آخر .

الركيزة الثانية

التكريم يعتمد الحقوق وينادي بالواجبات

كرم الله الإنسان مطلقا ، فأكرم الرجال وجعل لهم حقوقا ، وألزمهم بالواجبات ، وأكرم النساء وجعل لهن حقوقا ، وحدد أمامهن الواجبات .
وأداء الحقوق والالتزام بالواجبات أحد اهم الطرق لإقامة الحياة السوية المستقيمة .

وحين كرم الله المرأة بصيانة حقوقها أكرمها كذلك بتحديد واجباتها ، فعليها أن لا تهمل أى حق لها ، وتطالب به ... وترفع أمرها إلى الولي العام ليرفع الظلم عنها كما فعلت أم كبيشة مع رسول الله ﷺ ... وعليها أن تتجنب الفحش في القول والسلوك ، وتحافظ على أسرتها ، وتكون لزوجها سكنا ، ومودة ، وأنسا ... وتضعه حيث وضعه الله تعالى بالنسبة لها .

إن المرأة هي ربة البيت ، ومنشئه الأجيال ، وفضلها على زوجها ثابت بالشرع والعقل ... وكل رجل له أم ولدته ، وارضعته ، ونشأته .

إن الجرى وراء الهوى ، والمودات ، ومسابقات الجمال ، وابتكارات العرى ، والفجور ليست حقا ولا واجبا ، ولا صلة لها بالتكريم .

إن الحق والواجب من تعاليم الله ، ولن يستسلم إلا المؤمنون لثقتهم في أن الله تعالى يجعل فيما يشاء الخير الكثير .

الصداق حق للمرأة

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿١٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١١﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآية السابقة مضارة الزوجة إن أنت بفاحشة جاءت هذه الآية لتبين عدم جواز مضارة المرأة إن لم تأت بفاحشة .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تتكلم الآيتان عن ضرورة المحافظة على حق المرأة في صداقها ، وتبين أن الرجل إذا طلقها لا يستحق من المهر شيئاً فإن أخذه أو بعضه فهو الظلم والإثم الواضح . وتتعبج الآية الثانية ممن يحاول الاستيلاء على مال المرأة بعدما أفضى بعضهم إلى بعض في إطار ميثاق الزوجية الذي أخذه الله عليهما .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ الخطاب في الآية للأزواج حالة إرادة طلاق إحدى زوجاتهم واستبدال غيرها بها . والمراد بالزوج هنا الزوجة بدلالة المفهوم لأن الخطاب للرجال بأن لا يستبدلوا زوجة بزوجة .

وبدأت الآية بـ "إن" الدالة على احتمال الحدث لا تأكده للإشارة إلى أن عدم إيقاع الطلاق أولى ... يقول النبي ﷺ : "ما أحل الله شيئا أبغض من الطلاق" (١) .

﴿ زَوْجٌ مَّكَاتٍ زَوْجٌ ﴾ أى زواج واحدة وطلاق أخرى بلا تعيين كل منهما ... وليس بالضرورة أن يتزوج واحدة مع طلاق الأخرى فقد يطلق ولا يتزوج إلا أن الآية جاءت بالأغلب الأعم .

﴿ وَءَاتَيْتُمُ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا ﴾ وقد أعطيتم الزوجة المراد طلاقها مهرا كبيرا . وكلمة "قنطار" مع تنكيرها وعدم تمييز ماهية القنطار ، ونوعيته تدل على الكثرة بلا تحديد لها .

﴿ فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أى لا تأخذوا منه شيئا أبدا في الحال أو في المال ، والنهي للتحريم ...

وقوله تعالى : ﴿ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ تدل على أن المحرم أخذ أى قدر من المهر ولو كان قليلا مادام الطلاق من جانبه وبغير سبب من الزوجة .

﴿ أَتَأْخُذُونَهُ بِهَئِنَّا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ... ؟ وهذا استفهام للإنكار والتوبيخ لردع الأزواج عن أخذ شئ من المهر مادام الطلاق من جانبه ، لأن هذا الأخذ ظلم بين ، وذنب معلوم شرعا وعقلا ،

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ ؟ !! ... وهذا استفهام للتعجب من هذا الفعل الظالم الآثم ، ومعناه بأى وجه تفعلون هذا الفعل ... ؟

وكيف يقدم العاقل على شئ من هذا بعدما بذله لزوجته عن طيب خاطر مع علمه أن ذلك حقا ؟

(١) سنن أبي داود . كتاب الطلاق . باب كراهية الطلاق ج ٣ ص ١١٥ .

وهل من الدين أن يأخذ الزوج حق زوجته ، وقد حصل بينهما بالزواج التلاقي والوفاق مدة ما ؟

﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ أى لا يصح أخذ شئ من المهر بعد أن أفضى بعضهم إلى بعض .

والفقهاء يفسرون هذا الإفضاء بالجماع أو بالخلوة الصحيحة على قولين^(١) لأن الجماع أو الخلوة يؤكدان حق المرأة في المهر .

والمفسرون يذهبون إلى أن الإفضاء أوسع من ذلك ليشمل كل ما كان بين الزوجين من العواطف والمشاعر ، والوجدانات والتصورات ، والأسرار والهموم ، والتجاوب ، وبذلك يصغر التلاقي الجسدى وسط هذا الحشد الهائل من عواطف الروح ، وأحلام السعادة ، وذكريات الأمل التى عاشوها سويا يوما من الزمان .
لقد أفضى العقل بآماله ، وأفضت الروح بسعادتها ، وأفضى الجسد بنشوته ، وأفضى الوجدان بتسام نبيل .

- كم عاش الزوجان أوقاتا من السعادة قبل أن ينزغ الشيطان بينهما ؟
- وكم رسما للمستقبل خيوطا قبل أن تقطعها القسوة ؟
- وكم عشقا الحياة معا قبل أن يخفيها الظلام والأنانية ؟
- وكم زعرا من الورود التى حرمتها الأنانية من التمتع بروائحها الزكية ؟
- وكم شعرا بسعة الحياة قبل أن يضيقها عليهم المستشارون وضعاف العقول ؟

ومن بلاغة التعبير القرآنى دوران البعضية بين الزوجين ﴿ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ حتى لا يعلم من المفضى ومن المفضى إليه ، كما دل التعبير بـ "البعض" على وجود بعض آخر حرم من هذا الإفضاء أصلا .

(١) قال بالخلوة الأحناف ، وقال الجمهور بالجماع .

إن بين الزوج وزوجته كثيرا من الفضل ، ولذلك كان التعجب من محاولة الرجل أخذ شئ من المهر بعد أن أفضى بعضهم إلى البعض . والآية لا تذكر معمول أفضى لتذهب النفس فيه كل مذهب كما قال المفسرون ، وجعلت الآية تساوى الزوج والزوجة في الإفضاء : ﴿بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ليعلم كل منهما ما كان فيه ، وما صار إليه ... !!

﴿وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وهذا أحد العوامل التى بسببها يكون التعجب من محاولة الرجل أخذ جزء من المهر ، لأن الله أخذ منهم العهد المؤكد . والميثاق الكبير باسم الله ... وعلى سنة رسول الله ، ولذلك وجب تقديره وعدم الاستهانة به ، وعدم محاولة أخذ حق المرأة التى أخذته بهذا الميثاق . والمراد بالميثاق حق الصحبة والمعاشرة ، وبما عهد الله لهم به فى قوله تعالى : ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾^(١) ، وبما أشار إليه قوله ﷺ : "أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فيهن"^(٢) .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الرجل إذا طلق زوجته بسبب منه فعليه أن يسرحها بإحسان ، ولا يأخذ من صداقها شيئا مهما كان كثيرا ، لأن هذا الأخذ لا يجوز شرعا ، ولا يصح عقلا ، لأنه ظلم بالمرأة ، وعدوان آثم على حقها ... ولا يتصور عاقل أن يأخذ الزوج من مال زوجته السابقة شيئا ، ويظلمها وينسى ما كان بينهما من مشاعر طيبة ، وتعاطف رضى ، وأنس شمل الجسد والروح ، والعقل ، والوجدان ، وقد تزوجا باسم الله وعلى سنة رسول الله ، وأعطوا الله الميثاق الغليظ على حسن العشرة ، واستدامة المعروف .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٩ .

(٢) فيض القدير ج ١ ص ١٢٨ .

(١١٥)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الطلاق تسريح بإحسان

تشير الآيات إلى أن الطلاق تسريح بإحسان يأتي بسبب من الرجل أو من المرأة ، وهو أمر قدره الله وشرعه تكريما للرجل والمرأة معا ... لأن دوام العشرة من العنت والكراهية لا تصح ولا تجوز .

الإسلام يعمل على استمرار حياة الإنسان في خلق ، وهدوء ، واستقرار ليؤدي واجبه ، ويستمر في دوره إنسانا بين الآخرين .

ومعنى هذا أن الطلاق نهاية مرحلة البغض والكراهية بين الزوجين ، وليس بداية لها ، ولذلك نهى الله الزوج أن يظلم زوجته ، أو يأخذ مالها وحقها ظلما ، وينسى الذكريات الجميلة التي عاشها ... ونهاه سبحانه وتعالى أن ينقلب إلى عدو للمرأة ، وخصيم لها يعيش بعد الطلاق متربصا بها ليسئ إليها ويعمل على إضرارها .

الإسلام يجعل الطلاق نهاية المتاعب الزوجية ، ليذهب كل طرف إلى ما قدر له ، يغنيه الله بسعة وفضل منه سبحانه .

وما نراه من خصومات بعد الطلاق ليس من دين الله تعالى ... والذي نتمناه أن يفهم المسلمون دينهم ويتعاملوا به ، ويتعدوا عن كل مظاهر الضلال والفساد التي يقعون فيها مثل حرمان الرجل من رؤية أولاده ، وإخفاء الأبناء عن أمهم .

- لماذا يحرم الرجل من رؤية أولاده بعد طلاق زوجته ؟

- ولم يخفى الرجل أبنائه عن أمهم إذا طلقها ؟

- ولماذا تكثر المشاحنات والمنازعات بين الأزواج بعد الطلاق ؟
- ولماذا تمثل دور المحاكم بالشاكيين والشاكيات ؟
- إن الطلاق تسريح بإحسان ، والحياة بعده مستمرة ، ولا يصح لمسلم ولا مسلمة أن يتخذا من الطلاق معبرا للشر ، وسببا من أسباب الصراع والضرر .

الركيزة الثانية

الإنسان عاطفة وذكرى

وجه الإسلام الإنسان إلى عدم نسيان الماضي كله ... وعليه أن يتذكر الخير الذى عاشه فيه ... ويستفيد به فى ترطيب الحياة ، والاعتراف بحق الآخرين ... فبعد أن يطلق الرجل زوجته عليه أن لا يظلمها ، ولا ينسى ما كان بينهما ... وبالضرورة نجد أنهما عاشا أوقاتا طيبة ، ولا يصح نسيانها كلها ، وبذلك تبقى الأخوة الإسلامية ، وإن وقعت الفرقة الزوجية .

لا يصح نسيان الماضى ، وبخاصة إن كان للذكرى مردود أخلاقى حسن . ويستحسن وضع الذكريات الإيجابية في موضعها الصحيح لتساهم في بناء الحاضر والمستقبل ، وإخفاء السلبيات التى تضر ولا تفيد . إن ما وقع وقع ، وأولى بالعقل أن يعيشوا الحاضر ، ويعملوا للمستقبل ... ولا يصح لعاقل أن يأسره الماضى فيعيش تحت ضغوطه بتجرع الألم والحسرة ، وبذلك يرى المستقبل مظلمًا كئيبيًا .

لا يصح أن ينطلق الإنسان للمستقبل وهو مكبل بقيود الماضى .

وعلى الدعاة ...

إن يدفعوا الناس إلى المستقبل الجميل ، وفتح باب الأمل ، والمحافظة على كل جمال ينمى الحياة ، ويسعد الناس .

المحرمات من النساء

اشتملت سورة "النساء" على ثلاث آيات فصلت المحرمات من النساء ، حيث بينت الآية الأولى تحريم زوجات الأب ، وبينت الآية الثانية سائر المحرمات من النسب ، والرضاعة ، والأصهار على التأييد أو على التأييت ، وجاءت الآية الثالثة لتحريم زواج المرأة المتزوجة حال قيام الزوجية . وسوف نفسر هذه الآيات ، ونتعرف على أهم أحكامها الشرعية إجمالاً .

مع الآية الأولى تحريم زوجة الأب على الأبناء

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

لما توفي الصحابي أبو قيس رضي الله عنه وكان من صالحى الأنصار جاء ابنه قيس رضي الله عنه يخطب زوجته . فقالت له : إني اتخذتك ولدا ، وأنت من صالحى قومك ، ولكن أتى رسول الله ﷺ واستأمره ، فأنت رسول الله ﷺ واستأمرته . فأنزل الله الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حقوق المرأة وصيانة كرامتها أثناء الوفاق أو الفراق جاءت هذه الآية تبين ما يحرم على الرجل الزواج منهن .

(١) تفسير البغوى ج ١ ص ١٨٧ .

(١١٨)

- ٣ -

موضوع الآية

يدور موضوع الآية على تحريم زوجة الأب على ولده سواء طلقها الأب أو مات عنها .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ هذا نهى للأبناء

منعاً لهم من نكاح زوجة الأب سواء فارقها الأب بالموت أو بالطلاق ...
وذكرت الآية ﴿ النِّسَاءِ ﴾ بالجمع لبيان أن نكاح زوجة الأب محرمة سواء كانت واحدة ، أو عددا ، والمراد بالأب الأب المباشر وما علاه .

﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ أى ان هذا التحريم جاء به الإسلام ، وقد عفا الله

عما كان يفعله الناس قبل الإسلام .

وفى سبب هذا التحريم يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا

وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ الضمير فى ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعود على نكاح زوجة الأب لبيان ما فيه من سوء ، فهو فاحشة من أقبح الأعمال التى يابأها العقل ، ويرفضها الشرع وهو مقت أى بغض وكراهية ، وهو سوء فى عمله ، وأثره ، وتصوره .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن النكاح زوجة الأب محرمة على الابن لقبه ، وكراهيته ، وسوئه ، وأثره الشنيع فى الشرع ، والعرف ، والعادة .

(١١٩)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

في الآية ركيزة هامة ... هي :

توقير الأب جزء من البر به

الأب هو السبب الذى جعله الله لإيجاد الابن ، وأودع في قلبه من الحب والعاطفة ما يجعله يبذل المال والعمل والتعب من أجل ولده .
ولذلك أوجب الله بر الآباء ، وأوصى الأولاد بآبائهم ... ومن بر الآباء الإحسان القولى والعملى ، والدعاء لهما .

ومن بر الآباء توقيرهم ، واحترام حرمانهم ، والبعد عن كل ما يسئ إليهم ولذلك حرم الله على الأبناء الزواج بزوجات الآباء ... لأن زوجة الأب بمنزلة الأم ... ولا يصح أبدا ان يتعاقب الابن بعد الأب على زوجة ما ، لأن الفطرة تأباه ... وكثيرا ما يؤدى التعاقب بين الرجال عموما إذا تزوجوا امرأة واحدة إلى الكراهية والازدراء ، ولا يصح هذا من الأبناء .

إن الإسلام بتحريم زوجة الأب على الابن يحافظ على المشاعر الجميلة بين الآباء والأبناء ، ويقيم العلاقة بينهما على الاحترام والتقدير .

(١٢٠)

مع الآية الثانية التحريم بالنسب والإرضاع والمصاهرة

يقول الله تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرِّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن ذكرت الآية السابقة تحريم زوجة الأب على الابن جاءت هذه الآية لبيان المحرمات من النساء بسبب النسب أو الرضاع أو المصاهرة .

- ٢ -

موضوع الآية

تتناول الآية بيان المحرمات من النساء على الرجال بسبب النسب أو الرضاع ، أو المصاهرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تتحدث الآية عن المحرمات بسبب القرابة ، أو المصاهرة ، أو الرضاعة وفق شرع الله تعالى ، فهو سبحانه الذي حرم ، وفصل هذا التحريم لحكم يعلمها سبحانه وتعالى .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أى حرم الله عليكم نكاح ما سيلي ذكره فمصدر التحريم هو الله تعالى .

والضمير في ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ يعود للرجال ، وجاء الخطاب لهم لبيان مسئولية الرجال المباشرة في تنفيذ أحكام الآية ، وخاصة أنهم الذين يتقدمون للزواج .
والمحرمات من القرابة سبع هن :

(١) ﴿ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ هى الوالدة القريبة ، ويدخل معها في حكمها كل امرأة رجع نسبها إلى الرجل من جهة الأب ، أو من جهة الأم ، بدرجة واحدة أو بأكثر من درجة فيشمل جميع الجدات .

(٢) ﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ والبنت عبارة عن الأنثى التى يرجع نسبها إلى الأب بالولادة بدرجة واحدة أو أكثر كبنت البنت وان سفلت ، ويلحق بها بنت الابن وان سفلت كذلك .

(٣) ﴿ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ جمع أخت وهى كل امرأة شارك الرجل في أصله القريب وتشمل الإخوات من الأب والأم ، والأخوات من الأب فقط ، والأخوات من الأم فقط .

(٤) ﴿ وَعَمَّاتُكُمْ ﴾ والعمات مفردها العممة ، وهى كل امرأة شاركت الأب في أصله ، وتشمل جميع أخوات الأب ، وأخوات آباءه وان علون .

(٥) ﴿ وَخَالَاتُكُمْ ﴾ وهى جمع خالة ، وهى كل امرأة شاركت الأم في أصله ... وتشمل جميع أخوات الأم ، وأخوات أمهاتهن .

(٦ ، ٧) ﴿ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ﴾ وهن عبارة عن كل أنثى تنسب للأخ ، أو الأخت بسبب الولادة ، ويرجع نسبها إلى الأخ أو الأخت وهذا يشمل جميع بنات أولاد الأخ والأخت وان سفلن .

والمحرمات من الرضاعة ثنتان هن :

(١) ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ وهذه تشمل كل أنثى انتسبت باللبن

إلى الرجل فهي أمك من الرضاعة .

(٢) ﴿ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرِّضْعَةِ ﴾ وهذه تشمل كل أنثى التقت مع الرجل

على ثدى واحد ، ورضعت منه فهي أخته من الرضاعة .

وانما اكتفت الآية بذكر الأم والأخت من الرضاعة للتبنيه على أن الله

سبحانه وتعالى أجرى الرضاعة مكان النسب .

يقول النبي ﷺ : "يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة" (١) .

وقال رسول الله ﷺ في ابنة عمه حمزة ؓ : "إنها لا تحل لى ، إنها ابنة

أخى من الرضاعة ، وانه لا يحل من الرضاعة ما لا يحل من النسب" (٢) .

وبذلك يحرم من الرضاعة الأم المرضعة وأصولها مهما علون .

والبنت من الرضاع وهي من أرضعتها زوجته وهي في عصمته ، والأخت

من الرضاع ، والعمة والخالة من الرضاع ، وأم الزوجة من الرضاع وبنت

الزوجة من الرضاع ، وزوجة الأب والجد من الرضاع ، وزوجة الابن من

الرضاع ، والجمع بين الأختين من الرضاع .

ويحرم بالمصاهرة ما يلى :

(١) ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ﴾ يعنى إذا تزوج الرجل امرأة حرمت عليه أمها دخل

بها أو لم يدخل .

(٢) ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم

بِهِنَّ فَإِنَّ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى وتحرم

(١) السنن الكبرى للنسائى ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى . باب عمرة القضاء ج ٦ ص ٣٤٤ .

الرببية وهى بنت الزوجة من رجل آخر بشرط الدخول بالأم ، فإن لم يدخل الرجل بالأم فلا تحريم للبنت ، وسميت البنت رببية لتربيتها فى حجر الرجل .

(٣) ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ والمراد بهن زوجات الأبناء من الصلب ، فلا يدخل معهن أبناء الأم ، ولا الأبناء بالتبني ... فقد تزوج النبي ﷺ زينب رضى الله عنها بعد طلاقها من زيد بن حارثة ﷺ وهو الذى تبناه النبي ﷺ ورباه .

ويشمل هذا الصنف زوجات أبناء الأبناء مهما سفلوا .

(٤) ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ﴾ أى لا يجوز لرجل أن يتزوج أختين فى وقت واحد ... فإن تزوج واحدة ثم فارقها بطلاقها أو بموتها جاز له أن يتزوج بأختها لأن هذا ليس جمعا لهما فى وقت واحد .

﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ وهذا استثناء يفيد أن ما سبق نزول الآية من زواج مخالف لها فقد عفا الله عنه ، والتحريم يبدأ بنزول الآية التى نصت على التحريم .

﴿ إِنْ أَلَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ أى انه سبحانه وتعالى برحمته بالناس يغفر لهم ما سبق فعله منهم قبل نزول الآيات .

- ٥ -

معنى الآية

بينت الآية أن المحرمات بالنسب سبعة أصناف ذكرت فى الآية نسقا ، والمحرمات بالسبب صنفان : صنف يحرم بالرضاع ، وهن الأمهات والأخوات على ما تقدم ذكره ، وصنف يحرم بالمصاهرة ، وهى أم المرأة وحليلة الابن ، وزوجة الأب ، والربائب على التفصيل المذكور ، والجمع بين الأختين فى وقت واحد .

(١٢٤)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

التحليل والتحریم لله رب العالمين

الأحكام التكليفية فعلا أو تركا جاءت بها شريعة الإسلام ، وبذلك صار الحلال ما أحله الله تعالى ، والحرام ما حرمه الله تعالى .
وارتبط التحليل والتحریم بالإيمان فمن آمن أطاع وطبق شريعة الله التي آمن بها ... ومن كفر خالف الله ، وأطاع من يحبه ويهواه .
وصار جزءا من التكليف أن يؤمن المسلم بأن مصدر الأحكام هو الله تعالى وهو يطبقها طاعة لله ، ولا عبرة لمن وافقها أو خالفها من وضع الناس وعقولهم .
وتلك قاعدة تشمل الإسلام كله ، فكما نلتزم في الزواج بالحلال والحرام وجب أن يعيش المرء بهذه القاعدة في الحياة كلها .
إن تسليم الأمر كله لله يرضى المسلم كيفما كان ، ويفتح باب الأمل ، ويدفع الإنسان إلى طاعة الله لينال الرضى والرحمة .

الركيزة الثانية

جواز البحث في حكمة التكليف

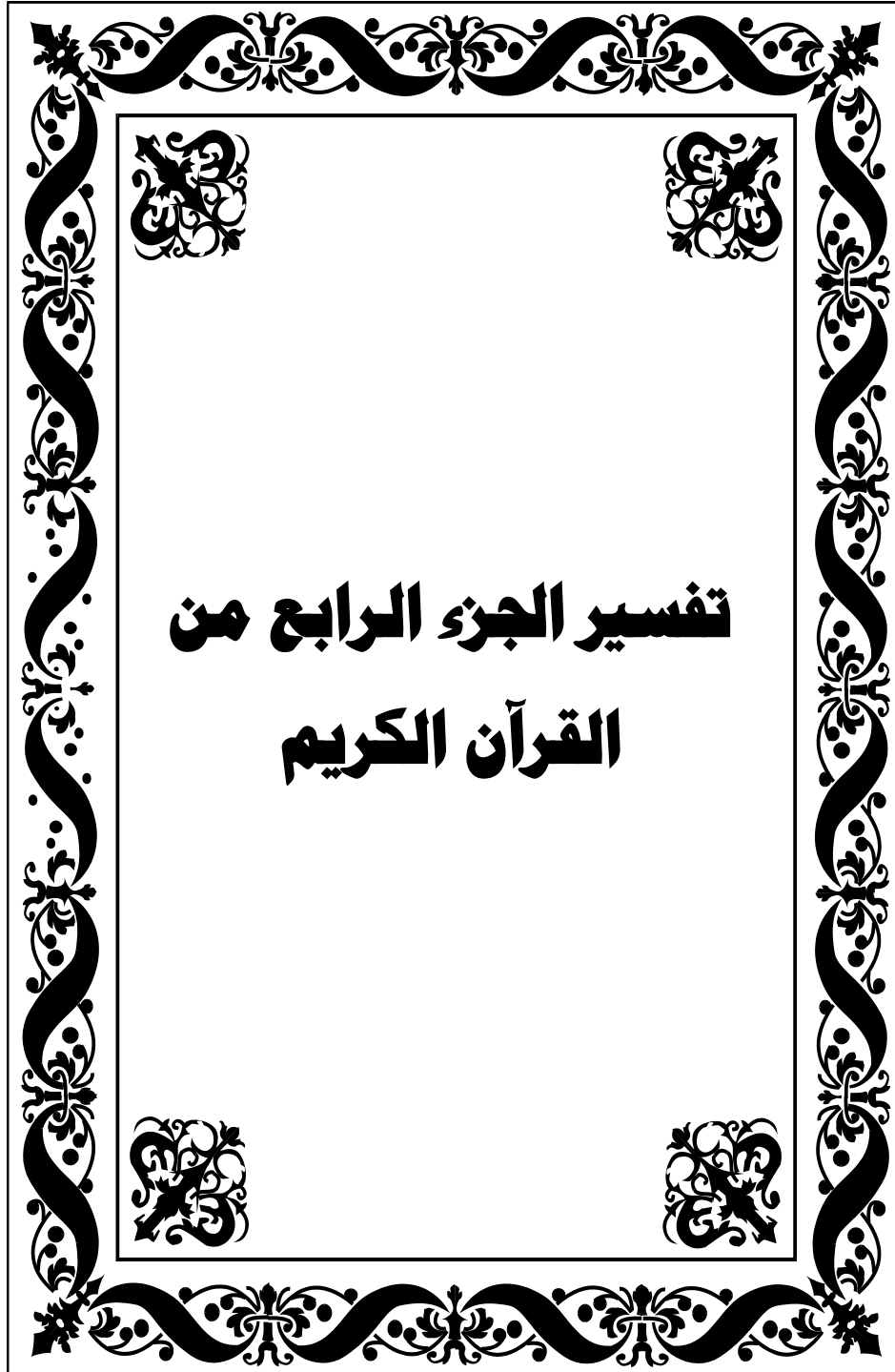
أحكام الله تعالى قائمة على تحقيق المصلحة وإن خفيت علينا ، ولا مانع من البحث عن الحكمة في شرع الله تعالى .
إن الحكمة المقصودة على وجه الدقة لا يعلمها إلا الله تعالى ومحاولات العلماء مقبولة مادامت في إطار لا يتعارض مع أصول الدين ومبادئه ...
والأمر في النهاية مرتبط بعلم الله المحيط .

(١٢٥)

يقول العلماء : إن نكاح الأقارب يبعد الزوجين عن العطف ، والمرحمة والتوقير التى تحققها القرابة ، ويضعها في طبيعة العلاقات الزوجية بما فيها من خلاف ومشاكل ، ولا يصح صيرورة علاقات القربى إلى علاقات الضرائر ، والتنافس بين الزوجات .

كما يذهب العلماء إلى أن نكاح الغرباء يحقق ذرية سليمة طيبة ، وتساعد النسل على اكتساب صفات وراثية منتخبة من قبل الرجل أو من قبل المرأة حين تباعدهما وفي حالات القربى يحدث الضرر .

وتلك كلها علل بين العلماء أنها حكمة التحريم ... وعند الله القول الفصل والحكم المقصودة .



(١٢٨)

توطئة

يقع الجزء الرابع فى سورة "النساء" ابتداء من الآية (٢٤) وينتهى بنهاية الآية (١٤٧) وهو يقع داخل السورة لأنه يسبق بحزب فى السورة ، ويأتى بعده حزب آخر فى ختام السورة .

وموضوعات الجزء هى موضوعات السورة ، حيث بيان أحكام الأسرة وطرق حماية المجتمع من المنافقين ، وضرورة مقاومة أعداء المسلمين بالمال والكلمة والقتال ، ويعرف بمعارضى الدعوة من الكفار ، وأهل الكتاب ، والمعوقين بين المسلمين ... وبذلك يسير فى نفس مسار السورة فيبدأ بذكر بعض المحرمات فى النكاح متمما لما جاء فى الآيات السابقة .

الآية الثالثة

تحریم المرأة المتروجة

يقول الله تعالى :

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ^ط وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ^ع ^ع فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ۝

- ١ -

سبب نزول الآية

يقول أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه : نزلت الآية فى نسوة هاجرن إلى رسول الله ﷺ فى المدينة ، ولهن أزواج قبل هجرتهم ، فتزوجن ببعض المسلمين فى

(١٢٩)

المدينة ، ثم قدم أزواجهن مهاجرين بعد ذلك فرفعوا الأمر إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

الآية السابقة كانت في المحرمات بالقربة والمصاهرة والإرضاع ، وجاءت هذه الآية في بيان المحرمات بسبب الإحصان .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين أن المرأة المحصنة بزوجها الذي تكون معه تحرم على غيره مادامت في عصمة زوجها .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ و"المحصنات" معطوفة على ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾

في قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أى وحرمت المحصنات أيضا .

والمحصنات جمع محصنة ، والمراد بها هنا المرأة المتزوجة الكائنة في كفالة زوجها ، لأن إحصان المرأة يتحقق بالزواج ، والحرية ، والعفة ، والإسلام ، والمراد منه في الآية المرأة المتزوجة التي لا يحل لأجنبي أن يتزوجها وهي مع زوجها .

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ والمراد بهن سبايا الحرب المشروعة ،

فإن لمالكن وطأهن بعد استبرائهن ... ويدخل في حكمهن الجارية المتزوجة يشترىها سيدها ، وينكحها بعد انتهاء عدتها لأن بيعها يعد طلاقا لها .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٠٤ .

(١٣٠)

﴿ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى هذا التحريم فرض فرضه الله عليكم ، وبين لكم فيه ما حرم وما حل لتطيعوا وتعملوا .

﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ أى أحل الله لكم نكاح ما لم يرد لهن ذكر في هؤلاء المحرمات و ﴿ ذَلِكَ ﴾ اسم إشارة عائد على المحرمات المذكورات في الآيات السابقة .

﴿ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ ﴾ أى أحل الله لكم أن تطلبوا بأموالكم التى تدفعونه مهرا لمن تريدونهن من حرائر النساء الحليات مثنى وثلاث ورباع ، وفى هذا بيان لضرورة المهر لشرف المحل ، وتكريم المرأة ، وإعلان استعدادها للمحافظة عليها ، والتضحية في إعالتها واعزازها ، والابتغاء يعنى الرغبة القوية في الخطبة ، والإلحاح في الطلب ، وبذل المال دليل الرغبة .

﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴾ أى اطلبوا النساء بأموالكم حالة كونكم محصنين متعففين أطهارا ولستم زناة فجرة ، والزواج يحصن الزوج والزوجة والأولاد ويبعدهما عن السفاح وهو ضد الاحصان .

﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أى أعطوا النساء مهورهن باستمتاعكم بهن ... وسمى المهر أجرا لأنه يكون مقابل المنفعة وهى المتعة والتلذذ ، وليس بدل العين .

﴿ فَرِيضَةً ﴾ أى أعطوهن المهر واجبا لهن فهو فرض عليكم .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ أى لا حرج على الأزواج والزوجات أن يتراضيا على المهر بصورة ما ... كالإبراء ... والافتداء ، والاعتياض ... وكل ذلك جائز .

(١٣١)

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى عليم محيط
يشرح لكم ما يصلحكم ، وحكيم يأمركم بالصواب الذى لا عوج فيه البتة .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية احدى أصناف المحرمات من النكاح بسبب هو ازواج ، وتبين
أن الله أحل الزواج في كل النسوة اللاتى لم يحرم في الآيات السابقة ، وبينت
أن للرجل أن يطلب بماله زواجا شرعيا صافيا ، ويتراضى مع زوجته على ما
يريد ... وبينت أن للرجل أن يطأ ما ملكت يمينه يعد براءتها من نكاح سابق .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

احترام الأخوة الإنسانية

الإنسان مخلوق كرمه الله وفضله على غيره من المخلوقات ... ومن
تكريم الله له أن هيا له أسرة كريمة فيها الرجل والمرأة ، زوجان كريمان ، وأقام
عشرتهما على المودة ، والرحمة ، والأنس ، والسكن .
ولذلك حرم الله على الرجل أن ينظر لامرأة متزوجة بغيره فقد تحصنت
بزوجها ، وصارت محضنا له تهى له راحة العقل والضمير ... ومادامت المرأة مع
زوجها فلها حرمتها ، وتصير محرمة على الغير لا يتزوجها .
ومن هنا ...

وجب احترام عفة البيوت ، والمحافظة على طهارة الأسر ... والمحافظة
على كرامة المرأة المتزوجة احتراما للأخوة الإنسانية ، وقد بين الله ذلك ليتعاون

(١٣٢)

الجميع على سلامة الأخوة بين الناس ، والمرأة المحصنة شاملة للمسلمة ، وللذمية ، فهن جميعا محرمات بالزواج على غير الزوج .

الركيزة الثانية

الغنم بالغرم

جعل الله الحياة الأسرية متعة للرجل والمرأة معا ، ولذلك أوجب الله على كل منهما بذلا يعادل ما سيناله ... فعلى الرجل أن يدفع مهرا واجبا لزوجته لتمتعه بها ، وتلذذه بمحاسنها ، وأوجب على المرأة طاعته ، وقبول قواميته لها لما تناله منه .

وبذلك يضحى الزوجان بما يقدران عليه وبما كلفهما الله به لتحقيق السعادة والهناء في بيت ينتج للمجتمع أفرادا يتميزون بالخلق والدين .
لا تقوم الحياة الزوجية إلا بتضحية طرفيها ، ولا يتحقق فيها الاستقرار إلا بالإيثار المشترك ، والإخلاص المتبادل .

وان المرء ليحار في فتى وفتاة انخلعا من عشرة أبويهما وابتعدا عن بيئتهما الأولى ، والتقيا في حياة جديدة ، في بيت خاص بهما ، وبعد وقت من الأمل ، والاستقامة تظهر الأنانية ، ويتبعها الشجار والخلاف !!

وفي كثير من الحالات يظهر بعض البعيدين عن الزوجين يتصور الحرص على أحدهما فيواليه بالنصائح الهدامة ، ويزين له الذاتية ، والاستعلاء ، وفرض الرأي المضاد ... ويصل به الأمر إلى نصحه بالتنبيه إلى ذكاء الزوج أو الزوجة حتى لا يلعب به ... فينقلب الرضى بذكاء من تتعامل معه إلى خوف وقلق ... وهكذا تستمر النصائح الرديئة حتى يضيع التسامح والمودة بين الزوجين .

إن هذه الصور موجودة ، وما ضاعت أسر عديدة إلا بتوجيهات من خارجها !!

(١٣٣)

يجب أن ينتبه الزوجان لمثل هذا ... ويعمل كل منهما على إرضاء الآخر لينال منه ما يرضاه .

لا يقدر قيمة الحياة الزوجية إلا أعضاؤها ... ولا يتمتع بالمودة والحنان خلالها إلا الزوج والزوجة ... أما الآخرون فهم بفلسفة العقل الجافة ينصحون وبذلك يضلون ويضلون .

إن الحياة قائمة على التوازن ، ولذلك سادت قاعدة الغرم بالغنم بين الناس وسلم بها العقلاء .

الركيزة الثالثة

إقامة حياة إنسانية راقية بالزواج

تنظيم المجتمع على أساس الأسرة التي تجمع بين رجل وامرأة بصورة علنية وسط مشروعية صحيحة ، ورضا من الأولياء ، ومباركة من الناس هو المحض الفطري لإشباع كافة الغرائز ، ونتاج إنسان سوى يساهم في تحقيق إنسانية المجتمع ، وتركيز القيم والخلق بين الناس .

وقد اهتم الإسلام بالإحصان ، ونهى عن السفاح ، ودعا إلى إقامة الحياة الزوجية على الألفة ، والمحبة ، والوفاق لتحقيق الغايات التي تقوم بها الأسرة .
إن إشباع غريزة الجنس جانب يسير في إقامة الحياة الأسرية ، والأهم هو دورها في بناء الإنسان ، وانشائه بقيم الإنسان ، وخلق الإسلام .

إن الطفل يحتاج إلى مدة طويلة ليتكون في بطن أمه ، وإلى مدة أطول للرضاعة ، والتنشئة ، والتربية ، والتعليم ، واكتساب الخبرة ، ولا يقوم بذلك على الوجه الصحيح إلا الآباء والأمهات في إطار أسرى سليم .

ومن هنا ... لا يجيز الإسلام المخادنة ، ويمنع اللقاء العابر بين الرجل والمرأة ، ويرفض السرية في العلاقات الاجتماعية ... ويحارب كافة الطرق وكافة المثبرات الشهوية التي تؤدي في النهاية إلى أطفال غير شرعيين يتحولون في شبابهم إلى عوامل هدم المجتمع .

إن الحياة الأسرية الإسلامية هي النظام الوحيد الصحيح الذى يؤدى إلى بناء الفرد ، وتنشئة الجماعة ، وإقامة المجتمع الرشيد .
 إن الأسرة في الإسلام مسئولة عن واجباتها ، ومسئولة عن تحقيق الوفاق في مسيرتها ...

إنها تقوم على الواجبات ، وتبتعد عن الهوى .
 إنها تبقى ، وترتقى بالخلق ، والسلوك الكريم بعيدا عن الشهوات الجامحة ، والنزوات المتقلبة .

جاء رجل إلى عمر رضي الله عنه يشكو له زوجته . فقال له : وبحك ... أتبنى البيوت على الحب وحده ... أين الرعاية ؟ ... وأين التذمم ؟ ...
 إن الأسرة في الإسلام تحتم الترابط النفسى ، والعقلى ، والفكرى بين الرجل والمرأة . يقول الله تعالى عن أسرار ما بين الزوجين : ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ ^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(٢) .
 ويقول ﷺ : "لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقا رضى منها غيره" ^(٣) .

وليس بالحب وحده تدوم الأسرة ... ولكن الشعور بالمسئولية وفهم كل من الزوج وزوجته للواجب يؤدى إلى تخطى كافة العقبات داخل الأسرة ، وبضعها أمام المسئولية .

(١) سورة النساء ، الآية ٢١ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٩ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب الرضاع . باب الوصية بالنساء ج ٧ ص ٤٠٢ .

وأهم واجبات الأسرة هو الوليد الذى تنشئه ، وتربيته ، ولذلك يؤكد الله تعالى هذا الدور للأسرة . فيقول سبحانه : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ (١) .

فالأبوان مسئولان عن الوليد ، ولكل منهما دوره يؤديه بالمعروف والإحسان ، وما أجمل أسرة توافق طرفاها ، وأخرجا للمجتمع أفرادا أسوياء يتميزون بالدين والخلق ، وحب غيرهم من الناس .

إن حاجة المجتمع إلى أطفاله كبير فهم رجال المستقبل ، وقادة الناس واهمالهم يؤدى إلى إهمال المجتمع كله .

إن إهمال الأسرة ، والخروج عن صورتها الإسلامية يؤدى إلى ضياع الطفولة ، وإذا ضاع الصغار ضاع المجتمع كله .

إن دعوات التحضر ، ونداءات حرية المرأة ، وانتشار عوامل الإثارة ، والشهوة وسط الناس بآثارها المقصودة ، وبالغايات التى تنادى بها ، وتوسيع دائرة المجون ، والتسيب ، عوامل هدم للأسرة ، وبالتالي هدم للمجتمع كله .

إن المجتمع الإسلامى فى حاجة إلى أناس يعلمون دينهم ، ويفهمون واجبهم ، ويملكون العزم ، والإيمان والنشاط والقوة ويتمنون العلا والرفعة ... ولن يتحقق هذا إلا بالأسرة المؤمنة الصالحة .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٣ .

(١٣٦)

وخير للمسلمين .

وخير للإنسانية كلها .

أن يسلكوا طرق الطهر والعفة ، ويدعموا قيم الزواج ، ويتمسكوا بموازين الأسرة ، فذلك خير مردا ، وأجدى سبيلا .

تكريم الإمام حين الرغبة في نكاحهن

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ۚ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ۚ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْلِفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ۚ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٠ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة حل الزواج بأى امرأة غير محرم نكاحها بعد تسليمها مهرا يناسبها جاءت هذه الآية تبين لغير القادر على المهر أن يتزوج أمة فمهرها قليل ، ونفقتها يسيرة .

- ٢ -

موضوع الآية

جاءت الآية توضح آداب نكاح الإمام .

(١٣٧)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً ﴾ أى ومن لم يتمكن من مال يدفعه

مهرًا لمن يريد نكاحها من الأحرار ... والطول كناية عن الغنى ، سمي بذلك لما فيه من استطاعة الحصول على المهر كأنه أطال يده إليه ، وبذلك يكون الطول كناية عن الغنى .

﴿ أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى من لم يتمكن من دفع

المهر ونفقة المرأة الحرة التى تحصنت بخلقها ، ودينها ، وإيمانها فلا ينكحها .

﴿ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى يجوز له أن

ينكح من الإماء المملوكات فهن أقل مهرًا ، وأيسر نفقه ، والتعبير عن الملك بملكية اليمين لإفادة السلطان والسيطرة لأن اليد اليمنى مظهر القوة ، وآلة التصرف ، وسمى الله الأمة بالفتاة احترامًا لها .

يقول النبي ﷺ : " لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، ولكن ليقل فتاى وفتاتى " (١) .

ونهى النبي ﷺ أن يقول العبد : سيدى وسيدتى ، بل يقول : مولاى ومولاتى (٢) .

والمراد من فتياتكم الإماء المملوكات للغير ، لأن السيد المالك له أن يطاء أمته يملك اليمين ... وان أراد نكاح مملوكة غيره فعليه أن يدفع لها مهرًا .

و ﴿ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ هن الإماء المملوكات للغير ، وجعل الله الإماء

فتيات للرجال في قوله تعالى : ﴿ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ ﴾ لتحقيق معنى الإخوة الإسلامية

لأن المعنى : إيمان أخيك ... وفتيات أخيك .

ويشترط في الآية أن تكون الأمة مؤمنة .

(١) صحيح مسلم - كتاب الأدب . باب إطلاق لفظ العبد والأمة ج ١١ ص ٣٢٣ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الأدب . باب إطلاق لفظ العبد والأمة ج ١١ ص ٣٢٣ .

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ﴾ أى تعاملوا مع ظاهر الأيمان ، واتركوا الباطن لله فهو الذى يعلم الأسرار والخبايا .

﴿ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾ أى انكم أيها الرجال الأحرار ، ومعكم الإمام تعودون لنفس واحدة فلا تستنكفوا نكاح الإماماء ، يقول النبى ﷺ : "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم قد ملكهم الله إياكم ، ولو شاء لملككم إياهم" (١) .
وان كانت الأمة المسلمة فأنتم سواء ديناً وأصلاً ، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أكفاء بعض .

﴿ فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ أى إذا رغبتم في الزواج من الإماماء فاخطبوهن من ساداتهم المالكين لهن ، لأن موافقه السيد واجبة ، فهو منزلة الوالد ، ولجواز رغبته في وطنها .

﴿ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ أى أعطوهن مهورهن ، والمهر حق خالص للمالك يأخذه لأنها ملكه ، والعبد وما ملكت يداه لسيده ، وأضافت الآية المهر إليهن لبيان أنه يقابل التمتع بهن .

﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى بالمثل الذى عليه عادة الناس بلا مماطلة ، ولا تسويف ولا ضرر .

﴿ مُحْصَنَاتٍ ﴾ أى عفيفات بزواج شرعى معه الولى والشهود .

﴿ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ ﴾ أى غير زانيات لتتمام العقد .

﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ ﴾ أى تزوجوهن وادفعوا مهورهن ، وكونوا لهن أزواجا لا أخدانا .

(١) فيض القدير ج ١ ص ٢٢١ .

والأخذان جمع خدن ، وهو الصاحب الذى يكون مع صاحبه في كل أمر ظاهر أو باطن ، وغالبا ما تكون الشهوة قائمة بين الصاحبين ، يقال اتخذت المرأة خدنا أى صاحبت رجلا تحبه يزنى بها وحده سرا ... والفرق بين الزنى والخذن أن الزانى واقع فى امرأة ترضى به وبغيره والخذن هو الصاحب الخاص الذى تحبه المرأة ، وترضى به وحده من غير عقد ولا مهر ...

﴿ فَإِذَا أَحْصَيْتَ ﴾ أى تزوجن .

﴿ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَاحِشَةٍ ﴾ أى وقعن في الزنا بعد إحصائهن بالزواج .

﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أى يقام حد

الزنا عليهن كما شرع الله تعالى ، وحد زنا الأمة هو نصف حد زنا الحرة .

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ﴾ العنت هو الوقوع في الزنا ، وهذا

شرط في نكاح الإماء ... وجملة شروط نكاح الأمة في الآية هي :

(١) عدم تمكن نكاح الحرة لعدمها فعلا ، أو حكما ، أو عدم ملكية المال الذى

يدفعه لها مهرا ونفقة .

(٢) خوف الوقوع في الزنا إن بقى عزبا .

(٣) أن تكون الأمة مؤمنة .

وسمى الزنا بالعنت لما تعقبه من العقوبة ، والحرمان والمكث في العزوبة .

﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى وإن تتحملوا العزوبة ، وتصبروا عليها

فهى خير لكم من نكاح الإماء ، لأن الولد يتبع أمه في الرق والحرية ، وبالزواج

منهن يكثر الرقيق ، وهذا يكرهه الإسلام ، كما أن الأمة لا تخلص لزوجها فرما

احتاج سيدها إلى خدمتها .

(١٤٠)

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى أن الله مطلع على كل ما كان منكم قبل نزول آيات الزواج ، وهو غفور لما وقع ، رحيم بعباده يشرع لهم ما يناسب فطرتهم ، ويحقق مصالحهم .

- ٤ -

معنى الآية

يبين الله للرجل الذى لا يملك ما لا يدفعه مهرا للحرائر من المسلمات ، أن ينكح إماء مؤمنات فهن أقل مهرا ، وأيسر نفقة ، ويخطبهن من أسيادهم ويدفع لهن مهرا ، وذلك إذا عجز عن نكاح الحرة ، وخاف على نفسه الوقوع في الزنا .

وجعل الإسلام شراء الأمة ووطأها أفضل للرجل من نكاح أمة بموافقة سيدها ... لأن شراء الأمة ووطأها يؤدي إلى أن تكون أم ولد حرة ، وينال أبنائها الحرية ، وبذلك يكثر الأحرار ويقل العبيد ... وهذا مقصود الإسلام فى التشريع . وما مضى من التصرفات قبل نزول الآيات فقد غفره الله رحمة بعباده .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

مراعاة الواقع البشرى

تعيش الآية مع فطرة الإنسان ، وتتعامل مع واقعه ، وتشجع له ما يشبع رغباته وغرائزه .

إن الإنسان مخلوق له طاقات ، وتهيئة السبل لإشباع الطاقات ، وتحديد المنهج المشروع لحركتها هو الطريق الصحيح لجعل الإنسان إنسانا صالحا .

وغريزة الجنس من أقوى الغرائز ، وطريق إشباعها هو الزواج حين وجود مؤنه المالية والبدنية .

فإذا وجدت القدرة البدنية ، ولم تتحقق المؤنة المالية نجد الإسلام يفتح باب النكاح من أمة يخطبها من سيدها ، ويتزوجها فهي قليلة المهر ، يسيرة النفقة ، وبذلك يأمن الإنسان من الوقوع في العنت .

ومن واقعية الإسلام دعوته إلى تقليل المهر ، ولم يجعل حدا له في القليل أو الكثير ، وبذلك يشبع الإنسان غريزته ، ويساهم بأسرته في بناء المجتمع .
يقول النبي ﷺ : "إن من يمن المرأة تيسير خطبتها ، وتيسير صداقها وتيسير رحمها" (١) .

وعن أبي سلمة رضي الله عنه قال : سألت عائشة زوج النبي ﷺ : كم كان صداق رسول الله ﷺ ؟

قالت : كان صداقه لأزواجه اثنتي عشر أوقية ونشا ، ثم قالت : أتدري ما الونش ؟
قلت : لا .

قالت : نصف أوقية فذلك خمسمائة درهم فهذا صداق النبي ﷺ لأزواجه (٢) .
عن سهل بن سعد الساعدي قال : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله قد وهبت نفسي لك ، فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر فيها وصوبه ، ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه ، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست .

فقام رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها .

فقال : فهل عندك من شيء ؟

(١) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٤ ص ٤٦٩ .
(٢) صحيح مسلم - كتاب النكاح . باب الصداق ج ٩ ص ٢١٥ .

فقال : لا والله يا رسول الله .

فقال ﷺ : اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئاً ؟

فذهب ثم رجع فقال : لا والله ما وجدت شيئاً .

فقال رسول الله ﷺ : "انظر ولو خاتماً من حديد" .

فذهب ، ثم رجع فقال : لا والله يا رسول الله ولا خاتماً من حديد ولكن
إزاري هذا .

قال سهل : ما له رداء .

فقال رسول الله ﷺ : ما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها من شيء
وان لبسته لم يكن عليك منه شيء .

فجلس الرجل حتى طال مجلسه ، ثم قام فرآه النبي ﷺ مولياً فأمر به
فدعا له .

فلما جاء قال له : ماذا معك من القرآن .

قال الرجل : معي سورة كذا وسورة كذا عددها .

قال ﷺ : تقرأهن عن ظهر قلب .

قال : نعم .

قال : اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن ، وفي رواية فقد زوجتكها
تعلمها من القرآن وفي رواية فقد أنكحناكها بما معك من القرآن^(١) .

وفي هذا دلالة ظاهرة على عدم المغالاة في المهور .

إن الاستقرار أولى من المال ... والزواج يشبع الغرائز العديدة بينما المال
لا يشبع إلا غريزة التملك .

ومن واقعية الإسلام دعوته لإتكااح الأيامى اللاتى مات عنهن أرواحهن
وتقديم الصلاح على الغنى . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ

(١) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب جواز النظر إلى المرأة ج ٩ ص ١٨١ .

وَالصَّالِحِينَ مَنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ^١ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ^(١) .

وعسى أن يعيش المسلمون المعاصرون هذه الواقعية ، ويتركوا المغالاة في المهور ، ليتزوج البنون والبنات ويصير المجتمع طاهرا ، نظيفا متماسكا يتباهى به رسول الله ﷺ يوم القيامة .

الركيزة الثانية

الحفاظة على طهارة المجتمع

دعت الآيات إلى الزواج ، وأحلت الزواج بغير المحرمات ، واشترطت في نكاح الحرة أن تكون عفيفة محصنة بعيدة عن الزنا ، واشترط في الأمة أن تكون من المحصنات البعيدات عن الزنا واتخاذ الأخدان .
لقد بينت الآية بوضوح ضرورة الاقتران بامرأة مؤمنة عفيفة طاهرة ، وبذلك يستقيم المجتمع ، وتقوم الأسرة دورها .
تقول عائشة رضي الله عنها : إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء :

فنكاح منها نكاح الناس اليوم . يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته . فيصدقها ثم ينكحها ...

والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته . إذا طهرت من طمئنها . أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب .

وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ... ونكاح آخر . يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم

(١) سورة النور ، الآية ٣٢ .

يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ، ومرت عليها ليل ، بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان . تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل . والنكاح الرابع يجتمع الكثير من الرجال فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، **وهن البغايا** كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ، ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون ، ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك أحد^(١) .

الركيزة الثالثة

تكريم الإمام

يربط الله بين الناس وبين أبيهم آدم ﷺ ليعلموا أن أباهم واحد وأن ما بينهم من تفاوت هو قدر الله فيهم ، ولربما تبدل الحال ليصير العبد حرا ، والحر عبدا .

ولهذا يوجب احترام الإنسان ، والغاء النظرة الدونية لأنها ليست من دين الله تعالى ... والآية واضحة الدلالة في تكريم الإمام ، فقد سماهم الله بـ ﴿فَتَيِّتِكُمْ﴾ واسم الفتاة يطلق على الحرة والأمة معا .

وبين سبحانه أن ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ بلا فرق بينهما في الإنسانية فهم جميعا من أصل واحد ، وعلى دين واحد . ووضحت الآية اتباع أسلوب معين في نكاح الأمة هو نفس أسلوب نكاح الحرة ، فكلاهما يخطب من وليها ، ولها مهرها المكافئ لها .

(١) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٣١٤ .

الركيزة الرابعة

سرتفاوت العقوبة بين الحرة والأمة

تساءل البعض عن سر جعل عقوبة الأمة في الزنا نصف عقوبة الحرة إن قبلت التجزئة ... وما دروا أن هذا التفاوت قمة العدل المحقق للمساواة بين الناس ، وذلك لأن الجريمة تهون بهوان مرتكبها ، وتصعب بعلوه ... وإذا علت الجريمة علت معها العقوبة ، وإذا نقصت نقصت معها العقوبة أيضا .

وقد علم الله ما يحيط الرقيق من مؤثرات تجعل الأمة أضعف أمام الخطيئة ، ولذلك جعل الله عقوبتها نصف عقوبة الحرة .

فكان العدل في عدم المساواة ... وكان من الانصاف عدم إعفائها نهائيا من العقوبة .

لقد وضع الإسلام الحق في موضعه ، وأخذ الجانى بجريمته مراعى كافة الاعتبارات التى تحيط بالجانى .

إن الإسلام راعى ميل الأمة واراقتها حين السفاح ، فقرر لجريمتها عقوبة مناسبة ، ولم يغفل في نفس الوقت واقع المجتمع والناس فيساوى بين الأمة والحرة في العقوبة .

(١٤٦)

مقارنة بين منهج الله ورغبات الضالين

يقول الله تعالى :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة منهج الله تعالى في توزيع الميراث ، والزواج من الحرائر والإماء ، وتحديد المحرمات من النساء جاءت هذه الآيات لتوضيح أن الله يريد بمنهجه تحقيق الخير للناس بينما يريد الضالون المتبعون للشهوات انحراف المسلمين وابعادهم عن تعاليم الله تعالى بصورة كبيرة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله سبحانه وتعالى أراد تنزيل الآيات السابقة ليبين للناس دينهم ، وبشرح لهم مصالحهم ، وبوضح الطريق الذي يصلهم بالله تعالى ، وليعرفهم أن الخير في الصبر وعدم نكاح الأمة .
وتبين الآيات أن الله تعالى يريد للناس أن يسيروا على هدى الرسل السابقين ، وسننهم ، وفي ذلك بيان أن الله تعالى يعفو عن أى تقصير أو نقص ويقبل توبتهم التى يهديهم إليها .
تلك إرادة الله .

أما إرادة أعداء الله الغارقين في الشهوات فهم يعملون ، ويصرون على إغراق المسلمين في الشهوات والمعاصي ليبتعدوا عن الإسلام ابتعادا كبيرا . وعلى المسلمين أن ينتبهوا لهؤلاء الشياطين من الإنس والجن ، وسوف يعينهم الله ، ويقويهم فقد علم ضعفهم ، وأملهم في معونته ماداموا راغبين في طاعته ، راجعين إليه كلما أوقعهم ضعفهم في الخطأ .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ ﴾ إرادة الله نافذة فقد قضى الله تعالى بأن يوضح للناس حكمة ما شرع لهم ، وما في هذا الشرع من خير ليتدبروا معناها ، ويقبلوا عليها بقلب نقي ، وعقل فاهم ، وجوارح مستسلمة ... حتى تكون الطاعة عد ذلك هي حياة المؤمن .

وتدل ﴿ لَكُمْ ﴾ على عناية الله بعباده ، فقد بين لهم خاصة ليطبقوا أعمال الإيمان راضين به ، سعداء بسلوكه من غير تحكم ولا إكراه .

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى يريد الله توضيحه وبيانه أن يوفقكم لتتبع مسار المؤمنين السابقين من اتباع الرسل ، وبذلك تطمئن القلوب ، وهى ترى سيرها على المنهج الذى ارتضاه الله تعالى ... فهى ليست بدعا في إيمانها ، وانما هى بالطاعة صارت جزءا من حشد كبير يعيش الله ، ويعمل للرجوع إليه .

ولم تذكر الآية أنها سنه الرسل مكتفية بأنها سنة الفطرة التى خلق الله الناس عليها .

وفى هذا التصور يحدث ما يلى :

(أ) يشعر المؤمن بمسئوليته الحالية في زمنه عن صيانة الإيمان ، والحرص عليه ، وتسليمه لمن بعده كما أخذه ممن سبقه .

- (ب) يتحمل المؤمن الابتلاءات التي سيلقاها كما تحملها السابقون الأوائل .
- (ج) تسهل أعمال الإيمان على المؤمن لأن ما سبق وقوعه يسهل تكراره .
- (د) يخلص المؤمن لدينه وربه فلسوف يأتي أجله ، وتنتهي دنياه ، ولا يبقى من بعده إلا الذكرى ، فلقد رحل المخلصون من لدن آدم ﷺ إلى يومنا هذا ، وما خلد أحد ... والذكرى هي الباقية .
- (هـ) يسعد المؤمن بهداية الله لأنه يرى نفسه واحدا من رسل الله والمخلصين السابقين في الأمم السابقة ، ويشكر الله أنه ليس واحدا من العصاة مثل فرعون ، وهامان ، وقارون ، وسائر الضالين على الزمن كله .
- (و) تعالى المؤمن عن كل سوء يعيشه الآخرون ، ولا تغره مظاهرهم فهو عال بالإيمان ، قوى بالله ، يعيش بكليته لله سبحانه وتعالى يؤمن بالحقيقة ، ولا تخدعه الأكاذيب وإن لعبت بالكثير .

﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى يبين الله حكمته وأحكامه ، ويعرفكم منهج الإيمان ليرحمكم ويعرفكم بطريق الأمل ، ويرزقكم الرجوع إليه ليتوب عليكم ويوفقكم لكل خير يستحقونه .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى محيط بأعمال عباده ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل أقوالكم وأفعالكم في أمور دينهم ودنياهم فيوفقهم للإيمان ، ويزيدهم هدى ، ويأتيهم تقواهم .

وهو سبحانه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يقدر لكل أمر قدره ، ويدبر الأمور وفق مشيئته وعلمه .

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى يريد الله سبحانه وتعالى بمنهجه الإسلامى أن تتوبوا وتستقيموا فيتوب عليكم ، وتحيط بكم الفيوضات الربانية ، والمعونات الإلهية ، وما تستحقونه من خير .

تلك إرادة الله .

أما إرادة الذين يتبعون الشهوات أعداء الله فهي معارضة لإرادة الله ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴾ أى أن هؤلاء الذين يتبعون الشهوات يعيشون الغرائز المادية الحيوانية ، ويملاؤن حياتهم باللهو والعنت لا تغنيهم رسالة ، ولا يشغلهم واجب ... هؤلاء يريدون للمسلمين أن يبتعدوا ابتعادا كبيرا عن الحق بارتكاب المعاصي ، والإغراق في الشهوات ، والاغترار بالدنيا وما فيها من مال ، وسلطان ، ونساء ، ولهو .

والإنسان بهذا أمام منهجين : منهج يريده الله وهو الحق ... ومنهج يريده أعداء الله وهو الباطل ... وعلى الإنسان أن يختار لنفسه .

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تَخْفَفَ عَنْكُمْ ﴾ أى يريد الله بمنهجه الذى جاء به الإسلام أن يكون سهلا ميسرا لا حرج فيه ولا مشقة ، فيه الغرائم ، وفيه الرخص ... يراعى الفطرة ، ويتعامل مع الواقع السوى .

إنه منهج يشبع الدوافع الفطرية بعدل ونظافة ، ويسعد الجميع بقناعة ، وهدوء ، ويستخرج من الإنسان كوامن الخير ، وقوة الروح ، وعزيمة الإنسان ...

هذا المنهج هو الذى أخرج الصحابى رعى بن عامر رضي الله عنه وجعله يدخل على القيصر حافى القدمين بثوب رث مهلهل . ويقول له : لقد بعثنا الله لنخرج الناس من عبادة المادة إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة .

﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى وضع منهجه بإرادته الحكيمة العليمة القادرة مناسبا لضعف الإنسان أيا كان هذا الضعف ...

حيث أن منهج الله في الناس لن يأمر بشئ يستحيل فعله ، ولم ينه عن شئ يستحيل تركه .

(١٥٠)

وقد يظهر في الناس من يتصور استحالة ترك الشهوات ، وقد استغرقها واستغرقتها ... ويتصور في نفس الوقت استحالة فعل الواجبات وقد بعد عنها ... ويتصور بعض الناس ذلك فيميلون لمنهج الذين يتبعون الشهوات المنحرفين عن الحق ... وهؤلاء مناط التحذير في الآية .

إن ما يتصوره هؤلاء الناس وهم لا حقيقة له ، ولا فائدة فيه لأن إطلاق الشهوات ، والجرى وراء الملذات ، وتصور الحياة لهو ، وعبث ، ولعب ، وخداع للنفس ، وضياح للحاضر والمستقبل ، وذلك يتأكد بأمرين :

(١) إن اللذة تتحقق في وقت يسير وبعدها يوم التأنيب والحسرة .

(٢) إن الإغراق في الحياة الحيوانية ضياح للقيم والمبادئ ، واهدار للإنسانية والأخلاق .

وحدثوني بالصدق لو طال عمر العايب ، واقترب من الموت ماذا سيقول عن ماضيه ؟

وما هو شعوره عن الرغائب الدنسة التي عاشها ؟ ...
ألا يشعر بالندم ؟

ماذا بقى له من لذائذ الرذيلة ، ومتع الفحشاء ؟
إن العالم الذى تحرر من تكاليف الله ضاع بنوه ، وانحطت أخلاقه وفسدت حضارته ، والشواهد عديدة سجلها التاريخ ، ووضحها الواقع .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله سبحانه حدد منهجه الذى وضعه في دينه ، وأنزله للناس على لسان رسول الله ﷺ وأثبتته محفوظا في وحيه المنزل ... يريد الله بهذا المنهج أن يبين للناس الإسلام كله ليلتزموا به ، ويستقيموا عليه ، وهو بيان فيه الوضوح والإقناع ، وبيان الحكم والأحكام .

ويريد سبحانه وتعالى بهذا المنهج استقامة الناس على هدى الله الذى سار عليه المؤمنون السابقون من الرسل واتباعهم ... ويريد أن يوفق الله عباده المؤمنين إلى التوبة والعودة إلى الإيمان ليتوب عليهم وفق علمه الدقيق ، وحكمته البالغة .

وتبين الآيات أن منهج الله تعالى يختلف عن منهج أعداء الله تعالى فى الغايات فمنهج الله بما فيه من حقوق وواجبات يبغي الهداية والخير للمؤمنين ... ومنهج أعداء الله يريد إبعاد المؤمنين عن دينهم ، والهائم بالشهوات ، وابعادهم عن الإسلام كله .

إن الآيات توضح المنهجين ، وتحدد غاياتهما ليكون المسلم عل بصيرة من أمره ، وتختتم الآيات ببيان أن الله سبحانه جعل دينه وتعاليمه مناسبة لفطرة الإنسان الضعيف فلا مشقة فيها ولا حرج في الالتزام بها .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان فضل الله على الناس

رحمة الله بعباده واسعة ، وفضله عليهم كبير ... وفى الآيات بيان لهذا الفضل العظيم ... ومن هذا الفضل :

(١) بيان الإسلام للناس ، واقناع العقل به ، وإبراز الحكم والفوائد التى تعود على المؤمنين بالإسلام فى الدنيا والآخرة ... فالإسلام دين تحددت معالمه ، وعرفت تعاليمه ، الحرام بين والحلال بين ، لا يزيغ عنه إلا جاحد أو جامد .

(٢) يقنع الله الإنسان بصلاحية الإسلام فهو على منهج الرسل ، وهو متمم لما جاءوا به .

(٣) توضيح أن قدرة الله غالبية وهو سبحانه مالك الملك ، وهو على كل شيء قدير ، وأن من اهتدى بهدى الله هدى إلى صراط الله المستقيم .

(٤) مراعاة حاجات الإنسان ، والمحافظة على الضرورات التي يحتاج إليها . هذا كله من فضل الله على الإنسان وهو يبين له ما في الدين من فضل ويدعوه إلى الاستسلام والإيمان .

والدعاة إلى الله سبحانه وتعالى مسئولون عن هذا البيان ، فقضايا الإسلام عديدة ، وكل منها يحتاج إلى بيان للناس لرد الشبه ، والقضاء على الأراجيف . ويمكن للدعاة كل في إقليمه ، وموقعه أن يختار القضايا التي تهم من يدعوهم ويقدمها لهم ، مع بيان مزاياها ، وفضل الله عليهم بها . إن البيان الجاد للإسلام هو خير طريق للدعوة إليه ، لأن الإسلام هو أعدل القضايا ، وحاجته لمن يظهره ويجليه كبيرة ، وتلك هي مسئولية الدعاة .

الركيزة الثانية

توضيح منهج الضالين

الضالون أعداء الله والناس لا يكتفون بضلالهم أنفسهم ، وإنما يحاولون إيقاع غيرهم فيما وقعوا فيه إيماناً بباطلهم أو تكثيراً لمعسكر البؤس والشقاء . وقد وضع الله منهج الضالين للحذر منه ، إنهم يحاولون إبعاد المسلمين عن الإسلام ، ويعملون على إمالتهم عن الحق والصواب . إن منهج الضالين هو إطلاق الغرائز من عقالها ، وفك قيود الشهوات ، ونشر حرية العرى والفجور بين الشباب والشابات .

(١٥٣)

وقد حذر الله من هذا المنهج بعد ان نادى في الآيات السابقة بالطهر ،
والعفة ، والفضيلة ... إنهم يريدون انطلاق غريزة الجنس ليتحول البشر إلى
قطعان من البهائم يلتقى فيها الذكر بالأنثى بلا ضابط من الخلق والدين وتحث
مسميات الحرية ، والصداقة ، والمساواة .

إنهم يطلقون الشهوة ، ويشعلون لهيبها بقصص الحب ، وروايات الغرام
والعشق بعيدا عن قيم الدين وحسن تعاليم الله .

إنهم يطلقون شهوة حب المال باسم الحرية ، وبذلك يسهل الغصب ،
والسرقة ، والرشوة ، والربا ، والخشع في البيع والشراء .

إنهم يطلقون شهوة الحكم والسلطان ليتحكم القوى في الضعيف ، وتضيع
الحقوق ، ويصير القوى حكم الغابة الوحيد .

إن الذين يتبعون الشهوات يملكون اليوم من الوسائل ما يساعدهم على
نشر فسادهم وسوءاتهم .

ومن هنا ...

وجب على الدعاة بيان منهج الله ، ورد مناهج المفسدين ، وليعلموا
ويعلموا الناس أن منهج الله هو الأمان للناس ، وهو الصراط المستقيم المحقق
للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة .

الركيزة الثالثة

توافق الإسلام مع الإنسان

الله هو خالق الإنسان وهو العليم به ، ولذلك شرع له ما يناسبه ...
يعلم الله تعالى أن الإنسان ضعيف في عزمته ، ضعيف في طاقاته ،
ضعيف أمام أعدائه ، وذلك هو واقع الإنسان .
أنزل الله دينه مراعيًا هذا الضعف في الإنسان ، فحدد له التكاليف ، وبين
له المحاذير ، ورفع عنه الحرج .

شرع الله الوضوء فإن تعذر فالتيمم ، فإن تعذر فالمسح .
 وشرع الصلاة وقصرها في السفر ، ورخص للحائض تركها .
 وهكذا في سائر التكاليف حيث اليسر ورفع الحرج .
 وإن أخطأ إنسان فتح له باب التوبة والمغفرة .
 إن الإسلام يعترف بوجود الدوافع الفطرية للإنسان ويشبعها بطريقة آمنة مرضية .

وحافظ الإسلام على كافة الحقوق فشرع العقوبات ليستقيم أمر الحياة .
 إن الذي ينقص الإسلام اليوم هو تطبيقه ، والإخلاص في بيانه والدعوة إليه .

وأبناء الإسلام اليوم هم أول المقصرين ، ففهمهم للإسلام ضعيف ،
 والالتزام به قليل ، واستغراقهم في منهج الضلال والفساد كبير .
 ولن ينصلح حال الأمة إلا بالإسلام وعسى المسلمون يدركون .

تحریم العدوان على المال

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ
 تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا
 ﴿٦٦﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى
 اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٦٧﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة حرمة الأعراض ، ومنهج المحبين للشهوة في
 الفساد جاءت هذه الآية تبين حرمة الاعتداء على مال الغير .

(١٥٥)

- ٢ -

موضوع الآيتين

الآيتان توضحان حرمة العدوان على مال الغير وعدم قتل المسلم لأخيه
فعاقبته وخيمة ، واثمه كبير .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ هذا نداء من الله تعالى للمؤمنين لينبهم

إلى أهمية ما ينادون به فهم الأحق بالإجابة .

وتنبيههم بحرف التنبيه "ها" المصاحبة للنداء دليل على أهمية ما يدعون إليه .

﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ المراد بالباطل الحرام

والنهي في الآية موجه للمؤمنين حتى لا يستولوا على مال الغير بطرق محرمة
كالربا ، والقمار ، والغصب ، والسرقة ، والخيانة ، وشهادة الزور ، وأخذ المال
باليمين الكاذبة ، والعقود الفاسدة ... وهكذا .

وأضافت الآية الأموال إلى المؤمنين مع أنه مال غيرهم لبيان تكافل الأمة
، فهم جميعا شركاء في المال الذى جعله الله لهم ، مع أنه سبحانه وتعالى هو
مالكه الحقيقى .

والمال إن كان مملوكا لصاحبه فإضاعته تكون بالسفه والتبذير ، وانفاقه
فيما لا يحل ، وإن كان المال لغيره فإضاعته تكون بإحدى الطرق المشار إليها
لاحقا .

وذكرت الآية ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ للإشارة إلى وظيفة المال فقد جعله الله للتداول

بين المتعاملين بيعا وشراء ، ولذا لا يصح أكله والعدوان عليه كما لا يصح
كنزه وعدم أداء حقه .

وخصت الآية الأكل بالذكر ، ونهت عنه مع أن المقصود النهى عن كافة التصرفات الباطلة لأن الأكل هو المقصود الأهم من المال فذكرته وغيره تبع له .

﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ إلا بمعنى لكن المفيدة

للاستثناء ، وبذلك يستثنى الله من الأكل المنهى عنه التجارة التي يرضى بها الطرفان ، وهى التجارة القائمة على تعاليم الشرع وأصوله .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ هذا هو النهى الثانى وهو أن يقتل الإنسان

نفسه ... ولذلك صور :

(أ) أن يقتل الإنسان نفسه بالانتحار إذا حلت به مصيبة أو خسارة أو نزل به مرض .

(ب) أن يهمل الإنسان في طعامه ، وعلاج مرضه حتى يموت .

(ج) أن يقتل غيره قتلا حقيقيا .

(د) أن يقتل نفسه بارتكاب الحرام ، وأكل مال الناس بالباطل فيضيع نفسه .

والنهى في الآية يشمل هذه الصور .

ونهى الآية عن قتل النفس مضافة إلى المخاطبين لأن القتل إن وقع على النفس فالتعبير حقيقى ، وإن وقع على الغير فهو مجازى ، ومعناه أن إخوانكم كأنفسكم فأنتم أهل دين واحد فلا تعتدوا عليهم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى رحيم بكم ،

ومن رحمته أن نهاكم عن ما نهاكم عنه حتى لا يقع أحدكم في دائرة العصيان والعقوبة .

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ اسم الإشارة راجع إلى قتل النفس ، وأكل مال

الغير بالباطل .

﴿عُدُّوْنَا وَظُلْمًا﴾ أى أن من يفعل ذلك يعد معتديا بلا حق ، ولا سلطان وظالما بإضرار الغير من غير سبب .
وانما قيد التعدى بالظلم والعدوان لأن التعدى قد يكون بحق كالقصاص أو أخذ ماله الذى يستحقه .

﴿ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴾ أى سوف ندخله نار جهنم في الآخرة ، تشتعل به ويكون هو وقودها .

﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى أن إلحاق العقوبة المذكورة للذين أجزموا الجرائم المذكورة أمر هين على الله تعالى ، فهو على كل شئ قدير .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله سبحانه وتعالى نهى المؤمنين عن فعلين محرمين :
أولاهما : إضاعة المال والتعدى عليه سواء كان للنفس أو للغير لأن السفه ، والتبذير ، وصرف المال في الحرام عدوان من صاحب المال على ماله ، والعدوان على مال الغير يكون بالسرقة ، أو الغصب ، أو الغش ، أو الخيانة ، أو بغير ذلك من صور العدوان ، وقد نهى الله عن العدوان على المال بأى من هذه الصور وغيرها .

ثانيهما : قتل النفس بالانتحار ، أو إهمال التداوى ، أو قتل الغير منهى عنه وتبين الآية أن من يفعل ذلك بلا سبب فسوف يدخل نار جهنم يعذب فيها بنار مسعرة دائمة .

(١٥٨)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

في الآية ركيزة هامة ... هي :

تعظيم حرمة نفس المسلم وماله

يدعو الإسلام إلى صيانة المسلم ، والمحافظة على حاجاته الضرورية وعلى رأسها النفس والمال .

ولذلك نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل أو قتل النفس بغير حق ، وأعد لمن فعل ذلك نار جهنم خالدا فيها .

اجتناب الكبائر

يقول الله تعالى :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُهَوِّنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآية السابقة الأعمال المؤدية إلى نار جهنم جاءت هذه الآية لتبين الأعمال التي تؤدي إلى غفران الذنوب بعد التوبة .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن من اجتنب وترك كبائر الأعمال غفر الله الصغائر إذا ارتكبها صاحبها ضعفا ، وتاب عنها .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا ﴾ الخطاب موجه للمؤمنين المذكورين في الآية السابقة

لترك الكبائر ، والبعد عنها ، والاجتناب هو المباحة والترك .

﴿ إِنِ اجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ يبين الله للمؤمنين وهو يخاطبهم

أنهم إن ابتعدوا عن المعاصي الكبيرة التي نهوا عنها يغفر الله لهم سيئاتهم الصغيرة بالاقلاع عنها ، والرجوع إلى الله تعالى ، ويبين لهم أنهم بسبب ضعفهم قد يرتكبون بعض المعاصي الصغيرة ، ولذلك وعدهم الله بمغفرتها إن بعدوا عن الكبائر ...

عن الحسن البصري رحمته الله أن ناسا سألوا عبدا لله بن عمرو رحمته الله بمصر ، وقالوا له : نرى أشياء من كتاب الله . عز وجل . أمر الله أن يعمل بها ، لا يعمل بها ؛ فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك !!
فقدم بهم إلى المدينة حيث عمر بن الخطاب رحمته الله .
فقال عمر رحمته الله : متى قدمت ؟

فقال عبد الله : منذ كذا وكذا ، يا أمير المؤمنين ، إن ناسا لقوني بمصر فقالوا : إنا نرى أشياء في كتاب الله ، أمر الله أن يعمل بها ، فلا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك في ذلك .

قال عمر رحمته الله : فاجمعهم لي ، فجمعهم عبد الله ، وذهب إلى عمر .
فأخذ عمر أذنهم رجلا ، وقال له : أنشدك الله ، وبحق الإسلام عليك ،
أقرأت القرآن كله !

قال الرجل : نعم .

قال عمر : فهل أحصيته في نفسك ؟

فقال الرجل : اللهم لا .

قال عمر : فهل أحصيته في بصرك ؟ ... فهل أحصيته في لفظك ؟ هل
أحصيته في أثرك ؟ ...

(١٦٠)

فتتبعهم عمر رجلا رجلا حتى أتى على آخرهم ثم قال : ثكلت عمر أمه !
أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ ... قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات
وتلا قوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ .

ثم قال : هل علم أحد بما قدمتم ؟

قالوا : لا .

قال : لو علموا لوعظتهم بكم^(١) !

وفى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو الفاروق المتشدد في تمسكه ، وتدينه
توضيح أن ستكون لنا سيئات يغفرها الله لمن اجتنب الكبائر .
ويبين النبي صلى الله عليه وسلم أن للمؤمن سيئات فيقول صلى الله عليه وسلم : "من سرته حسنته
أو ساءته سيئته فهو مؤمن"^(٢) .

إذا أخطأ المؤمن . وكل بنى خطأ . فعليه أن يعود إلى الله ، ويتوب من
قريب ليغفر الله له سيئته ، فقد وعد الله سبحانه وتعالى في الآية بأن من ترك
الكبائر ، وابتعد عنها فإن الله سبحانه وتعالى برحمته يكفر له سيئاته ، ويغفر
ذنوبها ، ويدخل المغفور له الجنة .

والكبائر جمع كبيرة ، وهى كل ذنب عظم قبحه ، وعظمت عقوبته ، إما
في الدنيا بالحدود ، وإما في الآخرة بالعذاب الأليم .
يقول عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : كل شئ عصى الله به فهو
كبيرة^(٣) .

ويقول علي بن أبى طالب رضي الله عنه : كل ذنب ختمه الله بنار ، أو عذاب ،
أو لعنة ، أو غضب فهو كبيرة^(١) .

(١) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٣٤٠ .

(٢) مصنف ابن أبى شيبة ج ٧ ص ٢١٤ .

(٣) تفسير الخازن ج ١ ص ٥١٤ .

وقد وردت أحاديث تتحدث عن الكبائر ... منها :

– عن أبي بكرة رضي الله عنه قال كنا عند رسول الله ﷺ فقال : "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ... قالها ثلاثا .

قلنا : بلى يا رسول الله .

قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين وجلس ، وكان متكئا وقال : ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت" (٢) .

– عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : "ذكر لنا رسول الله ﷺ الكبائر .

فقال : هي الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، وقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قول الزور ، أو قال شهادة الزور" (٣) .

– عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "اجتنبوا السبع الموبقات" .

قيل : يا رسول الله وما هن ؟

قال : "الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات" (٤) ...

– عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله ؟

قال : "أن تجعل لله ندا وهو خلقك .

قلت : إن ذلك لعظيم ، ثم أي ؟

قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك .

قلت : ثم أي ؟

قال : تزني بحيلة جارك" (١) .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥١٤ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الشهادات . باب ما قيل في شهادة الزور ج ٩ ص ١٣٩ .

(٣) شعب الإيمان للبيهقي . فصل في بيان الكبائر ج ١ ص ٢١١ .

(٤) صحيح مسلم - كتاب الإيمان . باب بيان الكبائر ج ١ ص ٢٤٤ .

- عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال :
"الكبائر : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين
الغموس" (٢) .

- جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما الكبائر ؟
قال ﷺ : "الإشراف بالله .

قال : ثم ماذا ؟

قال : اليمين الغموس .

قال : وما اليمين الغموس ؟

قال ﷺ : الذي يقتطع مال امرئ مسلم بيمين هو فيها كاذب" (٣) .

- وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : "إن من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا :
وهل يشتم الرجل والديه ؟

قال : نعم يسب الرجل أبا الرجل أو أمه فيسب أباه أو أمه" (٤) .

﴿ تُكْفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أى نستتر سيئاتكم الصغيرة حتى تصير كأنها

لم تقع ... وهكذا تكفر الكبائر الصغائر ، أما الكبائر فإنها لا تغفر إلا بالتوبة .

﴿ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ أى ندخلكم الجنة إذا اجتنبتكم الكبائر

وأنتيتهم بالطاعات حيث المقام الكريم والدخول الواسع .

يقول ابن مسعود ؓ : من عمل شيئاً من الصغائر فليستغفر الله فإن الله لا

يخلد في النار إلا من كان راغباً عن الإسلام ، أو جاحداً فريضة ، أو مكذباً بقدر

(١) صحيح البخارى - كتاب التفسير . باب قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا ﴾

ج ١٣ ص ٣٩٤ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الأيمان والنذور . باب اليمين الغموس ج ٢٠ ص ٣٦٧ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب استتابة المرتدين . باب إثم من أشرك ج ٢١ ص ٢٣٨ .

(٤) صحيح مسلم - كتاب الأيمان . باب بيان الكبائر ج ١ ص ٢٤٥ .

والكبائر غير منحصرة فيم ذكر لأنها هذه أمثلة يقاس عليها كمن يعلم ولده الاهتمام بالعلم ويقول له : إقرأ ، فإن القراءة تكون نموذجاً يتبعه في سائر صور الاهتمام بالعلم مثل الكتابة والسماع وغير ذلك .
والغزالي يرى الكبيرة في عدم المبالاة بالأمر والنهي ، والمجاهرة بالعصيان والمخالفة .

ويرى بعض العلماء أن من الكبائر إهمال الواجب الديني عملاً ، أو قولاً .
وتقع الكبائر من الأفراد والجماعات .
ومن الكبائر إهمال المسلمين للعلوم التجريبية حتى صاروا ذيولاً بين الناس ، يفقدون أراذل الخلق بالعلم الذي اهتموا به ... مع أن الإسلام جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .
ومن كبائر الجماعة المسلمة كتمان ما علموا وإهمال الدعوة إلى الله تعالى يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾^(١) .
ولعل إهمال المكلفين إرشاد الناس ، ووعظهم ، وأمانتهم كبائر يقع فيها الكثيرون ، فهم بهذا الإهمال يأكلون حراماً ، ويضيعون واجباً ، ويساعدون العامة على الجهل بالدين .
وكثير من الأخلاق السيئة التي تسود حياة المسلمين هي من الكبائر التي سيحاسبهم الله عليها^(٢) .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن المؤمنين الذين يجتنبون الكبائر يغفر الله ذنوبهم الصغيرة ويدخلهم الجنة ، ويكرمهم برضوان الله تعالى إن تابوا واستقاموا .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٩ .

(٢) انظر من هدى سورة النساء للأستاذ حنان لحام ص ١١٨ بتصرف .

(١٦٤)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

مراعاة الفطرة الإنسانية

الإنسان مخلوق لله تعالى ، فيه الخير والشر ، ولكل منهما جنوده وقوته ويعلم الله ما في الإنسان من ضعف وما فيه من قوة ، وحتى يعيش الإنسان الأمل قضى الله مغفرة ذنوبه الصغيرة إن ترك الكبائر وابتعد عنها .
ومن هنا ...

يعيش الإنسان برحمة الله بعيدا عن اليأس والقنوط ، لا تقعه خطيئته أبدا لأن مغفرة الله تتفذه منها ، وتنتشله من أى سوء وقع فيه .
وإذا ارتكب الإنسان كبيرة فعليه أن يتوب منها ليتوب الله عليه ، ومعها تغفر له الصغائر وتكثر العطايا والأفضال . يقول الله تعالى : ﴿ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَجَعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (١) .

إن الله سبحانه وتعالى يضع الإنسان في موضعه الصحيح ، فيأمر بما يتناسب مع مكوناته وطبيعته ، ويحيطه بما يشبع حاجاته ، ويساعده على التغلب على جوانب الضعف فيه .

في الإسلام يجد العقل غايته ، وتجد الروح مناها ، وترى الدوافع ما تريد ، ويجد البدن ما يغذيه ويقويه .

إن هذا الدين هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

إن خطاب القرآن للناس يحببهم في الطاعة ، ويفتح لهم باب الأمل ، ويتعامل معهم في رحمة ، ومودة .

(١) سورة نوح ، الآيات ١٠ - ١٢ .

وعلى الدعاة ...

أن يقترحوا من المدعوين ويتحببوا إليهم ، ويداوموهم بالنصح ، والموعظة ، ورعاية المصلحة .

والترغيب فن من فنون الدعوة نطق به الأنبياء والدعاة ، وهو الطريق الأمثل لدعوة الناس إلى دين الله تعالى .

الركيزة الثانية**الترغيب في الخير**

تؤثر العادات والإلف في الإنسان بصورة كبيرة ، ولذلك دعا الله الإنسان أن ينشأ في الطاعة ليألفها ، ويتعودها ، وبذلك تلد الطاعة غيرها ، وتتكاثر في نفس الإنسان حتى تسيطر الطاعات على قلبه ولسانه وجوارحه .

لو كون المؤمنون مجتمعاً خالياً من الخطايا لنشأ الصغار على ما رأوا ولصاروا جزءاً من هذا المجتمع .

إن الله تعالى يرغب في الطاعة والاستقامة ، ولذلك فهو سبحانه يربط مغفرة الذنوب ، ودخول الجنة على ترك الكبائر ، والابتعاد عنها ، وإهمالها .
إن من المعلوم أن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه ، ولذلك كان شرط النجاة الابتعاد عن الكبائر ليعيش الإنسان آمناً محاطاً بالخير في الدنيا والآخرة .

الرضا بشرع الله والالتزام بالطاعة

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۚ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾

وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ^١ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٢٦٦﴾ .

- ١ -

سبب النزول

وردت عدة روايات في سبب النزول ... منها :

- عن مجاهد رضي الله عنه أن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله يغزوا الرجال ولا تغزوا النساء ، وإنما لنا نصف الميراث ، فأنزل الله تعالى

: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾^(١) .

وقيل : لما جعل الله للذكر مثل حظ الأنثيين من الميراث قالت النساء نحن أحق إلى زيادة من الرجال ، لأننا ضعيفات ، وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش منا فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٢) .

وقيل : لما نزل قوله : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ﴾ قالت الرجال : إنا

لنرجو أن نفضل على النساء في الحسنات في الآخرة فيكون لنا أجرنا على ضعف أجر النساء كما فضلنا عليهن في الميراث .

وقالت النساء : إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال كما لنا في الميراث النصف من نصيبهم : فنزلت هذه الآية^(٣) .

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما ذكرت الآيات السابقة حقوق النساء والرجال في الميراث ، وفي الحياة الزوجية جاءت النسوة ، وجاء الرجال يتمنون زيادة أنصبتهم في الدنيا والآخرة .

(١) تفسير الطبري ج ٨ ص ٢٦١ .

(٢) تفسير البغوي ج ١ ص ٥١٦ .

(٣) تفسير الخازن ج ١ ص ٥١٦ .

(١٦٧)

فجاءت الآية داعية الرجال والنساء ليرضوا بما قسم الله لهم في دين الله تعالى .
فقد حدد الله الورثة والمقادير لكل وارث .

- ٣ -

موضوع الآيتين

تنتهي الآيتان النساء والرجال عن تمنى نصيب الآخر فقد حدد الله القسمة بحكمته ، وعدله سبحانه وتعالى .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أصل التمنى إرادة الشيء ، واشتهاء الحصول عليه ، ونواله لما فيه من رجاء وأمل ... ومنه حديث النفس بما كان ، وبما لا يكون ، وبما سيكون .
وقد يكون التمنى عن ظن وتخمين كما يتمنى الإنسان نفسه في السماء ، وقد يكون عن حقيقة وواقع كما يتمنى الفقير نفسه واحدا من الأغنياء ، وأكثر ما يكون التمنى مع الخيال .

والتمنى المراد في الآية يكون مع الواقع ، وهو قسمان :

أحدهما : أن يتمنى الإنسان الحصول على مثل ما لغيره مع زوال تلك النعمة عن ذلك الغير فهذا القسم هو الحسد ، وهو مذموم لأن الله تعالى يفيض نعمه على من يشاء من عباده ، وهذا الحاسد يعترض على الله تعالى فيما فعل وربما اعتقد في نفسه أنه أحق بتلك النعمة من ذلك الإنسان أيضا فهذا اعتراض على الله أيضا وهو مذموم .

القسم الثاني : أن يتمنى مثل ما لغيره ولا يحب إن يزول ذلك المال عن الغير ، وهذه هي الغبطة وهي غير مذمومة .

وتمنى الصحابة الوارد في سبب نزول الآية هو من النوع الثاني .

وقد ذهب البعض إلى ذم الغبطة أيضا لأن هذه النعمة التي سعد بها من هي معه قد تكون مضرة في حق الممتنى ، ومن الأولى الرضا بقضاء الله تعالى فهو الحكيم الخبير .

يقول الحسن البصري : لا تتمنى ما لفلان فأنت لا تدري لعل هلاكك في ذلك المال ، فليعلم العبد أن الله تعالى أعلم بمصلحة عباده منهم فليرض بقضائه ، ولتكن أمنيته الزيادة في عمل الآخرة ، وليكن قوله : اللهم أعطني ما يكون صلاحا في ديني ، ودنياي ، ومعادى^(١) .

وهذا التمنى يكون من الرجال والنساء ، ويشمل الماديات والمعنويات ، ولذلك جاء النص : ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ .

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا^ط وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾

يعنى أن كلا من الرجال والنساء له نصيب مما ترك الوالدان والأقربون قدره الله وحدده ، والرضا به واجب .

وقيل : المراد به نصيب كل منهما متساو في الآخرة حيث الحسنة للجميع بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها .

وقيل : للرجال نصيب من عملهم في الجهاد ، وللنساء نصيب من عملهن في طاعة الأزواج وتربية الأولاد ، وحفظ الفروج .

والمعنى : أن الله ساوى بين الرجال والنساء فيما قدر لهم وفيما قضى ، في الميراث ، وفي جزاء الأعمال ، وفي التكاليف الشرعية ، فهي وإن اختلفت صورها فهي متساوية في تأثيرها وأثرها بين الرجال والنساء .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥١٦ .

﴿ وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى ادعوا ربحكم أن يمدكم حسن العبادة ،
وسعة الرزق ، والتوفيق للصالحات ، وارضوا بما قسم لكم ، فإنه سبحانه وتعالى
رب الجميع ، وهو عليم بمصالح عباده أجمعين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أى اطلبوا من الله الخير ،
وارضوا بما قضى ، فهو عليم بكل شئ ، يحقق مصلحة عباده ، ويسمع الدعاء
والطلب ، وعلم الله محيط وقدرته شاملة ، ولا يقع فى ملكه إلا ما علمه وأراده
فسارعوا إلى الطاعة والرضا .
ولا تتمنوا غير ما قدره الله لكم ، ولربما كان المال الذى أسعد إنسانا يكون
سببا لشقاء غيره .

﴿ وَلِكُلِّ ﴾ أى لكل من الرجال والنساء .

﴿ جَعَلْنَا مَوَالِي ﴾ أوجدنا ورثة لهم من أبناء العمومة والإخوة ، وسائر
العصابات .

﴿ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ أى يرثون مما ترك الوالدان
والأقربون ... فالوالدان والأقربون هم المورثون .

وقيل : المعنى جعل الله لكل من الرجل والمرأة موالى من الوالدين
والأقربين يرثونهم ... وعلى هذا فالوالدان والأقربون هم الورثة .
والمعنى : ان لكل ميت ورثة بينهم الله تعالى فالتزموا به .

﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ ﴾ أى والذين عاهدتموهم ، وتحالفتم معهم
، وجعلت الآية العقد باليمين كناية عن التعاهد على عادة الناس لأنهم
يتماسكون بأيديهم حين التعاهد ، والمراد بهم الحلفاء .

﴿ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أى أعطوهم ما تحالفتم عليه من النصرة والنصيحة ، والوفاء ، والمصافاة ، وغير ذلك .

وقيل : إن أبا بكر حين أبى ابنه عبد الرحمن الإسلام أقسم أن يحرمه من الميراث ، ثم لما أسلم عبد الرحمن أمر رسول الله أبا بكر ﷺ أن يكفر عن يمينه ويؤدى لولده نصيبه من الميراث^(١) .

ويذهب بعض المفسرين إلى أن المسلمين كانوا يتوارثون بالتحالف والتعاهد ، فلما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾^(٢) تغير الحكم ، وانحصر الإرث في الأقارب والأرحام والأصهار ، وفق تحديد آيات المواريث .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ أى أن الله عليم بكل ما خلق وبرأ ، شاهد على كل شئ يقدر له بحكمته وعلمه ، وهو سبحانه عليم بأعمال الناس يحاسبهم ، ويثيب الطائعين بالجنة ، ويثيب العصاة بنار جهنم ويئس المصير .

- ٥ -

معنى الآيتين

تدعو الآيتان الرجال والنساء إلى الرضا بعتاء الله تعالى ، وعدم النظر في عطاء الغير ، فلكل نصيبه الذى قدره الله له ، كما أمرهم أن يسألوا الله الخير والفضل فهو العليم ، يعطى بحكمة ، ويقدر بعدل ، ويحاسب على العمل برحمة وعفو .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥١٠ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٧٥ .

ركائز الدعوة في الآيتين

تضمن الآيتان ركيزة هامة ... هي :

ضرورة الرضا بما قسم الله تعالى

خلق الله الخلق ، وهدى لكل مخلوق ما يناسبه ، إلا أن نفوسا لا ترضى بما قدر لها ، وتتنظر في عطاء الله لغيرها ، وتتمناه أو مثله لنفسها ، وذلك يولد المنافسة المذمومة ، ويؤدى إلى الكراهية والحقد والتنازع .

إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، قضى أمور الحياة منذ الأزل ، والإيمان بهذه الحقائق يحدد للإنسان واجبه ، ويرضيه بما قدر له ، ويساعده على أداء العمل الذى كلف به ، وليكن في حياته مع نفسه ، ومع الناس كما أمره الله ... يبتعد عن مجهول لا يعلمه ، ويدع الأمانى لله تعالى يحقق منها ما يريد .

إن العقل البشرى لعجزه ينشغل فيما ليس له ، ويهمل بما كلف به ، والمطلوب أن يكون المسلم أغنى الناس بالرضا ، وأن يكون أعبد الناس بالطاعة ، وأن يكون أسعد الناس باتصاله الدائم بربه الكريم ، إن الله عليم بخلقه ، شاهد على كل شئ ، وما قضى به هو الحق ، وما حكم به هو العدل .

عش أيها الإنسان في حدود طاقتك ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، واسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله تعالى ، ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض .

قوامه الرجل ومشكلات الأسرة

يقول الله تعالى :

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالْصَّالِحَاتُ قَنِبَتْنَ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ۚ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأْضَرِّبُوهُنَّ ۚ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ۝﴾ .

(١٧٢)

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت في سعد بن الربيع رضي الله عنه وكان من النقباء وفي امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير رضي الله عنها .
ويقال : نزلت في امرأته بنت محمد بن مسلمة وذلك أنها نشزت عليه ، فلطمها ، فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ .
فقال : أفرشته كريمتي فلطمها .
فقال النبي ﷺ : "لنقتص من زوجها" فانصرفت مع أبيها لتقتص منه .
فقال النبي ﷺ : "ارجعوا هذا جبريل أتاني" بهذه الآية .
فقال النبي ﷺ : "أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذي أراد الله خير ، ورفع القصاص" (١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة حكم تمنى ما فضل الله الغير به ، وبينت أن للرجال والنساء نصيبا من كسبهم جاءت هاتان الآيتان تتظمان الأسرة ، وتحددان وظائف أعضائها ، وترسمان منهج علاج المشكلات داخل الأسرة .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآيتان نظام الحياة داخل الأسرة ، وتحدد وظيفة الزوج ، ووظيفة الزوجة ، وطرق حل المشكلات الأسرية حين الخوف من وقوعها .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ قوامون جمع قوام . يقال : هو قائم به إذا تحمله وأدى له حقه ، وقائم عليه إذا رعاه ، وحفظه ، ووجهه نحو الصواب المناسب له .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥١٨ .

(١٧٣)

والقائم على الناس هو رئيسهم ، وقائدهم ، والمتولى شئونهم .
فالقوامه رئاسة تتضمن الرعاية ، والعناية ، والمحافظة على الحقوق
والواجبات للمرءوس .

وقد جعل الله الرجال قوامين على النساء ليدرك الرجال أن رئاسة الأسرة
تقوم على رعاية المصلحة ، ورضا الزوجة ، والاهتمام بشئونها ، والمحافظة
على حقوقها .

وأطلقت الآية مسمى الرجال والنساء ولم تقيد به بالزوجة والزوج لبيان أن
الرجل أباً ، أو زوجاً ، أو ابناً ، أو أخاً مسئول عن يرعاه من بنت ، وزوجة ،
وأم ، وأخت .
والرجال مسئولون مسئولية عامة ، والنساء مسئولات بصورة نوعية ملائمة
لهن .

واختصاص القوامه بالرجال أمر فطرى إنسانى ، لأن من الضرورى وجود
رئيس لكل مجموعة مهما كانت صغيرة ، فلو تركت الأسرة بلا قيادة لوقع
التعارض والاختلاف ، ولفعل كل ما يريد ، وحينئذ يوجد التعارض والضياع ،
وإذا تركت القيادة للمرأة فإن حالات الضعف لديها كثيرة وانفعالاتها النفسية
والعاطفية أكثر ، وهذا يضر بالأسرة إن تولت قيادتها المرأة ... ولا يصح تناوب
الرئاسة أو تقاسمها لأنه يؤدي إلى تذبذب الأداء داخل الأسرة ، ولذلك جعل الله
الرجال قوامين على النساء .

وقد بين الله سبب جعل القوامه للرجال وحدده في أمرين :

أولاهما : ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ومعنى الفضل

الزيادة ، ووجوده في الرجل يشير إلى زيادة قوته الجسمية ، والعقلية ، وتحمله
للمشاق ، فهو منذ أن خلقه الله تعالى القائم بالولايات الكبرى . فمنه بعث الرسل
، وظهر قادة الحرب ، وكان حملة المهام الكبرى رجالاً ، ولم تذكر الآية أن

أفضلية الرجل على المرأة أفضلية مطلقة بحيث يفضل الرجل المرأة عموماً ،
وانما ذكرت أن الله فضل ﴿بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ لبيان أنها أفضلية جنس على
جنس في الجملة ، فقد تفضل امرأة ما العديد من الرجال .

ثانيهما : ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ وبسبب آخر كانت القوامه
للرجل ، وهو قيامه بالنفقة على زوجته مثل دفع المهر ، وتعهد الانفاق ، وجعل
الله هذا الانفاق حقا لها على الزوج .

وبهذين السببين تتحدد المهام داخل الأسرة فالرجل يتعب ، ويعمل ، ويتكسب
وينفق على زوجته وأبنائه ، والمرأة تهتم ببيتها ، وتربى أولادها ، وتصون زوجها
، وتحفظه .

ومهمة المرأة في بيتها ، ومع أبنائها مهمة شاقة تحتاج إلى العطف ،
والحنان ، والحرص ، والصبر ... وقد أعد الله المرأة نفسياً ، وجسدياً ، وعاطفياً
لتقوم بهذه المهمة الشاقة ... وكان من الظلم للمرأة بعد ذلك أن تحملها الشريعة
عبئاً آخر لم تنهياً له ، كالقوامه والنفقة ، وفيما هيئت له كفاية لها .
والمتزوجات ينقسمن إلى قسمين :

القسم الأول : الصالحات ، وعنهن يقول الله تعالى : ﴿فَالصَّالِحَاتُ
قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ فسمه زوجات هذا القسم ثلاث هي :
(١) "صالحات" ومفردها صالحة ، وهذه الصفة تعنى الصدق مع الله في
عبادته وطاعته ، والصالحات يعرفن أن من الدين أداء حق الزوج ،
ويرون ضرورة تقدير الرجل ، واحترامه لقوله ﷺ : "لو كنت آماً أحد أن
يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها" (١) .

(١) الوسيط في التفسير ج ١ ص ٩٣٤ .

(٢) ﴿قَنِيتَتْ﴾ ومفردها قانئة ، ومعناها الطائعة في غير معصية الله تعالى

ومعنى هذه الصفة أن الزوجة الصالحة تطيع زوجها برغبة ، ورضا ، ومحبة ، ولذلك آثرت الآية "قانتات" لدلالاتها النفسية ، والدينية ، والعاطفية .

(٣) ﴿حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ﴾ ومعنى هذه الصفة محافظة المرأة على حرمة العلاقة

مع زوجها في حضوره ، وغييبته ، فتصون عرضها ، وولدها ، ومال زوجها ، وما بينهما من عواطف وأسرار ، ولا تبيح لغيره ما خصه الله به .

وهذا الحفظ من المرأة طاعة الله تعالى الذي أمر بالحفظ وحدده في قوله

تعالى : ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ .

وقد تحدث النبي ﷺ عن صفات المرأة الصالحة التي أرادها الإسلام ودعا إلى تنشئتها على مراده سبحانه وتعالى :

- روى عن أبي هريرة ؓ أنه قال : قيل يا رسول الله أي النساء خير ؟ قال : التي تسر زوجها إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره^(١) .

- وعن أبي هريرة ؓ قال : قيل : يا رسول الله أي النساء خير ؟ قال ﷺ : "خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها" ثم تلا : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(٢) .

- ويقول النبي ﷺ : "إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها : ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت"^(٣) .

(١) السنن الكبرى للبيهقي ج ٣ ص ٢٧١ .

(٢) سنن النسائي . باب أي النساء خير ج ٦ ص ٥٦ ط . الحلبي .

(٣) كنز العمال ج ١٦ ص ٤٠٦ .

القسم الثانى : الناشزات ، وعنهن يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّتِي تَخَافُونَ

نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ ﴾ والنشوز هو الارتفاع في الأرض والوعورة التى تمنع الاستفادة منها ، ومعناه في المرأة الترفع على الزوج ، وعدم طاعته ، والإعراض عنه كراهية له ، أو غرورا بذاتها . فهى بذلك تسير في الطريق الوعر المنحرف .

والنشوز بهذا المعنى يكون من الزوجة وحدها ، ويعالجه الزوج ، فإن اشترك فيه الزوج ينقلب إلى شقاق يحتاج علاجه إلى غير الزوجين . والإسلام يأمر الرجل أن يعيش بمشاعر زوجته ، ويلاحظ أحوالها ، ويحيط بتصرفاتها ليتنبأ بما هى مقبلة عليه ...

ومن السهل على الزوج أن يعلم ما بداخل زوجته من أقوالها ، وأحوالها وصمتها ، وحركتها ... من ذلك ما قاله النبى ﷺ لعائشة رضى الله عنها . قال النبى ﷺ لعائشة : والله يا عائشة إنى لأعلم إن كنت عني راضية ، وإن كنت على غضبى .

قالت : وكيف ذلك يا رسول الله ؟

قال ﷺ : إن كنت عني راضة ، قلت : لا . ورب محمد ... وإن كنت على غضبى قلت : لا . ورب إبراهيم .

فقالت : يا رسول الله ، والله لا أهجر إلا اسمك^(١) .

إن معرفة الزوج ما في نفس زوجته يعينه على معالجة نشوزها قبل وقوعه ، وهذا هو المطلوب من الزوج من دلالة الآية في قوله تعالى : ﴿ تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ فبمجرد الخوف من النشوز يكون العلاج ، وإبعادها عن النشوز

(١) مسند الإمام أحمد . مسند عائشة رضى الله عنها .

المتوقع ، وذلك يعنى العمل المسبق على منع النشوز من الوقوع .
 إن العلاج حين الخوف من النشوز يتم بعتاب رقيق ، وحنان حسن ،
 واكتشاف سبب ما بنفسها لتهدئه خاطرها ، والقضاء على دواعى نشوزها .
 وحين يشعر الزوج باحتمال نشوز زوجته عليه أن يسارع إلى العلاج
 المناسب ، وهذه السرعة مستفادة من الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾
 والوعظ هو النصيح المشتمل على المودة ، والإيثار ، وشعور المستمع بإخلاص
 الواعظ ، وحسن نيته ، ونبيل مقصده ، ولذلك سمي الإرشاد الدينى وعظا ،
 وسمى حديث الرسل وعظا .

فالوعظ ليس هو الطلب الجاف الخالى من الود والرحمة ، وعلى الزوج
 حين يعظ زوجته أن يتخير ما يناسبها ، وما يؤثر فيها . فمنهن من تتأثر ببيان
 حكم الله ، ومنهن من تتأثر بالذكريات بينهما ، ومنهن من تتأثر بتخويفها عن
 مخالفة أمر الله ... وفى كل حالات الوعظ يكون الزوج رقيقا في حديثه ، صادقا
 في نصحه كان يقول لها : اتقى الله ، وخافيه فإن لى عليك حقا ، وارجعى عما
 أنت عازمة عليه ، واعلمى أن طاعتى واجبة عليك ... ومثل ذلك .
 والمرأة المؤمنة الصالحة تعود لله ، وتبتعد عن النشوز حين تذكيرها بما لها
 وما عليها في دين الله تعالى .

فإن لم ترجع المرأة عن نشوزها بالوعظ ، واستمرت في استعلائها ،
 وغرورها ، ودلها بجمالها ، ومالها . فعلاجها بما يناسب هذا الاستعلاء ، وهو
 قوله تعالى .

﴿ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾ وهجر الزوج لزوجته استعلاء عليها ،

وبيان منه لها بقوة إرادته ، ومدى قدرته على التحرر من سلطان غرورها .
 إن هجر المرأة في الفراش يهز مشاعرها ، ويجعلها تشعر باهتزاز مكانتها
 عند الرجل فتراجع ذاتها ، وتصححه .

والهجر الإعراض عن المرأة في الفراش كأن يوليها ظهره ، ولا يكلمها ولا يهتم برغباتها ، ومن الممكن هجر فراشها كان يبيت في حجرة أخرى .
وعلى الرجال أن يعلموا أن الهجر للإصلاح ، وليس للنثار والضرر ،
ولذلك حسن عدم الإخبار عنه ، والحرص على البعد به عن الأطفال الصغار
وغيرهم من الناس .
إن تأثير الهجر على المرأة شديد لأنه يسقط من حسابها أهم أسلحتها ،
وحيثما تفقد الرجل تتمناه لأن الممنوع مرغوب ، وبذلك تبتعد عن النشوز ،
وتحافظ على زوجها .

فإذا لم ينفع الوعظ ، ولم ينفع الهجر ، ويستمر النشوز نجد أنفسنا أمام
نوع من النساء ، صلب في خصومته ، عنيد في رأيه ، يرى نفسه فوق غيره
وأقوى من غيره ... وهذا النوع من الناشزات يعالج بقوله تعالى: ﴿ وَأَضْرِبُوهُنَّ ﴾
ضربا خفيفا غير مبرح ولا شائن ، كان يضربها بقلم أو سواك وترك الضرب
أولى ...

وقد أباح الله هذا الضرب الخفيف علاجا للنشوز لا انتقاما ولا إهانة .
يقول النبي ﷺ في خطبة الودع : "استوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان
عندكم ، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فإن
فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا
تبغوا عليهن سبيلا" (١) .

وعن معاوية بن حيدة القشيري رحمه الله أنه قال : يا رسول الله ما حق امرأة
أحدنا عليه ؟

قال ﷺ : إن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ،

(١) سنن النسائي ج ٥ ص ٣٧٢ .

ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت^(١) .

يعترض البعض على تشريع ضرب المرأة حين نشوزها ، ولهؤلاء أقول : إن الإسلام لم يشرع الضرب ابتداء ، ولكنه جعله آخر العلاج ... ويبدأ المنهج الإسلامي بتمتين روابط الأسرة ، ومطالبة الزوجة والزوج بإقامة علاقات حسنة قائمة على المودة ، والرحمة ، والحب ، والحنان ، والمحافظة على الحقوق والواجبات ... لكن الناس ليسوا سواء ، ولذلك وضع الإسلام وسائل علاج النشوز ، وجعل آخره ضربا غير مبرح ... وهنا أتساءل :

- هل نعالج النشوز بضرب خفيف أم نفرق بين الزوجين ، وتتهدم الأسرة على رعوس أطرافها جميعا ؟
- ألا يناسب الضرب بعض النسوة الراغبات في زوج قوى يشعرن برجلته ، ويرضين بالضرب علاجاً لنشوزهن ، وحفاظا على الأسرة ؟
- لقد أحاط الإسلام طريقة الضرب بقيود تجعله نادر الحدوث ، فهو آخر العلاج ... وهو خفيف ... وهو بعيد عن الوجه ... وهو لا يترك أثرا ، وهو قبيح عند الأسوياء فقد نهى الله عنه :
- يقول النبي ﷺ : " لا تضربوا إماء الله"^(٢) .
- ويقول ﷺ : "أما يستحيى أحدكم أن يضرب امرأته كالعبد يضربها أول النهار ، ثم يضاجعها آخره أما يستحي"^(٣) !!
- ويقول ﷺ : "خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي"^(٤) .
- وقد جعل الله لكل وسيلة حدا ، يستمر معها الزوج لا ينتقل إلى غيرها إلا إذا عجزت عن تحقيق الغاية المرجوة منها ... إما إذا تحققت الغاية فلا حاجة لغيرها .

(١) سنن أبي داود - كتاب النكاح . باب في حق المرأة على زوجها ج ٦ ص ٤٥ .

(٢) سنن أبي داود - كتاب النكاح . باب في ضرب النساء ج ٦ ص ٥٠ .

(٣) مصنف عبد الرزاق ج ٩ ص ٤٤٢ .

(٤) كنز العمال ج ١٦ ص ٣٧١ .

- إن الوسائل المذكورة شرعت لعلاج نشوزهن الحقيقي ، ولا شئ منه حين الوفاق والمودة التي أقام الإسلام الأسرة عليها .
 - إن النسوة متفاوتات في الطبع ، والخلق ، والسلوك ، ومتفاوتات كذلك في التوجيه والمعالجة .
 - فمن النساء صالحات قانتات يملأن البيت سعادة وبهجة ويحطن الزوج بالاهتمام ، والرعاية ، والحب ، والطاعة ، وهؤلاء صحيدات سليمات لا يحتجن لعلاج ودواء .
 - ومن النساء من تتأثر بالكلمة ، وتسمع النصيحة ، وتسرع إلى الاستقامة إذا تذكرت ، وعلمت ، وإذا نصحت وعت ، تسبق دموعها كلماتها ، وتتأثر بجمال ما مضى في حياتها مع زوجها ، وهؤلاء يكفين الوعظ .
 - ومن النساء مغرورات بما يملكن من جمال ، أو مال ، أو سلطان ، أو علم ، أو بتسيدها من حولها من النساء ، يتعاليين على الرجل ، ولا يسمعن لنصيحة ، إلا أنهن لا يرضون بإهانة كبريائهن ، وهؤلاء ينفعهن الهجر لتوجهه إلى المرض مباشرة .
 - ومن النساء خاملات ناشزات مريضات لا يسمعن وعظا ، ولا يتأثرن بهجر ، ولا يصلح معهن إلا الضرب ، وهذا الصنف قليل في النساء .
- هذه هي الوسائل العلاجية شرعت من أجل المحافظة على الأسرة ، فإن تحقق المقصود منها فقد عادت الأمور إلى طبيعتها ، واستقام الأمر للجميع ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ أى أن استقامت الزوجة ، وحافظت على حق زوجها فلا لوم عليها ، وليس للرجل عتب عليها ، وليس من حقه أن يبحث عن أمر يحتج به عليها .
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴾ أى أن الله سبحانه لا يكلف عباده إلا بما يصلحهم ، ولن يضيع حقا لمخلوق ذكر كان أو أنثى .

ولذلك كان تطبيق الضرب على فئة نادرة في المجتمع عند التطبيق .
 إن هذه الإجراءات لا وجود لها في حال الوفاق وقد شرعها الله تعالى
 لعلاج الانحراف والنشوز ... والأولى بمن تعترض على الضرب إن لا تكون
 ناشزا وتسأل نفسها : لم لا تكون صالحة مكرمة ؟!
 والعلاج يستعمله الطبيب إذا غلب على ظنه أن الشفاء فيه ، وكذلك
 الزوج يحاول العلاج بما يظنه نافعا ... وإن لا وجب عليه تركه .
 إن الزوج هو ربان السفينة وعليه مسئولية وصولها ورسوها على بر آمن
 ... ولجوؤه إلى العلاج حق له ، وقد شرع الله العقوبات لتحقيق الحياة للناس .
 إن القيام بالواجب أيسر الطرق لنيل الحقوق ، فالمرأة التي تشكو من
 الضرب ... نسألها لم لا تؤدي الواجب عليها أولا !! ... وسوف ترى العدل
 والسلامة حين أداء الواجب .
 إن العلاج المذكور يكون إذا كان المرض بسيطا ، وكانت إمكانية
 التخلص منه سهلة بالوسائل المذكورة أما إذا استفحل الخلاف فعلاجه يكون
 بوسائل أخرى .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن الرجال قوامون على النساء بسبب ما خص الله به الرجال
 وبما أوجبه عليهم من مهر ونفقة ، وعلى الرجل أن يتعامل مع زوجته بما تستحقه
 فإن كانت صالحة ، مطيعة ، حافظة لما أمر الله بحفظه وجب عليه معاملتها
 بالحسنى ، وإن نشزت الزوجة فعلى الرجل أن يعالج نشوزها بما يناسبها ،
 يعظها ، ويهجر مضجعها ، ويضربها ضربا خفيفا ، فإن استقامت وأطاعت فلا
 شيء عليها ، والمعروف دائم بينهما ... والأمر من قبل ومن بعد الله تعالى فهو
 العلى القدير يقضى في كل شيء ، وفي كل أمر بما يريد .

(١٨٢)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

تقرير قوامة الرجل

تؤكد الآية أن الرجال قوامون على النساء بصورة شاملة فعليه رعايتها ، والمحافظة عليها ، واعطاؤها المهر والنفقة ... وعليها في إطار هذه القوامة طاعته فيما يجب عليها ...

إن القوامة حق الرجل على المرأة تدعو إليه الفطرة للرجل والمرأة بصورة عامة ، وللزوجين بصورة خاصة ... ولا يظلم ريك أحدا ... لقد زود الله المرأة بالركة ، والعطف ، وسرعة الانفعال ، والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة بصورة تلقائية ...

وزود الله الرجل بالخشونة والصلابة ، وبطء الانفعال ، واللجوء للعقل قبل الاستجابة للمثير ، وذلك شأن الرجل يوم أن كان يعيش على القنص والصيد حتى وصل إلى القمر وحرب النجوم .

إن القوامة رسالة شاملة يقوم بها الرجل ، وتسعد بها المرأة ، وبالقوامة تستقيم الأمور .

ويذهب البعض إلى قصر حق الرجل في القوامة إذا كان زوجا في الجماع فقط لا يرد له طلب ، وطاعة المرأة له واجب عليها ، وقصر الطاعة في طلب الجماع وفي غير ذلك لا طاعة على الزوجة لزوجها ، ويرى هؤلاء أن الجماع هو حق الرجل لا غير .

إن الإسلام لم يشرع الزواج لمجرد الجماع حتى يكون هو الواجب وحده ، ولكن خير النساء من تطيع إذا أمرت ... وهل الجماع يكون أمرا ؟

إن الجماع متعة للزوجين ... وهو حق لها كما هو حق له ، وهو يتم بالإنس والحنان ، والشعور بالعطف والجمال .

إن الأسرة تكامل بين طرفين يقضى كل منهما لصاحبه حاجته ، ويحافظ عليه بالعشق والترابط ، ويحيط كل منهما شريكه بالعناية ، والتقدير ، والاحترام .

واقامة هذا التماسك الذى أراده الله تعالى واجب الزوجين معا ، وأى تقصير فيه إهمال لآية الله في الزواج .

لا يصح لأحد الطرفين الادعاء بأن واجبة تهيئه الفراش وكفى ، وبعده يعيش وحده في خفاء عجيب ، ويتعاون مع غير الزوج عاطفيا ، ونفسيا ، وماديا بصور عديدة يخفيها بدعوى أنها ليست الجماع .

إذا أصيب أحد الزوجين بمرض ، أو شيخوخة وعجز عن الجماع فهل تنتهى العلاقة بين الزوجين بسبب هذا ؟! أم هناك معان أخرى شرع الله الزواج لها ؟ ... وجعل الزوجين نفسا واحدة تقوم بالمهام الكبرى المنوطة بها .

ومن العجب أن تدعى بعض الزوجات أن حق الزوج هو الجماع فقط ، والقوامه تعنى المحافظة له على هذا الحق !!

قلت لمحدثى مرة : هل نزول قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾^(٢) . وقوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾^(٣) . وقوله : ﴿ وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾^(٤) كل هذه الآيات وغيرها كثير نزل للجماع وحده؟

(١) سورة النساء ، الآية ٢١ .

(٢) سورة الروم ، الآية ٢١ .

(٣) سورة طه ، الآية ١٣٢ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٣٧ .

ما الفرق بين زوجة وخليله ؟ أليس الجماع عاملا مشتركا بينهما ؟
 إن ربى عليم خبير ، وهو بحكمته العالية شرع الزواج لينشر المودة
 والصلاح بين الناس ... وصدق سبحانه فى قرآنه وهو يقول : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ
 اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
 رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
 عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ ^(١) ، ويقول تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
 يَعْتَفِكُونَ ۝ ﴾ ^(٢) . ولا يصح تحول الأسرة إلى جفاء وقطيعة ، وتصور الطرفين

تقسيمهما كعجلتى عربة يتحركان متباعدين ، لا تهمهما سوى الحركة .
 لا يصح لبعض الأطراف أن يقصد لنفسه أمرا يتعارض مع أمن الحياة
 الزوجية ، وتساميتها ، وعواطفها ، ويجهد نفسه لإيجاد مبررات دينية لما ذهب
 إليه .

إن الإسلام جعل حق الزوج والزوجة مقدما على حقوق الآخرين ، مهما
 قربوا ، وهذا يرد دعوى أن الجماع وحده هو حق الزوج ، وما عداه فغيره من
 الناس مقدم عليه .
 ألا ...

... ليت قومى يعلمون ... !

(١) سورة النساء ، الآية ١ .

(٢) سورة الروم ، الآية ٢١ .

الركيزة الثانية

بيان عموم التشريع ودقته

يشرع الله للأسرة ما يجعلها خير محصن لإخراج ذرية صالحة ، ولذلك كان بيان منهج الحياة داخل الأسرة حال الوفاق والخلاف .
ففى حال الوفاق تكون المودة ، والرحمة ، والحنو ، والعطف ، وتمنيات الخير ، وأمل السعادة بين جميع أطرافها .

إن الأسرة في حال الوفاق تسعد بصلاحها ، وترضى بما شرع الله لها فهي روح واحدة وإن كثرت الأبدان ، وقلب واحد وإن تعدد الأفراد ... وهم آية من آيات الله في تماسكهم وترابطهم ، وتوادمهم ... يؤدى كل طرف في الأسرة دوره في خلق رفيع ، وتعاون كريم ، ترعى الزوجة بيتها ، وولدها ، وزوجها ويقوم الزوج بأعبائه ، ومهامه ، وأعماله التى يلتزم بها قواماً لأسرته .

وفى حال الخلاف يأمر الله الزوج بعلاج نشوز زوجته فى رفق وأناة مع المحافظة على روح الزوجية وما فيها من آمال وواجبات ... ولذلك ينصح ويدعو ، ويرشد ، ويعظ ، ويذكر الفضل والعرفان السابق بينهما ليصلح الأمر في مودة ، وهناك مع النصح الهجر في المضجع ، والضرب الخفيف ، ولا يكون إلا لمن تستحقه من النساء .

وهكذا ...

نجد أحكام الشريعة شاملة لكل حالات الأسرة ، بحيث لو استقام الزوجان عليها لعاشا سعادة غامرة .

الركيزة الثالثة

أخطاء الأزواج عليهم وحدهم

يتصور بعض الرجال أن القوامة هى السيادة والاستعلاء ، وتحويل الحرائر إلى إماء ، ويتصرفون مع زوجاتهم بالسب والشتم ، والضرب لأنفقه الأسباب ويشهر الواحد منهم بزوجه وهى في كنفه ... ويفعل ، ويقول ، ويفشى أسرار

زوجته بلا مسئولية يشعر بها ... ويرى أن القوامة تعنى كل هذا ... مع أن القوامة ليست هذه الصورة أبدا .

وهذا يجعل غير المسلمين يعيبون على الإسلام ظنا منهم أن هذه الأفعال جاء الإسلام بها ... وهى الدين نفسه .

وهنا ...

على الدعاة أن يقوموا بأمرين :

أولاهما : تبين حقيقة الإسلام ، وتفهم الناس ما جاء به رسول الله ﷺ بالنسبة لتعامل الأزواج مع زوجاتهم فرسول الله ﷺ لم يضرب واحدة من نسائه ، وكان ﷺ يناقشهم بالحسنى ، ويشاورهم بالخلق .

عندما اجتمعن واعترضن رضى الله عنهن على سوء المعيشة ، وطلبن السعة ، عندئذ خيرهم رسول الله ﷺ برفق ، وقرأ عليهم قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۖ ﴾ (١) وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ ﴾ (٢) ، وقد اخترن جميعا الله ورسوله والدار الآخرة .

وأثناء حادثة الإفك لم يعنف عائشة رضى الله عنها ، ومع همومه ﷺ وتألمه كان يقول لها : كيف تيكم ؟

إن تعليم آداب الأسرة في الإسلام واجب هام للدعاة ، ولذلك وجب الاهتمام به من عدة زوايا :

- التعريف به ، وبيانته ، وشرحه .
- بيان مزاياه ، ومقارنته بما جاء في الأديان والمذاهب الأخرى عن الأسرة .
- رد ما يشاع زورا ، وتفنيد الأكاذيب التى يطلقها المفسدون عن هذا الدين .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢٨ ، ٢٩ .

- دعوة جمهور المسلمين إلى الالتزام بتعاليم الإسلام فقد آمنوا به وواجب عليهم اتباعه .
- رفض التأويلات الباطلة ، واعتماد الرأي الصحيح مؤيدا بالدليل واطهاره للناس .

ثانيهما : بيان أن أى خطأ يتحملة المخطئ فمن سرق يجلد ، ومن زنى يجرم أو يجلد : "ولو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها"^(١) . ولا يصح مطلقا اتهام الإسلام بما يفعله عصاة المسلمين .

ومن هنا ...

يجب الرد على أعداء الإسلام الذين أساءوا للإسلام بأعمال الناس ، ونعرفهم أن الإسلام هو دين الله الموجود في الكتاب والسنة وليس هو أعمال المخالفين وإن كانوا مسلمين .

إن الأخطاء يتحملها أصحابها ، أما الإسلام فهو ثابت بثبوت مصادره محفوظ بحفظها ... وأى زعم خلاف ذلك مردود .

علاج الشقاق بين الزوجين

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ﴿١٦﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة طرق علاج نشوز الزوجة جاءت هذه الآية تبين طريقة علاج الشقاق بين الزوجين .

(١) صحيح البخارى . كتاب الحدود . باب كراهية الشفاعة في الحد ج ٢١ ص ٤٩ .

(١٨٨)

- ٢ -

موضوع الآية

تتناول طريق علاج الشقاق بين الزوجين حين التأكد منه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ "خفتم" معناها علمتم ، وتيقنتم ، وقيل :

معناها ظننتم ظنا غالبا .

والخطاب في الآية للإمام أو نائبه لأنه مسئول عن تنفيذ الأحكام الشرعية .

وقيل : هو خطاب لأولياء الزوج والزوجة المباشرين .

وقيل : هو خطاب للزوجين أنفسهما .

وقيل : المخاطب عموم الناس لترابط المسلمين جميعا فهم إخوة وبعضهم

أولياء بعض ، وأيضا فإن الخطاب يتضمن دفعا للضرر ، وكل مسلم مسئول

عن ذلك الضرر ، ومكلف بتغييره قدر استطاعته .

وحيث لا تعارض بين كل هذه الآراء فمن الأولى أخذ الآية على عمومها .

وكثرة الآراء تفيد أهمية ما تتضمنه الآية من التكليف ، وتظهر ترابط أفراد

الأمة فهم جمع متماسك ، بعضهم أولياء بعض ، واعتماد أحد الأقوال لا يعنى

عدم قبول غيره فقد يجهل المسئول أحوال الشقاق ، وهنا ينتقل الواجب إلى من

يعلمه .

والشقاق هو المخالفة الشديدة التى تجعل كل واحد من الطرفين في جانب

خاص يواجه الشق الثانى ، بحيث يعجز الطرفان أو أحدهما عن التغلب على

هذا الشقاق ، ويقول كل واحد من الزوجين كلاما يشق على الآخر سماعه .

والفرق بين النشوز والشقاق أن النشوز يعالجه الزوج ، ويواجهه ،

لبساطته بينما الشقاق يعجز الطرفان عن فعل شئ معه فالزوج لا يصفح ولا

يصالح ، ولا يفارق ... والزوجة لا تصالح ولا تفتدى ، ويصاحب الشقاق العناد الذى يخرج الزوجين من الحلال إلى الحرام قولاً وفعلًا .

ويكون الشقاق من الزوجين لا من أحدهما فقط فهو ﴿ بَيْنَهُمَا ﴾ .

﴿ فَأَتَّبَعُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أى اختاروا حكماً

من أقارب الزوج ، وحكماً من أقارب الزوجة ، وانما حسن اختيار الحكم من أهلها ليتمكن كل منهما من معرفة حال صاحبه ، ويقف على رغبته في دوام النكاح ، وأيضاً فإن القريب يحرص على أسرار قريبه ويحافظ عليها ، وهو أعرف به وبأحواله ، وبذلك تبقى أسرار كل طرف في كتمان وأمان .

وسمى الرجل حكماً لبيان ضرورة اختياره مؤهلاً للحكم ، وتحليل الخلاف ، والاستفادة بالأدلة الشرعية ليكون الحكم نابعا من دليل شرعى .

﴿ إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ أى إن أراد الزوج والزوجة

الإصلاح يوفقهما الله له . وقيل : المراد إرادة الحكمين فإن أرادوا إصلاحاً أمكنهما إقناع الزوجين به ، وأعانهما الله عليه .

﴿ يُوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ أى يصلح الله حالهما ، ويعود بهما إلى الحال

الطيبة والعشرة بالمعروف .

والحكمان يقرران الوفاق أو الفراق ، والآية تتحدث عن الصلح فقط لأنه

المقصود الأهم ، فإذا تحقق المقصود تمت المحاكمة .

﴿ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى عليم بعباده ،

خبير بأحوالهم وأعمالهم ، يوفق من يشاء لما يريد ويؤاخذ الزوجين والحكمين

على إهمالهما المصالحة ، وتسرعهما في الفراق إن فعلوا ذلك .

(١٩٠)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الخلاف بين الزوجين قد يصل إلى مستوى لا يتمكن الزوج من القضاء عليه ، وحينئذ يجب قيام الإمام ، أو أحد عموم الناس أو الزوجان بتكوين حكومة تقضى بينهما تتشكل من حكمين أحدهما من أهل الزوج ، والثانى من أهل الزوجة ليتدبرا في الشقاق ومعرفة أسبابه ، ووضع طرق القضاء عليه ، وذلك بأن يخلو كل حكم لقريبه ليعرف كل ما يحتاج إليه وبعد ذلك يلتقى الحكمان لمناقشة القضية ، ووضع حلولها المناسبة اعتمادا على شريعة الله تعالى .

والإصلاح هو هدف الحكمين الأول ، وعليهما أن يعملوا له بإخلاص ، وصدق وسيوفقهما الله لصدق أرادتهما ، وحسن قصدهما ، والله مطلع على أحوال الناس يقضى بينهم بقدرته العالية وحكمته البليغة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الإسلام يصنع المجتمع المتماسك

الإنسان مدنى بطبعه وفطرته يعيش في منظومة إنسانية متكاملة ، وكان المأمول إن يعيش الناس في ترابط وتماسك ، وتوحد إلا أن الأنانية ، وحب الذات أوقع الناس في صراع كبير ، وتناقش وقتال ... وقد أدى هذا إلى انقسام كبير أوقع الحرب والصراع بين الناس بما فيهم المسلمون .
إن الإسلام يعمل على إقامة المجتمع الإسلامى المتحد ، ويحافظ على كافة حقوقه في إطار الفرد ... وفى محيط الجماعة .

ومن هذا المنطلق أوجب الله بصورة مطلقة حماية الأسرة من الانهيار ،
وذلك بالتدخل للإصلاح فى الوقت المناسب لتحقيق مصالحة كاملة بين
الزوجين ، وبطريقة مقبولة ، معقولة .

لا يحتاج إصلاح الأسرة لإجراءات تعطل الإصلاح ، فبلا طلب من
الزوجين ، وبلا دعوة من صلحاء الناس يتدخل هؤلاء وهؤلاء لإصلاح الشقاق
وايقاف النزاع ، وهو من قبيل الأمر بالمعروف ، وإصلاح ذات البين .

قد يأخذ الكبرياء والتعالى الزوجين فتستمر الخصومة ، ويدوم الشاق
ويقع الفراق ، وهذا يسئ للمجتمع كله ، ولذلك شرع الله تدخل المسؤولين ،
وصالحى المجتمع بلا طلب من أحد ، ويمكن للدعاة أن يهتموا بهذا الجانب
الحيوى فى المجتمع ، وبخاصة أن الشقاق كثير بين الأسر بسبب سوء الأحوال
الدينية ، والاقتصادية ، والتربوية ... الخ ، ويدافع من الغزو الفكرى الذى يسود
حياة الناس .

إن وحدة الجماعة مسئولية الجميع ، والقضاء على الصراع ، داخل
المجتمع وداخل الأسر هو الطريق الصحيح لتحقيق هذه الوحدة .

وعلى نمط إصلاح ما بين الزوجين يجب إصلاح أى خلاف يقع بين المسلمين
ولو حرص المسلمون على ذلك لانتفتت الخلافات التى نراها بين الجيران ،
والأقارب ، والأصدقاء ، وداخل الأسرة الواحدة ، وفى ثنايا المجتمع الكبير ،
وفى جميع مجالات العمل ، وكافة مناشط الحياة .

إن المسلمين أمة واحدة ومعهم دينهم بما فيه من مودة ، وتعاون ، وأخوة
، ولو عاشه المسلمون حقا لكانوا أمة الخير ، والسلام ، والوحدة ، ولصاروا
مبعث خير للناس أجمعين .

الركيزة الثانية

اختيار المنهج الدقيق للإصلاح

الإصلاح بين الناس هدف رئيسى للمجتمع المسلم ، وهذا الإصلاح يحتاج لخطة سديدة ، ومنهج صحيح يحقق المصلحة ويرضى الجميع .

وفى موضوع علاج الشقاق بين الزوجين حدد الله المبادئ الرئيسية لإصلاح النزاع بينهما ، ومن الممكن الاستفادة بالمنهج فى أى خلاف ينشب بين المسلمين ، وأهم خطوات منهج الإصلاح ما يلى :

(أ) إبعاد أطراف الخصومة عن جماعة الإصلاح لتبقى محايدة ، لأن كل طرف يتمسك برأيه ولا يرى سواه ، ويحاول التأثير لصالحه .

(ب) أن يتم اختيار ممثل أو أكثر لكل طرف ، يكون متصلا به ، ليثق فيه ، ويسر له بما يرى ، ويرضى بقضائه .

(ج) أن يخلو كل طرف بمن يمثله ابتداء ، ويطلع على كافة أسرار ، ويبين له الوقائع كما هى ، ويناقشه فى كافة الاحتمالات والتوجهات ، والآمال أثناء حوار الممثلين للصلح .

(د) أن يكون الممثل لكل طرف متصفا بالعدالة ، والصدق ، مؤمنا ، لا يصرفه عن الحق صارف ، واعيا لا تخدعه حجج زائفة ، عالما بمسارب الحوار ، وطرق إثبات الحقيقة ، وحكم الله المشروع .

(هـ) أهمية وجود الإخلاص ، واردة الصلح بين الممثلين ليتمكنوا من إحقاق الحق ، والمحافظة على الجميع ، وتحقيق التعاون بين المتخاصمين .

هذا هو المنهج المستفاد من الآية للقضاء على كل نزاع يظهر بين المسلمين ولو شعر المجتمع بحاكمه ومحكوميه بمسئوليته عن إخوانه لما استمر خلاف ولما عاش الناس فى صراع ونزاع .

الركيزة الثالثة

قدرة الله مع النوايا الصالحة

تتحدث الآية عن أن توفيق الله تعالى يكون مع الحكيمين والزوجين إن أرادوا الصلح ، وصدقاً في سعيهما إليه .

وتلك حقيقة ثابتة تؤكد إطلاع الله سبحانه وتعالى على قلوب عباده يعطيهم بنياتهم ومقاصدهم ، ولذلك كانت الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى .

في يوم "الحديبية" بايع المسلمون رسول الله ﷺ على الموت من أجل عثمان ؓ صادقين ، مخلصين ، مستعدين للبذل والفداء ، فعلم الله مرادهم فأنزل عليهم قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾^(١) .

وعلى هذا ...

وجب على كل مسلم أن يطهر باطنه ، وينظف عمله ، ويراقب الله وحده في علنه وهمسه ، وقوله ، وعمله لنفسه ولغيره .

إن الصادق يكتب عند الله صديقا ، والكاذب يكتب عند الله كذابا ، والمخادع لا يضر إلا نفسه ، واللئيم يعود لؤمه عليه .

إن الحكيمين إذا صدقا وأخلصا في عملهما وفق الله سعيهما ، ولن يضيع الله عمل عامل ، وسينال كل امرئ ما قدمت يداه : ﴿ وَالَّذِينَ آهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾^(٢) .

(١) سورة الفتح ، الآية ١٨ .

(٢) سورة محمد ، الآية ١٧ .

تقوية العلاقات الاجتماعية

يقول الله تعالى :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ
السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة أحكام الأسرة ، ووضحت طرق علاج النشوز
والشقاق جاءت هذه الآية تدعو إلى تحسين العلاقات بين المسلمين ، وبخاصة
الأقرباء والجيران ، والضعفاء ، والمحتاجين .

- ٢ -

موضوع الآية

تتناول الآية بيان أهم واجبات المسلم الاجتماعية ، وربطها بعبادة الله
تعالى وعلى رأسها الإحسان إلى الوالدين ، والأقرباء ، والجيران ، والضعفاء
وأبناء السبيل .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ أى خصوا الله وحده بالعبادة ،
ولا تتخذوا معه إلها آخر تعبدونه بأى صورة من الصور .
وعبادة الله تعنى الإيمان به وحده ، والتصديق بكل ما أخبر به ، والتسليم
التمام لقدرته ، والطاعة المطلقة الخالصة من كل علة وغاية ، وهذا يشمل
الأقوال ، والأعمال ، والأحوال .

والعبادة بهذا المفهوم تشمل ما أوجبه الشريعة محمداً محكماً ، وما دعت إليه في إطار القواعد الكلية في الإسلام .

والواو في قوله : ﴿ وَأَعْبُدُوا ﴾ عاطفة للأمر بعدها على النهي الموجود في الآية السابقة للدلالة على أن سائر العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة وخارجها تقوم على الإيمان بالله لأن المحافظة عليها طاعة لله تعالى في نهية وأمره عبادة لله تعالى ، ولذا صدرت الآية بـ "اعبدوا" وجاءت بعدها تشريعات اجتماعية معتمدة عليها .

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ واحسانا مفعول مطلق يبين نوع هذا الإحسان وشدته ، والتقدير : أحسن إحساناً كبيراً ، ومعنى الإحسان الزيادة في العطاء والإكثار من الخير ، وهو فوق العدل والمماثلة ، فالمساواة عدل ، والزيادة عليها إحسان ، وقد كتب الله الإحسان في كل شئ ، وكلف به كل مسلم ، وتقدم الجار والمجرور ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ ﴾ لبيان الاهتمام بهما خاصة .

والإحسان بالوالدين يكون في الماديات والمعنويات بطاعتها في غير معصية ، وخدمتهما ، والانفاق عليهما ، وخفض الصوت حين الحديث معهما وعدم نههما ، ولا تفريق بين الإحسان إلى الأب وإلى الأم فكلاهما كان سبباً في وجود الولد ، وساهما معاً في تربيته ، وتعليمه ، والنفقة عليه .

وجاءت الدعوة إلى الإحسان للوالدين بعد الأمر بعبادة الله تعالى لبيان أهمية هذا الإحسان ، وضرورة القيام به للأباء ، وبيان أن الإحسان إليها طاعة لأمر الله تعالى عبادة ، والأحاديث النبوية تؤكد هذه الأهمية .

﴿ وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ الواو عاطفة لذى القربى على الوالدين ، والمعنى

أحسنوا أيضاً إلى ذوى القربى ، والمراد بهم هنا ذوى القربى من الجيران .

﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ أى أحسنوا إلى اليتامى والمساكين فهم
ضعاف فقراء يحتاجون للرعاية ، والمساعدة .

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهو الجار القريب المسلم وله ثلاثة حقوق على
جاره ، واعدة الحديث عنه بيان لأهميته .

﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أى الجار البعيد عنك ، وله حقان حق الجوار ،
وحق الإسلام .

وهناك جار له حق واحد وهى الجار من أهل الكتاب .

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ أى أن الزوجة لأنها تعيش في جوار زوجها
وقيل : هو الرفيق في السفر ، والزميل في العمل وما أشبههم .

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع عن ماله وأهله .

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أى العبيد الذين جعلهم الله تحت أيدي مالكيهم
وبملاحظة المستحقين للإحسان نجد أن الآية بدأت بالأقرب ثم من يليه وهكذا
... فبدأت بالوالدين وهما الألق بالولد ومن بعدهما كان القريب فهو من أهل
... ثم اليتامى والمساكين فهما أشد الناس ضعفا وحاجة ، ثم الجار القريب ثم
الجار الغريب ، ثم المصاحب مدة ما ، ثم ابن السبيل ، ثم العبيد والإماء .
فإن كثر عدد كل صنف من هؤلاء فليبدأ المسلم بإحسانه الأشد صلة
وتعاملا معه .

والإحسان يشمل كل حاجات الإنسان فهو يدور مع القول والعمل ، ويكون
في العواطف والمشاعر ، ونتيجته ترابط بين المحسنين ، ومن أحسنوا إليهم في
الجماعة المسلمة كلها .

ولأهمية الترابط الاجتماعي ، وتقوية العلاقات بين المسلمين نجد أحاديث رسول الله ﷺ تنادى بما نادى به الآية ...
فبالنسبة للوالدين جاءت الأحاديث الكثيرة :

— عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟

قال : أمك .

قال : ثم من ؟

قال : أمك ؟

قال : ثم من ؟

قال : أمك ؟

قال : ثم من ؟

قال : أبوك ؟" .

وفي رواية قال : "أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك" (١) .

— وعنه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "رغم أنفه ، رغم أنفه ، رغم أنفه ، قيل من يا رسول الله ؟

قال : من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة" (٢) .

وبالنسبة للأرحام والقرابة جاء قوله ﷺ :

— عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "من أحب أن

يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه" (٣) .

وبالنسبة لليتامى والمساكين جاء قوله ﷺ :

(١) صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب بر الوالدين ج ١٨ ص ٤٨٧ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة . باب رغم أنف من أدرك والديه ج ١٢ ص ٣٩٧ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب في بسط الرزق ج ١٨ ص ٣٨٦ .

- عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أنا وكافل اليتيم في الجنة . هكذا ... وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا^(١) .
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : "قال الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، وأحسبه قال : وكالقائم الذي لا يفتر وكالصائم لا يفطر"^(٢) .

وبالنسبة للجار قريبا أو بعيدا جاء قوله ﷺ :

- عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"^(٣) .
- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : "قلت يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي ؟ قال : إلى أقربهما بابا منك"^(٤) .
- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ، وتعاهد جيرانك"^(٥) .
- وفي رواية عنه قال : أوصاني خليلي ﷺ : "قال إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل البيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف"^(٦) .
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : "والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن والله لا يؤمن .

قيل : من يا رسول الله ؟

قال ﷺ : الذي لا يأمن جاره بوائقه"^(٧) .

(١) صحيح البخارى - كتاب الأدب . باب من يعول يتيما ج ١٨ ص ٤١٧ .
 (٢) صحيح مسلم - كتاب الزهد . باب الإحسان إلى الأرملة ج ١٤ ص ٢٤٦ .
 (٣) صحيح البخارى - كتاب الأدب . باب الوصاية بالجار ج ١٣ ص ٦٥ .
 (٤ ، ٦) صحيح البخارى - كتاب الشفعة . باب أى الجوار أقرب ج ٨ ص ١٥ .
 (٦) صحيح مسلم - كتاب البر . باب الوصية بالجار ج ١٣ ص ٦٦ .
 (٧) صحيح البخارى - كتاب الأدب . باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ج ١٨ ص ٤٣٣ .

- وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : "يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة"^(١) .

وبالنسبة للصاحب والرفيق في السفر والعمل جاء قوله ﷺ :

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"^(٢) .

- وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره"^(٣) .

وبالنسبة لابن السبيل جاء قوله ﷺ :

- عن أبي شريح خويلد بن عمرو العدوي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته . قالوا : وما جائزته يا رسول الله ؟ قال ﷺ : يومه وليلته والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه"^(٤) .

وقال ﷺ : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"^(٥) .

- وفي رواية : "ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه .

قال : يا رسول الله وكيف يؤثمه ؟

قال : يقيم عنده ولا شئ عنده يقريه به"^(٦) .

وبالنسبة للمملوكين جاء قوله ﷺ :

(١) معرفة السنن والآثار للبيهقي - كتاب الزكاة . باب فرض الإبل ج ٧ ص ٩١ .
 (٢) صحيح البخاري - كتاب الأدب . باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ج ١٨ ص ٤٣٧
 (٣) شعب الإيمان للبيهقي ج ٢٠ ص ٢٩ .
 (٤ ، ٦) صحيح مسلم - كتاب اللقطة . باب الضيافة ونحوها ج ٩ ص ١٣٩ .
 (٦) صحيح مسلم - كتاب اللقطة . باب الضيافة ونحوها ج ٩ ص ١٤٠ .

(٢٠٠)

- عن أبي بكر رضي الله عنه : لا يدخل الجنة سئ الملكة^(١) .
- وعن رافع بن مكيت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : حسن الملكة نماء ، وسوء الخلق شؤم^(٢) .
- وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كان آخر كلام النبي صلى الله عليه وسلم : " الصلاة . الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيما نكم"^(٣) .
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ والمختال المتكبر المغرور المتعالي في حركاته وكلماته ، المهمل في حقوق الناس عليه .
- والفخور هو الذي يعدد مناقبه ، ويتطاول بها على من دونه ، وإذا أعطى أو أنفق فهو للرياء والسمعة ، يحب أن يذكره الناس بما فعل .
- والاختيال والتفاخر صفتان متلازمتان يجمعهما الكبر ، والغرور ، واحتقار الناس .
- والله سبحانه وتعالى لا يحب هذا المختال الفخور ، وذلك يعني حرمانه من الأفضال والعطايا ، لا يوفقه الله لطاعة ، ولا يقبل منه عمل ، ويريه الضنك في المعاش ، والذل في الدنيا ... وفي الآخرة يعذبه على كبريائه وغروره .
- عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثوبه بطرا"^(٤) .
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينما رجل يمشى في حلة تعجبه نفسه ، مرجل جمته ، يختال في مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة"^(٥) .

(١) كنز العمال ج ٣ ص ٤٤٢ .

(٢) المعجم الكبير للطبراني . الباب الثاني ج ٤ ص ٣٨٩ .

(٣) سنن أبي داود . كتاب الأدب . باب في حق المملوك ج ١٣ ص ٣٧٠ .

(٤) موطأ مالك . كتاب الجامع . باب ما جاء في جر الثوب ج ٥ ص ٤١٦ .

(٥) صحيح البخاري . كتاب اللباس . باب من جر ثوبه خيلاء ج ١٨ ص ٩٢ .

(٢٠١)

وختام الآية مرتبط بموضوعها لأن المختال الفخور لا يحسن لواحد من المذكورين ... إنه يسئ لوالديه ، ويؤذيهما ، وينفر من فقرهما ومعيشتهما ، ويقطع رحمه ، ولا يقدر شأنا لجار ، أو لصاحب ، أو ليتيم ، أو لمسكين ، ولذلك حرمه الله من حبه ، وتركه يتخبط في متهاتات السوء ، وكراهية الناس ومن يكرهه الله تعالى يعيش في الدنيا ملعونا ، وله في الآخرة عذاب أليم .

- ٤ -

معنى الآية

تأمر الآية الناس بعبادة الله تعالى وحده عبادة تامة خالصة ، وبالإحسان إلى أصحاب الحقوق ، وأولهم الآباء ، ثم الأقارب ، والضعفاء ، والجيران ، والرفقاء ، والمماليك ... فمن أطاع أمر الله فاز ونجا ، ومن عصى الله تعالى ، وأصيب بالكبر والخيلاء حرم من حب الله ، وما يلزمه من عدم عون وتوفيق .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية رد الجميل

الإنسان لم يوجد نفسه ، ولن يستغنى عن الناس ، وكل ما هو فيه من مزايا وخصائص فللغير دور فيه .
خلقه الله ، وسواه ، وعدله ، ورزقه ، وخلق له كل الموجودات تخدمه وتيسر له الحياة .
وجعل الله الآباء سببا في وجود الولد ، وأعانه برفقاء في عمله وبيته ، وحركته .

(٢٠٢)

كل هذا من فضل الله تعالى على الإنسان ... وواجب عليه أن يعلم كل هذه الفضائل ، ويجتهد فى القيام بحقها ... إنها عطايا الله ، وهى عديدة والإنسان مسئول عن رد ما يقابلها .

على الإنسان أن يعبد الله تعالى ردا لفضله ، وتقديرا لعطاياه ومننه .
والوالدان هما سبب الوجود ، والإحسان لهما واجب .

إن الإنسان لا يعيش وحده ، وهو مسئول عن الجماعة التى يعيش بينها يعطيها ويأخذ منها بخلق طيب ، واحسان جميل ، وبخاصة من احتاج للرعاية والعناية فيها ، والآية توضح هذا الجانب الهام ، ودلالاتها كثيرة .
من دلالاتها ضرورة المحافظة على حق الآخرين من أهل وقرباء وغيرهم فهو واجب عليه .

ومن دلالاتها أن حقوق الآخرين ليست مادية فقط فهى تشمل الخلق ، والمناصرة ، والعطاء ، والمشاركة فى كل عمل مفيد .
ومن دلالاتها أن يعيش المسلم فى ذاته كاملا بقدر استطاعته فى عمله وخلق ، وسلوكه . فهو مسلم ، وأمامه الإسلام ، وعليه ان يلتزم به .
والدعاة إلى الله تعالى أمامهم مجال رحيب لإبراز العطايا التى يتمتع بها الإنسان فى نفسه وفى الكون من حوله ... وعليهم توضيح الواجبات الدينية والاجتماعية التى يتحلى بها المؤمن فى حياته كلها .

الركيزة الثانية

صورة المجتمع الإسلامى

يقيم الإسلام المجتمع الذى يبينه على خلق كريم ، وقيم صحيحة ...
وحين نجد مجتمعا ينتشر فيه الإحسان الذى جاءت به الآية ، فإننا سنجد مجتمعا متماسكا يحب بعضه بعضا ، ويعين كل فرد فيه غيره بلا فرق بين غنى وفقير .

إن هذا المجتمع هو الذى ينشده الإسلام ، فيه الإيمان ، وفيه الإحسان ، وفيه التعاون ، وفيه العمل والإخلاص .

إن الله كتب الإحسان في كل شئ . كتبه في القول . فقال تعالى :

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾^(١) . وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾^(٢) .

وقضى به في المعاملات يقول تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٣) . ويقول سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٤) .

ويكون في السلوك والدعوة : يقول الله تعالى : ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾^(٥) . ويقول النبي ﷺ : "يا معاذ معاذ اتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن"^(٦) .

إن الإحسان يعنى إثثار الغير على الذات ، والعطاء بلا انتظار ما يقابله .

(١) سورة البقرة ، الآية ٨٣ .

(٢) سورة الإسراء ، ٥٣ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٣٤ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ٩٣ .

(٥) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

(٦) كنز العمال ج ٣ ص ٢٠ .

(٢٠٤)

إن الله تعالى يدعو إلى تقدم الحياة ، ونهضة المسلمين ، وهذا لا يكفى فيه الحق والواجب فقط ... ولابد له من الإيثار بحب ورحمة ، وحنان ... فها هى الأم تعطى ولدها وهو فى بطنها ، ويستمر عطاء الأبوين لابنهما بعد مولده ... ويعيش المصلحون والرواد حياتهم بذلا وعطاء ، وكل أمانيتهم تحقيق الإصلاح .

والشهداء يقبلون على الموت انتصارا لدينهم وأمتهم لا يرغبون من الدنيا شيئا فقد تركوها . ورواد الحق الباحثون عن الحقيقة لا يرجون من سعيهم شيئا ، وكل أملهم سيادة الحق ، وانتصار دين الله تعالى .
إن المحسنين أهل سماحة وعفو ، ومجتمعهم يدوم نظيفا خاليا من المشاحنات والخصوم .

خرج علي بن الحسين عليه السلام يوما من المسجد فسهه رجل ، فلما اجتمع الناس قال لهم : دعوه .
ثم قال للرجل : ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر مما قلت : ألك حاجة نعينك فيها ؟

فاستحيا الرجل ... وقال له : إنك من أولاد الأنبياء^(١) .

الركيزة الثالثة

الإيمان بالله تعالى أساس قيام المجتمع المسلم

يشير بدء الآية : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وختامها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ إلى ربط كافة الأعمال والأقوال والسلوكيات بالعقيدة الصحيحة فالإيمان بالله تعالى ، وافراده وحده بالعبادة ، والإحسان إلى البشر ، وحسن التعامل معهم بإيثار ، وكرم ، وخلق .

(١) من هدى سورة "النساء" للأستاذة حنان لحام ص ١٤٢ .

(٢٠٥)

إن المسلم العابد يعلم أن الله هو الرازق ، فهو يعطى من فضله ، لا يريد على عطائه شكورا .
إن الله تعالى يدخر للناس إحسانهم ليأتيهم به ناميا في الآخرة .
ولذلك ...

كان البخل ، والشح ، والعدوان على الناس من أعمال النفاق والكفر التى لا يحبها الله تعالى .

صفات المتكبرين المادية

يقول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيتين

نزلت في اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ الموجودة في التوراة فكنتموها .

وقال ابن عباس : نزلت في كردم بن زيد ويحيى بن أخطب ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وأسامة بن حبيب ، ونافع بن أبي نافع ، ويحيى بن عمر وكانوا يأتون رجالا من الأنصار ، ويخاطبونهم ، ويقولون لهم : لا تنفقوا أموالكم فإننا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون فأنزل الله عز وجل هذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلهما

لما ختمت الآية السابقة بأن الله لا يحب المختال الفخور جاءت هاتان الآيتان لبيان صفات المختالين الفخورين .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٢٥ .

(٢٠٦)

- ٣ -

موضوع الآية

تتضمن الآية بيان بعض صفات المتكبرين فهم يبخلون ، ويحثون غيرهم على البخل ، ويكتمون ما أنزل الله لهم ، وهم بذلك يستحقون العذاب الأليم الذي أعده الله لهم .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ البخل عبارة عن إمساك

الواجب ، ومنعه عن المستحقين له ، والآية تعنى عدم إعطاء المحتاجين ما يحتاجون إليه مالا أو نصحا ، ولا يكتفى هؤلاء البخلاء ببخلهم بل يأمرون غيرهم بالبخل ، ويصورون العطاء سفها ، وتبذيرا .

والآية نزلت في اليهود ومن يماثلهم من المنافقين ، فهم لا يؤدون ما وجب عليهم من مال ، ويكتمون ما لديهم من علم ببيعة محمد ﷺ ، ويعملون على تحريض الآخرين إلى عدم أداء ما وجب عليهم ، وبذلك يحرمون غيرهم من كل ما يحتاجون إليه .

والآية جواب عن سؤال مقدر ، وكأن سائلا سأل عقب سماعه ختام الآية السابقة عن ماهية المحتالين الفخوريين . فجاءت الآية جوابا لذلك ، والتقدير هم الذين يبخلون ...

﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ وهم اليهود الذين

يخفون ما لديهم من علم بمبعث محمد ﷺ ولا يؤدون ما وجب عليهم ، وبذلك كانوا قادة البخل والضلال . وكل من اتصف بكتمان العلم ، واخفاء الحق ، وعدم إعطاء الناس حقوقهم له مصير اليهود لاتصافه بصفاتهم .

(٢٠٧)

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أى جهننا لهؤلاء الجاحدين

عذابا شديدا يهين كرامتهم ، ويذل مشاعرهم .

والآية تنطبق على اليهود حقيقة فهم التاركون للواجب المالى ، والداعون غيرهم إليه ، والكاتمون للحق مع حاجة الناس إلى معرفته وانطباقها على غيرهم ، المتصفين بصفاتهم ، لكفرانهم بنعم الله تعالى .

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : "خلصتان لا يجتمعان في قلب مؤمن ، البخل وسوء الخلق" ^(١) .

- ٥ -

معنى الآية

الآية تبين أن أهم صفات المتكبرين هى البخل الشديد في المال ، وستر العلم ، ودعوة غيرهم إلى هذا البخل ، وأنهم يكتمون ما لديهم من علم ومعرفة لأنانيتهم وحبهم للبخل والفساد كما تبين ما يستحقونه من عذاب شديد يهيبهم بسبب كفرهم ومعصيتهم .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

ملازمة الكبر للشح وكتمان العلم

المتكبر إنسان مريض نفسيا ، وقد بلغ مرضه حدا دفعه إلى الغرور والتعالى فتصور نفسه فوق الناس جمعا ، وأنساه الغرور حق الله ، وحق عباد الله تعالى .

(١) كنز العمال ج ٣ ص ٤٤٧ .

واليهود من هؤلاء المرضى يحبون المال حبا جما ، يكنزونه ، ويسخرونه في الضرر والفساد ، ومن غريب أفعالهم أنهم يدعون غيرهم إلى البخل ، ويكتمون ما لديهم من علم ببعثة محمد ﷺ ، ومجئ الإسلام خاتم الأديان جميعا وعصاة المسلمين ينزغ بهم الشيطان ، ويقربهم من البخل في المال والعلم. وقد أعد الله لهؤلاء المتكبرين الجاحدين لنعم الله الرافضين لما دعاهم إليه ... أعد الله لهؤلاء نارا تحيط بهم ، وتتناسب مع جرمهم وكبريائهم فهي تهين كبرياءهم ، وتفضح مصيرهم ، وتؤذيهم بأشد العذاب .

ملازمة الرياء للكبر

يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ
الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۚ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت الآية في اليهود ، وفي المنافقين ، وفي مشركى مكة المنفقين أموالهم في عداوة رسول الله ﷺ ، وعداوة الإسلام^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

الآية استمرار للآية السابقة في بيان صفات المتكبرين ومصيرهم .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين بعض صفات المتكبرين وهى الرياء ، وعدم الإيمان ، ومناصرة الشيطان .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٢٦ .

الدلالات اللغوية

﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ والجملة معطوفة على

أول الآية السابقة ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ

مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ وفيها بيان صفة

أخرى للمتكبرين وهى أنهم ينفقون أموالهم لغايات تتلاءم مع كبريائهم ، فهم ينفقون أموالهم رياء لا إخلاص فيه ، والرياء القيام بالعمل ليمدحه الناس ...

يقول الله تعالى في الحديث القدسي : "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيرى تركته وشركه" (١) .

ويقول النبي ﷺ : "ثلاثة أول من تسجر بهم النار ، وهم العالم ، والغازي والمنفق ، المراءون بأعمالهم" ... يقول المنفق صاحب المال : ما تركت من شئ تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك .

فيقول الله تعالى : كذبت . إنما أردت أن يقال جواد ... وقد قيل (٢) .

إن النفقة المطلوبة هى ما كانت لله خالصة ، ولذلك استحب لها أن تكون في سرية وخفاء ، يقول ﷺ : "سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ... ومنهم رجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه" (٣) .

﴿ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى أن هؤلاء المتكبرين

المرائين لا يصدقون بوحداية الله تعالى ، ولا يخافونه ، ولذلك لا ينفقون المال فيه .

(١) الأحاديث القدسية ج ١ ص ٣٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٠٣ .

(٣) شعب الإيمان للبيهقي . باب سبعة يظلمهم الله في ظله ج ٧ ص ٤٤٢ .

(٢١٠)

وهم كذلك لا يصدقون باليوم الآخر وما فيه من حساب ، وجزاء ، على سائر الأعمال ، ولذلك لا يعدون له عدته .

﴿ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا ﴾ أى أن هؤلاء المتكبرين البخلاء المرائين يصاحبون شيطانهم في الدنيا ، ويطيعونه ، وهو يغرهم ، ويوردهم موارد التهلكة .

والقرين هو صاحب الملازم لصاحبه ، لا يكاد يفارقه ، ويكون بينهما ترابط وتناصح ، وطاعة .

وهؤلاء المتكبرون يتخذون الشيطان قرينا لهم في الدنيا ، يسمعون لوساوسه ، ويطبقون ما يحببهم فيه ، وبذلك نسوا ذكر الله ، وتركوا طاعته سبحانه وتعالى ، وفى الآخرة يقرن الله كل من يدخل النار بشيطانه ، ويعذبهم ويوبخهم على تركهم الإيمان والاستقامة في الدنيا .

﴿ فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ وهذه حال سيئة قرعهم الله عليها ، وذمهم بها ، وبين لهم أن الشيطان بنس صاحب ، وبئس الخليل .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن من صفات المتكبرين الرياء لأنهم ينفقون أموالهم للسمعة والفخر وسط الناس ، وهم أيضا لا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون باليوم الآخر فلا يطيعون الله ، ولا يخلصون له ، ولا يخافون حساب اليوم الآخر لأنهم لا يؤمنون به .

لقد اتخذوا الشيطان صاحبا يلزمهم ، ويطيعونه ، وسيكون معهم في نار جهنم ، وبئس هذا صاحب وبئس هذا الرفيق .

(٢١١)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تشير الآية إلى ركيزة هامة ... هي :

دور الشيطان مع غير المؤمنين

توضح الآية أن المتكبرين أسلموا أمرهم للشيطان فأضلهم وأعمى أبصارهم ، ولذلك فهم يبذلون المال للناس ليمدحهم الناس ، ويعظموهم ، وقد أنساهم الشيطان ذكر الله تعالى فجعلهم لا يصدقون به ولا باليوم الآخر ، فكان جزاؤهم جهنم وبئس المصير .

إن من اتخذ الشيطان وليا يأمره بالفحشاء والمنكر ، ويخوفه من الطاعة والاستقامة فبئس هذه الموالاة .

والتحذير من الشيطان قضية هامة أمام الدعوة لأن الشيطان يعيش مع كل إنسان ، ويجرى في النفس مجرى الدم ، وهو قرين خفى للإنسان يملك الوسوسة ويزين الشهوات والمعاصي .

وعلى الدعوة ...

أن يعرفوا الناس بوجود الشيطان ، وحركته في النفوس وبين الناس ، ولكل إنسان شيطان يعيش معه ، ويعرفوهم بضرورة الحذر من وساوسه ، وتزيينه الأمانى السيئة ، فقد اتخذ من البشر عوناً ومشاركين .

والحذر من الشيطان يكون بمداومة طاعة الله تعالى ، ومداومة ذكره سبحانه وتعالى ، والاستعاذة من الشيطان الرجيم .

وليعلم المسلم حدود دينه ويعلم أن أى تعد لهذه الحدود هو من نزغات الشيطان ... وحينها عليه أن يلجأ سريعا إلى طاعة الله ، ويبتعد عن نزغات الشيطان وأنصاه من البشر .

تبكيت المتكبرين العصاة

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۖ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وِثْقَاتٍ مِّن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة صفات المتكبرين وغرورهم ، واتخاذهم الشياطين قرناء جاءت هذه الآيات تبكيتهم وتوبخهم على سوء صنيعهم ، وذلك ببيان أنهم ضيعوا على أنفسهم مكاسب كانت ستأتيهم في الدنيا والآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تدور الآيات حول تبكيت المتكبرين ، وتظهر خيبتهم باتباعهم الشيطان وتبين أنهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ، وأنفقوا مما رزقهم الله لنالوا خيرا كبيرا في الدنيا والآخرة ، فالله عليم بعباده جميعا ، وسوف يحاسبهم بعدل تام لا ظلم فيه البتة ، وهو سبحانه يضاعف الحسنات ، ويزيد عليها من فضله ورحمته الأجر العظيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار والتوبيخ على موقفهم مما دعوا إليه ، وعلى خسارتهم وندامتهم مما سيحيق بهم .

ومعنى : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ ﴾ ما الشئ الذى كانوا يخافونه ؟ ... وما هو
السوء الذى كانوا سيقعون فيه لو استجابوا وأطاعوا ؟ ...
إنهم لم يدعوا إلى ضلال أو معصية ، ولم يطلب الله منهم عملا لا قيمة له .
إنهم دعوا لأمر كريم ، فلم لم يفعلوه ؟؟

إن الذى دعوا إليه هو : ﴿ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا
رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ وجاء ﴿ لَوْ ﴾ في صدر ما دعوا إليه لبيان أنهم امتنعوا عن
الطاعة التى لا حرج ولا ضرر فيها البتة فحرموا من جزائها الحسن .
فالإيمان بالله واليوم الآخر ضرورى بأدلة العقل والشرع ، فאלله إله واحد لا
إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، وآيات القرآن الكريم تؤكد هذه الضرورة ، ويدل
العقل السليم عليها ، فالكون وما فيه من غرائب ، وعجائب وتعدد المخلوقات
يدل بأكثر من طريق بأن الله هو الخالق العظيم ، وهو سبحانه المتفرد بالألوهية
، المستحق للعبادة وحده .

وهو سبحانه يرزق عباده ، ويهديهم للخيرات ، ويوفق من أراد له الخير
للغنى ، والظفر ، والكسب ، والعمل الصالح ، ويزرق من يشاء بغير حساب .
هذا الإله الرحمن الرحيم دعا عباده إلى الإيمان به ، والى الإنفاق
الخالص من رزقه الذى قضى به ، وأعطاه لعباده ، وأمرهم بالإنفاق الحسن ،
والإيمان المتين ... وطاعة الله واجبة ... فلم تركها هؤلاء المحرومون !!؟

﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ أى ان الله تعالى محيط بجميع خلقه ، عالم
بأحوالهم ، وسوف يحاسب كل إنسان على ما قدمت يداه بعدل تام .
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ يؤكد الله تعالى أن حسابه للناس دقيق
بحيث ينال كل جزاء عمله بلا ظلم أبدا .

ومعنى ﴿ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ أى وزن ذرة ، والذرة هى كل جزء من أجزاء
الهباء الذى يوجد في ضوء الشمس داخل الكوة ... ولا وزن لهذا الهباء ،

والتعبير مثل ضربة الله تعالى لأقل الأشياء . والمعنى أن الله تعالى لا يظلم أحدا شيئا من قليل أو من كثير .

﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى إذا وجد للعبد حسنة ضاعفها له ، والسيئة يجزيه بمثلها فقط .

— عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطي بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة" . وأما الكافر فيعطي بحسنات قد عمل بها في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها^(١) .

— وعن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : "إن الله تعالى سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل مثل مد البصر .

ثم يقول الله له : أتتكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتني الحافظون ؟
فيقول : لا يا رب .
فيقول : أفلك عذر ؟
فيقول : لا يا رب .

فيقول تعالى : بل إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسول الله .
فيقول الرب : احضر وزنك .

فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟
فقال : فإنك لا تظلم" .

فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شيء^(٢) .

(١) صحيح مسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار . باب جزاء المؤمن ج ١٣ ص ٤١٣ .
(٢) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٢٧ .

(٢١٥)

﴿ وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى ويؤت الله الصالحين ثوابا من عنده ، وهو دخول الجنة .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان غرابة هؤلاء المتكبرين وتوبخهم على أفعالهم التى لم تعد عليهم بأى نفع ، وتسألهم في إنكار ماذا كان يضرهم لو تمسكوا بالحق ، وآمنوا بالله وأطاعوا ، وأنفقوا من الرزق الذى أتاهاهم الله به ، وهذا موقف غريب منهم لأن من خلق يستحق أن يطاع ويعبد ، ومن رزق جدير بالاستلام لأمره ، وصرف المال الذى ماله حيث أراد سبحانه وتعالى .
وتبين الآيات أن الله سيحاسب الناس على عملهم ، وسيجازى الحسنة بعشر أمثالها ، ويجزى السيئة بمثلها ، ولن يظلم الناس شيئا ، ويدخل الصالحين الجنة ونعم المصير .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

فساد الضالين وخسرانهم

يبين الله ضلال من عميت بصيرتهم ، وفسد عملهم ، وذلك ببيان سوء فكرهم ، وعدم تعقلهم ، وبعدهم عن الصواب رغم ظهوره ، فهؤلاء المتكبرون الكافرون لو تأملوا بوعى لعلموا خطأهم ، وضلالهم ، فهم يكفرون بالله الذى خلقهم ، وأوجدتهم من نفس واحدة ، وهو سبحانه بهذا الخلق مستحق لأن يعبد وحده ، وهو سبحانه الرزاق ، وقد أمر عباده بإنفاق بعض ما أعطاهم لمستحقه وهم مخلصون .

- دعا الله إلى الإيمان والإنفاق ، وطاعته واجبه ... ومع ذلك يخالفه المتكبرون الضالون بلا سبب مفهوم ...
- ماذا يضيرهم لو أطاعوا الله ؟ ...
- هل هناك إله غير الله ؟ ...
- وهل معصية الخالق أمر له معنى أو سبب ؟ ...
- وهل مخالفة المالك فى ما له جائز ؟

إن المتكبرين الضالين فسدت عقولهم ، وانحرفت أعمالهم فعملوا بما لا فائدة فيه ، وتركوا ما فيه الفائدة ... وهذا خيال أوقعهم فيه شيطانهم اللئيم .

إن أنصار الله يهديهم الله للحق ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويزكى أعمالهم ، إنهم ينظرون بنور الله ، ويستعينون في كلامهم وعملهم وحركتهم بتوفيق الله ومعونته .

إنهم يتقربون بطاعاتهم لله ، ويخلصون في الطاعة والاستسلام مؤمنين بما جاء في الحديث القدسي قوله سبحانه وتعالى : "من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى النوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيزته ، وما ترددت في شئ أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته" (١) .

أما الضالون أنصار الشياطين ، فروئيتهم ضلال ، وفكرهم خطأ ، وزعيمهم الشيطان يخرجهم من النور إلى الظلمات .

ومن الواجب تخويف الصالحين من طريق الضالين في الإيمان والإنفاق وغير ذلك من أعمال السوء ليبعدوا عنهم ، ويعيشوا في نور الإيمان ، وطاعة الله تعالى .

(١) صحيح البخارى - كتاب الرقاق . باب التواضع ج ٢٠ ص ١٥٨ .

(٢١٧)

الركيزة الثانية

ضرورة اليقين في عدل الله الرحيم

الله سبحانه وتعالى عليم بجميع خلقه ، عليم بما ظهر ، وبما خفى ، محيط بما دق وبما عظم ، لا تخفى عليه خافية في الأرض .
والإيمان الصادق بعلم الله التام يجعل المكلف يعيش في معية الله تعالى ويلتزم بطاعته الدائمة ، ويرجع إليه أن أخطأ ، أو أصابه طائف من الشيطان .
إن المؤمن يصدق بحقائق إيمانيه منها :

(أ) الإيمان المطلق بالله تعالى وبكل ما أخبر .

(ب) الإيمان بعلم الله المحيط بخلقه أجمعين .

(ج) اليقين بأن حساب الله للخلائق دقيق وفق علمه المحيط .

والإيمان بهذه الحقائق يؤدي إلى إحسان القول والعمل ، والديمومة في طاعة الله العليم الخبير ، وهو بذلك يستعد للحساب والجزاء ، فلقد أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه سيجازي السيئة بمثلها فقط ، وسيجازي الحسنة بعشر أمثالها ، ويعم بفضله الصالحين ، ويدخلهم الجنة نزلاً من عند الله الكريم .
لا يغيب شئ عن ملك الله ، ولن يفلت أحد من الحساب ، وسيفرح المؤمنون بلقاء الله ، وما عند الله خير للأبرار .

شدة حسرة المتكبرين الضالين

يقول الله تعالى :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۚ ﴾
﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

(٢١٨)

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

بعد أن بينت الآيات السابقة حقيقة المتكبرين وضلالهم وجزاءهم جاءت هاتان الآيتان توضحان حسرتهم يوم القيامة حينما تتجلى الحقيقة أمامهم .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تتكلم الآيتان عن الحسرة والندامة التي سيجدها المتكبرون يوم القيامة حيث سيأتى كل نبي شاهداً على أمته ، ويأتى محمد ﷺ شاهداً على أمته ومنهم هؤلاء المتكبرون الضالون ، وحينئذ يتمنى الكفار أن تسوى بهم الأرض لندمهم على ما فعلوا .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتنبيه ، ومعناه تنبهوا أيها الجاحدون للحق ، المتكبرون على الناس ، الكافرون بنعم الله تعالى تنبهوا لأحوالكم يوم القيامة ، وساعة ظهور أعمالكم جليلة ، تنطق بها الجوارح ، ويشهد عليها الأنبياء ، وتسقط حججكم في الكفر والضلال ... تنبهوا لهذا ، واستعدوا له ... والشهيد هو الشاهد الذى ينطق بالحق الذى يعلمه بعد التحرى ، والاستقصاء ، ولا يكتفى شيئاً مما ثبت عنده .
وكل أمة من الأمم تأتى يوم القيامة ومعها نبيها يشهد على من آمن منهم ومن كفر .

﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ والخطاب لمحمد ﷺ لبيان أن الله سيبيعه ، ويأتى به شاهداً على ما قام به المسلمون الذى دعاهم إلى الله تعالى .

واسم الإشارة ﴿ هَتُؤَلَاءِ ﴾ يعود على أمته فهو شاهد عليها ، ويعود على الشاهدين على الأمم السابقة لأن الرسول ﷺ شهد لهم بالنبوة والتبليغ ، ودعا إلى الاستقامة على أصول الإيمان التي دعوا إليها .

وعلى هذا يكون للرسول ﷺ شهادتان جمعهما قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) .

إن هذا التصوير القوي ، القائم على المشاهدة ، والمواجهة يزلزل القلوب والعقول ، ويحذر من الخزي والخسارة ... وفي نفس الوقت يشد الهمم ، ويقوى العزائم .

إن هذا الموقف يحضره الأنبياء ومعهم محمد ﷺ شهداء على الناس ، فأى خزي في هذا الموقف لمن شهد عليه نبيه محمد ﷺ واستحق بمعاصيه العذاب .

وأى فخر لمن شهد له الرسل بالخير ودخل الجنة ؟!

يروى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : "اقرأ على . فقال ابن مسعود رضي الله عنه : أقرأ عليك . وعليك أنزل ؟ قال ﷺ : نعم ، إني أحب أن أسمع من غيري .

يقول ابن مسعود رضي الله عنه فقرأت عليه سورة "النساء" حتى جئت لقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَتُؤَلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ... قال ﷺ : "حسبك الآن ... فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان ... " (٢) .

وقد بكى النبي ﷺ شفقة على أمته ، ورحمة بهم من هول يوم القيامة ، وكان بكأوه ﷺ بلا شهيق ، وبلا رفع صوت ، وكانت عيناه تذرفان حتى تهملتا

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب فضائل القرآن . باب قول المقرئ للقارئ حسبك ج ١ ص ٧٧٤ .

، ونسمع لصدره أزيزا ... وكان بكاؤه تارة رحمة للميت ، وخوفا على أمته ، أو خشية لله تعالى ، أو إجلالا وحبا لربه العظيم .

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾

أى في يوم القيامة حيث حشر الخلائق جميعا ، ومجئ كل نبى مع أمته يشهد عليها ، ومجئ محمد ﷺ للشهادة على أمته ، وعلى الأنبياء من قبله ... في هذا اليوم يتمنى الكافرون ، ويحدثون أنفسهم راجين أن تسوى الأرض بهم من سوء الحال ، وشدة الحسرة ، وقسوة الندم ، يتمنون أن تسوى الأرض بهم .

ومرادهم بتسوية الأرض أن لا يكونوا قد خرجوا من قبورهم ، وتبقى الأرض مستوية ، وهم بعيدون عن الناس تحتها ...

أو المراد أن يعودوا إلى قبورهم مرة أخرى كما كانوا ، وهذا المراد واضح في قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَبًّا﴾^(١) .

والذى يتمنى ذلك هم الذين كفروا بالله تعالى ، وأبوا طاعة الرسول والاستجابة لما جاءهم به من عند الله تعالى .

و "ال" في ﴿الرُّسُولَ﴾ تكون للاستغراق ... وتكون للعهد فإن كانت للاستغراق فإنها تشمل الرسل جميعا وسائر الأمم معهم ... وإن كانت للعهد فإنها تعنى محمدا ﷺ وأمته .

والأولى أن يكون للاستغراق لتشمل سائر الأمم حيث حشرهم في مكان واحد للحساب والجزاء بما فيهم المسلمون ، ومحمد ﷺ .

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ومرادهم بالحديث الذى يتمنون عدم

كتمانهم الآن هو كتمانهم صفة محمد ﷺ ونبوته في الدنيا ، وكانت تحت أيديهم

(١) سورة النبأ ، الآية ٤٠ .

في كتبهم فكتبوها ، أو أنتم فأنكروها ، ولم يعملوا بها ، وهم الآن عند الحساب يندمون ولسان حالهم يقول : يا ليتنا لم نكتبها .

وقيل المعنى : إن هؤلاء الكافرين والعصاة يسألهم الله عن كل عملهم في الدنيا ، ويتمنون الكذب في أجوبتهم إلا أنهم لا يستطيعون ذلك فيتكلمون بالواقع .

﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فالشهود عليهم كثير ، فالأرض تشهد :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿١﴾ والجوارح تشهد :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

والملائكة تشهد : ﴿ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴾ يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ . والرسول

تشهد : ﴿ جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ .

وسط هذا المشهد يجد الكفار والعصاة أنفسهم محاصرين بالشهود فيقرون

بما وقع : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

فإن قيل : في القرآن الكريم آيات تدل على كذب الكفار يوم القيامة ،

وكتمان ما كانوا فيه مثل قوله تعالى عنهم : ﴿ وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٤)

فقد كتبوا في مقالته تلك حالهم .

يقول الحسن البصري : هي مواطن متعددة . ففي موطن لا يتكلمون ولا

تسمع لهم همسا ... وفي موطن يتكلمون ويكذبون ويقولون : ﴿ وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا

(١) سورة الزلزلة ، الآية ٤ ، ٥ .

(٢) سورة النور ، الآية ٢٤ .

(٣) سورة الانفطار ، الآية ١١ ، ١٢ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية ٢٣ .

(٢٢٢)

مُشْرِكِينَ ﴿ ... وفي موطن يعترفون على أنفسهم وهو قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضُوا
بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ... وفي موطن لا يتساءلون ... وفي موطن يسألون ... وآخر تلك
المواطن أن يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم بالحق فهو قوله تعالى :
﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

- ٤ -

معنى الآيتين

تتساءل الآيتان عن حال الكفار العصاة يوم القيامة ، وأنبيأوهم معهم
والسؤال فوق رؤوسهم ، وقد تأكد الحق ، وظهر ضلالهم وأملهم . فكيف هم
فاعلون إزاء خزيهم وحسرتهم .
في هذا اليوم يتمنى الكفار العصاة أن يستمروا في قبورهم ، ويعودوا إليها
من شدة الحسرة ويسألهم الله تعالى عن أعمالهم وهو العليم بهم ، فيجيبونه بكل
شيء ولا يكتُمون الله حديثا في هذا اليوم العصيب .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان هول الموقف

توضح الآيتان هول الموقف وشدته ، وما ينتاب الكفار والعصاة من
أحزان وآلام وحسرات حين يرون أنبيائهم يشهدون على فسادهم وفسقهم ، ويرون
الحزن وسوء العاقبة والناس جميعا مجتمعون .
في هذا الموقف يتم الحساب ، ويتمنى الكفار والعصاة أن لم يكونوا بعثوا
من قبورهم . فهم يحاولون الكذب ولا يستطيعون ، والشهداء عليهم كثير في يوم

(٢٢٣)

الحشر تتجمع الخلائق ليتم الخزي على رعوس الأشهاد ، ولا خلاص لهم مما وجدوا أنفسهم فيه .

- فهل يعمل المسلمون لهذا اليوم ، ويستقيمون على دين الله تعالى ؟
 - وهل يخاف المسلمون من فضائح هذا اليوم فينظفون أعمالهم في الدنيا ؟
- هذا هو يوم الأهوال والأحوال ... والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ؟

الركيزة الثانية

المؤمنون والكافرون يوم القيامة

في يوم القيامة تدنو الشمس من الرعوس ، ويسيل العرق أنهارا ، وتنتظر الخلائق الفصل والقضاء ، متمنين نهاية سريعة للمحشر ، لشدته وقسوته ، لدرجة أن العصاة يتمنون الذهاب إلى النار لتصورهم أن ما هم فيه هو أشد العذاب .

أما المؤمنون فهم في هذا اليوم يرون بركات الله ، ويلمسون مصيرهم الحسن ، ويجدون أنفسهم في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، وترحب خزنة الجنة بمن يساقون إليها ، منادين أصحابها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .

الأمر بالصلاة في تيقظ وطهارة

يقول الله تعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَايَةِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝١٢ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

سبب نزول هذه الآية ما روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال صنع لنا

(٢٢٤)

ابن عوف طعاما فدعانا فأكلنا وسقانا خمرا قبل تحريم الخمر فأخذت منا ،
وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن
نعبد ما تعبدون .

قال فخلطت فنزلت : ﴿ لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا
تَقُولُونَ ﴾^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن أمرت الآية السابقة بعبادة الله تعالى وحده جاءت هذه الآية تأمر
بأداء الصلاة وكيفية الاستعداد لها بالطهارة الواجبة .

- ٣ -

موضوع الآية

موضوع الآية هو الإقبال على الصلاة بتيقظ ، وضرورة الاستعداد له
بالطهارة من الحدث الأصغر والأكبر بالماء ، أو بما ينوب عنه عند عدمه
وجودا أو حكما .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ هذا نداء للمؤمنين تنبيهها لهم على القيام ببعض
العبادات بصورة صحيحة .

(١) تفسير البغوى ج ١ ص ٥٣٠ .

﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى ﴾ أى لا تدخلوا في الصلاة وأنتم سكارى حتى لا تقعوا فيما وقع منكم قبل نزول الآية ، أو لا تقروا مكان الصلاة وأنتم على هذا الحال .

وعلى هذا يراد بالصلاة أحد معنيين :

الأول : المراد نفس الصلاة ذات الركوع والسجود المعهودة .

الثانى : المراد مواضع الصلاة ، وحذف المضاف جائز .

والسكارى جمع سكران ، وهو من غاب عقله بسبب شرب الخمر ، أو ما شابهه من المسكرات .

والآية نزلت قبل تحريم الخمر ، وكانوا يشربونها في غير أوقات الصلاة فلما امتد السكر إلى أعمال الصلاة ، ووقع الخطأ في قراءة القرآن أثناء الصلاة أمر الله تعالى بعدم الاقتراب من الصلاة إلا بعد أن يذهب السكر ، وينتبهوا ، ويعلموا ما يقولون .

وقال الضحاك : المراد بالسكر سكر النوم لأن المصلى إذا نام أثناء الصلاة بهذى ، يدل على ذلك ما روته عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : "إذا نعس أحدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو نعسان لا يدري لعله يذهب يستغفر ربه فيسب نفسه" (١) .

﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ أنتظروا ذهاب السكر ، وتنبهكم ،

وتفهمكم لمعنى ما تقولون لأن ذهاب النوم يعدم السكر .

ولا مانع من أن المراد بالسكر سكر النوم أو سكر الخمر ، أو سكر المرض أو غير ذلك فكل هذا السكر له نفس الحكم .

(١) صحيح البخارى . كتاب الوضوء . باب الوضوء من النوم ج ١ ص ٣٥٦ .

﴿وَلَا جُنُبًا﴾ أى لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب ، والجنب يسمى به الذكر والأنثى وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه .

والجنب من به جنابة ، ومعناها فعل ما يستحق الغسل من جماع وانزال وغير ذلك وهو ما يعرف بـ "الحدث الأكبر" عند الفقهاء فإن زالت الجنابة ، وتم الطهر جازت الصلاة .

﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ وهذا استثناء من منع الجنب من الصلاة ودخول المسجد ... لأن هذا العابر مضطر لذلك ، فلقد كان جماعة من الأنصار يقيمون بجوار المسجد ، وكانت أبواب بيوتهم في المسجد فتصيبهم الجنابة وليس معهم ماء ، ولا ممر لهم إلى الماء إلا من داخل المسجد فرخص الله لهم العبور فيه تيسيرا لهم .

والمعنى : لا تقربوا المسجد وأنتم جنب إلا مضطرين للخروج والدخول ، ومثله من نام في المسجد فاجنب وجب عليه الخروج منه ... أو احتاج للماء ليتطهر به ، والماء موجود في المسجد فله الدخول في المسجد وأخذ الماء منه ... وهكذا .

وقيل : المراد بعابري السبيل المسافرين . والمعنى : لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إلا إذا كنتم مسافرين ، ولم تجدوا ماء فتييموا وصلوا حتى تجدوا الماء فتغتسلوا .

والمعنيان جائزان شرعا ولا مانع من الأخذ بهما في معنى الآية .

﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أى أن منع الجنب من الصلاة والإقامة في المسجد ممتد إلى الاغتسال ، فإن اغتسلوا وتطهروا جاز لهم الإقامة في المسجد ، والاعتكاف وانتظار الصلاة ، وصحت صلاتهم التى تطهروا لها .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ ﴾ أى كان بأحدكم مرض يضره مس الماء كالجدري ، وحرق النار وغير ذلك .

﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أى كان مسافرا سفرا طويلا أو قصيرا ، ولا يجد الماء .

﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ الغائط مكان قضاء الحاجة ، والتعبير به كناية عن الحدث الأصغر .

﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ ومعنى ملامسة النساء الجماع عند البعض ، وملامسة الجلد للجلد عن بعض آخر .

﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾ أى إن كان فيكم مريض يضره الماء ، أو أتى بعضكم من الغائط ، واحتاج للوضوء ، أو لامستم النساء واحتجتم للوضوء ، أو الاغتسال ولم تجدوا ماء .

﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ أى فتيمموا الصعيد الطيب ، والمراد به الأرض الطاهرة وعليها تراب وغبار .

وسميت الأرض بالصعيد لتشمل الأرض الطينية والرملية ، والصخرية وغيرها بشرط الطهارة ووجود غبار التراب .

﴿ فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ وهذه صفة التيمم وهى ضرب الكفين في التراب مرتين مرة لمسح الوجه والأخرى لمسح اليدين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا ﴾ أى أن الله عفو عن عباده يسامحهم فيستر عيوبهم ، ويخفى زلاتهم .

- ٥ -

معنى الآية

ينادى الله المؤمنين وينهاهم عن الدخول في الصلاة وهم سكارى ، وينهاهم عن

(٢٢٨)

دخول المسجد وهم جنب ، ويستثنى من ذلك عابر السبيل المضطر لاتخاذ المسجد معبرا له ليصل للماء أو للعمل .

ويبين الله لهم أنه شرع التيمم للمريض الذى يضره الماء ، أو كما أباحه لمن قضى حاجته أو لامس المرأة ، والتيمم ينوب عن الوضوء أو الغسل عند عدم الماء حقيقة أو حكما ، وهذا من فضل الله ، وتيسيره للناس ، والله عفو عنهم غفور لهم .

- ٦ -

من الأحكام الفقهية المتصلة بالآية

تتضمن الآية عددا من الأحكام نشير إليها بإجمال :

- أولا -

التدرج في تحريم الخمر

نهت الآية عن الصلاة في حالة السكر من شرب الخمر ، وليس معنى ذلك إباحة شرب الخمر في غير الصلاة فشرب الخمر محرم تحريما واضحا ... إلا أن الله حرم الخمر على عدد من المراحل للتعامل مع واقع الناس وأخذهم إلى الحق برفق ورحمة لأنهم كانوا يشربون الخمر أكثر من شربهم للماء ، وقد سبق ذكر هذه المراحل ... وهى :

المرحلة الأولى : بيان أن الخمر خالية من الحسن وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾^(١)

فأشار الله بذلك إلى أن السكر من النخيل والأعنب ليس رزقا حسنا .

المرحلة الثانية : بيان أن الإثم في الخمر أكبر من النفع ، وذلك في قوله

تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾^(١) .

(١) سورة النحل ، الآية ٦٧ .

المرحلة الثالثة: الأمر بترك الصلاة حالة السكر ، وذلك يحتاج إلى الامتناع عن شرب الخمر قبل الصلاة بمدة طويلة حتى يتمكنوا من أداء ما فرض عليهم وهم بعيدون عن السكر ... وبذلك انحصر شربهم للخمر في الليل بعد العشاء ، وقبل صلاة الفجر ، وقد تعودوا بذلك على ترك شرب الخمر مدة طويلة .

المرحلة الرابعة : وهى التحريم التام للخمر بعدما تضارب الصحابة وهم سكارى . وقال عمر رضي الله عنه : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شاقيا فنزل التحريم التام للخمر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ ^(١) .

والآية تتناول أحكام المرحلة الثالثة من المراحل المذكورة .

- ثانيا -

الحرمات على الجنب

يحرم على الجنب المكث في المسجد ، ويحرم عليه الطواف والصلاة ، وقراءة القرآن . لما روى عن رسول الله ﷺ قال : " لا يقرأ الجنب ، ولا الحائض ولا النفساء من القرآن شيئا " ^(٣) ، وذهب البعض إلى أن المحرم هو القراءة من مصحف مكتوب أما القراءة من المحفوظ في الصدور فهي جائزة لأن المؤمن لا ينجس .

- ثالثا -

وجوب الاغتسال

يجب الاغتسال في حالات عدة :

(١) حين الدخول في الإسلام .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٩٠ .

(٣) كنز العمال ج ٩ ص ٤٠٧ .

(٢٣٠)

- (٢) إذا طهرت الحائض والنفساء من الدم .
(٣) إنزال المنى فى اليقظة أو أثناء النوم . والمنى هو الماء الدافق عن شهوة للرجل والمرأة ، ويعرف إنزال المنى أثناء النوم بالبلل يراه الرجل والمرأة على سواء .
(٤) إيلاج الحشفة في الفرج وان لم يتم إنزال .

- رابعا -

بعض نواقض الوضوء

تشير الآية إلى بعض نواقض الوضوء ... وهى :

- (١) ملامسة المرأة حيث ذهب الجمهور إلى أن ملامسة المرأة تنقض الوضوء ، وخالفهم بعض الفقهاء . فقال بعضهم : إن اللمس لا ينقض الوضوء مطلقا ... ومنهم من قال : إن كان اللمس بشهوة ينقض الوضوء وان لا فلا ... وقال بعضهم : اللمس ينقض وضوء اللامس ، ولا ينقض وضوء الملموس .
(٢) الخارج من السبيلين عينا كالبول والبراز ، أو حكما كالريح ونحوها ماعدا ريح القبل .
(٣) الخارج من غير السبيلين كالرعايف ، والقيء ، والفصادة ، والحجامة لا ينقض الوضوء ... ويرى بعض الفقهاء أنه ينقض الوضوء بشرط أن يكون كثيرا .
(٤) زوال العقل بجنون أو إغماء .
(٥) النوم ينقض الوضوء ما لم يكن النائم قاعدا ومحل الحدث إلى الأرض .
وهناك نواقض أخرى للوضوء استقصاها الفقهاء في كتبهم .

(٢٣١)

- خامسا -

مشروعية التيمم

شرح الله التيمم خصيصا لأمة محمد ﷺ يقول ﷺ : "فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لى الأرض كلها مسجدا ، وجعلت تربتها لنا طهورا إن لم نجد الماء"^(١) .
وأركان التيمم خمسة :

الأول : وجود تراب طاهر خالص له غبار يعلق بالوجه واليدين ويجوز بالرمل والجير إذا كان عليه غبار .

الثاني : قصد الصعيد فلو تعرض لمهب الريح لم يكفه ولو ييممه غيره بإذنه مع عجزه جاز وإن كان قادرا فوجهان .

الثالث : نقل التراب إلى الوجه واليدين .

الرابع : نية استباحة الصلاة فلو نوى بالتيمم رفع الحدث فقط لم يصح ، وأكمّله أن ينوي استباحة الفرض والنقل .

الخامس : مسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضريبتين مع الترتيب .

ولا يصح التيمم لصلاة إلا بعد دخول وقتها ، واكتفى البعض بضربة واحدة .

ولا يجوز الجمع بين صلاتي فرض بتيمم واحد .

- ٧ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

حكمة مشروعية الوضوء والتيمم

سائر أحكام الله تعالى تراعى مصلحة المكلفين ، وتتلاءم مع طاقاتهم ، وفطرتهم ، وقد اجتهد العلماء في إظهار حكمة التشريع في كل ما أمر الله به

(١) صحيح مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ج ٣ ص ١٠٨ .

وكل ما نهى الله عنه ، والمجتهد يصيب ويخطئ ، ولذلك حينما سئل ابن عباس عن حل التعارض بين قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ . قال للسائل : كل من عند الله ^(١) ، فأكد ﷺ إثبات مصدرية القرآن ، ولم يلتفت إلى التعارض الظاهر مع أن فك هذا التعارض موجود بتعدد مواقف الكفار في ردهم يوم الحساب ^(٢) .

وعلى هذا ...

تكلم العلماء كثيرا عن حكمة الوضوء ، وحكمة التيمم ، وتلقف البعض كلامهم وبين أن ما ذكروه موجود في غير الوضوء والتيمم .

ولذلك نقول : إن مقصود الوضوء ، والتيمم إيجاد عوامل تنشط النفس للقاء الله تعالى ، وتوجد مرحلة زمنية وسيطة بين عمل الدنيا وبين الخلوص التام للقاء الله .

إن الإنسان لا يقوم للصلاة إلا بعد تهيئة نفسه فيغير حركته ، ويتم وضوءه ، ويبحث عن الماء فإن لم يجده يتم .

إن ذلك يولد فيه الشعور بعظمة الله تعالى الذى سيتصل به ، ويعيش معه خلال الصلاة .

وبعد هذا الفهم الكلى لحكمة الوضوء والتيمم يمكننا فهم ما قاله الفقهاء ولا يضيرنا أقوال تنكر بعض ما ذكره الفقهاء .

إن دين الإسلام يربط الإنسان بالله ، ويملاً حياته بالطاعة ، وينقذه من تفاهات الجدل ، وسفسطة المجادلين .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٢٩ .

(٢) انظر تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ الآية (٤٢) .

(٢٣٣)

الركيزة الثانية

تفصيل الأحكام التكيفية

الأحكام التكيفية هي أحكام الله في أعمال عباده ، وهي أحكام شاملة لسائر الأعمال .

ونظرا لحاجة الناس إلى هذه الأحكام جاء تفصيلها من الله العزيز الحكيم ، وقد بينت السنة ما جاء في القرآن الكريم ، وتم بيان أحكام الإسلام وتوضيحها ، وتفصيلها .

وهذا من فضل الله على الناس فقد أمرهم بالعبادة ، ووضح لهم المنهج وأحاطه بالبيان والتفصيل ، ولم يترك للعقل البشري أن ي اخترع عباده ، أو يغير مسلكا ... ليبقى الجميع عبيدا لله تعالى ملتزمين دينه بعبدين عن أى غش أو غموض .

الركيزة الثالثة

وجود اليسر في التكليف

كلف الله عباده على قدر طاقتهم ، ورفع عنهم الحرج ، ويسر لهم الطاعة ، ولا عذر لمن عصى الله بعد ذلك .

ومن يسر الشريعة في الأحكام أن الغسل والوضوء يكون بالماء ، فإذا انعدم الماء فعلا أو حكما استبدل به التيمم كما شرع الله مع الوضوء المسح على الخفين والجبيرة .

ومن يسر الشريعة أن الله شرع الصلاة خمس مرات في اليوم واللييلة ، وقصرها أثناء السفر ، وأسقط شرط استقبال القبلة أثناء السفر والقتال .

وقضى . سبحانه وتعالى بالقيام للصلاة ، فمن عجز عن القيام فليصل قاعدا أو نائما أو بالإشارة ... وهكذا سائر التكاليف الشرعية .

إن الإنسان يعيش تحت رحمة الله تعالى ، وعليه أن يشكر الله تعالى ويعبده بإخلاص ، وصدق .

الركيزة الرابعة

أهمية استعمال الأدب في الطلب والخطاب

يلاحظ في الآية سمو الأسلوب القرآني في عرض الحقيقة ، ومخاطبة الناس .
 من ذلك تعبير القرآن الكريم عن قضاء الحاجة بقوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ والغائط هو الخلاء محل قضاء الحاجة فذكره الله تعالى كناية عن الفعل ، ولم يبين العمل الذي ذهب إليه ، واكتفى بمجرد العودة ، ولم يسند الفعل إلى إنسان معين وإنما قال : ﴿ أَحَدٌ مِّنكُم ﴾ .
 ومن ذلك التعبير عما يقع بين الرجل والمرأة في قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ .

ومن ذلك التعبير عن تراب الأرض بالصعيد الطاهر .
 هذا الأسلوب الراقى في الآية مصدر إشعاع لكل مسلم ليحسن خلقه وقوله ، ونطقه .

ومن جمال لغة العرب اشتمالها على البلاغة بما فيها من اختيار الكلمات الجميلة الفصيحة ، واستعمالاتها العديدة من مجاز ، وتشبيه ، وكناية وبديع ... وهذا يفتح الباب أمام المسلم ليسمو أسلوبه ، ويملاً كلامه بالحسن والجمال .
 والدعاة إلى الله تعالى هم أولى أفراد المجتمع في استعمال الأسلوب الجميل ، والاستفادة بألوان البلاغة على اختلاف علومها جنى يصلوا إلى القلوب ويخاطبوا العواطف ، ويلامسوا في الإنسان إنسانيته .
 وفي الآية إشارات سريعة لحسن الكلام ، وهو إرشاد لما في القرآن الكريم والسنة النبوية ففيهما الكفاية والغناء .

عداوة اليهود للمسلمين

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ^١ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٥١﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت الآية في رفاة بن زيد ومالك بن دخثم اليهوديين كانا إذا تكلم رسول الله ﷺ لوبا ألسنتهما ، وعاباه ﷺ فنزلت الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أحكام الغسل ، والوضوء ، والتيمم جاءت هذه الآية لتشير إلى عدم الاهتمام بموقف اليهود من أحكام الإسلام فهم الأعداء لا خير فيهم .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين أن اليهود يقيمون حياتهم على الضلالة ، ويتمنون أن يضل الرسول ﷺ ، والمؤمنون طريق الحق والصواب ، فهم أعداء المسلمين ، والله عليهم بهم ، ويكفى المسلمين أن الله وليهم وناصرهم .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ؟ ... والاستفهام للتعجب يدخل على فعل عجيب لا يمكن لعاقل أن يتصور حدوثه ولذلك كان التعجب من حدوثه ، والرؤية بصرية

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٤١ .

وعقلية ، وهى بحالتها مصدر التعجب ، فالعقل يتصور ما وقع ... والعين ترى ما وقع .

﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أى أن العجب كامن في فعل اليهود الذين أتاهم الله التوراة ، وعلموا أحكامه ، ووقفوا على صفة محمد ﷺ وكان المأمول منهم الهداية ، وطاعة الله تعالى ، ولكنهم نكصوا عن ذلك ، وعاشوا فى الضلال والبور ، والنصيب هو حظهم من الكتاب الذى نزل لهم .

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ أى أنهم يبذلون جهدهم في الحصول على الضلال والحياة فيه ، فيكفرون بمحمد ﷺ لينالوا السلطان ، والرئاسة ، ويأخذوا الأموال والعطايا .

وعبرت الآية بـ ﴿يَشْتَرُونَ﴾ للدلالة على أنهم يقبلون على الضلال في وعى وادراك ، وبنية جادة ، وعزم واضح ... ويعلمون أنهم يدعون الهدى ، ويعيشون الضلال فمعهم هداية الكتاب إلا أنهم يفضلون عليها الضلال ، وفيه حسراتهم .

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أى يتمنى هؤلاء اليهود أن يضلوا أيها المسلمون طريق الحق والصواب فهم لا يكتفون بضلال أنفسهم ، وانما يعملون على إضلالكم معهم .

ورغبة اليهود في إضلال المسلمين تعود إلى خوفهم من إيمان المسلمين لأنهم بالإيمان يكونون قوة صامدة ومنتصرة تعمل الخير للناس ، واليهود يخشون ذلك ، ولا يريدونه ، ويحاولون صرف المسلمين عن الإسلام ، وابعادهم عن تعاليمه .

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أى اعلّموا أيها المؤمنون أن علم الله محيط ، وهو أعلم بأعدائكم أكثر من علمكم وعلمهم بأنفسهم ، ويعلم ما بأنفسهم ، فلا

(٢٣٧)

تتاصحوهم ، ولا تنتظروا هدايتهم ، ولا تهتموا بهم .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا ﴾ أى يكفيكم الله تعالى وليا يتولى أمركم ، ويحقق

أملككم ، وينصركم على أعدائكم ، فنعم المولى .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ أى يكفيكم نصر الله تعالى . فهو الولي القدير ،

وهو نعم النصير .

- ٥ -

معنى الآيتين

يتعجب الله من هؤلاء الذين آتاهم نصيبهم من الكتاب ، وفيه دعوتهم للحق والهدى ، والتعريف بمحمد ﷺ وإذا بهم يتركون الهدى ، ويستبدلون به الضلال عن وعى وفهم ، ونية وقصد ، وهم في ضلالهم يسعون لضم المسلمين إلى الضلال معهم ، فهم يضلون ويضلون ... وعلى المؤمنين أن يستمروا على الحق ، ولا يسمعوا لإغراءات أعدائهم ، فانه عليهم بهم ، ويكفى أن الله ينصر المؤمنين ، ويتولى أمورهم ، وهو على شئ قدير .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

نكران فضل الله مدعاة للعجب

يعيش الإنسان في كنف فضل الله تعالى ، فقد خلقه ، وفضله بالعقل والإدراك ، وأكرمه بجليل المنن ، وعظيم العطايا ، وأحاطه بكون يخدمه ، ويبسر له الحياة .

ولم يرد الله من الإنسان شيئا إلا أن يكون عبدا لله رب العالمين ، فأرسل له الرسل ، وأنزل من أجله الكتب ليكون عابدا مستقيما ، ملتزما ، وجاء الإسلام بتشريعاته ونظمه لتحقيق المصلحة للناس في الدنيا والآخرة .

(٢٣٨)

إن الله غنى عن الناس ، وما أكرمهم إلا رحمة بهم .
والعاقل يجد رحمة الله تعالى في خلقه ، وخلق الكون كله .
وكان المأمول أن يقر الإنسان بفضل الله ، ويسارع إلى الانقياد والطاعة ...
لكن الواقع يشير إلى جحود الإنسان للفضل الإلهي ، ويؤكد بعده عن المنهج
الذي ارتضاه الله للناس بعيدا عن المذاهب الوضعية ، والفلسفات العقلية .
إن منهج الله منزل من عنده سبحانه وتعالى ، ولذلك فهو متصف
بالشمول ، والعدل ، ومراعاة فطرة البشر .
- كيف ينكر الإنسان فضل الله ، وهو يتقلب فيه ؟
- وكيف يعيش العطايا ، ولا يؤدي ما عليه ؟
- وكيف يغلب العقل الضال صاحبه ويبعده عن هداية الله ؟
- وكيف يؤثر فكر العقل البشري المحدود على وحى العليم القدير ؟
إن موقف الإنسان المعاصر لعجيب ، ومصدر العجب أنه يحارب نفسه ،
ويتنوه بين الضلال والخسران .
وعلى الدعاة ...

تذكير الناس بفضل الله ، وبيان الواجب عليهم ، وتذكيرهم بما ينتظرهم
في الآخرة بعد حساب دقيق ، ومصير محتوم .

الركيزة الثانية

الله ولي الذين آمنوا

المؤمنون عبيد صادقون مع خالقهم ، ولذلك يتولى الله أمرهم ، وينصرهم
على عدوهم ، ويعرفهم بالحق ، ويهديهم إلى سواء السبيل .
إن المؤمن محاط بعداوات عديدة ، ولن ينقذه منها إلا معونة الله تعالى
وتوقيفه .
وعليه أن يتمسك بالإيمان ، ويلتزم الطاعة ليدوم في كنف الله وحفظه .

تحريف اليهود لكلام الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْثًا بِالْسِتِّهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٣٩﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة العجب من الذين ضلوا بعد أن أوتوا نصيبا من الكتاب جاءت هذه الآية تحددتهم وتعرف بصفاتهم ، وطريقتهم في لى اللسان والعدوان على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ .

- ٢ -

موضوع الآية

تتحدث الآية عن انحراف اليهود ، وتحريفهم لما نزل عليهم ، وليهم الكلام بالسنتهم ، وطعنهم في دين الله تعالى ... ولو استقاموا وتركوا فسادهم لنالوا الخير ، لكنهم أبوا واستمروا على الكفر فاستحقوا لعنة الله عليهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ والذين هادوا هم اليهود مأخوذ من قولهم : ﴿إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ﴾^(١) ، والآية بيان للمراد من أعدائكم الذين ورد ذكرهم في الآية السابقة

(١) سورة الأعراف ، آية ١٥٦ .

لأن الذين أوتوا نصيبا من الكتاب هم اليهود والنصارى ، والمراد بهم هنا اليهود فقط .

وما بين البيان في هذه الآية : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ والمبين في الآية السابقة : ﴿ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ جاء قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ تَصِيرًا ﴾ جملة معترضة لبيان موقف اليهود العدائي من المسلمين ، واحاطة المسلمين بولاية الله ، ونصره لهم ليتعاملوا مع أعدائهم بما يستحقون ، وهم واثقون من عون الله وتوقيه .

ويمكن أن تكون : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ متصلة بقوله تعالى : ﴿ تَصِيرًا ﴾ والمعنى وكفى بالله حافظا وناصرا لكم من عداوة الذين هادوا فهو الذى ينصركم على أعدائكم جميعا .

ويمكن إعراب ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ خبرا لمبتدأ محذوف ، وجملة ﴿ سُحِرْفُونَ ﴾ صفة للمبتدأ المحذوف كقولهم : منا حضر ، ومنا غاب . والتقدير : فريق منا حضر ... وفريق منا غاب .

والخطاب لمحمد ﷺ ومن للتبويض ، والمعنى : ألم ينته علمك يا محمد إلى هؤلاء الذين أعطوا حظا من علم التوراة فأمنوا ببعضه ، وكفروا بالبعض الآخر .

ومعنى ﴿ سُحِرْفُونَ ﴾ يؤولون المعنى على غير وجهه ، أو يبدلون الكلام بغيره ، أو يحذفون كلاما من النص المنزل عليهم .

﴿ الْكَلِمَ ﴾ أى أن اليهود كانوا يبدلون ويغيرون كلام الله الذى نزل لهم لفظا أو معنى .

وقيل : إن اليهود كانوا يأتون لمحمد ﷺ ويسمعون كلامه فإذا خرجوا من عنده حرفوا ما سمعوا .

﴿ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ أى أنهم يؤولون الكلام بغير معناه الذى وضعه الله له أو يضعون لفظا غير الذى وضعه الله تعالى ، أو يحذفون الكلام الذى وضعه الله تعالى ، فقد غيروا أوصاف محمد ﷺ التى أنزلها الله تعالى وصرفوها إلى غيره ﷺ وغيروا أحكام الرجم ، ووضعوا غيره في كتابهم ، ومن تحريفهم عدم إيمانهم بنبوة محمد ﷺ مع أنه عرف باسمه ووصفه في كتابهم وتحريف ما يسمعون منه ﷺ .

﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أى أن اليهود كانوا يقولون لرسول ﷺ : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ، ويظهرون عصيانهم استخفافا بمحمد ﷺ .

﴿ وَأَسْمَعَ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أى يقولون ذلك لرسول الله ﷺ : اسمع مدعوا عليك بعدم السمع لصمم أو موت ، لأنهم تصوروا أن دعاءهم مستجاب ، فلما دعوا عليه ﷺ بلا سمعت تصوروا الإجابة فصار ﷺ غير مسمع في تصورهم . يقول الزمخشري : قوله تعالى : ﴿ وَأَسْمَعَ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ يحتل المدح والذم .

أما الذم فمعناه : اسمع مدعوا عليك بأن لا تسمع ، أو اسمع غير مجاب لما تدعو إليه ، أو اسمع غير مسمع كلاما يرضيك .
وأما المدح فمعناه اسمع غير مسمع كلاما مكروها^(١) .

﴿ وَرَاعِنَا ﴾ هذا من قولهم لمحمد ﷺ ، وله معنيان أيضا مدح وذم .

أما المدح فإنها تعنى انظرنا نظر رعاية وحفظ ، وصيانة ، وذلك بمد النون .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٣٠ .

وأما الذم ينطقونها بتتوين النون حين الوصل والوقف عليها بالسكون ، ومعناها الحمق والسفاهة .

وقيل : إن مرادهم معناها العبرى في لغتهم وهى تعنى الرعونة والطيش .

﴿ لَيَّا بِالسِّنِّتِمْ ﴾ أى أن هؤلاء اليهود يثنون لسانهم حين النطق بالكلمة

بإشباع الحركات ، أو تتوين الممدود ، أو التفخيم والترقيق ليعطى اللفظ في السمع صورة كلمة أخرى ، وإفادة معنى غير معناها ، أو يؤدى إلى إفادة معنيين ، ويدعون إرادة المعنى الحسن ، وهم يقصدون المعنى السيئ .

وقيل : إن معنى "راعنا" اصرف سمعك إلى كلامنا ، وانصت إلى قولنا وهذا خطاب لا يليق مع النبي ﷺ .

﴿ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ ﴾ والطعن هو إرادتهم المعنى السيئ من لى ألسنتهم .

وكان يقولون لإخوانهم : لو كان محمد رسولا صادقا لعلم ما أردناه بقولنا ، وما انخدع بلى ألسنتنا ... فعرفهم الله بمقاصدهم وبين لهم ضلالهم ، وذلك في قوله تعالى .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾

"لو" حرف امتناع لامتناع لأنهم امتنعوا عن الشرط فمنعوا من الجواب ... والشرط في أنهم قالوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ، أى لو أنهم لو أطاعوا رسول الله ﷺ وسمعوا دعوته ، ودخلوا في دينه ، وابتعدوا عن الطعن في الدين ، واللى باللسان لكان أفضل لهم .

ولو أنهم قالوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ بدل قولهم : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ لكان

أفضل لهم ، ولو أنهم قالوا ، واسمع منا كلاما حسنا بدل قولهم غير مسمع لكان خيرا لهم .

(٢٤٣)

ولو أنهم قالوا انظرونا وحافظ علينا بدل قولهم راعنا لكان أحسن .
ولو أنهم فعلوا ذلك وتركوا اللى والطعن لنالوا خيرا وفضلا ، وذلك في
قوله تعالى :

﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ لكان فعلهم هذا خيرا لهم وبركة ، فهو
الأعدل والأوضح ، والأظهر ، وفيه النجاة .

﴿ وَلَكِنْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أى ولكن أثر اللعنة حاقت بهم فحرموا
من هذا الخير والعدل فهم في غيهم يعمهون ، وفي ضلالهم يعيشون .
والباء ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ سببية لتوضيح أن الكفر هو سبب اللعن والطرده من
رحمة الله تعالى .

﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى لا يؤمن منهم إلا عدد قليل ، أو يؤمنون
إيماناً ضعيفاً فيصدقون بالبعض دون البعض الآخر ، وهذا ما حدث من اليهود
على الزمن كله فقد آمن عدد قليل ، وبعض من آمن منهم كان إيمانه ضعيفاً
هينا ... أو لا يؤمنون البتة لأن القلة تستعمل في العدم والنفى .

- ٤ -

معنى الآية

يبين الله تعالى العجب من أناس أتاهم نصيب من التوراة ، ومع ذلك
يحرفون ما أتاهم ، ويختارون ما يرضيهم ، ويرفضون ما لا يريدون ، ويتبجحون
بأقوالهم ، ويسبون إلى رسول الله ﷺ وإلى الإسلام ، ويطعنون في دين الله تعالى
، وذلك كله دلالة على ضعف عدوهم ، وسوء تصرفاتهم ... ولو أنهم استقاموا
على الحق ودخلوا في الإسلام ، وعاشوا الخلق الكريم لكان خيرا لهم ، وأفضل
... لكنهم أبوا الانصياع للحق ، واستمروا على الكفر ، فاستحقوا لعنة الله بسبب
عنادهم وكفرهم فبعدوا عن الإيمان الحق ، ولن يؤمن إلا القليل منهم .

(٢٤٤)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى توضيح بعض صفات اليهود

تتحدث الآية عن بعض صفات اليهود ... ومنها :

(١) يحرفون كلام الله الذي نزل إليهم بتغييره لفظا ، ونطقا ، أو رسما وكتابة

ليفيد معنى غير معناه ، ويحقق غايتهم في الكفر والضلال .

(٢) وقاحتهم في المعارضة والخصومة فهم يعلنون عصيانهم بوضوح لا خجل

معه .

(٣) يلوون ألسنتهم في الحديث ليجعلوا الكلام شتما واهانة .

(٤) عدم قبول النصح واستمرارهم على كفرهم .

(٥) استحقاقهم لعنة الله بسبب كفرهم ، وحرمانهم من الإيمان ، فلا يؤمنون إلا

بضعف ، ولا يؤمن منهم إلا العدد القليل .

وهذه أهم الصفات الواردة في الآية ، وقد بينها الله تعالى ليعرف

المسلمون أعداءهم ، ويأخذوا الحذر منهم .

والعجب من المسلمين اليوم وهم يدركون هذه الحقائق عن اليهود ، ومع

ذلك يقفون أمامهم لا يعرفون ماذا يفعلون ؟

ومصدر العجب أن الحل واضح ، وطريق النجاح معروف ... وهو اتباع

الإسلام ، والالتزام بمنهجه .

فما هو يا ترى ما يمنع المسلمين أن يكونوا مسلمين ؟

وما الذي ينتظرونه من عصيانهم وتمردهم ؟

(٢٤٥)

الركيزة الثانية

مسئولية الإنسان عن عقيدته

يجد الإنسان في نفسه وفي كل موجود دليل الإيمان بالله تعالى ، وعليه أن يتدبر ، ويعقل ، ويختار العقيدة التي يؤمن بها ، ولذلك فهو مسئول عن إيمانه .
واليهود أصروا على الكفر فلعنهم الله تعالى ، وأعمى أبصارهم وقضى عليهم بالمسخ والهلاك .

ومن هنا ...

وجب على كل مكلف أن يقوم لنفسه ، وينظر إلى آيات الله تعالى ، ويؤمن به ليفتح الله أمامه أبواب الخير ، ويهديه سواء السبيل .
ولا يصح لمؤمن أن يدعى الإيمان بالله ، وهو لا يعبد ... ولا يجوز أن يأخذ من مستلزمات الإيمان ما يريد ... ويترك ما لا يريد .
هذا وأمثاله لا يجوز ... ومن يفعله يبيء بالخسارة والبور ، ويعيش الضنك وسوء المصير .

دعوة اليهود إلى الإسلام

يقول الله تعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۖ ﴾

- ١ -

سبب نزول الآية

كلم النبي ﷺ أحبار اليهود عبد الله بن سوريا ، وكعب من الأشرف فقال :
يا معشر اليهود، اتقوا الله ، وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتم به لحق

(٢٤٦)

قالوا : ما نعرف ذلك ، وأصروا على الكفر ، فأنزل الله هذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآية السابقة ضلال اليهود وعدوانهم جاءت هذه الآية لدعوة اليهود إلى الإيمان بالإسلام مع الوعيد الشديد لهم إن لم يسلموا .

- ٣ -

موضوع الآية

تتناول الآية دعوة اليهود إلى الإيمان ، لأن ما جاءهم به محمد ﷺ يصدق ما معهم ، ويكمّله ، كما تبين الآية العقوبات التى تنتظرهم إن لم يؤمنوا .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ هذا نداء لأهل الكتاب ، والمراد بهم هنا اليهود لأن الآيات السابقة تتكلم عنهم ، وتسمية اليهود بـ ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ لبيان سوء ما هم فيه من كفر ، وكان الأولى بهم أن يسارعوا إلى الإيمان فقد أتاهم الكتاب من الله تعالى ، وعرفهم ببعثة محمد ﷺ ، ودعاهم إلى اتباع دينه .

﴿ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ أى صدقوا بالقرآن الكريم ، وما يستتبع ذلك من الإيمان بمحمد ﷺ ، وبما يدعو إليه ، واختارت الآية الدعوة إلى الإيمان بالقرآن الكريم لبيان اتساقه مع كتابهم الذى يؤمنون به ، ولذلك ذكرت الآية العوامل المشتركة بين الكتابين ... وهى :

(١) كلا الكتابين التوراة ، والقرآن الكريم ، منزل من عند الله تعالى .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٤٢ .

(٢) وحدة الموضوعات التي تناولها الكتابان ، فلقد نزل القرآن الكريم مصدقا لما نزل في التوراة من توحيد الله تعالى ، ونفى الشرك كما أن التوراة قد تضمنت ما يدل على صدق القرآن الكريم ، وصدق محمد ﷺ رسولا للعالم كله .

و ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال من الكتاب المنزل على محمد ﷺ فهو مصدق لما في التوراة المنزلة من عند الله تعالى .

ومن حسن الدعوة بيان أنهم يدعون إلى الإيمان بأمرهم بما هم به مؤمنون سلفا ، ومن الأفضل للإنسان أن يثق بمن يثق فيه ، ويصدق بمن يصدقه .
ومن الخير للإنسان أن يؤمن برسوله وبمحمد ﷺ حيث لا تعارض بينهما والقرآن الكريم مصدق للكتب السابقة .

ودعوة اليهود وغيرهم مستمرة إلى يوم القيامة ، وإيمان الإنسان مقبول منه ما لم يغرغر .

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾ وهذا يقع في يوم القيامة حيث يطمس الله الوجوه ، ويمحو صورتها ، كما يقع في الدنيا على أن يراد بالوجه العين ، وطمسها حينئذ يكون بعميانها .
والطمس محو الشئ وإزالته حتى يتغير تغيرا كليا ، وبذلك يكون معنى رد الوجوه على أدبارها تحويلها إلى الخلف فيصير الوجه قفا ، والقفا وجها .
وذهب البعض إلى أن ذلك يقع في الدنيا معنى ، ومعنى الطمس على هذا هو الإبعاد عن الهدى ، وردهم إلى الضلال ... أو طمس قلوبهم ، وبصيرتهم ، وردهم إلى الذل والصغار .

(٢٤٨)

وقد رتب الله تعالى طمس الوجوه على عدم إيمان أحد من اليهود لا على جميعهم كما يدل على ذلك تنكير ﴿وُجُوهًا﴾ ، وقد آمن بعضهم فسقطت عنهم هذه العقوبة .

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أو للتخيير ، وهى تفيد أن الله تعالى سيعاقب اليهود إن لم يؤمنوا ويصدقوا بالقرآن الكريم بأحدى هاتين العقوبتين ، طمس الوجوه أو لعنهم كما فعل الله بأصحاب السبت ، فقد جعلهم الله قردة وخنازير ، وطردهم من رحمة الله تعالى ، ولم يعاقب الله اليهود بأحد هاتين العقوبتين لإيمان كثير منهم كعبد الله بن سلام ، ومن كان معه رضى الله عنهم .

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أى أن أمر الله وحكمه في اليهود وفى غيرهم واقع لا محالة ... ولو لم يؤمن بعض اليهود لحاق بهم حكم الله الذى أخبرهم به .

- ٤ -

معنى الآية

ينادى الله اليهود وقد أتاهاهم الكتاب أن يصدقوا بالقرآن الكريم فهو موافق لما نزل لهم قبل أن يحيق به عذاب الله يوم القيامة ، وقد توعدهم الله بأحد عقوبتين إن لم يؤمنوا وهما طمس الوجوه ، ومحوها ، وإزالتها ، أو جعلهم قردة وخنازير ، وطردهم من رحم الله تعالى ، وقد آمن بعضهم فرفع الله عنهم العقوبة المذكورة ، أما الذين استمروا على الكفر فعقوبتهم عند الله بعد حسابهم أمر مقرر

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية حسن عرض الدعوة

بين الله تعالى ضرورة تبليغ الدعوة ، وتقديمها للناس بصورة حسنة فقد سماها الله تعالى البينة لما فيها من وضوح ، وجمال .

يقول الله تعالى : ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ (١) .

وحسن عرض الدعوة ركيزة واضحة في الآية فقد مدح الله تعالى اليهود وهو يناديهم ليحفزهم على الطاعة والاستجابة . فناداهم : ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ وهذه منزلة عالية ، فقد خصهم الله بكتاب من عنده ، وأودع فيه ما يأمرهم به ، وعرفهم بمحمد ﷺ وبضرورة الإيمان به حين مبعثه ... ولذلك كان تذكيرهم بإتيان الكتاب تذكيرا لهم بما عهد إليهم ، وهو هنا يذكرهم به وهو الإيمان بالقرآن الكريم المنزل ككتابهم ، المصدق لما في كتابهم من عقيدة وأخلاق .

إن حسن عرض الدعوة يبدو في إبراز حقيقة الإسلام الجميلة لأن ذلك يحرك العقول ، ويقوى الهمم ، ويبعد المستمع عن العنصرية والأناية .

وقد اشترط الإمام الغزالي رحمه الله تعالى للدعوة إلى الله أن تحرك داعية النظر والتفكير في الإنسان .

إن غموض المعلومات ، وسوء عرض الدعوة ينفر الناس منها ... وقد رأينا في الناس أساليب التشويق ، وألوان الإثارة في عرض توافه الأمور ... ورأينا تأثيرها في الناس ... ألا يدفعنا ذلك إلى تحسين تقديم الدعوة ، واختيار الوسائل والأساليب التي تمكن لها في القلوب والأرواح !!؟

وعلى الدعاة ...

(١) سورة البينة ، الآيات ٣ . ١ .

(٢٥٠)

أن يتخيروا النماذج الدعوية الجميلة القائمة على الخلق الكريم من القرآن الكريم ، ومن سنة رسول الله ﷺ ، ومن سلف الأمة الصالح .
والأمر يحتاج من الدعاة إلى الإخلاص ، والصدق ، والعمل لله رب العالمين .

الركيزة الثانية

الترهيب فن من فنون الدعوة

تشتمل الآية على إنذار اليهود بتبديل الوجوه أو بالمسخ واللعن إن لم يؤمن منهم أحد ، وهو فن يعرف في علوم الدعوة بـ "الترهيب" واستعماله يحتاج إلى عقل يطبقه في موضعه .

إن الإنسان محب لنفسه ، راغب في الفوز والظفر ، فإن تيقن من طريق الفوز سلكه ، وإن علم وسيلة النجاح سار فيها ، ولذلك خوفت الآية اليهود من العقوبة إن استمروا على كفرهم ، وهى إذ تخوفهم من العقوبة تدلهم على إمكانية وقوعها ، وتبين قدرة الله تعالى الذى أتى لهم الكتاب ، ونزل القرآن ، فهو صاحب الفضل ، ولذلك فإنذاره واضح ، وقدرته شاملة ، ويجب استعمال هذا الأسلوب بصورة فنية ، ولا يصح الاكتفاء بها في دعوة الناس .
وغالبا ما يأتى الترهيب مصاحبا للترغيب ليظهر كل منهما أهمية الآخر وأثره في الناس .
وعلى الدعاة ...

اللجوء إلى هذا الفن بصورة منهجية ليناسب المجال الذى يستعملونه مع ملاحظة الاستفادة منه عند الضرورة لأن الإكثار منه لا يفيد .

لا غفران للشرك بالله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت الآية في وحشي وأصحابه ، وذلك أنه لما قتل حمزة رضي الله عنه ورجع إلى مكة ندم وهو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله ﷺ إنا نندمنا على ما صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك بمكة تقول : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ^(١) وقد دعونا مع الله إلها آخر ، وقتلنا النفس التي حرم الله ، وزيننا فلولا هذه الآيات لاتبعناك فنزلت : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ^(٢) الآيتين فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم ، فلما قرأوهما كتبوا إليه إن هذا شرط شديد ، ونخاف أن لا نعمل عملا صالحا فنزلت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ، فبعثوا إنا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة فنزلت : ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرْفَوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ^(٣) الآية فبعث بها إليهم فدخلوا في الإسلام ، ورجعوا إلى النبي ﷺ فقبل منهم .

ثم قال ﷺ : لوحشي أخبرني كيف قتلت حمزة ؟

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٨ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٦٠ .

(٣) سورة الزمر ، الآية ٥٣ .

(٢٥٢)

فلما أخبره قال له ﷺ : ويحك غيب وجهك عني فلحق بالشام فكان به إلى أن مات .

وقيل : لما نزلت : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ الآية قام رجل فقال : يا رسول الله والشرك ؟ فسكت ثم قام إليه مرتين أو ثلاثا فنزلت هذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن عقوبة الله نافذة فيمن عصاه ، وأبى الاستجابة لدعوته جاءت هذه الآية لبيان حدود المغفرة ، وتوضيح أن لا مغفرة مع الشرك بالله تعالى .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية توضح أن الله يغفر الذنوب جميعا ، ويقبل توبة المذنبين ما عدا الشرك به سبحانه وتعالى ، فإنه لا يصلحه إلا التوبة منه ، والإيمان بالله تعالى .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ أى أن الله تعالى لا يغفر لمشرك مات على الشرك بالله ، واتجه بالعبادة لغيره سبحانه وتعالى .
﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يغفر ما دون الشرك به لمن يشاء من عباده ، فمن مات من الناس غير مشرك بالله ، وقد عصى وأذنب فأمره مرتبط بمشيئة الله تعالى إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه .
وفى هذا دعوة لأهل الكتاب ليتجنبوا الشرك بالله تعالى ، وفتح باب الأمل لسائر العصاة حتى لا يقعدهم القنوط عن التوبة والاستغفار ، والأحاديث تؤكد ذلك :

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٤٣ .

- روي عن ابن عمر قال كنا على عهد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار حتى نزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فأمسكنا عن هذه الشهادة^(١) .
- وقال ابن عباس لعمر بن الخطاب ؓ : يا أمير المؤمنين الرجل يعمل من الصالحات لم يدع من الخير شيئاً إلا عمله غير أنه مشرك . قال عمر : هو في النار . فقال ابن عباس : الرجل لم يدع شيئاً من الشر إلا عمله غير أنه لم يشرك بالله شيئاً . فقال عمر : الله أعلم . قال ابن عباس : إني لأرجو له كما أنه لا ينفع مع الشرك عمل كذلك لا يضر مع التوحيد ذنب . فسكت عمر^(٢) .
- وعن علي بن أبي طالب ؓ قال : ما في القرآن أحب إلي من هذه الآية إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء^(٣) .
- وعن جابر ؓ قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما الموجبتان ؟ قال ﷺ : "من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك به دخل النار"^(٤) .
- إن الشرك يبعد العبد عن ربه ، وينسيه خالقه ، ولذلك يحرم من قام به من مغفرة الله تعالى .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٤٤ .

(٢) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٤٤ .

(٣) تفسير البغوى ج ١ ص ٥٤٤ .

(٤) المعجم الأوسط للطبراني ج ١٦ ص ١٩٩ .

والله بهذا القضاء يقرب العباد منه ، ويحثهم على الاقبال عليه ، ويعرفهم بأنه غافر الذنب وقابل التوب ، ويعرفهم أنه يتقرب إليهم بقربهم منه .

- أخرج البخارى بسنده عن أبى ذر رضي الله عنه قال : خرجت ليلة من الليالي ، فإذا رسول الله ﷺ يمشي وحده ، وليس معه إنسان .

فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد ، فجعلت أمشي في ظل القمر وراءه فالتفت فرآني .

فقال : من هذا ؟

فقلت : أبو ذر جعلني الله فداءك .

قال : يا أبا ذر تعال إلي !

فمشيت معه ساعة . فقال لي : إن الكثيرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من أعطاه الله خيرا ، فيجعل بينه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيرا .

فمشيت معه ساعة ، فقال لي : اجلس ها هنا . فأجلسني في قاع حوله حجارة . فقال لي : اجلس ها هنا حتى أرجع إليك .

فانطلق في الحرة حتى لا أراه . فلبث عني ، حتى إذا طال اللبث ... ثم إنني سمعته وهو مقبل يقول : وان زنى وان سرق .

فلما جاء لم أصبر حتى قلت : يا نبي الله . جعلني الله فداك . من تكلمه في جانب الحرة ؟ فإني ما سمعت أحدا يرجع إليك .

قال : ذلك جبريل ، عرض لي في جانب الحرة ، فقال : بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة .

قلت : يا جبريل . وان سرق وان زنى ؟

قال : نعم .

قلت : وان سرق وان زنى ؟

(٢٥٥)

قال : نعم . وان شرب الخمر^(١) .

وأخرج ابن أبي حاتم . بإسناده . عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ ما من نفس تموت ، لا تشرك بالله شيئاً ، إلا حلت لها المغفرة إن شاء الله عذبها ، وان شاء غفر لها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾^(٢) ...

– وأخرج ابن أبي حاتم . بإسناده . عن ابن عمر قال : كنا أصحاب النبي ﷺ لا نشك في قاتل النفس ، وآكل مال اليتيم ، وقاذف المحصنات وشاهد الزور . حتى نزلت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فأمسك أصحاب النبي ﷺ عن الشهادة^(٣) !

– وروى الطبراني . بإسناده . عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : قال الله عز وجل : من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي . ما لم يشرك بي شيئاً^(٤) .

– وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ ثوب أبيض ، وهو نائم ، ثم أتيت به ، وقد استيقظ ، فقال ﷺ : " ما من عبد قال : لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة .

قلت : وان زنى وان سرق ؟

قال : وان زنى وان سرق .

قلت : وان زنى وان سرق ؟

قال : وان زنى وان سرق .

قلت : وان زنى وان سرق ؟

(١) صحيح البخارى - كتاب الرقاق . باب المكثرون هم المقلون ج ٢٠ ص ٧٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٢٨ .

(٣) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٤٤ .

(٤) في ظلال القرآن ج ٢ ص ٣٩٨ .

(٢٥٦)

قال : وان زنى وان سرق على رغم أنف أبي ذر .
وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال : وان رغم أنف أبي ذر^(١) .
﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ أى ومن يتخذ مع الله
شريكا آخر ، يعبده ، ويقصده في الطلب ، ويتصوره قادرا على فعل ما يريد فقد
اختلق إثما كبيرا وارتكب فعلا لا حقيقة له ، ولا سند له فهو الافتراء والكذب ،
وهذا إثم كبير لا غفران له البتة .
والآية تدل على أن الكذب والافتراء يكون في الأفعال والأقوال .

- ٥ -

معنى الآية

يبين الله تعالى أنه سبحانه برحمته وفضله يغفر كافة ذنوب عباده ما عدا
الشرك بالله ، لأن المشرك حين يشرك بالله فقد قطع ما بينه وبين ربه ، ولذلك
لا غفران له إلا أن يتوب عن الشرك قبل موته .
إن الشرك بالله تعالى جرم كبير ، وعدوان على الحق ، وإهمال مقصود
لكل قيم الوجود كله ، ولذلك لا غفران لمشرك .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

خطورة الشرك بالله تعالى

الله وحده سبحانه وتعالى هو خالق الخلق ، وقد عرفنا سبحانه وتعالى
بنفسه فله سبحانه كافة صفات الجمال ، والكمال ، والجلال ، والأفضال ، بيده
الأمر وهو على كل شئ قدير .

(١) تفسير البغوى ج ١ ص ٥٤٤ .

لا يشبهه أحد من خلقه ، فكل موجود سواه من قدرته ، وكل صفات الناس من تقديره ، وقضائه .

الخالق كلها تسبح له : ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ^ع وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ۝ (١) .

وقد كلف عباده بعبادته وحده في شعائر ومناسك محددة ، وفي كل نشاط يقومون به ، وبذلك تتحول عادات الناس بنياتهم إلى عبادة لله تعالى .
لكن أناسا لعب الشيطان برعوسهم جعلوا الله الواحد عددا ، واتخذوا من بين أيديهم لحما ودماء يأكلونه ويشربونه متصورين أنه لحم ودم لربهم المزعوم .
وأناس آخرون يتصورون النفع والضرر من غير الله ويتوجهون إليه بالطلب والدعاء ... وهذا شرك لا يجوز .

وأناس أحلوا ما حرم الله ، وحرموا ما أحله سبحانه وتعالى ، وغرهم الشيطان ، ولعبت بهم الأمانى فتصوروا شريعة الله تخلفا ، وتصوروا أن ضلالهم سيقربهم إلى الله تعالى .

إن من الضلال تصور أن بعض الإيمان كاف في الإيمان ... وما دروا أن الشرك بالله بكافة صورته يضيع الأعمال ، ويجعلها هباء لا قيمة له عند الله تعالى .

ومن هنا وجب على الدعاة .

توضيح الإيمان الصحيح ، وبيان صور الشرك ، وتعريف الناس بأنه لا قيمة لأى طاعة أو عمل مع الشرك بالله تعالى .

وعلى الدعاة بيان أن الشرك صوره عديدة ... وعلى المؤمنين أن يحذروا الوقوع فى الشرك صغر أو كبر لينالوا غفران الله تعالى فإنه سبحانه غفار لكل مذنب ما عدا من يشرك به غيره .

الركيزة الثانية

الدعوة رحمة من الله تعالى

يدعو الله فى الآيه الناس إلى الإيمان الصحيح ، ويوضح لهم خطورة الشرك حيث لا مغفرة معه .

وهذه رحمة بالعباد ليستمر الناس على اتصال بربهم سبحانه وتعالى .
إن الشرك يعنى إنكار العبد لقدرة الله ، وتصور الله إلها يحتاج لغيره واعطاء غيره بعض صفاته سبحانه وتعالى ... وكل ذلك خبل فى العقل لا يجوز .
إن من يشرك بالله يقطع نفسه عن مصدر الفضل والعطاء ، ويحرم ذاته من الفكر الصحيح ، والصراط المستقيم .

- ما قيمة المخلوق إذا انقطع عن خالقه ؟
- ومن ينجى الإنسان سوى الله تعالى ؟
- وهل يتساوى مخلوق حادث مع الله القوى القدير ؟
- لو فكر الإنسان فى نفسه لالتزم بالتوحيد المطلق ، وعبد الله الواحد .
- إن الإنسان وجد بعد عدم ... وعلم بعد جهل ... وصار رجلا بعد طفوله لاهية ...

- ألا يدعوه ذلك إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ؟ ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۖ ﴾
وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿ ٢٥٨ ۝ ٢٥٩ ﴾^(١) .

(١) سورة الأعلى ، الآيات ٢ ، ٣ .

- ألم يسأل المشرك نفسه عن سر اختلاف الناس لونا ، وصورة ، وذكاء وحالا ... وميولا ؟

- من قدر ذلك ؟ ... ومن أخرجه ؟ ...

هل يستطيع الإنسان أن يجعل العقيم أبا أو أما ؟

هل يمكنه أن يتحكم في ولده قبل مجيئه ذكرا أو أنثى ؟

هل يعلم عدد شعر جسده ورأسه ؟

هل يدرك ما سيكون فيه اليوم ... وغدا ؟

كل ذلك غيب يعلمه الله الواحد ، ويقدره ، ويقضى به وعلى الإنسان أن يتدبر ، وينظر ليؤمن . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ^١ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا^٢ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ^٣ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ^(١) .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ^٤ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٢) .

وهو سبحانه : ﴿ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِّثًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ^(٥) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِّثًا^٦ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا^(٣) .

إن الله عرف الناس بنفسه ، وأرسل الرسل للبيان والدعوة والتوضيح ، وجعل في الأمة دعاة للحق ، ومصاييح تنير للناس الطريق .

إن الله رحيم بعباده ، ويا ليت الناس يدركون ذلك ، ويخلصون في إيمانهم بالله تعالى ، ويستجيبون لدعوة الله تعالى .

(١) سورة لقمان ، الآية ٣٤ .

(٢) سورة النحل ، الآية ٨٧ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٤٩ ، ٥٠ .

(٢٦٠)

من صفات اليهود المدح الكاذب للذات

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ
فَتِيلًا ۝ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِمِنِّ إِيْمَانًا مُّبِينًا ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيتين

نزلت في رجال من اليهود أتوا بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ .

فقالوا : يا محمد هل على هؤلاء من ذنب ؟

قال : لا .

قالوا : ما نحن إلا كهيئتهم ، ما عملناه بالنهار يكفر عنا بالليل ، وما عملناه
بالليل يكفر عنا بالنهار ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقيل : نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ ۖ ﴾

، وقولهم : ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى ﴾ ^(١) .

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك ،
وان الشرك إثم كبير ، وذنب عظيم جاءت هاتان الآيتان لبيان بعض الذنوب
التي يغفرها الله تعالى بعد التوبة منها ، وهي تركية الشخص لنفسه ، ولجوؤه
إلى الكذب في هذا .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٤٤ ، أسباب النزول ص ١٢٨ .

(٢٦١)

- ٣ -

موضوع الآيتين

الآيتان توضحان أن تزكية النفس لا تجوز ، والله هو الذى يزكى من يشاء بعلمه واحاطته ، ولا يصح أبدا أن يلجأ الإنسان للكذب في مدح ذاته ، لأن ذلك إثم كبير .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ ...؟ الخطاب لمحمد ﷺ ، والاستفهام للتعجب من تعمد فريق من الناس مدح أنفسهم . وترى من الرؤية وتكون نظرية أو قلبية .

والتزكية هى مدح الإنسان نفسه بالصلاح ، وبالتقوى وبالحسب ، وبالغنى ليعرف بذلك بين الناس ، وهذا أمر عجيب ... لأن التزكية متعلقة بالصلاح والتقوى ، وسلامة القصد والنية ، ومعناها خلوص النية لله ، وبراءة العمل من الإثم ، وملازمة العبودية لله رب العالمين ، وتلك أمور لا يعلمها إلا الله تعالى ، ولذلك كان العجب من فعلها ومن القائمين بها ، ووجب ترك التزكية لله تعالى .

﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يوفق من يشاء ويهديه للعمل الصالح ، ويرفع شأنه ، ويجمع القلوب حوله .

ومما يؤكد خطأ من يزكى نفسه انه إن رضى عن عمله فهو بمقياس عقله المحدود ، وسيتجاوز عن أحوال ، وأعمال ، ونوايا مذمومة لا تستحق التزكية ... لأن كل بنى آدم خطأ ... أما الله تعالى فهو عليم بالحقيقة ، ويجازى أصحابها عليها ... وعلى الإنسان أن يتبع دين الله تعالى ، ويتهم نفسه دائما لأنه لا يدري أقبل عمله أم لا ؟ ... وهل سيستمر في صلاحه أم سيتغلب عليه شيطانه من الجنة والناس ؟

إن المؤمن الصادق لا يزكى نفسه أبدا ، ويعيش في خوف ووجل ...
ومن أقوال صحابة رسول الله ﷺ :

- "لا آمن مكر الله ولو كان إحدى رجلى فى الجنة" (١) .
- "ليت أم عمر لم تلد عمر" (٢) .

إن تزكية الإنسان لنفسه شعارات مرفوعة فى الدنيا ، وأما تزكية الله فهى عطاء وفضل يناله المستحقون فى الدنيا وفى الآخرة .
وابراز العمل الصالح أمام الناس للاقتداء ليس تزكية للنفس لأنه عمل والتزام نرجو أن يقبله الله تعالى من فاعله .

﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ والفتيل ما نجده بين أصابعك من وسخ وغيره
أو هو حبل ضئيل يكون فى بطن النواة ، وهو مثل يضرب للقلة القليلة ...
والمعنى أن الناس يأخذون ما يستحقون عند الله تعالى بصورة عادلة من غير مجاوزة الحق بالزيادة أو بالنقص ... فلن يضيع عمل لصالح ، وسينال ثوابه بلا أى نقص ، وسينزل بالذين يزكون أنفسهم ما يستحقون من عقوبة بلا زيادة أو نقص أبدا .

﴿ أَنْظِرْ ﴾ والأمر لرسول الله ﷺ لإظهار سبب التعجب من هؤلاء الناس
وهم أهل الكتاب الذين يفترون الكذب لمدح أنفسهم ، وإظهار صلاحهم واستقامتهم على غير الحقيقة .

﴿ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ الافتراء اختلاق أمر لا أصل له وهو أشد أنواع الكذب ، لأن الكذب عدم مطابقة الكلام للواقع ، ومخالفته للحقيقة .

(١) القول الدقيق ص ٢٠٥ بتصرف .

(٢) نظم الدرر ص ٢٧١ بتصرف .

أما الافتراء فهو كذب كبير في موضوعه ، وتصوره ، ولا حقيقة له غالبا ...
والافتراء المقصود هو قول اليهود والنصارى : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ ﴾ ^(١) ،
وقولهم : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى ﴾ ^(٢) وقولهم :
"لا ذنوب علينا" .

والافتراء هنا افتراء على الله لأنهم زعموا حبه لهم ، وبنوتهم له ، وادعوا
أنه جعل الجنة لهم خاصة .

والله يوجه نبيه محمدا ﷺ إلى التعجب من أقوال وأفعال أهل الكتاب
بالنظر فيه ، وتدبر الكذب والافتراء بقوله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ ﴾ ليشهد عليهم ،
ويخبر أمته بما يرى .

﴿ وَكَفَى بِهِمْ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ الضمير في ﴿ بِهِمْ ﴾ يعود على الكذب الذي
افتراه أهل الكتاب ليزكوا أنفسهم بالكذب والضلال ، فعلمه سبحانه كاف في
إثبات الإثم والجرم بصورة واضحة بيينة .
وقد جاءت ﴿ إِثْمًا ﴾ نكرة لبيان شدة الإثم وظهوره ، ولذلك كان وصفه بـ
﴿ مُّبِينًا ﴾ .

والإثم الكبير الواضح له عند الله عذاب أليم .

- ٥ -

معنى الآيتين

يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا ﷺ متعجبا من أهل الكتاب وهم
يمدحون أنفسهم ، ويتصورون أنفسهم أبناء الله وأحباءه ، وأنهم الوحييون
المستحقون للجنة حيث لا ذنب لهم أبدا ، وهذا كذب كبير منهم لأنهم يجهلون

(١) سورة المائدة ، الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١١١ .

(٢٦٤)

معاصيهم ، ويفسدون ما قدموا من ضلال وزيف ، ولذلك فمزاعمهم ضلال كبير ، واثم عظيم .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

المسلم بين التزكية والستر

تبين الآية أن تزكية النفس منهي عنها ، وهناك آيات أخرى تدعو إلى تزكية النفس مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾^(١) .

وهذا يوسف عليه السلام يزكى نفسه حين قال للملك : ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴾^(٢) .

وكان رسول الله ﷺ يقول دائما : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾^(٣) .

فإيهما الأولى بالاتباع ؟ وكيف نفك هذا التعارض ؟ ...

إن المواقف تختلف فهناك مواقف يكون مدح الإنسان لنفسه أمرا مذموما كمن يزكى نفسه ، ويصف ذاته بأمر ليرفعه الناس بلا فائدة غير الاستعلاء والكبر ، والتفاخر . وهذه هي التزكية المذمومة .

أما التزكية المحمودية فهي إظهار الصفات التي تفيد الناس ، ويحتاج المجتمع إليها كإظهار الخبرات العلمية والعقلية ليستفيد المجتمع بها ، وإظهار قيامه بالرسالة والدعوة ليؤمن الناس .

إن المجتمع الإسلامي اليوم به حاجة إلى علماء ، وخبراء لينهض ، فمن أظهر تميزه في هذه الجوانب ليستفاد به فهو الأمر المطلوب .

(١) سورة الضحى ، الآية ١١ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٥٥ .

(٣) سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢٦٥)

إن الطبيب ، أو المهندس ، أو الخبير الذى يعلن مزاياه ، وعلمه ، وتجاربه على الملأ ليقصده المحتاجون إليه ليس من التزكية المذمومة لأنه يقصد التمكن من الوصول للناس ، وتقديم الخدمات لهم .
إن التزكية التى نهت عنها الآية هى تزكية الفخر والخيلاء التى لا تقصد إلا الكبر والاستعلاء .

الركيزة الثانية

حياة المؤمن عمل وحذر

يعيش المؤمن بين مخافتين ، بين ماض قد ذهب لا يدري ما الله قاض فيه وبين مستقبل لم يأت لا يدري ما الله فاعل به .
والمؤمن يعيش الدنيا على خوف ووجل ، ولذلك لا يرضى عن نفسه أبدا ... فهو دائم الطاعة والذكر ، مستمر في الطلب والدعاء ... أمله رضى الله تعالى ... وأمانيه الفوز بالجنة ورؤية الله تعالى .
إن المؤمن يعلم أن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، ولذلك فأمله فيها قليل ، وحذره منها كبير ، يقضى يومه صائما ، وليله قائما ، وعمره مطيعا خاشعا .
إن المؤمن يترك أمره لله تعالى متمنيا الفوز في الآخرة .

الركيزة الثالثة

الكذب على الله جريمة منكرة

الضاللون قوم محرومون من توفيق الله تعالى ، ولذلك فهم يكذبون ، ويزكون أنفسهم ، ويتصورون سداد فعلهم هذا .
والحقيقة انهم ارتكبوا عددا من الأخطاء والكبائر ... وهم يزكون أنفسهم ليعلوا بها على الناس ... وقد افتروا الكذب على الله تعالى ، وادعوا لأنفسهم صلاحا بعيدا عن الواقع ... وهذا الكذب سجله الله عليهم وسيعاقبهم به .

إن الكذب على الله جريمة لا يصح لمسلم أن يقع فيها البتة ، وطريق ذلك البعد عن المبالغات الزائفة ، وترك الكذب والبعد عن الاستعلاء على الناس ، وملازمة الأخلاق الطيبة .

إن هؤلاء القوم لو نالوا شيئاً بكذبهم فعليهم أن يعلموا أنهم خسروا كثيراً فقد كذبوا على الله ، واستحقوا عذابه الأليم .

إنهم ضيعوا أنفسهم في غرابة شديدة فقد علموا الحق ، وأمروا باتباعه ، وخوفوا من المعاصي ، وأمروا بالبعد عنها ... ومع ذلك يهزأون بأنفسهم ، ويفترون الكذب على الله ... وكفى بذلك ضياعاً لهم في الدنيا والآخرة .

يحتاج المسلم إلى الصدق مع الله تعالى ، وإخفاء أعماله ، وعدم المباهاة وترك الظهور ... وليعلم أن الآخرة خير من الأولى ، وأنها الأخير والأبقى ... والفوز فيها هو الفوز في الحقيقة .

الركيزة الرابعة

واقع المسلمين اليوم

يعيش المسلمون الحياة اليوم بعيدين عن الإسلام ويزكون أنفسهم ، ويتصورون أن الله سيغفر لهم لأنهم مسلمون ، وهذا مبعث العجب الذي تعجب منه رسول الله ﷺ من اليهود ، وإذا بالمسلمين يعيشون فيه .

إن كثيراً من المسلمين يفتخرون بإسلامهم ، ويدعونه على غيرهم ، ومع ذلك فد رضوا لأنفسهم التحاكم بغير ما أنزل الله تعالى ، وأباحوا في حياتهم الفسق والفجور ... يأخذون من الإسلام بعضه ، ويرمون الباقي خلف ظهورهم ، وكان الأولى بهم الخجل من إهمال ما أهملوا ... ولا يفتخروا ببعض ما قاموا به .

إن الإسلام منهج حياة ، والقرب من الله تعالى يكون بطاعته ... وعلى المسلمين أن ينقذوا أنفسهم ويعتبروا بهؤلاء اليهود ، لأن القاعدة واحدة ، والله لا يحابي أحداً ، والواجب البعد عن حال التعجب التي عاشها الرسول مع اليهود .

(٢٦٧)

من صفات اليهود عبادة المادة ، وقول الزور

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطُّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۚ
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۚ ﴾ .

- ١ -

سبب النزول

نزلت في كعب بن الأشرف ، وسبعين راكبا من اليهود ، قدموا مكة بعد
وقعة "بدر" ، ليحالفوا قريشا على النبي ﷺ ، وينقضوا العهد الذي بينهم وبين
رسول الله ﷺ .

فنزل كعب بن الأشرف على أبي سفيان فأحسن مثنواه ، ونزل باقي اليهود
على قريش في دورهم .

فسألهم أهل مكة : أنتم أهل كتاب ، ومحمد صاحب كتاب ، ولا نأمن أن
يكون هذا مكرا منكم ، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا إلى هذين الصنمين
ففعلا ذلك فذلك قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطُّغُوتِ ﴾ .

ثم قال كعب بن الأشرف لأهل مكة ليحيي منكم ثلاثون رجلا ومنا ثلاثون
فنلزم أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب هذا البيت لنجهدين على قتال محمد ، ففعلا .
ثم قال أبو سفيان لكعب بن الأشرف إنك امرؤ تقرأ الكتاب ، وتعلم ونحن
أميون لا نعلم ، فأينا أهدى سبيلا نحن أم محمد ؟
قال كعب : أعرض علي دينكم .

فقال أبو سفيان : نحن ننحر للحجيج الكوماء ، ونسقيهم الماء ، ونقري
الضيف ، ونفك العاني ، ونصل الرحم ، ونعمر بيت ربنا ، ونطوف به ، ونحن

(٢٦٨)

أهل الحرم ، ومحمد فاروق دين آبائه ، وقطع الرحم ، وفارق الحرم ، وديننا القديم ودين محمد الحديث .

فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد فأنزل الله تعالى الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

الآية السابقة تعجبت من تركية اليهود لأنفسهم وهذه الآية تبين ضلال اليهود وسجودهم للأصنام لينالوا رضا القرشيين ، وبهذا استحقوا لعنة الله تعالى .

- ٣ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن بعض أهل الكتاب ، وهم الذين جاءوا مكة بعد غزوة "بدر" سجدوا للأصنام وشهدوا كذبا لكفار مكة وقالوا لهم : عبادتكم للأصنام أفضل من دين محمد ﷺ ، وهذا أضل وأشنع من تركية النفس وقد استحقوا لذلك اللعن والطرده من رحمة الله تعالى .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ وهذا تعجب آخر

خاطب الله به محمدا ﷺ تسليية له ، وتعجبا من فعل هؤلاء اليهود ، وابرازاً لعداوتهم للإسلام والمسلمين ، ومحاولاتهم هزيمة المسلمين ، واطفاء نور الله في الأرض ، والمراد بهم كعب الأشرف ومن كان معه حين ذهابه إلى مكة كما بينه سبب النزول .

﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّنُوتِ ﴾ أى يسجدون للأصنام والأوثان .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٤٥ .

والجبت اسم يسمى به الصنم ، والكاهن ، والساحر ، والمبتدع ، لأن المغضوب عليهم يقصدونهم بالطلب ، ويتصورون فيهم قوة تنفع وتضر ، وهذا يؤدي بهم إلى الشرك بالله تعالى لأنه وحده سبحانه وتعالى صاحب القوة وكل ما يقع يتم بإرادته وقدرته .

والطاغوت هو الذى يتخذ لنفسه حق التشريع من دون الله تعالى .
إن الجبت يسيطر على الجانب الباطنى في الإنسان ، ويملاه بالأوهام والخرافات والبدع ، ويقدم رؤيا باطلة لعقل صاحبه ... بينما الطاغوت يوجه عمل الإنسان ، وحركته حيث يريد .
والجبت والطاغوت متلازمان في إضلال الإنسان ، وابعاده عن طاعة الله تعالى ، واخضاعه لفكر البشر ، وضالة المتعالمين .

وقد تعجب الله تعالى ، وخاطب رسول الله ﷺ بهذا التعجب من ضلال اليهود الذين أتاهم الله الكتاب ومع ذلك ضلوا ، وعاشوا في أوهام الضالين ، وأشركوا بالله ، وعبدوا غير الله تعالى .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ وهذا إشارة لقول كعب ابن الأشرف حين قال لأهل مكة دينكم أفضل من دين محمد ، وأنتم اهدى للحق من محمد وأصحابه ، ففاعل القول هو كعب بن الأشرف ، وجاء ضميره بالجمع ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ لأنه كان ينطق بلسان من كانوا معه ، أو أن الذين كانوا معه أخذوا يكررون هذه المقالة مثله .

﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ والذين كفروا هم أهل مكة الذين قال لهم كعب الأشرف ما قال .

﴿ هَتُولَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ وهذه مقولة كعب الأشرف والمعنى : أنتم يا أهل مكة اهدى وأفضل من الذين آمنوا بمحمد ، وبالإسلام دينا ومنهجاً .

(٢٧٠)

و ﴿ هَتُّؤَلَاءِ ﴾ إشارة إلى عباد الأصنام والأوثان لأنهم رمز لسائر من هم على دينهم ومذهبهم .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ و "أولئك" اسم إشارة يشير إلى كعب بن الأشرف ومن معه من يهود المدينة لبيان أن الله لعنهم وطردهم من رحمته بسبب ما في كلامهم وفعلهم من ضلال .

﴿ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ وهذا حكم عام يدخل فيه القائل والمقول له وغيرهم لبيان أن الذي يلعنه الله تعالى لن يجد نصيرا ينصره في الدنيا وفي الآخرة .

وما نراه من نصر لهم في بعض الأحيان فهو ابتلاء لهم ليزدادوا إثما ، ولن يدوم ، ولن يروا أثره ، وسيكون عليهم وبال يوم القيامة .

- ٥ -

معنى الآيتين

يخاطب الله تعالى رسوله محمدا ﷺ متعجبا من اليهود فقد أتاهاهم الله الكتاب ، وكان هذا عاملا لإيمانهم فإذا بهم يسجدون للأصنام ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت لإرضاء أهل مكة ... وقد لعنهم الله تعالى لعنا كبير ، وحرّمهم من النصر لأن حكم الله عام ، ومن يلعنه الله لن يجد له نصيرا في الدنيا وفي الآخرة .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

اليهود وتشويه الحقائق

توضح الآيات صورة عملية لليهود وهم يقلبون الحقائق ، ويشوهون صورة

الإسلام رغم إدراكهم للحق ، فلقد اتّاهم كتاب الله ، وكان الأولى بهم الإيمان بمحمد ﷺ والشهادة لدينه ، ومع ذلك يقولون لعبدة الأصنام والأوثان : أنتم أهدى من محمد وأصحابه ، ودينكم أفضل من الإسلام .
إنها العداوة تملأ قلوبهم ، وتحرك ألسنتهم ، وتدفعهم إلى إغفال الحق ومساعدة الباطل .

واليهود هم هم فلئن كانوا سجدوا للأصنام والأوثان في مكة من أجل الوصول لغاياتهم في عصر رسول الله ﷺ فهم اليوم يصورون الإسلام تخلفا ورجعية ، ويعملون جهدهم لتخلف المسلمين ، والقضاء على عوامل التقدم والنهوض في الأمة الإسلامية .

إنهم وراء الاستعمار الصليبي يدفعونه أمامهم ، ويستفيدون به .
إنهم وراء كل عميل يخدم مصالحهم ، ويحميهم وهم معتدون .
إنهم وراء التخلف العلمي والحضاري الذي يعيشه المسلمون ...
إنهم وراء كل المؤامرات التي تحاك ضد المسلمين والإسلام .
ولئن كان هؤلاء هم اليهود ... فأين المسلمون ؟
أين المسلمون ، وقد سيطر اليهود على أدوات التوجيه في المجتمع العالمي ، وصار لهم في كل مكان أنصار ؟
أين المسلمون بأعمالهم وحضارتهم ، وقيمهم ؟

نعم . لا وجود للمسلمين الذين أخرجهم الله للعالم بالإسلام ، وكلفهم بحمل الأمانة ، وأداء الرسالة للناس أجمعين ، فإذا بهم في خذلان عميق ، ضيعوا أنفسهم قبل أن يضيعوا العالم وراءهم ...

إن أغلب المسلمين لا يعيشون الإسلام كما نزل من عند الله تعالى، ويخلطون حياتهم بين الإسلام وغيره ، ووجود أفراد صادقين لا يغير الأمر أمام الجمع الغفير الذي تأثر بالمؤامرة، وصار ألعوبة في يد أعداء الله وهو لا يدري!!

(٢٧٢)

لقد حذر الله من اليهود ، وعرفنا بأوصافهم ، وأعمالهم لنتمسك بالإسلام
عن بينة ، ووضوح ... فهل من مجيب !!

الركيزة الثانية

الناصر الحقيقي هو الله تعالى

وضحت الآية أن اليهود ملعونون ولا ناصر لهم ، وهنا يرد سؤال عن
صدق هذه الحقيقة بعدما نرى دول الغرب وغيرهم ينصرون اليهود ، ويقفون
وراءهم في كل باطلهم وفسادهم .

إن النصر الحقيقي هو النصر القائم على العدل ، الشامل لكل حاجات
الإنسان ، الدائم في الدنيا والآخرة .

إن النصر الإلهي يكون لأناس يستحقونه بإيمانهم ، وعملهم ... وكان من
المأمول أن ينصر الله المؤمنين في مواجهة اليهود ، إلا أن المسلمين في الحقيقة
لا يستحقون نصرا لأنهم لم يعملوا له ، ولم يخلصوا في تدينهم الله رب العالمين .

إن الله يخاطب بالآيات أمة مؤمنة بالله تعالى ، محكومة بشريعته ، تعيش
عبادة الله تعالى ، وهنا يؤكد لهم سبحانه وتعالى أنه سينصرهم بهزيمة اليهود
الذين لا يواجهونهم ، أما وقد تخاذل المسلمون فقد تأجل نصرهم ، وبذلك ظهر
غيرهم .

إن المسلمين لا يستحقون نصر الله لهم فقد بعدوا عن الدين ، وضيعوا
الأمانة التي حملوها .

ومن هنا كان انتصار عدوهم ... وانهزامهم أمامه ...

وعلى المسلمين أن يكونوا مسلمين ، وحينئذ يتحقق لهم وعد الله تعالى ،
وينصرهم على عدوهم ... إن الله ينصر من ينصره ، ويعين من يتمسك بهديه .

(٢٧٣)

من صفات اليهود البخل والحسد والتعالى

يقول الله تعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ ﴿١﴾ أَمْ تَحْسُدُونَ
النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٢﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ
وَكَفَىٰ بُحْهَنَ سَعِيرًا ﴿٣﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بالآيات السابقة

الآيات السابقة توضح بعض صفات اليهود وما أعده الله لهم من خسران
وبوار وهاتان الآيتان توصلان التعريف بصفات اليهود .

- ٢ -

موضوع الآيات

تتحدث الآيتان عن بعض صفات اليهود ، ومن أهمها البخل والحسد
والتعالى وتتكبر ما هم فيه ، وتبين ضلالهم وخطئهم ، وفسادهم ، وتبين عذاب
الله لمن يأبى الإسلام ويصد الناس عنه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ ﴾ ؟ ... والاستفهام فى الآية إنكارى لبيان
أن ما عليه اليهود شأن لا أساس له . والمعنى : أنهم لا يملكون شيئا البتة ...
وذلك ان اليهود كانوا يرون أنفسهم أولى بالنبوة والحكم من محمد ﷺ ، ومن

العرب جميعا ، ولذلك أبوا الدخول في الإسلام ، وتصرفوا تصرف من يملك الأمر فأكر الله عليهم ذلك وبين بهذا الاستفهام إنه ليس لهم من الملك شيئا .

﴿ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ هذا جواب وجزاء لشرط مقدر مستفاد

من الإنكار السابق ، وتقديره : إن كان لهم نصيب من الملك فهم متصرفون بالبخل لا يعطون لأحد من ملكهم شيئا .

والنقير هو النقطة على ظهر النواة ، وبها يضرب المثل على الشيء الحقير التافه الذى لا قيمة له ، ودلالة الآية واضحة فى بيان شح اليهود وبخلهم فإنهم لو ملكوا لا يعطون شيئا .

﴿ أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ؟ ... وهذا

استفهام تقريرى لتوضيح صفة فى اليهود تجاه غيرهم من الناس ، والمراد بالناس محمد ﷺ فقد جمع الله فيه صفات الخير كلها فصار أمة واحدة . وقيل : المراد بالناس محمد ﷺ وصحبه .

وحسدهم للنبي ﷺ على النبوة التى خصه الله بها من دونهم ، ولم يسلموا أن النبوة فضل الله يؤتية من يشاء .

والحسد تمنى زوال نعمة الغير المستحق لها مع السعى فى زوالها عنه لتكون للحاسد كما فعل اليهود مع محمد ﷺ فإنه أبوا النبوة لمحمد ﷺ ورجوها لأنفسهم .

﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾

وهذه الحقيقة ترد حسد اليهود ، وتبين أن الله تعالى يختار للنبوة من يصطفيه من خلقه ، فقد جاءت النبوة لكثير من ذرية إبراهيم ﷺ ، ورزقهم الله الملك والنبوة مثل : داود وسليمان عليهم السلام . فكيف يحسدون محمدا ﷺ على ما أتاه الله من فضله وجعله نبيا ، وحاكما ، ومالكا لأمر الناس ، وقد آتى الله الأنبياء ذلك قبله .

إن الله يختار للنبوّة من يصطفيه من خلقه ، ويمكنه من القيام بالنبوّة والحكم والملك وكما وقع لأب الأنبياء إبراهيم عليه السلام من الأنبياء يقع لمحمد صلى الله عليه وآله فهو من آل إبراهيم أيضا ... ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ ^(٢) والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، ووربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة .

والمراد بالكتاب التوراة ، والمراد بالحكمة النبوّة ، والمراد بالملك العظيم الحكم بين الناس ، وتولى شئون الخلق .
﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أى من اليهود .

﴿ مِّنْ ءَآمَنَ بِهِ ﴾ أى منهم من صدق بمحمد صلى الله عليه وآله وبما جاء به .
﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ ﴾ أى ومنهم من كفر بما جاء به ، وصد غيره عن الإيمان به .

﴿ وَكَفَىٰ نَجْمَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى أن في عذاب جهنم ، ولهيبها المستعر كفاية لمن كفر بمحمد صلى الله عليه وآله وصد الناس عنه .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات عن طريق الاستفهام أن اليهود لا يملكون من الأمر شيئا وهم متصفون بالبخل والشح ، ولو كانوا يملكون ما أعطوا أحدا شيئا ، إنهم مع صفة البخل يتصفون بالحسد ، ويتمنون زوال النعمة التي أتاها الله لمحمد صلى الله عليه وآله وتمنوها

(١) سورة الحج ، الآية ٧٥ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٦٨ .

لأنفسهم مع أنهم يعلمون أن الله أتى هذا الفضل لآل إبراهيم ﷺ فلم يحسدون محمدا ﷺ على ذلك ؟ ...

إن هؤلاء اليهود يمثلون حقدا وحسدا على الإسلام والمسلمين ... وسوف يحاسبهم الله تعالى . فمن آمن منهم بمحمد ﷺ ودخل في الإسلام فقد فاز ونجا ... ومن بقى منهم على كفره وصد الناس عن محمد ﷺ ودينه فسوف يلقي في نار جهنم بلهيبها ، وسعيرها .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

صفات اليهود

الآيات السابقة تعدد صفات اليهود ... وهي :

(١) ميلهم إلى مدح أنفسهم ، وإظهار تميزهم على الناس ، وهم يستمرون في تزكية أنفسهم حتى يتصور الناس صدق مقولتهم عن أنفسهم ، وهم فيها كاذبون .

(٢) اختلاق الأكاذيب ونسبتها لله تعالى وذلك في قولهم : ﴿ حُنْ أَبْنَتُوا اللَّهَ

وَأَحْبَبُوهُ ﴾ وقولهم : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى ﴾

وهم في ذلك كاذبون لأن الله لا ولد له ، ولا صاحبة له ، وأحباب الله هم

اتباع محمد ﷺ يقول الله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

يُحِبِّكُمْ اللَّهُ ﴾ . ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ ﴾ .

(٣) يرون أن الغاية تبرر الوسيلة ، ولا مانع لديهم من ارتكاب المحرمات من

أجل تحقيق الغايات ، فقد سجدوا لأصنام مكة يوم إن آتوا أهل مكة

- يرجون وصلهم ، وتحريضهم على حرب محمد ﷺ ، ولم يروا مانعا يبعدهم عن الكذب فقالوا للكافرين : دينكم أفضل من دين محمد .
- (٤) استحقاق لعنة الله ، والطرده من رحمته ... وبذلك يعيشون في قلق وخذلان ، فلا ناصر ينقذهم من أوهامهم ، أو يدفع عنهم العقوبة .
- (٥) ملازمتهم للحسد لكل من تميز عليهم ، فقد حسدوا رسول الله ﷺ على ما أتاه الله من فضله ، وحاربوه ، وتمنوا إطفاء نور الله في الأرض ، ولا يزال هذا ديدنهم مع المسلمين حتى اليوم .
- (٦) يحقدون على غيرهم من الأمم ، ولا يريدون لهم خيرا ... فقد حقدوا على العرب حينما جاء رسول منهم للناس جميعا ، ومع أن الله تعالى تفضل على آل إبراهيم وأتاهم الملك والنبوة ، وأنزل عليهم الكتاب والحكمة .
- (٧) يسيطر عليهم البخل الشديد ، فلو كانوا ملوكا وأغنياء ما أعطوا شيئا ، ولذلك لا أمل في عطائهم ، وهم فقراء من باب أولى .
- هذه أهم صفات اليهود المستفادة من الآيات ... وصفات أخرى عديدة توضحها آيات أخر .

الركيزة الثانية

تحذير المؤمنين من ارتكاب جرائم اليهود

هذا البيان الواضح لصفات اليهود يعد تحذيرا للمسلمين حتى لا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم .

إن البخل مذمة خلقية وعملية ، يبعد صاحبه عن الله ، وعن الناس ، ويقر به من الشيطان ، ومن النار ، ولا يجلب خيرا أبدا ، لأن الله يضاعف الرزق للكرماء وحدهم ، ويعطى المتقين عوضا كبيرا عما أنفقوا ، والحسد يورث الكراهية ، ويوقع صاحبه في العجز والألم لأنه يتمنى ولا يستطيع ، ويأمل ولا يتحقق له ما يريد ، ولو رضى الإنسان بما قدر له لأعطى وأنفق ، وتعاون ،

وتودد ، وبذلك يكون إنسانا يعيش مع الناس ، ويتفاعل معهم ، ويكون وياهم جماعة صالحة .

أن اليهود استحقوا ييخلهم ، وحقدهم ، وكفرهم نار جهنم تسعر بهم ، ولا يصح لمسلم أن يسلك هذا المسلك ، ولا يجوز له أن يمشى في طريق الملعونين

مصير الكافرين في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثِتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ
بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة صفات اليهود وضلالهم جاءت هذه الآية لتبين مصير الكافرين في الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية مصير الكافرين وتوضح أن النار تشتعل فيهم ، وتحرق أجسادهم ، وكلما احترق جلدهم أعاده الله مرة أخرى ليزوقوا عذاب جهنم الذي يستحقونه بكفرهم . فقد استهانوا بالآيات ، وكفروا بالله فكانت عاقبتهم النار لأن الله غالب في كل أمر ، حكيم يجازى كلا بما يستحق .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثِتِنَا ﴾ يؤكد الله على العقوبة التي أعدها للكافرين

فقد أبوا الإيمان حتى صار الكفر صفة مميزة لهم .

وجعل الكفر صلة للموصول لإظهار علة استحقاقهم للعذاب الذي أعده

الله لهم .

والكفر هو الإنكار والتغطية ، ويراد بالآيات جميعها سواء كانت إنسانية أو كونية ، أو تنزيلية ، وجريمة الذين كفروا أنهم عطلوا عقولهم وجوارحهم ولم ينتفعوا بها ، فأيات الله تعالى الدالة على الإيمان تصك أسماعهم ، وتملاً أعينهم ، وترضى عقولهم ، وتهيمن على عواطفهم ، إلا أنهم عطلوها ، وأبعدوها عن وظائفها وصدق فيهم قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَلَّا لَتَنصَرِفَنَّ عَنْهُمْ أَصْلُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾^(١) .

﴿ سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾
 أى سيكون جزاؤهم وفق عصيانهم وذلك بإحراقهم بالنار المشتعلة في أجسادهم وجوارحهم مع استمرارها بألمها في فكرهم وأحاسيسهم .
 هذه النار وقودها أجسادهم التى أبعدوها عن الإيمان ، وسخروها لعبادة غير الله تعالى .

وهذه الجلود لا تقنى ولا تنتهى لأنه كلما تحترق تتجدد مرة أخرى حتى كأنها جلد آخر ليستمر الإحراق ، ويستمر العذاب .
 والبعث بالروح والجسد معا ليعذبا بكفرهما ، ولا يتصور انتهاء الجلود التى كفر صاحبها بها ، وانتقال الحريق لغيرها لأن غيرها لم يكفر ، وانتهائها راحتها ... ولذلك قال المفسرون : يعاد الجلد الأول في كل مرة في صفة جديدة ، كما تقول صنعت من خاتمي خاتما جديدا ، فالخاتم هو هو والذى تغير هو صفته .
وقيل : إن الذى يحس بالعذاب هى النفس التى عصت ، وبذلك يجوز تغيير الجلد بغيره لأن العذاب ليس للجلد .

والأولى القول الأول لأن العذاب يلحق بالنفس والجسد ، وقد ثبت أن الجلد هو مكن الإحساس المادى ، وهو أول ما تحرقه النار ، وبعده ومعه

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

(٢٨٠)

يكون عذاب النفس والعقل ، ومن المعلوم علميا أن الجلد هو منطقة الإحساس وفيه النهايات العصبية التي تشعر صاحبها بالألم .

﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ أى أن تجدد الجلد ليزوق الكافر ألم النار ، وشدة

لهيبها ، وهذا تصور رهيب يتجدد الجلد معه آلاف المرات . يقول الحسن البصرى : تأكلهم النار في اليوم الواحد سبعين ألف مرة^(١) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء

بإرادته فهو غالب لا يغلب ، يضع كل شئ في موضعه الصحيح .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله تعالى أعد للكافر به ، المنكر لآياته ، الذى عطل عقله وجوارحه عن وظائفها ، أعدله عذابا ألينا يتمثل في إحراقه بالنار في ديمومة لا تنتهى ، وكلما تحترق الجلود تتجدد ليستمر إحساسه بالإحراق والآلام ، وتلك عقوبة لا يقدر عليها إلا الله تعالى ، فهو القادر الغالب الذى لا يغلب الحكيم الذى يجازى كل إنسان بما يستحق .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تشير الآية إلى عدد من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

سوء منقلب الكافرين والعصاة

يحصى الله على عباده عملهم ، ويجازيهم بما يستحقون ، ومن رحمته بالناس ، وعنايته بهم بيان ما ينتظر الكافر الذى يكفر وهو يعيش بين آيات الله في الكون والحياة ، يراها ، ويسمعها ، ويتأثر بها ، ولا يستفيد منها ... وقد بين

(١) تفسير الخازن ج ص ٥٤٧ .

الله عاقبة الكافر ليتعظ الناس ، ويبتعدوا عن الكفر خوفا من العقوبة ، وطمعا في رضوان الله تعالى .
 وحين يتصور العاقل هذه النتيجة للكفر يسارع إلى الإيمان خشية من هذا المصير الرهيب .

تذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه العذاب عندما سمع قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكَتَبَ مُسْطُورٍ ٢ ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣ ﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ ﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ ﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴿ ^(١) فارتكن إلى الجدار ، ثم رجع إلى بيته مريضا يعودُه الناس شهرا مما ألم به ^(٢) .
 وروى ان الحسن البصري شرب ماء باردا وأغمى عليه بعدها ، فلما سئل عن ذلك بعد إفاقته قال : تذكرت قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ ﴾ ^(٣) فأصابني ما أصبت به ^(٤) .

إن هول القيامة شديد ، وعذابها أليم ، والعاقل من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت .

الركيزة الثانية

الجزاء من جنس العمل

خلق الله الإنسان وامتعه بالعقل يفهم ، ويفكر ، ويتصور ، ويحكم ، ويقرر ، ورزقه الجوارح يسعى بها ويتحرك ، وحدد له مناهج الحياة بدين كامل تام ...

(١) سورة الطور ، الآية ١ : ٨ .

(٢) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٤٧ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

(٤) تفسير البغوي ج ١ ص ٥٤٧ .

(٢٨٢)

ويث في الوجود من الآيات ما يشد الإنسان إلى الله تعالى ، وأنزل الوحي آيات مبيّنات توضح الطريق وترسم طرق الصلاح .

وبين الله تعالى في وحيه المنزل العقوبة التي أعدها للكافرين والعصاة .

ومن عدل الله ورحمته أن جعل الجزاء من جنس العمل ... فهذا العقل الذي رضى بالشهوات ، وهذه الجوارح التي أنغمست في الآثام بجريها وراء ملذات المادة أعد الله لها عقوبة تناسبها ، فقد كفرت بأنعم الله فأذاقها الله ألم الإحراق بالنار الموقدة ، تشتعل في أجسادهم وجوارحهم ، وتدوم بألمها كما استمروا في المعاصي .

وحين نقارن المعصية بالعقوبة نجد أن الشهوة لا تدوم لأنها تنتهي بالموت أو بالعجز أما العقوبة فهي مستمرة خالدة كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها .

إن عرض هذه الصور لعذاب الآخرة رحمة من الله بالناس لينتهوا وهم في دنياهم ويبتعدوا عن الكفر والمعاصي ، فليس لها في دنيا صاحبها فائدة ليوم فيها ... وعاقبتها مؤلمة ينبغى للعاقل أن يحذرهما .
إن الله غفور رحيم ... وهو شديد العقاب .

المؤمنون يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

تكلمت الآية السابقة عن عقوبة الكافرين ، وجاءت هذه الآية للحديث عن جزاء المؤمنين الصادقين .

(٢٨٣)

- ٢ -

موضوع الآية

يدور موضوع الآية حول بيان جزاء المؤمن الحسن عند الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية مستأنفة لبيان حكم جديد

للذين آمنوا وعملوا الصالحات .

والذين آمنوا هم الذين صدقوا بقلوبهم ، وأقروا بألسنتهم ، وعملوا بجوارحهم لأن الإيمان يشمل ذلك ، وعطفت الآية عملوا الصالحات على آمنوا من باب عطف الخاص على العام لأهميته ، لأن الإيمان بلا عمل لا يفيد شيئاً .

وقد أعد الله لهؤلاء المؤمنين جزاء حسناً وفق عملهم ، فلقد اتعبوا أجسادهم في القيام والصيام ، وشغلوا عقولهم بالذكر والشكر والدعاء ، وشدوا مآزرهم عن نسائهم صوما واعتكافاً... ولذلك يجازيهم الله بإيمانهم وعملهم .

﴿ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى أن الله تعالى أعد

لهم جنات يدخلونها ، ويقيمون فيها ، متميزة بجمال اللون ، وحسن الشكل ، وروعة البناء فهي غرف واسعة خضراء تجري من تحتها المياه أنهاراً ، وهذا نعيم عظيم يسكنون فيه .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى مستمرين في الجنات بلا انقطاع ، ينالون

ما يشاءون ، ويسعدون بما يرون ، وبما يحيون فيه ، بلا تكليف ، ولا عمل ، ولا مرض ، ولا ملل .

﴿ هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ أى يجعل الله لهم الحور العين ، ويزوجهم

بزوجات يتصفن بالحسن ، والجمال ، والمودة ، والحنان ، وهن زوجات طهرهن الله تعالى من الحيض والنفاس وسائر أقدار الدنيا .

وقدم الله قوله : ﴿ وَلَهُنَّ ﴾ لبيان أن هذه الجنات أعدت خصيصا للمؤمنين دون غيرهم .

وهؤلاء الزوجات يعشن مع أزواجهن في الجنات المذكورة بدلالة ﴿ فِيهَا ﴾ .

﴿ وَنُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ الظل هو ما يحجب الشمس وحرارتها ، عن الناس حقيقة ، ويفيد مجازا معنى العز ، والمتعة ، والمراد منه هنا الحقيقة . ووصف الظل بلفظ مشتق منه لتأكيد معناه .

وعلى هذا يمكن أن يراد بالظل معناه الحسى بعمقه ، وستره ، بحيث لا يتخلله أى شئ مما يؤذى من حرارة الشمس ولهيبها . يقول الزمخشري : الظل الظليل هو ما كان فينا لا تنسخه الشمس ، وسجسجا لا حر ولا برد فيه^(١) . ويمكن أن يراد بالظل معناه المجازى . والمعنى : يدخل الله المؤمنين في عزة ، ومتعة ، وتحيطه رحمة الله ورعايته .

وقد استعملت الآية مسمى الظل جريا على عادة الناس في الدنيا تقريبا للأفهام حينئذ ، لأن كل ما في الجنة يغير كل ما تراه الجوارح ، أو تتصوره العقول .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية الجزاء الحسن الذى أعده الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات في الآخرة حيث سيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويزوجهم بنسوة من الحور العين الطاهرات ، ومن كل ما ينتات النسوة فيها من حيض ونفاس وغيرها من أقدار الدنيا ، ويضعهم في عزة وكرامة ، ويحيطهم بظلال تامة لا حر خلالها ، ولا برد فيها .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٣٥ .

(٢٨٥)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... منها :

الركيزة الأولى

عظمة جزاء المؤمنين في الآخرة

يقف العقل مشدوها أمام هذه الصورة التي يعيشها المؤمنون في الآخرة فنزلهم كريم ، ومسكنهم الجنات بحسنها ، ومياهاها الجارية ، وأزواجهم جميلات طاهرات لا ينالهم فيها تعب ، ولا يصيبهم مرض ، لهم فيها ما يشاءون ، هي النعيم الذي لا نعيم سواه ، وهي العزة التي لا عز فوقها ، وهي المتعة التي يعيشها المؤمنون في جو بهيج بديع لا حر فيه ، ولا برد .

ولو تصور العاقل مثلها في الدنيا وتخيّلها فإنه يشعر بخيال ، وصور لا وجود لها ، وسوف يسأل نفسه :

— هذا الجزاء لمن ؟

للذين آمنوا وعملوا الصالحات .

— فهل يتقاعس إنسان عن ذلك ؟

— وهل يحرم إنسان نفسه من هذه المنزلة العالية بالمعصية وعمل السوء ؟

إن الاستقامة ، وطاعة الله تعالى توصل الإنسان لهذه النعيم العظيم :

— يقول النبي ﷺ : "كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى .

قيل : فمن يأبى يا رسول الله ؟

قال ﷺ : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى" (١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الاعتصام الكتاب والسنة . باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ

(١٤٢٦) الوفاق .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه إن رسول الله ﷺ قال : "من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها ، وللجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ... ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد . فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله ما على أحد من ضرورة من أيها يدعى ، فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال ﷺ : نعم . وارجوا أن تكون منهم" (١) .
أن الجنة غالية تحتاج لمن يقدرها قدرها ، ويبدل لها الصداق الذي تستحقه .

الركيزة الثانية

خصائص العمل الصالح

العمل الصالح جزء رئيسي في الإيمان ، وبقوة الإيمان يكون صلاح العمل فالترابط بين القلب والجوارح أمر ضروري في الإسلام ... ومن خصائص العمل الصالح ما يلي :

- (أ) توافق العمل مع الإيمان ، وتعاونهما في بناء شخصية المسلم .
- (ب) الإخلاص التام لأن المؤمنين ما أمروا : ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (٢) .
- (ج) الارتباط الدائم بالله ، لأن المؤمن يعمل لله تعالى ، ولذلك كان ارتباطه بالله ارتباطاً بمصدره ومرجعه الذي يأخذ منه ، ويلتزم بمنهجه .

(١) شعب الإيمان للبيهقي . باب من أنفق زوجين من ماله ج ٧ ص ٤٧١ .

(٢) سورة البينة ، الآية ٥ .

(د) تعلق النفس بالله لأن المؤمن يقبل عليه بحب وصدق ، ولذلك كان التعلق علامة واضحة فيه .

(هـ) أن تتحقق فائدة لهذا على أرض الواقع ، وأهمها البعد عن المعاصي ، والإكثار من الطاعات .

هذه بعض صفات العمل الصالح التي تظهر عند المؤمن ، وتجعله خاشعا ، متبتلا ، مطيعا .

رأى النبي ﷺ رجلا يعبث بيده في الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه^(١) .

إن عباد الرحمن يتميزون بالصدق والإخلاص ، وحب الله ورسوله . سئل الفضيل بن عباس عن العمل الصالح . فقال : اخلصه وأصدقه^(٢) .

أداء الأمانة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت الآية في عثمان بن طلحة من بنى عبد الدار ، وكان سادن الكعبة في الجاهلية ، فلما كان يوم الفتح أقبل النبي ﷺ ، وهو مردف أسامة ﷺ على العضواء ، ومعه بلال وعثمان رضى الله عنهما حتى أناخ عند البيت ، وطلب المفتاح من عثمان فأبى ، وصعد على سقف البيت ... فلما ذهب عثمان ليعطى المفتاح لرسول الله ﷺ .

(١) مصنف ابن أبي شيبة ج ٢ ص ١٩٠ .

(٢) من هدى سورة "النساء" ص ١٨٨ .

(٢٨٨)

قال العباس : يا بئى أنت وأمى يا رسول الله اجمعه لى مع السقاية ، فكف
عثمان يده مخافة أن يعطيه الرسول لعمه العباس .

قال النبى ﷺ : هات المفتاح .

فأعاد العباس طلبه .

فتوقف عثمان .

فقال النبى ﷺ : هات المفتاح إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر .

قال عثمان : هاكه يا رسول الله بأمانة الله ، فأخذ النبى ﷺ المفتاح ففتح
الباب ، ونزلت الآية فدعا النبى ﷺ عثمان ودفع المفتاح إليه^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة عاقبة الكافرين وجزاء المؤمنين جاءت هذه
الآية تأمر بالأعمال الصالحة التى توصل صاحبها لنعيم الله فى الآخرة .

- ٣ -

موضوع الآية

تأمر الآية عموم الناس بأداء الأمانة على عمومها ، والحكم بين الناس
بالعدل ، وذلك من أحسن الأعمال ، وسوف يجازى الله الناس بما يستحقون فهو
السميع للأقوال ، العليم بالأحوال والأعمال .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ بدأت الآية ببيان أن
الأمر هو الله سبحانه تعالى ليهتم المؤمنون بالطاعة ، فقد جاءهم الأمر الإلهى

(١) أسباب النزول ص ١٣١ ، تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٠٤ .

مؤكدًا بـ ﴿ إِنَّ ﴾ وقد أمر الله تعالى بأداء الأمانات إلى أصحابها ، وجاءت الأمانة جمعا للدلالة على تنوعها وكثرتها ، وجاز جمعها لأن مفردها مصدر سمي به كل ما يؤتمن عليه ، والأمر في الآية موجه إلى طوائف خاصة لبني شيبية ، أو لولاة الأمر ، أو لغيرهم .

والأولى أن يكون الأمر شاملا لكل الأمانات ، لأن رعاية الأمانة في سائر الأعمال والمعاملات أمر واجب .

والأمانة تكون مع الله ، ومع العباد ، وتكون مع النفس ، ولا بد من مراعاة الأمانة في جميع هذه المعاملات .

أما رعاية الأمانة مع الله تعالى فهي بأن يفعل العبد جميع المأمورات ويترك جميع المنهيات ، فإن جميع ما كلف به الإنسان أمانة يجب على العبد أن يؤديها . **يقول ابن مسعود** : الأمانة تكون في كل شئ حتى في الوضوء والغسل ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، وسائر العبادات .

وأما رعاية الأمانة مع العباد فهي تكون مع المحافظة على حقوق أولاده وزوجته ، وآبائه ، وجيرانه وخدمه ، والناس أجمعين .

وأما الأمانة مع النفس فلا يختار لنفسه إلا ما هو الأصلح والأنفع في الدنيا والآخرة ، ويحفظ لكل عضو ما كلف به ، ويبعده عن المعاصي ، فأمانة اللسان حفظه من الغيبة ، والنميمة ، والكذب .

وأمانة العين عصمتها عن المحارم ، وأمانة السمع حفظه من اللهو والفحش وسماع الأكاذيب ... وكذا سائر أعضاء الإنسان .

ومن الأمانة نصح العلماء لغيرهم ، وقيام الدعاة بواجبهم ، ووفاء الكيل والميزان ، وأداء الواجب الوظيفي للعمال ...

ولأهمية أداء الأمانة كثر الأمر بها في لسان الشرع الحنيف .

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^(١) .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾^(٢) .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْسَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٣) .

وقال ﷺ : "أد الأمانة لمن اتمنك ، ولا تخن من خانك"^(٤) .

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ وهذا أمر آخر من

الله تعالى معطوفا على الأمر الأول .

والعدل هو المساواة والانصاف ، والبعد عن الظلم والاعتداء ...

والخطاب لأولى الأمر لأن الحكم لهم ، ويشمل كل من تولى ولاية عامة أو خاصة ، ولذلك قال ﷺ : "كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته"^(٥) .

وينبغي للقاضي أن يسوى بين الخصوم في الدخول عليه ، والجلوس بين يديه ، والإقبال عليهما ، والاستماع منهما ، والحكم بالحق فيما لهما وعليهما ... وبذلك يصل الحق لأصحابه ، ويتحقق العدل .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٧ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٨ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٢٧ .

(٤) سنن أبي داود - كتاب البيوع . باب في الرجل يأخذ حقه ج ٩ ص ٤١٤ .

(٥) صحيح البخارى - كتاب النكاح . باب امرأة راعية في بيت زوجها ج ١٦ ص ٢٠٧ .

والعدل من قيم الإسلام العالية ، فهو أساس النجاح ، وعماد المساواة :

- يقول رسول الله ﷺ : "إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم ، وأهليهم ، وما ولوا"^(١) .

- ويقول ﷺ : "إن أحب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة ، وأدناهم منه مجلسا إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله ، وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر"^(٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ أى نعم أمر الله تعالى بأداء الأمانة والحكم بالعدل لأنه نصح وارشاد ، ونعم هذا النصح ، فهو شامل للخير كله .
﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أى أن الله تعالى سميع للأقوال ، عليم بالأعمال والأحوال ، وسيحاسب الناس بحكمه تامة ، ورحمة عادلة .

- ٥ -

معنى الآية

يأمر الله سبحانه وتعالى عباده بأمرين هامين أولاهما : ضرورة أداء الأمانات على تنوعها ... ثانيهما : الحكم بين الناس بالعدل والقسطاس المستقيم ، وبذلك ينال المستجيبون لأمر الله تعالى جنات النعيم لأن الله يسمع الأقوال ، ويعلم الأحوال والأعمال .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الأمر لله وحده

تدل الآية على أن التلقى يكون من الله وحده ، فهو سبحانه منزل الكتاب

(١) مصنف ابن أبي شيبة ج ٨ ص ٨١ .

(٢) سنن الترمذى - كتاب الطهارة . باب ما جاء في نصح بول الغلام ج ٣ ص ١١ .

(٢٩٢)

ومرسل الرسول ، ومشروع النظم ، والمكلف بسائر الأحكام .
إنه يأمر بأداء الأمانات على تعددها ، وكثرتها ، ويأمر بالحكم العادل بين
الناس ، وبذلك تتوحد الأمة ، وتنشط في إطار منهج الله تعالى الذي لا يضيع
حقا ، ولا يحل ظلما ، ولا يبيح خيانة .
وليس بمستساغ أن ندع أمر الله إلى أمر غيره ... ولا يمكن تصور خير
في مخالفة أمر الله تعالى .
إن الأمن يسقط بالخيانة ، والظلم ، وقد حرم الله ذلك على المسلمين .

الركيزة الثانية

تجنب مزالق الضياع

يوجه الله المسلمين إلى أسباب العلاج ، ويعظهم بأحسن الوعظ ، وأفضله
، ويبين للمسلم عظمة عظة الله حينما يدرك أن خيانة الأمانة مهلكة ، والظلم
في الحكم مفسدة ، ولن يستقيم لأمة أمر ما لم تتمسك بالأمانة والعدل ، ومن
المعلوم أن الأمم السابقة بادت وهلكت بخياناتها ، وفقدان العدل فيها .
إن أداء الأمانة يشمل كل حياة الإنسان ، والعدل يصون كافة الحقوق ،
وبذلك يعيش المجتمع مسلما .
إن المحافظة على الإسلام ، وتطبيق تعاليمه أمانة حملها الإنسان ، والحكم
العادل صيانة للحقوق ، ومنع للعدوان ، ويمكن الإنسان من إنسانيته ... وبذلك
يبتعد الإنسان عن مزالق الضياع .

وجوب طاعة الله ورد التنازع إليه

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ^ط
فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٠﴾ ۝ .

- ١ -

سبب نزول الآية

قال السدي : نزلت في خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وذلك أنه بعثه رسول الله ﷺ على سرية ، وفيها عمار بن ياسر رضى الله عنهما . فلما قربوا من القوم هربوا منهم ، وجاء رجل إلى عمار رضي الله عنه قد أسلم فأمنه عمار فرجع الرجل .

فجاء خالد فأخذ مال الرجل فقال عمار : إني قد أمنتَه وقد أسلم !!

فقال خالد : أتجير علي ، وأنا الأمير !!

فتنازعا وقدما على رسول الله ﷺ فأجاز أمان عمار ، ونهاه أن يجير الثانية على أمير ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما أمرت الآية السابقة بوجوب الحكم بالعدل بين الناس جاءت هذه الآية تبين من له حق الطاعة على الناس ، ومن يرجعون إليه عند الخلاف .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية ضرورة طاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله ﷺ ، وطاعة أولى الأمر فيما ليس بمعصية ، وضرورة رد استخراج الحكم حين الاختلاف إلى الله ورسوله

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٥٠ ، تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٠٧ .

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ هذا نداء من الله تعالى للمؤمنين للتنبيه على أمر هام يوجهه لهم ، وذلك لأنه نداء للقريب ، مقترن بحرف التنبيه ، وجعل المنادى مكونا من الموصول وصلته لإبراز معنى الصلة ، والاستفادة منها في الاستجابة لما ينادى به .

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ هذا هو المنادى به والطاعة هي الانقياد والامتثال للأمر ، فطاعة الله تعالى تعنى امتثال أمره فيما أمر ، والانتهاز عما نهى ، والانقياد لله في أمره ونهيه ... وطاعة الله واجبة . وطاعة الرسول تعنى طاعته في كل ما أمر به ، أو نهى عنه ، وطاعة الرسول واجبة لأنها من طاعة الله . يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ .

وقد جاءت الآية أمرة بالطاعة لله ، والطاعة لرسول الله ﷺ لأن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ... واتباع الرسول طاعة لله تعالى . وقد أنزل الله أوامره ونواهيه في القرآن الكريم ، فطاعة الله تكون بالاستقامة على ما جاء في القرآن الكريم .

وطاعة الرسول ﷺ تكون باتباع سنته ، واتخاذ أسوة وقائدا ، وسنته ﷺ مدونة ومعروفة وثابتة ، وشماله عديدة ، ومحصورة ، ومعلومة .

﴿ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ وأولو الأمر في الأمة هم الأمراء ، والولاة ، ومعهم أهل الحل والعقد من العلماء والفقهاء .

وأولوا الأمر لا يأمرؤن بشئ من أنفسهم ، وإنما يأمرؤن بأمر الله ورسوله ، ولذلك عطف أولى الأمر على الرسول ولم يصدر طاعتهم بالأمر كما جاء الأمر بطاعة الله تعالى ، وطاعة رسول الله ﷺ .

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ : "من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني قد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني ، وانما الإمام جنة يقات من ورائه ، ويتقى به ، فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجرا ، وإن قال بغيره فإن عليه منه" ^(١) .
- وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا إن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة" ^(٢) .
- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة" ^(٣) .
- والآية واضحة الدلالة في أن أولى الأمر يكونون من المؤمنين لأن النداء للمؤمنين ، وأولو الأمر هؤلاء ﴿ مِنْكُمْ ﴾ وعلى هذا فأولو الأمر لا يخالفون الله ورسوله فإن خالفوا فلا طاعة لهم ... وقد قرن الله طاعة أولى الأمر بطاعة الله ورسوله فوجب أن تكون أوامرهم في إطار أوامر الله ورسوله .
- وما دام أولو الأمر ملتزمين بطاعة الله ورسوله ، والرجوع إلى حكم الله ورسوله ، فإنه إذا حدث تنازع واختلاف بين أولى الأمر وعامة الناس رجعوا إلى حكم الله ، وردوا النزاع إليه ، وذلك في قوله تعالى :
- ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ والتنازع هو الاختلاف والتعارض في أمر من الأمور ، ويراد به في الآية اختلاف الآراء في حكم من الأحكام الشرعية ، وفي حكم أمر من الأمور التي لا نص عليها ويقع

(١) صحيح البخارى - كتاب الجهاد والسير . باب يقاتل من وراء الإمام ج ١٠ ص ١١٤ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإمارة . باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ج ٩ ص ٣٧٠ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب الأحكام . باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ج ٢٢ ص ٥٠ .

التنازع بين العلماء ، وبين أهل الحل والعقد ، بأن تتعدد الآراء ، وتختلف المفاهيم فى أمر ما .

فإن تنازع العلماء والأمرء فى حكم ما وجب رده إلى حكم الله ورسوله ، والرد إلى الله تعالى يكون بالعودة إلى القرآن الكريم ، والرد إلى رسول الله ﷺ يكون بسؤاله ﷺ فى حياته ، والرجوع إلى سننه ﷺ بعد وفاته ، فإن وجد نص فى هذا الرد أخذ به ، وإن لم يوجد نص صريح وجب على أهل الحل والعقد والعلماء أن يقيسوا ، ويجتهدوا لاستنباط الحكم وفق القواعد الشرعية الصحيحة . وقد وضع العلماء قواعد العودة إلى حكم الله ورسوله ، وحصرها فى طريقتين هما :

الطريقة الأولى : الاعتماد على الأدلة الثابتة ، وقياس ما لا دليل معه على ما له دليل لاشتراكهما فى العلة .

الطريقة الثانية : تتبع الحكم فى إطار تحقيق مقاصد الشريعة ، وتحقيق مصالح العباد ، وصيانة الدين .

ويجب أن يقوم برد الحكم عالم أو علماء من أهل الحل والعقد الذين يتقنون العلم بالكتاب والسنة ، ويعلمون الأحكام وأصولها لاستدلالهم .

والآية تبين أدلة الشرع الإسلامى وتحصرها فى أربعة مصادر هى :

- (١) طاعة الله تعالى وهى تتبع ما جاء فى القرآن الكريم المصدر الأول للتشريع .
- (٢) وطاعة الرسول وهذا هو السنة المصدر الثانى للتشريع .
- (٣) الإجماع وهو مستفاد من العودة إلى العلماء ليرجعوا الحكم المتنازع عليه إلى حكم الله تعالى وهذا هو الإجماع الذى يقوم به العلماء .
- (٤) القياس والرأى وهذا مستفاد من ضرورة رد المختلف فيه إلى حكم الله بإحدى الطريقتين المذكورتين .

(٢٩٧)

إن أعمال المكلفين يجب أن تدوم في إطار طاعة الله ، وأغلبها واضح ومعروف فإن خفى الحكم ، وتنازع العلماء وأولو الأمر ، فالواجب قيام العلماء بدراسة الأمر ، ووضعه في إطار حكم الله تعالى .

وطاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله ﷺ شاملة لكل جوانب الحياة ، ولا يمكن تصور قصور هذه الطاعة لأن أوامر الله محددة ، ومفصلة ، وبخاصة في الأمور الثابتة ، أما في الأمور المجملة فلها دليل كلى يحتاج إلى اجتهاد العلماء لوضع الأمور في نصابها .

﴿ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الجملة شرطية والجواب محذوف تقديره إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فردوا الحكم لله ورسوله . وفي جملة الشرط حث للعلماء وأهل العقد والحل ليعلموا الحكم ، ويعلموا طريقة الاستفادة به في الوقائع ، ويعملوا بذلك .

وربط الطاعة بالإيمان أمر واجب شرعا ، لأن من لا يعتقد بوجوب طاعة الله ، وطاعة رسوله ﷺ لا يكون مؤمنا بالله واليوم الآخر ، لأن من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل .

﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ الإشارة إلى رد الأمر لحكم الله ورسوله لبيان أنه الخير ، المحمود العاقبة .

- ٥ -

معنى الآية

يأمر الله عباده بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وطاعة أولى الأمر ما داموا على طاعة الله تعالى ، وتأمروا برد الأمر إلى حكم الله ورسوله حين التنازع والاختلاف ، فذلك هو الأخير والأقوم .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

(٢٩٨)

الركيزة الأولى كمال الإسلام وتمامه

أنزل الله سبحانه وتعالى دينه للناس ، وعرفهم به ، وحفظه لهم متميزا بالكمال والتمام ، وذلك واضح من عدة أمور :

(أ) إنه من عند الله تعالى ، فهو كامل بكمال الله تعالى ، وشامل بسعة علمه سبحانه وتعالى .

(ب) إنه غير محدد الإدراك ، والأثر ، والنتيجة لأن علم الله محيط .

(ج) إنه مناسب للإنسان لأن الخالق واحد ، والصانع دائما يدرك أسرار صنعه .

(د) إنه ثابت لا يتغير صالح لكل زمان ومكان .

وعلى الإنسان أن يعلم ذلك ، ويسارع إلى الإيمان ، ويستمر في طاعة الله ورسوله وأولى الأمر ماداموا في طاعة الله تعالى .

الركيزة الثانية

ثبات الإسلام بثبوت مصادره

قضى الله تعالى بأن يكون الإسلام ناسخا للأديان التي سبقته ، وخاتما لها وقضى بأن دعوة الإسلام عامة للناس إلى يوم القيامة .

وهياً الله للإسلام ما ييسر للناس القيام بما قضى الله لهم فيه .

فالنسبة لمصادره العديدة فقد حفظها الله تعالى وجعلها شاملة لكل ما يحتاجه البشر .

فقد حفظ الله القرآن الكريم بوسائل متعددة حتى نقلته الأجيال عن بعضها بلا تغيير ولا تبديل ، ولا تحريف ، ويسر سبحانه وتعالى حفظه وفهمه ، وأوجد الله في الناس العلماء الذى وضعوا علوما متعددة لصيانة لفظ القرآن الكريم ، وسهولة نطقه ، ومعرفة أحكامه وحكمه ، والوصول إلى كافة جوانب الإعجاز فيه .

وهياً الصدور والمطابع لحفظ القرآن الكريم حتى عم وانتشر كما نزل من عند الله تعالى .

وحينما يأمرنا الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ فإنه أمر بالمحافظة على القرآن الكريم فهو الذى يجلى أوامر الله تعالى ، وهو المصدر الأول للإسلام .

وأما السنة النبوية فقد حفظت بالجمع والتدوين في كتب صحاح حرص العلماء على جمعها ممن أخذها عن رسول الله ﷺ ، وكتب السنة تعد بالآلاف وطاعة الرسول تعنى بالضرورة معرفة سنته ، والوقوف على ما تدل عليه من حكم وأحكام ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ .

وقد يخفى الحكم ولا يوجد للعمل نص فالعمل إذا بإجماع الأمة وهم أولو الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ما استقاموا على أمر الله تعالى .
وقد يحتاج الأمر إلى اجتهاد ، وهو أمر يقوم به العلماء القادرون على الاجتهاد ، وهم الذين يرد الأمر إليهم حين التنازع والاختلاف ، وذلك في قوله : ﴿ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ .

وهكذا ...

يجد المسلم دينه واضحا أمامه في نصوص ثابتة ، واجتهاد مشروع ، وعليه اتباعه .

فمن نكث بعد ذلك فإنما ينكث على نفسه ... إن الإيمان الكامل يستلزم التمسك بالإسلام قولاً ، وعملاً ، وسلوكاً ... ولا عذر لمن يهمل في هذا الالتزام ، ويتصور إمكانية هروبه من الواجب المطلوب .

صورة المنافقين العملية

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [١] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٢﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [٣] أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٤﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

قال ابن عباس : نزلت في رجل من المنافقين يقال له بشر كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي : ننطلق إلى محمد . وقال المنافق : بل ننطلق إلى كعب بن الأشرف وهو الذي سماه الله الطاغوت .

فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ .

فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله ﷺ لليهودي .

فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال انطلق بنا إلى عمر ، فأتيا عمر فقال اليهودي : اختصمت أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه .

وقال السدي : كان ناس من اليهود قد أسلموا ونافق بعضهم ، وكانت قريظة حلفاء الخزرج ، والنضير حلفاء الأوس ، وكان إذا قتل رجل من بني قريظة رجلا من بني النضير قتل به ، أو أخذت ديتة مائة وسق من تمر ، وإذا قتل

(٣٠١)

رجل من بني النضير رجلا من قريظة لم يقتل به وأعطى ديته ستين وسقا ، فلما جاء الإسلام وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فاختصموا في ذلك .

فقال بنو النضير : كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ، ولا تقتلوا منا وديتنا مائة وسق وديتكم ستون وسقا فنحن نعطيكم ذلك .

فقال الخزرج : هذا شئ كنتم فعلتموه في الجاهلية لكثرتكم وقتلتنا فقهرتمونا على ذلك ، فاليوم نحن إخوة في الدين فلا فضل لكم علينا .

فقال المنافقون منهم : ننطلق إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي .

وقال المسلمون من الفريقين : بل ننطلق إلى النبي ﷺ ، فأبى المنافقون وانطلقوا إلى أبي بردة الكاهن ، فأنزل الله عز وجل آيتي القصاص ، وأنزل هذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

في الآيات السابقة أمر الله بأداء الأمانة ، والحكم بالعدل كما أمرت بطاعة الله وطاعة رسوله وأولى الأمر فيما لا معصية فيه ، وفي هذه الآيات بيان لأناس يتركون حكم الله ، ويستبدلون به حكم الظلم والطغيان ويبررون ذلك لأنفسهم ويحاولون خداع غيرهم به .

- ٣ -

موضوع الآيات

تتناول الآيات بيان صنف عجيب من الناس يدعون الإيمان بالله ورسوله ويتركون أحكامه إلى أحكام الطاغوت مع أنهم أمروا أن يكفروا به ، ولكن

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٥٢ .

الشيطان أضلهم وصدّهم عن السبيل ، وإذا ظهر لهم فساد ما هم فيه يعتذرون ويحاولون إيجاد مخرج لهم .

- ٤ -

الدلائل اللغوية

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ ؟ ... الهمزة للاستفهام ، والخطاب لمحمد ﷺ وأمته معه ، والاستفهام للتعجب والإنكار ، والرؤية المستفهم عنها تكون بصرية وعقلية ، والمعنى : هل رأيتم يا محمد هذا الأمر العجيب من أقوام يتصفون بصفات عجيبة تؤدي إلى الدهشة والإنكار ... وهذه الأفعال العجيبة هي :

- ﴿ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أى أن هؤلاء الأقوام من المنافقين الذين دخلوا في الإسلام ظاهرا ويزعمون أنهم يؤمنون بالقرآن الكريم الذى أنزل على محمد ﷺ وبالكتب المنزلة على الرسل قبل محمد ﷺ ، وهى التوراة وهم كاذبون في زعمهم لخلو قلوبهم منه .

وقد وصف الله قولهم بالزعم ، والزعم هو القول الكاذب الذى يخالف الحقيقة لأنهم : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴾ ^(١) وكذبهم في قولهم هذا ظاهر في مخالفة أعمالهم له .

- ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَىٰ الطَّاغُوتِ ﴾ أى أنهم يريدون حكما غير حكم الله ، هو حكم الطاغوت ليفصل بينهم .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤ .

(٣٠٣)

والمراد بالطاغوت أى حكم أرضى لا يستمد حكمه من دين الله تعالى ،
لأنه بذلك طغى على الحق ، وأخذ ما ليس له ، وحل ، وحرم ، وذلك لله
وحده .

وسمى الطاغوت بذلك لإفراطه في الطغيان ، وعداوة رسول الله ﷺ ، وشدة
كراهيته للإسلام .

- ﴿ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ أى أن هؤلاء المنافقين يفعلون بغير

ما يزعمون عن علم وقصد ، لأنهم أمروا صراحة بأن يكفروا بهذا الطغيان
ولا يتحاكمون إليه ، وان يقصروا أمورهم على حكم الله تعالى .

- ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أى أن الشيطان

يوسوس لهم ، ويمدهم بالأمانى ، ويبعدهم عن هدى الله تعالى ، ويغرقهم
في الضلال والنفاق حتى يبتعدوا عن الإيمان بصورة تامة ، وبذلك
لا يرون محاسنه ، ولا يشاهدون صوابه وصلاحه .

والآية تشير إلى أن المؤمن الصادق لا يرضى بغير حكم الله تعالى ، وأن
من رضى بغير حكم الله فهو منافق ، وأن أى حكم غير حكم الله قائم
على الظلم والطغيان .

- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ ﴾ أى أن هؤلاء

المنافقين لا يكتفون بزعم الإيمان ، وانما يقابلون دعوتهم إلى الإيمان
بالقرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى إلى رسوله ﷺ ليبليهم به بالكفر به ،
والصد عنه .

والقائل لهم هو رسول الله ﷺ ، أو أى مسلم من بينهم ، أو من غيرهم ،
يدعوهم بلين ورفق . ويقول لهم : تعالوا سويا لننظر ، ونرى ، ونؤمن بما أنزله
الله للناس فإذا بهم يصدون ويكفرون ... وكان الأولى بهم أن يسارعوا إلى

(٣٠٤)

الإيمان فهم يدعون إلى الله الذى يزعمون إيمانهم به ، والى الكتاب المنزل وهم أهل كتاب ، والى المشاركة في الفهم والتعقل ... ومع كل هذا اللين الطيب في الدعوة لا يستجيبون .

﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ أى يعرضون عن الدعوة إلى الإيمان ، والخضوع لحكم الله إعراضا شديدا بلا تفكير ، ولا تأمل وهذا من شدة عداوتهم لله ورسوله .

وأوردت الآية مسمى ﴿ الْمُنَافِقِينَ ﴾ الذى يراهم الرسول ﷺ بصددهم ، إشارة إلى أن علة هذا الصد منهم هى النفاق .
والعجب من هؤلاء المنافقين أنهم يدعون إلى الحق فيتركونه إلى الباطل وتعرض عليهم الدعوة بلين رقيق فيردون صدا ، وإعراضا ، واستهانة ، وذلك بسبب ما هم فيه من نفاق .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ ؟ ... والاستفهام للتعجب والإنكار ، ومعناه : ألم يفكر هؤلاء المنافقون ، وينظروا إلى حالهم حينما تحل بهم مصيبة ، أو تنزل عليهم كارثة ، وكوارث الزمان عديدة ، وهم معرضون لها فقد تركوا العدل ورضوا بالظلم ، وأهملوا قانون الله ، وسلخوا قانون الهوى ، وستنزل بهم لا محالة مصائب عديدة .

﴿ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ الباء للسببية ، والمعنى أن المصيبة قد تأتتهم بسبب أعمالهم من خلال تحاكمهم لغير الله لأنه يؤدى إلى الظلم ، وضياع الحقوق ، ومعارضة دين الله الحق .
وعبرت الآية عن عمل الإنسان بعمل اليد لأنها مظهر العمل ، والمراد نشاط الإنسان كله قولاً ، وحركة ، وصمتاً ، ورضى ...

﴿ ثُمَّ جَاءُوكَ تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ أى أن هؤلاء المنافقين حينما تحل بهم

(٣٠٥)

المصائب ، ويرون سوء عملهم يلجأون إلى رسول الله ﷺ في تكلف المنهزم معتذرين عن أعمالهم ، ويؤكدون اعتذارهم باليمين ، ويقسمون باسم الله أنهم لم ينافقوا ، ولم يخالفوا .

إن هذا الانقلاب في مواقف المنافقين توضحه : ﴿ ثُمَّ ﴾ أى أنهم بعد أن ضلوا بعيدا عادوا بلا خجل وبلا حياء يحلفون بالله ، وكأنهم كانوا مؤمنين به حقا .

﴿ إِنَّ أَرْدَنَّا إِلَّا إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أى ما قصدنا في تحاكمنا إلى غيرك إساءة لك أو للإسلام ... وانما قصدنا التوفيق والتصالح بين الخصوم . وفى اعتذارهم هذا جريمة أخرى لأنهم يرون الإحسان في غير حكم الله ويخصون التوفيق بين الخصوم في غير دين الله تعالى ، ولا إحسان في هذا وأمثاله .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أى هؤلاء الناس منافقون ، وكل أعمالهم المذكورة بسبب نفاقهم ، فلا تحزن عليهم ، واترك أمرهم لله فهو سبحانه الذى يعلم نفاقهم المستور المغيب في قلوبهم الذى يخفونه عن غيرهم ، ويتصورون تمكنهم فى إخفاء ما هم فيه من نفاق إلا أن الله العليم يعلم سرهم ونجواهم ، وهو سبحانه بعلمه يعلمك ويعلمهم ، وسوف يحاسبهم على نفاقهم بما يستحقون .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أى اتركهم وشأنهم ، ولا تهتم بأقوالهم ، وأعمالهم ليعرفوا أنك كاره له غير راض عنه .

﴿ وَعَظُّهُمْ ﴾ وأنصحهم نصح الخائف عليهم من عذاب الله الذى سيلحق بهم في الدنيا والآخرة ، وعرفهم أن الله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية .

(٣٠٦)

﴿ وَقُلْ هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ معناه أن تخلصو بهم ، وتسرو لهم النصيح ، وتخطب فيهم عقولهم ، وقلوبهم ، فذلك أنجح ، وهى إحدى طرق الدعوة إلى الله تعالى وتعرف بـ "الاتصال الفردى المباشر" .

﴿ وَقُلْ هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ وادعهم إلى الله تعالى بطريقة تؤثر فى قلوبهم ونفوسهم ، ووجههم توجيهها حسنا يحقق المطلوب في بيان واقناع .
ووصف القول بالبليغ لمراعاة ذلك فى دعوة المنافقين وغيرهم ، لأن القول البليغ يوضح المراد ، ويشد الهمم ، ويوقظ العواطف ، ويقوى الحقيقة فى الأفهام والعقول ، ولذلك سميت الدعوة بالبلاغ المبين لأنها توصل المعنى فى أحسن صورة مع حسن التصرف والإيجاز والتشويق ، وتلوين الخطاب من وعد ووعد ، وترغيب وترهيب ، لأن ذلك يجعل للدعوة وقعا فى القلب ، وتأثيرا فى النفوس .

- ٥ -

معنى الآيات

يتعجب الله تعالى من أعمال المنافقين الذين دخلوا فى الإسلام من أهل الكتاب فهم يكذبون على رسول الله ﷺ ويدعون كذبا أنهم آمنوا بما أنزل الله على محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله ، ومع ذلك يتركون حكم الله إلى حكم الطغيان والظلم ، وهذا من إضلال الشيطان وتلاعبه بهم ... وإذا أنتهم الدعوة إلى دين الله الذى أنزله على محمد ﷺ نفروا وأعرضوا بشدة وقوة ... وسوف يتعرض المنافقون لمصائب تحيط بهم بسبب كفرهم ونفاقهم ، وحينها يأتون إليك معتذرين قائلين : ما تركنا حكم الله اعتراضا عليه ، وإنما قصدنا تحسين المعاملة مع الناس ، والتوفيق بين الخصوم ... فلا تغتر يا محمد بمقالتهم ، ودعهم لله ، وأعرض عنهم ، وانصحهم برفق ، وادعهم إلى الله تعالى بطريقة تؤثر فى قلوبهم وعقولهم عساهم يتوبون ويرجعون .

(٣٠٧)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركزة الأولى

الإسلام يحقق التوازن في الإنسان

الإنسان مكون من عقل وروح ، ومظهره سلوك وعمل ، وصلاته مع غيره متعددة فهناك صلته مع أهله ، ومع الناس ، ومع الحاكم ، ومع الله تعالى ... والإسلام يشرع لذلك كله ، ويدعو المؤمنين للالتزام بما جاءهم من الله تعالى ، ولو استقام المؤمنون على حكم الله تعالى لسلوكوا سلوكا متوازنا في سائر أحوالهم ، وأعمالهم .

إن الإسلام يرضى العقل بالفكر ، ويشبع الروح بالعواطف ، وينمي السلوك والعمل بالنظم والتوجيه ... ويشرع لجميع صلات الإنسان مع غيره ، ومع الله بصورة متكاملة خالية من الضعف والذل ، بعيدة عن الظلم والعدوان . إن الإسلام يحقق التوازن في الإنسان فمن يؤمن بالله يطيعه ، ويتحاكم لشرعه ، ويسعد بذكره ، ويعينه الله على البلاء ، والمصاعب ... كل ذلك في خط واحد لا يحيد عنه ، ولا يتوه .

أما المنافق فهو متضارب يعلن الإيمان بالله ويتحاكم إلى غيره ، ولا يعرف الله إلا عند المصائب ، ويحلف كذبا وهم يعتذر ، وبذلك يتناقض قوله مع فعله إنه في تضارب بين الظاهر والباطن ... وبين العقيدة والسلوك .

إن المسلم إنسان عاقل ، وعليه أن يعمل بما يحقق هذا التوازن الديني ليسعد بدنياه وآخره ... وعليه أن لا يغتر بأناس غرتهم الحياة الدنيا فنافقوا وادعوا الإيمان ... إنهم أناس يخالف قولهم عملهم ، ويتعارض سلوكهم مع تعاليم ربهم ، ويبتعدون بأنفسهم عن الله تعالى ، لا يذكرونه ، ولا يعودون إليه

(٣٠٨)

إلا عند حلول النكبات والمصائب ، وهؤلاء لا يخلون من كذب أبدا فيدعون الصدق في ملا يعلم كذبهم عن يقين .
وأكبر البلاء أن يكون هؤلاء المنافقون ولادة وقادة لأن فسادهم يعم ونفاقهم ينتشر في أتباعهم وسدنتهم ، والمنفعين حولهم .

الركيزة الثانية

عدم القنوط من رحمة الله تعالى

برغم أن النفاق بدا في المنافقين حتى صار أمرا جليا من خلال رضاهم بحكم غير الله ، وتصورهم أنه الأفضل في التوفيق بين الخصوم ، والمحقق لحسن التعامل ... برغم ذلك يدعوهم الله إلى العودة إليه بالصمت والإعراض عن أكاذيبهم ، ونصحهم ودعاهم سرا وجهرا بأسلوب حسن وبطريقة تؤثر في أعماق قلوبهم ...

إنهم لو عادوا بعد كل نفاقهم ، وتابوا توبة نصوحا لقبلها الله منهم ، وتلك رحمة من الله تعالى ، فالتوبة بابها مفتوح ، والعودة إلى الإيمان في أى وقت أمر ممكن ، وقبول الله توبة التائبين لم يفت أوانها بعد .

الركيزة الثالثة

تنوع أساليب الدعوة

الدعاة أخبر القوم بنفوس المدعوين ، وعليهم أن يعدوا لكل طائفة نموذجا دعويا يناسبهم ، وقد تحدثت الآية عن الإعراض ، والوعظ ، والقول البليغ ... وكل منها يمثل طريقا للدعوة :

– فالإعراض طريق للدعوة يصلح عند انكسار المتكبرين ، وخيبة المنافقين لأن الإعراض عنهم يقوى نقدهم لأنفسهم ، ويشعرهم بما كانوا فيه من خطأ ، وعساهم يفكرون في عزلتهم تفكيراً يوصلهم إلى الصواب .

- **الوعظ** طريق آخر يقوم على النصيح والمودة مع ضرب الأمثال وإيراد القصص ... وأمثال ذلك له تأثير في العواطف والأرواح .
- **والقول البليغ** طريق آخر يقوم على دقة العبارات ، وإيجاز المعانى ، والقصد المباشر للنفس للتأثير فيها ، مع استعمال أساليب الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ... وغير ذلك .
- هذه الأساليب يتقنها الدعاة ، ويستفيدون بها ، كل في موطنه ، ومع أناس يتوافقون معه .
- إن الخطأ الواحد يختلف علاجه من شخص لآخر ... والدعاة هم المعالجون لأخطاء الناس ... وعليهم تخير الدواء المناسب للعلاج .

طاعة الرسول واجبة

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة طرق المنافقين في المعاصي جاءت هذه الآية لتوضح أن طاعة الرسول واجبة ، وعلى من يظلم نفسه أن يستغفر الله ، ويرجع إليه لينال رضى رسول الله عنه ، وحتى يستغفر له ، وبذلك ستأتيه من الله رحمة ومغفرة ، ويقبل الله من جميع المستغفرين توبتهم ويسامحهم .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية حقيقة إيمانية هامة ، وهى ضرورة طاعة الرسول فهى واجبة

(٣١٠)

على من أرسل إليهم ، وليس لهم اختيار في ذلك ... وليس الرسول ﷺ أحد الدعاة والوعاظ الذى يسمع قولهم فقط ، إنه الرسول المبعوث والحاكم الموجه وصاحب الأمر المطاع ، وتبين أن الله يغفر لهم ، ويتوب عليهم لو تابوا ورجعوا إلى الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ من في قوله :
﴿ مِنْ رَسُولٍ ﴾ للتأكيد والبيان أى وما أرسلنا رسولا أيا كان .

وجاءت الآية متضمنة للنفي "ما" ، والاستثناء ﴿ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ لبيان أهمية طاعة الرسول ، فهي واجبة على جميع من دعاهم فالمؤمنون به أطاعوه ، وما عداهم فهم منافقون وكافرون يحاسبهم الله على كفرهم ، ونفاقهم ... وهذا تنبيه واضح على أن الرسول يجب أن يطاع فيما بينه للناس حيا وميتا لأن دعوة الرسول باقية في مصادرها المحفوظة بحفظ الله لها .

إن الإسلام جاء من عند الله لينشئ إنسانا جديدا ، ويؤسس أمة جديدة ، ولذلك جعل الله رسوله ﷺ صاحب سلطان وحكم ليتحقق منهج الله الذى أراد له عباده .
وليست الرسالة إذا كلمة تقال وتمضى ، أو وعظ مؤقتا ، لكنها رسالة مستمرة ، واجبة الطاعة ، والتطبيق .

﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بأمره وقضائه .

إن الإسلام ينحصر في هذه الصورة الواجبة ، ولا بد له من الطاعة الدائمة لرسول الله ﷺ لأنها طاعة لله تعالى ... ومن أجل ذلك كان المحكوم والحاكم في الإسلام مسئولان عن تطبيق شرع الله ، كما أمر الله وقضى .

(٣١١)

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ هذا فتح باب الأمل أمام الذين عصوا الله تعالى ، ولم يطيعوا رسول الله حق الطاعة ، فتحاكموا إلى الطاغوت ، وتركوا منهج الله ، وخالفوا ما وجب عليهم ، وكل ذلك ظلم للنفس حيث ألحقوا بها الضرر والأذى ووضعوها في غير ما خلقت له .

﴿ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفِرَ لَهُمْ الرِّسُولُ لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ أى لو أن هؤلاء المنافقين الذين ظلموا أنفسهم أدركوا خطأهم ، ورجعوا إلى الله تعالى ، واستغفروه ، وطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم ، لو فعلوا ذلك ، وتابوا ، وأنابوا لقبل الله توبتهم وأثابهم ، فهو سبحانه التواب الرحيم بسائر عبادہ .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن طاعة الرسول ﷺ واجبة لأنها طاعة الله ، وتطبيق لدينه الذى ارتضاه للعالمين ، وعلى الناس أن يعلموا هذه المنزلة لرسول الله ﷺ فهو الداعية والحكم ، والسلطان ، وعليهم إن ظلموا أنفسهم بالمعاصى ومخالفة رسول الله ﷺ أن يستغفروا الله ويتوبوا ، ويسألوا الرسول أن يستغفر لهم ... لأنهم إن تابوا حقا سيجدون الله توابا رحيمًا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دور الرسول في الأمة

اختار الله رسوله ﷺ وبعثه في الناس معلما وحاكما ينشر فيهم الدين ، ويأخذهم بمنهج الله تعالى ، ولذا أوجب عليهم طاعته ، وعرفهم بأن اتباع

الرسول اتباع الله ، وطاعة الرسول طاعة له سبحانه وتعالى ، وبعد وفاته ﷺ بقيت طاعته في الوحي الذي تركه للناس ، فرسول الله ﷺ معصوم من الخطأ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ﴾^(١) .

وليس من الإسلام أى مخالفة لتعاليم رسول الله ﷺ .
وليس مسلماً من يجاهر بالمعصية وعمل السوء مهما ادعى وزعم .
ولا يصح أبداً أن يترك المسلم ما ثبت عن رسول الله ﷺ إلى أقوال غيره من الناس .

وهنا ملاحظة أساسية ، وهى أن فريقاً من الناس بضاعتهم العلمية قليلة يأخذون بظاهر النصوص الدينية التى يقرعونها ، ويدعون العلم بها ، ويخطئون غيرهم ، وما دروا من العلم إلا القليل!!!

وهذا الموضوع يحتاج إلى درية العلماء ، وخبرة الفقهاء ، فهم العالمون بشريعة الله ، الفاهمون لها اعتماداً على أصولها ، وفروعها .

إن العلماء ينظرون للنص من كافة جوانبه ، ويصلون إلى حكم الله بقدر طاقتهم البشرية ، وذلك في المواضيع الاجتهادية المحتاجة للعلوم والمعارف الإسلامية ... ومن هنا أتوجه بالنصح للجميع بضرورة التعمق العلمى ، ومراعاة التخصص في البحث والاستنتاج .

الركيزة الثانية

استمرارية الدعوة إلى الله تعالى

ينادى الله الذين ظلموا أنفسهم ، وعصوا الرسول ... يناديهم بالعودة إلى الإيمان والتوبة ، وطلب مغفرة الله تعالى ... وعرفهم بأن هذا الأمل ثابت ما لم يأت الأجل ، ولم تظهر ملامحه .
وعلى هذا ...

(١) سورة النجم ، الآية ٣ ، ٤ .

(٣١٣)

لا يأس في الدعوة إلى الله تعالى ، وعلى الدعاة أن يؤمنوا دائما في استجابة المدعوين ، وعليهم بذل الجهد ، وترك النتيجة لله تعالى .

الحد القاطع للإيمان

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت هذه الآية في الزبير بن العوام ورجل من الأنصار .
عن عروة بن الزبير عن أبيه أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير في شراج الحرة التي يسقون بها النخل ، فقال الأنصاري : سرح الماء يمر . فأبى عليه .

فاختصما عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير : " اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك " .

فغضب الأنصاري ثم قال : يا رسول الله إن كان ابن عمتك .
فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال للزبير : اسق يا زبير ، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر .

فقال الزبير : والله إنني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

زاد البخاري فاستوفى رسول الله ﷺ حينئذ للزبير حقه ، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أراد سعة له وللأنصاري ، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ استوفى رسول الله ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم .

(٣١٤)

قال الزبير والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن طاعة الرسول ﷺ واجبة أمر من عصاه بأن يستغفر ويتوب ليتوب الله عليه جاءت هذه الآية تحدد المطلوب من المؤمنين وتعرفهم بحد الإيمان .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية الحد المطلوب للإيمان وهو الاحتكام المطلق إلى رسول الله في كل ما يقع من أحداث ، والرضى بحكم رسول الله والتسليم التام لله رب العالمين .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾ في الآية تكريم لمحمد ﷺ إذ أقسم الله بالرب مضافا إلى ضمير اسمه ﷺ ، في قوله تعالى : ﴿ وَرَبِّكَ ﴾ وجعله ربه المرجع للحكم في مشكلات الناس وما يحدث بينهم من تداخل مثل ما جاء في سبب النزول وغيرها .
ومعنى ﴿ فَلَا ﴾ أى ليس الأمر كما يتصور المنافقون ، ولكنه مؤكد فيما أقسم الله عليه لأهميته ، وخطورته .

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ هذا هو المقسم عليه ، ومعناه أنه لا إيمان لفرد أو لجماعة إلا إذا جعلوا شرع رسول الله ﷺ هو الحكم

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٥٥ ، تفسير الألوسى ج ٥ ص ٧٢ .

فيهم ، وأن يتحاكموا إليه في كل ما يقع ويحدث بينهم ، على أن يصاحب هذا التحاكم الرضى بالحكم ، والتسليم النفسى المسبق لله رب العالمين .

إن الآية تحدد ثلاث مراحل للرقى الإيمانى حيث يبدأ المسلم بالتحاكم إلى شرع الله وهو **المرحلة الأولى** ... وبعده ينتقل إلى المرحلة الثانية وهى الرضى بحكم الله تعالى ولو كان الحكم على نفسه ... **والمرحلة الثالثة** هى التسليم المطلق لقدرة الله قبل حدوثه ، وقبل وضع حكمه .

والإمام الغزالى يشير إلى هذه المراحل الثلاث ، ويسمى المرحلة الأولى بالصبر ، ويسمى المرحلة الثانية بالرضى ، ويسمى المرحلة الثالثة بالمحبة^(١) .

والإنسان يتدرج في هذه المراحل بصدق إيمانه ، وملازمة الطاعة ، ومداومة العلم ، والإصرار على الوصول ... فبالعلم يزداد المرء معرفة بالله وبممارسة الطاعة تتحول الشريعة إلى إلف وعادة ، وبالإصرار على الوصول ينفث باب الحب والرجاء ، والتواصل مع الله تعالى كطارق بالباب يستمر في الطرق حتى ينفث .

وقد رأينا من صحابة النبى ﷺ حبهم لله ورسوله ، وصدقهم وإخلاصهم في قبول حكم الله وهم به سعداء .

لما نزل فيهم قول الله تعالى عن الخمر : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾^(٢) ... أطاعوا على الفوز وقالوا : انتهينا يا ربنا ... وأراقوا ما لديهم من دنان الخمر ، بل مجوا ما كان في أفواههم منها .

ولما نزلت آية الحجاب : ﴿ وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾^(٣) تحجبت الصحابيات جميعا ...

(١) من هدى سورة "النساء" ص ٢٠٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٩١ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .

(٣١٦)

ولما نزل قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾^(١) تحولوا إليها وهم في صلاتهم .

ولما أمر الله المسلمين بفراق الكافرات ، ونزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾^(٢) طلق الصحابة نساءهم الكافرات وكن محظيات عندهم .
إن الإسلام التام يعنى العبودية المطلقة التى تحقق لصاحبها الرضى والاستسلام ، والحب والسعادة .

- ٥ -

معنى الآية

يقسم الله تعالى بأنه لا إيمان إلا لمن يحكم الله في كل شئونه ، ويتحاكم إليه في كل ما يحدث له مع غيره ، وأن يرضى بحكم الله تعالى ، وأن يسلم كل أموره وشئونه لله رب العالمين ، فلا يعمل إلا ما أمر الله به ، وأباحه له ، ولا يرتكب أمرا نهى الله عنه ، وبذلك يكون مؤمنا صادقا .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

توضح الآية ركيزة هامة ... هى :

الإيمان عمل وتسليم

كثيرا ما يتساءل الناس : لماذا انتصر المسلمون في العصور الأولى ...
ولماذا ينهزمون في العصر الحديث ؟
والإجابة على هذا واضحة لأن الناس في العصر الحديث يختلفون اختلافا كليا عن سلف الأمة ، ويبتعدون ابتعادا واسعا عن الإيمان المكلفين به .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٤ .

(٢) سورة الممتحنة ، الآية ١٠ .

(٣١٧)

إنهم كلفوا السير على أحكام الله في شريعته ، والرضى بها ، والتسليم المطلق لقدر الله في سعادة وهدوء ... إنهم كلفوا بذلك ولكنهم لا يفعلون .
إن شريعة الغاب والقوة تحكم المسلمين اليوم ... ويصارع أصحاب الباطل بالحيل القانونية لنيل ما ليس لهم مع علمهم بما يعملون .
إن المسلم لا يطبق الإسلام على نفسه وأهله ، ويرتكب المحرمات ولا يستطيع الفكاك منها .

إنهم يرتكبون المعاصي ، وإذا نصحوا بتركها تعللوا بعدم قدرتهم على الترك ، وإن ذكروا بحكم الله لا يتأثرون .

تمتلى حياة المسلمين بالمعاصي ، تجد النساء في الطرقات ، وأماكن العمل سافرات ، مختلطان بالرجال ، مثيرات بأصواتهن وأزيائهن ، وحركاتهن والمعترض على ذلك متخلف لا يفهم المعاصرة ، رجعى لا يجيد فن الحياة .
إن دور السينما تمتلى أكثر من المساجد ، وأماكن الألعاب الرياضية مزدحمة ، ودور العبادة لا يؤمها إلا القليل .

بيوت المسلمين أنقاض مهدمة ، والانفصال الأسرى أمر شائع ذائع ... والقانون الذى وضعه البشر هو الحكم بين الناس وشريعة الإسلام مغيبة ، ونظم الإسلام لا وجود لها في أغلب مناشط الناس .
وبعد ذلك نسأل : لماذا لا تنتصر ؟

إننا لن نتنصر بسبب بعدنا عن دين الله تعالى ...
إن نظمنا تختلف عن نظم الإسلام ، وحياتنا تلبس ثياب الفساد والضلال .
ولهذا ...

لن نتنصر إلا بالعودة إلى الله تعالى وتطبيق أحكامه ، والرضى بشريعته والتسليم المطلق له . فهو رب العالمين .

جزاء المؤمنين الصادقين

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۖ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۖ ﴾

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وذلك أن رجلا من اليهود قال : والله لقد كتب الله علينا القتل والخروج ففعلنا . فقال ثابت : والله لو كتب الله علينا ذلك لفعلنا وهو من القليل الذي استثنى الله (١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضرورة طاعة الرسول وتحكيمه في حياتهم مع الرضى والتسليم جاءت هذه الآيات لبيان يسر التكليف ، ومراعاة الأحكام الدينية للمصلحة العامة والخاصة لأنها أحكام ميسرة خالية من العنت والحرص .

- ٣ -

موضوع الآيات

الآيات تبين أن الله تعالى شرع دينه ميسرا ملائما للفطرة ، ولم يكلف بما يشق فعله ، ولو كلفهم بالمشاق ما فعلها إلا القليل منهم ، والأولى بالمسلم أن يفعل ما يؤمر به ، ويطيع ما نزل له ليثبت الله هدايتهم ، ويثيبهم أجرا عظيما ، ويهديهم صراطه المستقيم .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٥٦ ، تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥١٠ .

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَرِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ يبين الله أن طاعة الرسول واجبة ، ويوضح أنه سبحانه وتعالى لم يأمر بما هو شاق عليهم ، ولو كلفهم بما هو شاق لما أطاعه إلا عدد قليل ، ﴿ وَلَوْ ﴾ حرف امتناع يتصدر جملة الشرط يدل على أن الجواب لم يقع لعدم وقوع الشرط وضرب الله مثلا بالتكليف الشاق ، وهو ﴿ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَرِكُمْ ﴾ وكلا التكليفين صعب التنفيذ ، لا يطيعه إلا القليل .

والله جعل دينه للجمهور العريض ، وللناس أجمعين ، ولذلك أقام الإسلام على اليسر ، ورفع عنه الحرج .

إن قتل النفس والإخراج من الديار فرض على بنى إسرائيل ففعله قليل منهم ، وشأن المسلمين هو هكذا .

لما نزلت الآية قال رجل من الصحابة : لو أمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذى عافانا فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : "إن من أمتى لرجالا ، الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسى" (١) .

وعن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ : "لو نزلت لكان أم عبد منهم" (٢) .

إن الله تعالى عليم بأحوال عباده فكلفهم بما يستطيعون في ظروفهم العادية حين تصح العزيمة ، وتعتدل الفطرة ، ويلتزم العبد بالعبودية بلا استهتار أو استهانة .

(١) كنز العمال ج ١٢ ص ١٨٢ .

(٢) تفسير البغوى ج ١ ص ٥٥٦ .

(٣٢٠)

وقد تبدو بعض التكاليف شاقة كالقصاص ، والحدود ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، إلا أن التأمل في القضايا التي شرعت لها هذه المشقات يظهر إنها في إطار شرع الله الميسر .

إن القصاص يحقق الحياة بمنع الناس عن العدوان ، وتطبيق القصاص مرة يحيى الملايين بعد ذلك .

والحدود تزجر العاصي عن العدوان ، وتصون المجتمع من الفساد ، والجهاد في سبيل الله يصون الأمة ، ويرد عنها الأعداء ، ويحقق الكرامة والعزة للإسلام والمسلمين .

﴿ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي لو كتبنا على المنافقين ما كتبنا على

اليهود حين أمرناهم بقتل أنفسهم ، وحين أخرجناهم من ديارهم مصر ، لو كتبنا ذلك لصعب ذلك عليهم ، ولما فعله إلا الأقلون ، وحينئذ يظهر كفرهم وعنادهم ولم نفعل ذلك رحمة بهم ، وما كتبنا عليهم إلا طاعة الرسول ﷺ والرضى بحكمه ، وهو أمر سهل فليقبلوه ، وليتركوا التمرد والعناد لينالوا خيرا .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ من متابعة الرسول ﷺ وطاعته ، والانقياد له ، حبا ، ورغبة ، ورهبة ... والوعظ هو الإرشاد البليغ المؤثر المشتمل على الترغيب والترهيب .

﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ في عاجلهم وآجلهم .

﴿ وَأَشَدَّ تَبِيَّتًا ﴾ أي أن طاعتهم ، واستقامتهم على ما يوعظون به من

دين الله تعالى خير لهم من أى شئ آخر ، لأنه يقوى تدينهم ، وينفى الشك لديهم ويؤدى إلى تحصيل العلم ، وتشجيع المطيع على الإقدام على طاعات أخرى .

إن مداومة الانقياد والطاعة يثبت العزائم ، ويقوى الهمم ، ويحول التكليف إلى عادة مألوفة ، وعرف معلوم ... ومن المعلوم أن الطاعة تولد نظيرتها ، وتدعو لمثلها ، وما يقع من أحداث يدعو إلى إمكانية تكراره وتقبله .
وأيضا فإن الطاعة والاستقامة تحقق الثواب والأجر .

﴿ وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ "وإذا" شرطية تحتاج لشرط

وجزاء والآية واقعة جوابا لسؤال مقدر ، كأن سائلا سأل : ماذا لهؤلاء بعد التثبيت ؟ ... ويأتى الجواب ليفيد أنهم لو ثبتوا لأتيناهم من لدنا أجرا عظيما .
أى لو استقاموا على ما أمروا به ، وثبتوا عليه لأعد الله لهم ، وأعطاهم أجرا كبيرا ، وثوابا عظيما من كرمه سبحانه ورحمته .

وهو أجر حسن متنوع لا يقدر مداه وعظمته إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو من عند العزيز الكريم ، ولذلك أتت به الآية نكرة ، ووصفته بالعظم .

﴿ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ "ولهديناهم" عطف على ﴿لَأَتَيْنَهُمْ﴾

والمعنى يفيد أنهم لو وفقناهم إلى سلوك الصراط المستقيم الذى يوصلهم إلى جناب القدس ، ويفتح عليهم أبواب الرقى ، ويحيطهم بمباهج النور تصاحبهم إلى جنات النعيم لتحقق لهم ذلك ، وذلك يكون في الآخرة .

ويذهب البعض إلى أن المراد بالصراط المستقيم الدين الحق . والمعنى على هذا أن الله يوفق المطيعين لسلوك طريق الحق والاستقامة على شرع الله تعالى في الدنيا ...

إلا أن جعله للصراط الموصل إلى الجنة أولى لأنه سبق في الآية الأولى أنهم بسماعهم الموعظة ، يستحقون الأجر العظيم ، وطريق الدين الحق مقدم على ذلك فافتضى الأمر أن يراد بالصراط المستقيم هنا الطريق إلى الجنة ، وهو من عرصات يوم القيامة .

(٣٢٢)

- ٥ -

معنى الآيات

يبين الله تعالى في الآيات مدى رحمته بعباده فيما كلفهم به ... فلو أمرهم بقتل النفس أو الخروج من الديار لشق عليهم ، ولفعله قليل منهم ... غير انه سبحانه وتعالى لم يكلفهم بذلك ، وانما جعل لهم الإسلام ديناً يقوم على اليسر ، وعدم المشقة ، ومراعاة الفطرة ، والمحافظة على المصلحة ، وكافة الضرورات التي يحتاج إليها الناس ، وتسير بها الحياة آمنة راضية ...

فلو استقام الناس على الإسلام ، وعاشوا بالنصائح الخيرة التي تأتيهم بليتها ، وسلاستها لكان خيراً لهم في الدنيا وفي الآخرة ...

أما في الدنيا فإن الخيرات تعمدهم ، وتقوى تدينهم ، وتغمرهم السعادة والرضى وهم يطيعون الله تعالى ... **وفي الآخرة** يثيبهم الله ثواباً عظيماً ، ويعد لهم أجراً حسناً ، ويوفقهم إلى الطريق الموصل إلى الجنة في عرصات يوم القيامة ليخلدوا في النعيم ، ويسعدوا برضوان الله العظيم .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتناول الآية عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الإسلام دين العدل والرحمة

قضى الله تعالى أن يكون الإسلام خاتماً للأديان للناس جميعاً ، ولذلك أنزله ملائمة لفطرة الإنسان ، وطبيعته العادية ... وأقامه على نظم عديدة يسهل على الناس القيام بها بلا عنت ولا مشقة .

إن تكاليف الإسلام تقوم على العزائم والرخص للناس جميعاً ، ودعوته موجهة للعالم كله ... ومن هنا كان سبب بعده عن المشقة والقسوة .

قد تناسب المشقة بعض الناس لقوة تحملهم ، وشدة التزامهم ، إلا أن الإسلام يأمل في إيمان الجميع ، ولذلك جاءت تعاليمه خالية من أى شأن

يصعب على الإنسان العادى فعله ... ولم تأت تعاليمه غامضة خافية لا يدرك معناها ، ويستخرج أحكامها إلا عمالقة الفكر ، ورجال الفلسفة .
لقد جاء الإسلام سهلا ميسرا في كل جوانبه ، وملامحه .

فمصادره محفوظة ، ثابتة ، وفهم معانيها سهل وواضح . يقول الله تعالى :
﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾^(١) . ومع يسر القرآن الكريم في الحفظ ، والفهم ، والإدراك نزلت السنة لمزيد البيان لأحكام القرآن الكريم . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾^(٢) ... وقد علم رسول الله أصحابه كيفية تبليغ الإسلام بالقرآن الكريم والسنة النبوية .

وعبادات الإسلام سهلة مقبولة ميسرة الأداء والعمل ، فالصلاة تتوزع على اليوم واللييلة ، والصوم مدة محددة في العام ، والحج في العمر مرة واحدة ، والزكاة عبادة تنتشر الترابط المادى بين الناس ... ومع سهولة العبادات يجد العابد فوائدها للنفس والعقل والجسد ، ولغيره من الناس ، ونظم الإسلام توجد المجتمع الطاهر النظيف الذى يرتقى بالفرد ، ويسمو بالجماعة في إطار من القيم العالية ، والخلق الرفيع .

والدعوة إلى الإسلام قائمة على الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والحوار الهادف ... تخاطب العقل والروح ، والجوارح .

ومن كل هذا نقول :

بوساطة الإسلام، وخلوه من المشقة، وبعده عن الحرج، وملائمته للناس أجمعين .
إن الإسلام رحمة من الله للناس، واستقرار للبشرية في أرض الله ، ودعوة للجميع ليعيشوا بمنهج الله في كونه الفسيح .

(١) سورة القمر ، الآية ١٧ .

(٢) سورة النحل ، الآية ٤٤ .

(٣٢٤)

الركيزة الثانية **الأثر التربوي للطاعة والاستقامة**

الآية تشير إلى آثار الطاعة والاستقامة ، وتبدأ ببيان أثر تربوي له أهمية في النشاط الإنساني كله ، وهو منهج يمكن من يسلكه من النجاح .

إن الإنسان إذا عمل عملا ، وكرره ، وداوم عليه فترة فإنه يتحول عنده إلى عادة يألّفها ، ويتمسك بها ، ويصعب عليه الابتعاد عنها ... خيرا كان العمل أو شرا ... ومثال ذلك شرب الخمر ، ومحادثة النساء ، والتعامل في الربا ، وخدمة الغير ، وممارسة الرياضة ، والسفر وغير ذلك من الأعمال التي يعيش فيها الإنسان ... وتتحول مع التكرار إلى عادة مألوفة ، وطبع مقبول .

ودليل ذلك في الآية أن القوم لو أطاعوا الله ، واستمعوا لما يوعظون به وجعلوه منهج حياة لهم فإنهم مع الأيام يزدادون فيه ، ويتعلقون به ، فهو يثبتهم في الطاعة بشدة ، ويقوى عزيمتهم في الطريق ، وكله خير لهم .

وهكذا ...

يؤدي الفعل إلى ما يماثله ، ووجوده مرة يؤدي إلى تكراره ، ومن تعود الطاعة صعبت عليه المعصية ، ومن عاش في الظلمات كره الحياة في النور .

إن هذا الأثر التربوي للطاعة يضع منهاجا متكاملا للحياة كلها ، ويدعو المربين والمصلحين ، والعلماء إلى اتخاذ هذا المنهج في الحياة .

ليبدأ الآباء في تنشئة أبنائهم على الطاعة ، وتعويدهم السلوك المستقيم ، لأن من شب على شيء شاب عليه .

وليبدأ المربون بزرع القيم ، والخلق في العمل لدى المتعلمين ليشبوا رجالا صالحين .

وليتحول المسلمون بمجتمعهم إلى بيئة إيمانية خالصة تشمل البيت ، والمدرسة ، والطريق ، ومكان العمل ليسود الخير حياة الناس .

(٣٢٥)

إن التنشئة الدينية تشمل الفرد والجماعة ، في دقة نابغة من الواقع ، وشمول يعم الجميع ، وصلاح يضم الأقوال والأعمال ... ونظم تفيد الفرد والجماعة والأمة .

وهذه التنشئة تبدأ بتعليم الجميع الإسلام ، ودعوتهم إلى الطاعة في أناة وصبر ، وبعدها تصير الطاعة إفا وعادة .

لو تعاون الولاة والعلماء والمربون والدعاة في إطار خطة يخلصون لها لتمكنوا من النجاح ، ولساد الخير جميع الناس .

ولقد أخرجت الأمة الإسلامية أول مرة بهذا الشمول ، وهذا التصور حيث سار الجميع في خط واحد ، وحققوا أملا واحدا ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس . لن يستفيد أحد من تضارب المؤثرات ، واختلاف التوجهات ، ولن يرتفع بناء وراءه هدامون ... ولا تصح الدعوة للصلاة مع نشر الفسق والفجور .

الركيزة الثالثة

أثر الطاعة في الآخرة

إن الطاعة تولد الطاعة ، وتثبتها ، وتقويها ، وبذلك يسعد العابد بعبادته وله عند الله ثواب خير وأبقى .

إن له عند الله أجرا حسنا عظيما في كل مجال يتصوره ، وأدناه ان يوفقه الله تعالى للسير في عرصات القيامة في طريق مقدس يوصله إلى الجنة فوق صراط متين لا يميل به ، ولا يهتز .

جزاء من يطيع الله ورسوله

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيتين

قال الكلبي : نزلت في ثوبان مولى رسول الله ﷺ ، وكان شديد الحب له قليل الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ، ونحل جسمه ، يعرف في وجهه الحزن ، فقال له رسول الله : "يا ثوبان ، ما غير لونك ؟" فقال : يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير أنني إذا لم أراك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك هناك ، لأنني أعرف أنك ترفع مع النبيين ، واني إن أدخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك ، وإن لم أدخل الجنة فذاك أحري بي أن لا أراك أبدا فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وعن مسروق رضي الله عنه أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لرسول الله ﷺ : ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا ، فأنزل الله تعالى الآية .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء الأسود إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إنك لأحب إلي من نفسي وأهلي وولدي ، واني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك ، فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل عليه السلام بالآية (١) .

(١) أسباب النزول ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، تفسير الألوسي ج ٥ ص ٧٥ .

(٣٢٧)

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما أمرت الآيات السابقة بطاعة الله ورسوله وعرفت أن الله أرسل رسوله ليطاع بأمر الله ، وأن الإيمان لا يتم إلا بهذه الطاعة التي تجلب الخير والثواب لفاعلها ، جاءت هاتان الآيتان ببيان الجزاء الحسن لمن يطيع الله ورسوله فهي مع ما قبلها في سياق واحد .

- ٣ -

موضوع الآيتين

تبين الآية أن المؤمن الذي أطاع الله ورسوله في حياته الدنيا يبعثه الله يوم القيامة ويدخله الجنة مع الصفوة الكرام من النبيين والصديقين والشهداء ، ويرزقه هذه الرفقة الحسنة جزاء صلاحه في الدنيا .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾
ترغب الآية في طاعة الله ورسوله ، والاستقامة على منهج الله تعالى ببيان مآل الطائعين عند الله تعالى .

وطاعة الله والرسول تتجلى في تطبيق الإسلام تطبيقاً كاملاً يشمل العقيدة النقية الصافية ، ويشمل الشريعة بنظمها الفردية والجماعية ، ويشمل الأخلاق بحسنها وجمالها ... إنها تعنى التطبيق الكلى للإسلام .

وقد بينت الآية جزاء المطيعين لله والرسول فقالت : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ فجاءت جملة جواب الشرط مقترنة بإلفاء لأنها جملة إسمية مصدرية باسم الإشارة "أولئك" الدال على مقامهم ، وارتفاع منازلهم .
والآية تخبر أن الله يبعث الذين أطاعوا الله والرسول ، ويدخلهم الجنة مرافقين أكرم الخلق عند الله تعالى ، وينالون ما ينالونه .

﴿ مِّنَ النَّبِيِّينَ ﴾ بيان وتوضيح للذين أنعم الله عليهم ، وأسكنهم في مقام كريم عنده يليق بهم .

والأنبياء هم الذين حملوا رسالة الله للناس ، وقد كملهم الله بالعلم والعمل وجعلهم يفيضون من كمالهم بتكميل غيرهم .

﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ وهم الذين صدقوا في قولهم وفعلهم ، وصدقوا بكل الدين واتبعوا الرسل ، ولم يقولوا قولاً إلا وقد حفظوه بقلوبهم حبا ، ويعملهم طاعة ورضى ... وهم الصديقون قد سعدت نفوسهم بنور المعرفة إلى مراقى العرفان حتى أطلعهم الله على أنوار قدسه ، فهم ينظرون بنور الله ، وينطقون بتوفيق الله ، ويعيشون في معية الله تعالى ، وهذه منزلة أصحاب رسول الله ﷺ .

﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ يلون الأنبياء في النعيم ... ولولا الوحي لكانوا مرتبة واحدة ، ولذلك ألحقهم الله بهم .

﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ وهم الذين لازموا شهادة الحق ، وعاشوا بها ، وطبقوا منهجها ، ووصل بهم الإخلاص لها إلى الموت من أجلها لتعلو على ما عداها من كلام الضلال والكفر .

﴿ وَالصَّالِحِينَ ﴾ جمع صالح ، وهو من خلص من كل فساد ، وبعد عن كل نقص ، وصرف عمره في طاعة الله ، وبذل أمواله في سبيل الله ، وتميز قوله وعمله بالتقوى والصلاح .

يقول الشيخ محيي زاده : وليس المراد أن الكل في درجة واحدة لأن هذا يقتضى التسوية بين الفاضل والمفضول في الدرجة ... وهذا لا يجوز . والمعنى المراد أن الأرواح الناقصة إذا استكملت علائقها مع الأرواح الكاملة في الدنيا ، وارتبطت بها حبا جارفا ، وهياما مسيطرا ، ثم انتقلت هذه الأرواح بعد كمالها

(٣٢٩)

إلى الآخرة فإنها تلتقى بما تعلقت به من أرواح في الجنة التي يستحقونها فيتمتعون ، ويتزاوون ، ويجلسون معا^(١) .

ولا يمنع أن يصل المنعم عليهم إلى أعلى عليين لأن الأرواح الناقصة في الدنيا تستطيع أن ترتقى ، وتسمو بالطاعة إلى أفق الأرواح العالية ، وحينئذ يصير الارتقاء ممكنا .

وعلى هذا تكون المعية شاملة للحس والمعنى .
والآية ترغب المؤمنين في طاعة الله ورسوله لينالوا هذه الحظوة التي يتمناها لنفسه كل عاقل .

إن العاقل لا يقصر في أى طاعة ليكون في الجنة مع هذه الصفوة العالية الكريمة .

﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ والإشارة إلى هؤلاء الرفقاء ، وأنعم بهذه الرفقة في الجنة فحسنها جمال ، ومنزلتها عالية ، وصحبته شرف وسؤدد ، والرفيق هو المصاحب الذى يعينك ، وتعينه ، وبينهما ملازمة دائمة ، والآية تعجب من كثرة الحسن والبهاء . والمعنى ما أجمل هذه الرفقة ، وما أحسنها !!
﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اسم إشارة لجميع ما قدره الله تعالى للمطيعين .

﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى أن هذا الجزاء العظيم الذى يستحقه الطائعون هو عطاء من الله تعالى ، ورحمة منه سبحانه وتعالى .
﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ أى وعلم الله كاف في معرفة من يستحق العطاء ومن لا يستحقه .

(١) حاشية محي الدين شيخ زاده ج ٢ ص ٤٩ .

(٣٣٠)

- ٥ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان الفوز الكبير الذى يناله الطائعون المستقيمون على منهج الله ورسوله ، فقد أعد الله لهم نزلاً كريماً ، ورقة حسنة في الجنة ، إذ يحييهم في صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين كل في صحبة من أحب ، وهذه الرقعة الراقية لمن يستحقها من الصالحين وفى علم الله الرحيم .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الإسلام دين الحب الخالص

الإسلام دين التعاون ، والتلاقى ، وتوحد المشاعر والأهداف ، فهو ينشئ المسلم على حب الله ورسوله ، وحب أهله وجيرانه ، واخوانه وسائر الناس .
يقول الله تعالى :

- ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾^(١) .
- ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾^(٢) .
- ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾^(٣) .

ويقول النبي ﷺ :

- "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار"^(٤) .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

(٢) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ٧١ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب الإيمان . باب حلاوة الإيمان ج ١ ص ٢٦ .

– "مثل المؤمنين في توادهم ، وتعاطفهم ، وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر"^(١) .

وقد تلاقى المسلمون الأول على هذا الحب فتعلقوا بالله طاعة وذكرًا ، وارتبطوا برسول الله ﷺ ارتباط الروح بالجسد لدرجة أنهم وهم في الدنيا تصوروا أن الموت سيفصلهم عن رسول الله ﷺ ، وأن مقام رسول الله في الجنة أعلى منهم فبكوا وشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فطمأنهم بهذه الآية التي نزلت تفتح لهم باب الأمل في مصاحبة رسول الله ﷺ ومرافقته في الجنة .

وقد بين سبب النزول مدى حب الصحابة لرسول الله ﷺ ، والأحاديث في ذلك كثيرة :

– جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون ، فقال له النبي ﷺ : "يا فلان مالى أراك محزوناً ؟

فقال : يا نبي الله شئ فكرت فيه .

قال ﷺ : ما هو ؟

قال : نحن نغدوا ونروح عليك ، وننظر في وجهك ونجالسك ، وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك . فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت الآية فبشره النبي بها"^(٢) .

– وعن ربيعة بن كعب السلمى رضي الله عنه قال : كنت أبيت عن النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته . فقال لى : سل .

فقلت : يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة .

قال النبي ﷺ : أو غير ذلك ؟

قلت : هو ذاك .

قال ﷺ : فأعنى على نفسك بكثرة السجود"^(٣) .

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب . الحديث الثالث عشر ج ١ ص ٦ .

(٢) في ظلال القرآن ج ٢ ص ١٧٤ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الصلاة . باب فضل السجود ج ٣ ص ٤٠ .

- وسئل النبي ﷺ عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم !! فقال ﷺ : المرء مع من أحب . فما يفرج المسلمون فرحهم بهذا الحديث^(١) .
- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "إن أهل الجنة ليتراون أهل الغرف من فوقهم كما يراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم .
- قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم .
- قال ﷺ : بلى . والذي نفسى بيده رجال آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين"^(٢) .
- إن الحب في الإسلام قائم على معالم ثابتة تشمل العقل والعمل ، والعواطف ، والوجدان ، ويناله من يعمل له ...
- ومن رحمة الله أن جعل الجنة درجات ، والرفقة مقامات لينال كل عامل ما يستحقه ، وليعيش المسلم في دنياه محبا ودودا ليسمو ويرتقى .
- عجيب من أناس يصورون الإسلام قسوة وغلظة ، ويصورونه حدا ، وقتلا ، وتدميرا ...
- وكذبوا ...
- لأن العقوبات في الإسلام تصنع الحب لأنها تبعد المسلم عن العدوان أصلا ، وتضعه في أمن وسلام بين غيره من الناس .
- ألم يعلم هؤلاء أن العقوبات تنظف المجتمع من الفساد ، وتطهر الجماعة من المفسدين ؟!
- ألم يأخذوا عبرة من كافة النظم الحديثة فهي تشرع العقوبة كما تشرع نظام الحياة ؟ ولم ير أحد أنها قسوة !!!
- إن الإسلام يجعل الحب في الدنيا بداية لاستمراره في الآخرة ، وهذا كاف في الحرص عليه .
- إن الإسلام نادى بالحب في الأسرة وبين الزوجين ، وبين الآباء والأبناء وبين الجيران والأهل ، وبين المسلمين أجمعين ... والحمد لله .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٥٧ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق . باب ما جاء في صفة الجنة ج ١١ ص ٣٣ .

(٣٣٣)

الركيزة الثانية **أهمية استنفاض المم**

إن مقامات الحب عديدة ، وبابها مفتوح لمن دخله ، ولوج الدار ميسر لمن رغب فيه .

وعلى المسلمين أن يشدوا عزائمهم ليصلوا إلى درجات القرب بالطاعات ، ويرافقوا رسول الله ﷺ .

وتلك فرصة كبرى أن يجد المسلم الطريق إلى العيش مع رسوله الله ﷺ ... إن الآية توضحه ، وتبين الطريق وهو أن يصل المؤمن بالطاعة إلى السعادة بها والاتصال بالملا الأعلى ، والإحساس بالفيوضات تأتي عقله بالهدى ، وتعم روحه بالأمن ، وترتبط مشاعره بمولاه سبحانه وتعالى .

إن مرافقة رسول الله ﷺ في الجنة أمنية غالية جعلت صحابة رسول الله ﷺ يكون خوفا من الموت لأنه يحرمهم من الصحبة الكريمة ... فكان أن طمأنهم الله تعالى وعرفهم بالحياة مع رسول الله ﷺ في الآخرة .
ألا ...

فليتنافس المتنافسون ، ويعمل العاملون .

الركيزة الثالثة **الخير كله من الله تعالى**

كل أعمال الإنسان لا توصله للخير فهو مدين لله بخلقه ، ووجوده ، وبالنعمة من حوله ، ومهما عبد وأطاع فهو يسدد ما عليه .

إلا إن رحمة الله واسعة وفضله عميم ، يفيض به على عباده المطيعين فيحيطهم بالكرم في الدنيا وفي الآخرة .

وقد عرفنا الله بجريان فضله على المستحقين له بعلمه ورحمته ، ليعلم الجميع أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

(٣٣٤)

الدعوة إلى الجهاد وأخذ الحذر

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا
جَمِيعًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد ان بينت الآيات السابقة دعائم المجتمع المسلم كأداء الأمانة ، واقامة العدل ، والرجوع إلى كتاب الله تعالى ، وطاعة الله ورسوله ، والجزاء الحسن للمؤمنين ، جاءت هذه الآية لبيان ما يجب على المسلمين إزاء غيرهم من الناس ، وأخذ الحذر من عدوهم ، وتهيئة المسلمين للقيام بدورهم في نشر دين الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآية

تأمر الآية المؤمنين بأخذ الحذر ، والاستعداد للخصوم ، وعدم التردد في القتال إذا وجدت دواعيه ، ونادى منادى النفير له .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ هذا نداء للمؤمنين مصاحب للتنبيههم على أمر هام يناديهم ... وخصهم بالصلة الدالة على إيمانهم ليكون ادعى لاستجابتهم .
﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ أى استعدوا وتأهبوا لأعدائكم ، واضبطوا أمور حياتكم لتكونوا مستعدين لهم . والحذر هو اليقظة والاحتراز ، والاستعداد بكافة صوره ومنه إعداد العدة العلمية ، والقتالية ، والتدريب ، وعدم الإقدام على العدو

غافلين ، لا تعلمون عنه شيئاً ، ولا بد من العلم بأحوال العدو بالتجسس عليه ، ومعرفة قوته وعدته ، ومواجهته بما يحقق النصر والغلب ، والوصول لما يريدون من الجهاد .

إن الجهاد في العصر الحديث يعتمد على السبق العلمي ، والمعدات المخترعة ، والصواريخ ، والطائرات ، وغير ذلك من أدوات القتال ... وأخذ الحذر يحتاج إلى الاستعداد بذلك كله .

وقد نادى الله المؤمنين ، وحثهم على الجهاد ، وأمرهم بشينين رئيسيين له :
أولهما : أخذ الحذر وذلك يكون في مرحلة السلم قبل الحرب حتى لا تحدث لهم مفاجأة من عدوهم ، وهو مبين بقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ ^(١) .

وان من أخذ الحذر معرفة أحوال البلاد الإسلامية ، ومعرفة أحوال العدو ومعرفة من يتوقع منهم العدوان ، بحيث إذا اضطر المسلمون للحرب كانوا عالمين بآماكن القوة والضعف عند الأعداء ... ومن الحذر معرفة الأسلحة ، واقتنائها ، وحسن استعمالها ^(٢) ... لأن ذلك كله ضرورى في جهاد اليوم ، ولقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لخالد بن الوليد رضي الله عنه حين بعثه لحرب اليمامة : حاربهم يمثل ما يحاربونك به .

ثانيهما : الأمر بالنفير ، وهو الخروج للقتال ، وحراسة الحدود ، وقد حددت الآية طريقة النفير فبينت أنه يأخذ أحوالا متعددة فقال تعالى .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .
 (٢) زهرة التفاسير ج ٤ ص ١٧٥٧ .

(٣٣٦)

﴿ فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ أى اخرجوا للقتال جماعات جماعات أى سرية خلف سرية ، أو اخرجوا جميعا بالجيش كله مرة واحدة ، ولا ينبغي أن تخرجوا للحرب فرادى فيهزمكم عدوكم .

يقول القاضى البيضاوى رحمه الله : والآية وان نزلت في الجهاد والحرب لكن إطلاق لفظها على المبادرة إلى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل فوات الأوان^(١) ... ومراده رحمه الله أن المسلمين مطالبون ببذل الجهد ، وعمل ما بطاقتهم في كافة مجالات الحياة لتحقيق لهم القوة التى تمكنهم من الصمود والغلب .

إن الجهاد اليوم يحتاج إلى العلم ، والتفوق الصناعى ، وإيجاد المخترعات وتهئية الرجال ، وتعبئة النفوس والعقول ، وهو الذى يحتاجه المسلمون اليوم .

- ٤ -

معنى الآية

ينادى الله المؤمنين ويأمرهم باليقظة ، والاستعداد ، ومراقبة العدو حتى لا يفاجئهم بالعدوان ... وعليهم مع إعداد العدة والعدد أن يخرجوا لملاقاة العدو في صور تناسب ميدان المعركة وظروفها ... فإن ناسبت السرايا خرجوا بها ، وان احتاجت المعركة إلى الجيش كله فليكن ذلك .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتناول الآية ركيزة هامة ... هى :

الإسلام دين الحياة

لم تقتصر تعاليم الإسلام على العبادات وحدها ، ولم يقسم شئون الحياة ليجعل جزءا للناس ، وجزءا للملك ... وانما أتى تشريع الإسلام شاملا لكل أمور الدنيا والآخرة ، وجاء لكل جانب بتشريع .

(١) تفسير البيضاوى ج ٢ ص ٤٩ .

(٣٣٧)

والآية تشرع الجهاد وتدعو للاستعداد له ، وتبين طريقة الخروج للقتال بحيث لا يخرج المسلمون للقتال فرادى ، وعليهم أن يخرجوا للقتال إما سرايا متتابعة ، أو بالجيش كله تبعا لظروف العدو وملابسات المعركة .
وهكذا ...

ندرك شمولية الإسلام ، وتشريعه لكل حاجات الناس .

المنافقون والجهاد

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ ﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِئَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

بعد أن أمرت الآية السابقة بالجهاد وضرورة أخذ الحذر عند ملاقة العدو جاءت هذه الآية لتبين موقف المنافقين من الجهاد ، وقعودهم عنه .

- ٢ -

موضوع الآيتين

الآيتان تبيانان موقف المنافقين من الجهاد فهم يثبطون همة المؤمنين بمزاعم ومبررات واهية ، ويقعدون عن القتال منتظرين نتيجه ، فإن انهزم المسلمون ، وحلت بهم مصيبة وكثر فيهم الموت قالوا : أنعم الله علينا بعدم الخروج وان لا قتلنا ... وان انتصر المسلمون وغنموا ندموا وقالوا : يا ليتنا كنا معهم لنفوز ونغنم ، وكأنهم بحديثهم لا يعرفون شيئا عن المؤمنين مع أنهم منهم ويعيشون وسطهم .

(٣٣٨)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ ﴾ هذا خطاب للمؤمنين لبيان أن بعضهم منافقون أو ضعاف الإيمان .

﴿ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ ﴾ يبطئ بمعنى يتثاقل عن الحركة ويميل إلى غير ما يدعوا إليه ، واللام الأولى للابتداء دخلت على اسم إن لفصل الاسم عن خبره المتقدم ، واللام الثانية للقسم المحذوف ، والتقدير : وان منكم لمن أقسم بالله ليبطئن بكم ، ويقعدون عن القتال .
وضرر هؤلاء المنافقين أنهم يحاولون صرف المسلمين عن الجهاد ، وتخويفهم منه ، ونشر روح الهزيمة والانكسار بينهم .

﴿ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ أى إن حلت بكم هزيمة وانكسار .
﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ ﴾ أى قال المبطئ : أكرمنى الله بالقعود عن الجهاد فلم أصب بما أصيبوا به .
﴿ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ أى أكرمنى الله بأن أبقانى قاعدا ولم أشاهد القتال واشترك فيه معهم .

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى إن تحقق لكم نصر وغنمية .
﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ ﴾ أى أن هذا المنافق يسارع إلى الندم عند حصول النصر والغنمية ، ولذلك جاء قوله مؤكدا باللام والنون في قوله : ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ للإشارة إلى فرط تحسره ومقول : ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ ، قوله تعالى : ﴿ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ ﴾ وما بين الفعل والمقول اعتراض لا محل له من الإعراب .

والآية تفيد انقطاع هذا المنافق عن المؤمنين الذى يعيش بينهم ، وتبين مدى عداوته لهم ، لأنه إذا وقعت للمسلمين نكبة أظهر السرور والفرح لأنه لم يكن معهم وان غنموا وانتصروا أظهر الغم الشديد بسبب فوات الغنيمة منه ، وهذه المعاملة لا يقدم إنسان عليها إلا مع أعدائه ، وخصومه الغرباء عنه ، لأن الإنسان إذا أحب غيره فرح لفرحه ، وحزن لحزنه ، وهؤلاء المنافقون فعلوا عكس ذلك ، ولذلك جاء الاعتراض قبل تمام الكلام لإظهار التعجب من هؤلاء المنافقين الذين يعيشون وكأنهم لا يعرفونكم ، ولا تعرفونهم ، ولم يحدث بينكم لقاء ولم يكن بينكما مودة ، وهذا موقف غريب بسبب ما لديهم من عداوة وكراهية .

﴿ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أى يقول المنافق إذا انتصر المؤمنون لو كنت معهم في القتال لفزت بالمال والغنيمة ، ودل وصفه الغنيمة بالفوز الذى وصفه بالعظمة على مدى حبه للمال ، وحرصه على ماديات الدنيا وشهواتها .

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾

يشرون بمعنى يشترون ، والذين يشترون الحياة الدنيا ويبيعون الآخرة هم المنافقون الذين تحدث عنهم الآيات السابقة ، ولذلك يأمرهم الله عقب تباطئهم ومحاولة صرف المجاهدين عن الجهاد ، وينصحهم بما هو أولى لهم ، وأكثر نفعا من غيره ، وهو أن يخلصوا لله نياتهم ويخرجوا للقتال في سبيله .

والفاء فى قوله : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ ﴾ للدلالة على مداومة نصح الله لهم عقب تقاعسهم ، واللام للأمر داخلة على الفعل المضارع للدلالة على استمرار دعوة الله ، وأمره لهم بما يفيدهم ، وهو الجهاد .

وقيل : إن الأمر في قوله : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ ﴾ هو للمؤمنين الصادقين ويشرون على ذلك بمعنى يبيعون . والمعنى : فليجاهد في سبيل الله المؤمنون الصادقون الذين يبيعون الدنيا ، وما فيها ويشترون ثواب الآخرة .

ويمكن أن يكون الأمر للمؤمنين ، ويشرون بمعنى يشترون على أن تكون :
﴿ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ مفعولا لقوله فليقاتل ، والمعنى :
فليقاتل المؤمنون الصادقون الكافرين الذين يشترون الدنيا ويبيعون ثواب الآخرة .
والآية تحتمل كل هذه المعاني ، ولذلك لا مانع من إرادتها جميعا حيث
لا تعارض بينها .

﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾
والجملة شرطية جاءت لبيان ما في الجهاد من فضل وأجر ، لأن
المجاهد في سبيل الله ينال أجرا كبيرا ، وثوابا عظيما بنيته إن فاز أو انهزم ،
لأنه إن فاز عاد بأجر ، وغنيمة ، وإن انهزم عاد بأجر وثواب ، وإن قتل صار
شهيدا يحيا عند ربه ويرزق .

إن من يجاهد صادقا ينال أجرا عظيما ، ويفوز فوزا كبيرا . يقول النبي
ﷺ : "تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي ، وإيمان
بى ، وتصديق برسلى ، فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى
مسكنه الذى خرج منه ما نال من أجر أو غنيمة" (١) .
ورحمة الله شاملة ، ودعوته عبادة للاستقامة مهما بعدوا مستمرة ، وفى
النهاية يسعد الصادقون بنصر الله وجنته .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيتان أن بين المؤمنين يوجد منافقون يقعدون عن القتال والجهاد
ويثبطون همة المجاهدين بمختلف الوسائل متعمدين ، وينتظرون نتيجة القتال
فإن انهزم المسلمون فرح المنافقون لعدم اشتراكهم في القتال ، ويرون ذلك نعمة

(١) المجموع شرح المذهب - كتاب السير ج ١٩ ص ٢٦٨ .

(٣٤١)

من الله لهم ، وان انتصر المسلمون ندموا ، وأصيبوا بالغم لفوات الغنيمة ويتحسرون على ذلك فقد ضاع منهم مال سموه فوزا عظيما ، وخير لهم أن يقاتلوا في سبيل الله تعالى لينالوا ثواب المجاهد الصادق الذى ينال الأجر العظيم غلب وانتصر أو انهزم وخسر ، لأنه إن فاز فقد عاد بأجر وغنيمة ، وان انهزم فقد رجع بأجر وشهادة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الواقعية أساس الإصلاح

تشير الآيات إلى واقع يعيشه الناس ، وبخاصة عند إحداث تغيير اجتماعي في الفكر والسلوك ... ولذلك يقسم الله للمؤمنين ، ويؤكد لهم وجود جماعة ، انهزامية منهم ، تعيش معهم ، تبطئ العمل ، وتخوف من الإقدام ، ولا ترى إلا نفسها في أنانية بغيضة ، وذاتية ممقوتة ، لا يعينهم الجهاد لأنه يتعارض مع نفاقهم ، وكل همهم الكسب المادى ، والاستعلاء الدنيوى بالكذب والباطل .

هؤلاء هم المنافقون بين المؤمنين ، يقعدون عن الجهاد ، فإن انهزم المجاهدون ذكروا أن الله أنعم عليهم بعدم الذهاب للقتال ، وان انتصر المسلمون تحسروا وقالوا : يا ليتنا كنا معهم لنريح أموالا من الغنائم معهم فهى أحلامنا وكل أمانينا ، وهو الفوز الكبير الذى نرجوه .

إن الله سبحانه أنزل دينه للناس ليصلح واقعهم ، فهو خبير بهم ، ولذلك نصح هؤلاء المنافقين فوضح خطأهم في بيعهم الآخرة بما فيها من ثواب وعقاب وجنة ونار ليشتروا الدنيا الزائلة بما فيها من متع قليلة زائلة وأموال لا تساوى شيئا .

(٣٤٢)

وبعد ذلك نصحهم بأمر دائم سريع ، وهو أن يقدموا على الجهاد ، ويتركوا تخويف غيرهم منه ، ويجعلوا قتالهم خالصا في سبيل الله تعالى .
ثم عرفهم بالثواب الكبير والأجر العظيم الذى أعده الله للمؤمنين المجاهدين مهما كانت نتيجة القتال .

إن المجتمع الإسلامى لا يخلو من هؤلاء المبطنين ، ببواعثهم وسلوكهم ولذلك يقسم الله على وجودهم بين المؤمنين ، ويؤكد ذلك بـ ﴿ إِنَّ ﴾ لبيان أنهم ﴿ مِنْكُمْ ﴾ ، ولام لتوكيد في ﴿ لَمَنْ ﴾ والقسم المحذوف ، ولام القسم في ﴿ لَيُطِئَنَّ ﴾ لتكونوا أيها المسلمون على حذر منهم ، وتعملوا على إصلاحهم .

إنهم يتصفون بما يلى :

- (أ) منافقون لا يخجلون من الكذب على الله والناس .
 - (ب) اهتماماتهم تافهة ، وكل أحلامهم المال وشهوات الدنيا .
 - (ج) أنانيون لا يعملون إلا لأنفسهم ، ولا يهتمون بغيرهم .
 - (د) جراه في الوقاحة ، فهم لا يذكرون نعم الله عليهم ، ولا يطيعونه ، ومع ذلك يذكرونه فقط عند نجاتهم من الموت .
 - (هـ) يفضلون الدنيا على الآخرة ، ويبيعون العظيم بالحقير .
 - (و) يعيشون مع المؤمنين فهم منهم نسبا ، وسكنا ، وان خالفوهم في الإيمان .
- إن الإسلام يعيش الواقع ، وهو يدعو ويوجه ... ولا يأخذ الناس إلى عالم خيالى ملائكى لا يستفيد إنسان الواقع منه شيئا .
- ومن هنا ...

نؤكد على الواقعية في المواجهة ، وفى البناء ، وفى السمو ، لأنها تعنى الاعتماد على أسس متينة ، والتعامل مع إنسان خلقه الله بعناصر مادية وروحية .

ونقول للدعاة :

عيشوا واقع الناس ، واعرفوا أمراضهم وعللهم ، وحاولوا اختيار الأسلوب المناسب ، واتباع الطريق الأجدى .

لا ينفع الناس مسايرة المنافقين وان كانوا كبارا ... ولا يصح في دين الله إهمال الأمراض الاجتماعية لأنها تنتشر ، وتعم ... ولا ينبغي للدعاة أن يستكينوا ، ويقعدوا ، والدنيا كلها تتحرك .

الركيزة الثانية **المنافون هم أعداء المسلمين**

يتصور البعض أن أعداء المؤمنين هم الكافرون والمشركون وحدهم ... وليس الأمر كذلك فمعهم غيرهم من الأعداء ، وعلى رأسهم المنافقون الذين يعيشون بين المؤمنين ، ويساكنونهم ، ويعلمون أسرارهم وحياتهم ... ومن هنا كان العدو المداجى أخطر من العدو الظاهر .

إن الأعداء الخارجيين لا يتمكنون من المسلمين إلا بواسطة هؤلاء المنافقين ، ولذلك يحاولون إيجاد هذا الصنف من الناس ، وسط الأمة ، وبواسطتهم ينشرون الإشاعات ، ويذيعون الفكر المنحرف ، ويبثون الأراجيف ويعملون على إبطال الجهاد ، وتعطيله .
وعلى هذا ...

يجب كشف هذه الطائفة الموجودة بين المسلمين لأخذ الحذر منهم ، ومحاولة إصلاحهم ... لأنهم إذا وجدوا بين الناس كثر ضررهم ، واشتد خطرهم .
وهنا أمر نحذر منه وهو أن أعداء الأمة يعملون على إيجاد طائفة تنتشيع لهم ، وتتوقف بثقافتهم ، وتتحو نحو مذهبهم في إبعاد الإسلام عن الحكم وقصره على العبادات فقط ، وادخال فكرة أنه لا دين في السياسة ، ولا سياسة في الدين ، وأن على كل إنسان أن يدع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

(٣٤٤)

إن هذه الطائفة بفكرها المذكور لا تساعد الأمة المسلمة على التقدم ، ولا ترفع راية الإسلام بين الناس ، ولا تعمل على إنشاء جيل إسلامي خالص .
إن الإسلام محدد المعالم ، واضح التعاليم ، معروف بتفاصيله وبيانه ،
والمؤمنون هم متبعوه ، والمنافقون هم المنصرفون عنه ، المعارضون لتعاليمه ،
المدعون تمسكهم به ... ولقد عرف الله بهم ليتعامل معهم المؤمنون بما يفيدهم ،
وبما لا يمكنهم من إضرار غيرهم .

الركيزة الثالثة **استمرارية الدعوة**

الدعوة إلى الله تعالى منهج باق إلى يوم القيامة ... وعسى أن يتمكن
الدعاة والمصلحون من هداية الناس .
لقد عرف الله بالمنافقين وحذر منهم ومع ذلك دعاهم إليه ليتوبوا ، وبقاتلوا
في سبيله مخلصين ، ورغبهم في ثوابه الجزيل إن صدقوا في جهادهم ماتوا أو
انتصروا .
إن توبة الإنسان يقبلها الله تعالى في أى وقت من العمر ما لم يأت الموت .
ومن هنا ...

نرى وجوب استمرارية الدعوة إلى الله تعالى تذكيرا للمؤمنين ، وأملا في
توبة المنافقين والعصاة ، وسبيلا إلى دخول الناس في دين الله أجمعين .
وهذا الواجب مسئولية الأمة الإسلامية كلها ، وعلى رأسها العلماء والدعاة.

وجوب الجهاد

يقول الله تعالى :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٧٦) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (٧٧) .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

الآيات السابقة دعت إلى الاستعداد للقتال ، وابعاد المثبطين عنهم ، وجاءت هاتان الآيتان لبيان واجب الجهاد وبيان شرف مقاصده وغاياته .

- ٢ -

موضوع الآيتين

الآيتان تتحدثان عن وجوب الجهاد ، وعدم وجود سبب يمنعه ، وبيان غاياته الشريفة ، فهو لإنفاذ الضعفاء من الرجال والنساء والولدان ، واعلاء كلمة الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هذا أمر بالقتال يوجبه الله على المؤمنين ، وجاء الأمر بصيغة الفعل المضارع مسبوقا باللام ﴿ فَلْيُقَاتِلْ ﴾ لبيان استمرار

هذا الواجب ... ودلت الفاء في ﴿ فَلْيُقَاتِلْ ﴾ على المسارعة في القيام بهذا الواجب ، والقتال في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا ويدخل فيه نصرة الحق ، ومحاربة اتباع الباطل وأنصارهم .

﴿ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ معنى يشرون يبيعون . والمعنى : فليقم الصادقون في الإيمان الذين يبيعون الدنيا ليفوزوا بالآخرة ، ويدفع حياته للحق ، والتمكين لدين الله تعالى .

﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى هذا المجاهد الصادق يفوز حتما سواء قتل أو غلب ، لأنه إن قتل سيكون شهيدا يحيى عند ربه في جنات النعيم ، وإن انتصر وغلب سينال غنيمة ، وله عند الله ثواب كبير .

وأجر المجاهد عند الله عظيم على ما قدم وهذه العظمة يقدرها من صنعها لأصفائه ومطيعيه .

يقول النبي ﷺ : "تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيله ، وإيمان به ، وتصديقا برسلى ، فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر وغنيمة" (١) .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ ﴾ أى ما الذى يمنعكم عن الجهاد ، ويجعلكم لا تقاتلون في سبيل الله .

و "ما" مبتدأ خبره "لكم" و ﴿ لَا تُقَاتِلُونَ ﴾ حال من ضمير المخاطبين . والمعنى : ما الذى استقر لكم فصير حالكم غير مقاتلين .

(١) صحيح البخارى . كتاب فرض الخمس . باب أحلت لى الغنائم ص ٦٢٧ ط . الوفاق .

والاستفهام لإنكار هذا الحال ، ودعوة إلى الجهاد الذى أوجبه الله تعالى على المؤمنين ، وحدد لهم غاياته ، وأهدافه ... وأهم أهداف الجهاد الإسلامى هى :

(أ) ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والمراد به القتال لتكون كلمة الله هى العليا ، وذلك

بحماية الدعاة ، وفتح مسار الحرية أمام حركة الدعوة ، ومقاتلة الصادين عن دين الله تعالى ، وسبيل الله يعم كل أبواب الخير .

(ب) ﴿ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ أى أن القتال كما هو فى سبيل الله فهو أيضا فى

سبيل تخليص المستضعفين من الظلم الذى يلاقونه من الطغاة والمعتدين .

﴿ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ بيان للمستضعفين وهم الذين بقوا

فى مكة ، وقد حبسهم أهل مكة من الهجرة ، وصدوهم عن الخروج من مكة مع إلحاق مختلف ألوان الأذى بهم .

وبيان المستضعفين مثير للعقول والمشاعر ، فالشيخ الكبير الذى لا يمكنه الدفاع عن نفسه ، والمرأة الكسيرة الضعيفة أكثر عجزا من الشيخ ، ومعهما الولد الضعيف ... كل هؤلاء تدعو المروءة والنخوة العربية إلى ضرورة الدفاع عنهم ، وحماية عقيدتهم ودينهم .

فإن قيل : الولد الصغير لم يصل إلى حد الاستذلال والابتلاء ، فلم عدته الآية من المستضعفين ؟

جاء ذكر الولد فى المستضعفين للحث على قتال المعتدين ببيان تناهى ظلمهم حتى وصل أذاهم إلى الصغار وهم بذلك يرغمون أباءهم ، وأمهاتهم على عدم الخروج من مكة ... ولقد كان الضعفاء يتوجهون إلى الله بالدعاء عل الظالمين ومعهم أبناؤهم الصغار لأنه أرجى للإجابة .

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ وهذا

هو دعاء الضعفاء لله ، ينادونه بأن يخرجهم من مكة ليهاجروا إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة ، ونلاحظ فى دعائهم بعض الملاحظات ... أهمها :

(١) أنهم يتجهون إلى الله تعالى في صورة جماعية ، فهم يقولون ، ويرجون وينادون .

(٢) يؤمنون بأن الله سبحانه هو الفاعل لكل شئ ، وهو سبحانه الذى سيخرجهم مما هم فيه من ظلم وعدوان ، وسبيلهم إلى الله هو الدعاء .

(٣) يحافظون على قداسة مكة ، ولذلك لم يذكروا اسمها في مجال الظلم والعنت ، واكتفوا بالإشارة إليها بقولهم : ﴿ هَذِهِ الْقَرْيَةُ ﴾ وهم يقصدون مكة المكرمة ... ولما عبروا عن الظلم الذى يلاقونها فيها نسبوه إلى أهلها فقالوا : ﴿ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ .

﴿ وَأَجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ أى اجعل لنا يا ربنا وليا من عندك يتولى أمرنا وشئوننا .

﴿ وَأَجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ ينصرنا على أعدائك الذين يصدون عن سببك ، ويمنعوننا من الهجرة .

وقد استجاب الله دعاءهم ففتح الله عليهم مكة ، وانهزم الكفار والضلال وتولى أمرهم عتاب بن أسيد ؓ فقد ولاه رسول الله ﷺ أمر مكة حين رجوعه إلى المدينة المنورة ، وكان عمره يومذاك ثمانية عشر عاما ، فقام فيهم بالعدل وتطبيق شرع الله تعالى .

- ٤ -

معنى الآيتين

يبين الله تعالى أن الجهاد فرض يقوم به المؤمنون الصادقون الذين أعد لهم سبحانه وتعالى الأجر العظيم ، ويستفهم الله من المؤمنين منكرا قعودهم عن القتال فلا وجود لمانع يمنعهم من القتال لصيانة القيم ، وحماية الكرامة ، ونشر الإسلام فهو لإعلاء كلمة الله ، وتخليص الضعفاء من الرجال والنساء والأولاد

الذين يدعون الله ليخرجهم من مكة التي ظلمهم أهلها حتى يتمكنوا من الهجرة إلى المدينة المنورة ، وقد استجاب الله دعاءهم وتولى أمرهم ففتح المسلمون مكة المكرمة وولى أمرها من قبل رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد رضي الله عنه .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

سمو أهداف الجهاد الإسلامي

شرع الله الجهاد في إطار شريعة الله تعالى ، والبعض يتهم الجهاد بالعدوانية ، ومنع الحرية ، واجبار الناس على غير ما يريدونه ... الخ .

والجهاد من كل ذلك برئ ... لأنه يحافظ على الحرية ، ويحقق الكرامة ويصون العزة ، والخلق الكريم ... وعلى هذه الحقائق أدلة عديدة ... منها :

(١) أدلة مشروعية الجهاد تؤكد أنه شرع للقضاء على الظلم والعدوان ، ومن

هذه الأدلة قوله تعالى : ﴿ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا

يُقَتِّلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ ^(١) . ويقول سبحانه : ﴿ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ

فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٢) .

(٢) الجهاد موجه إلى المقاتلين وحدهم ، فلا قتال ضد شيخ أو امرأة ، أو

صبي ، أو رجل دين ما لم يقاتلوا .

(٣) أهداف الجهاد منحصرة في كونه في سبيل الله ، ويراد بسبيل الله كل خير

، وما عدا ذلك فهو بعيد عن القتال المشروع .

(٤) السلام ركن أساسي للجهاد ، ولذلك عد الإعداد جهادا لأنه يمنع العدوان

ابتداء .

(١) سورة التوبة ، الآية ٣٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٣ .

(٣٥٠)

ولكن ... لم يقوم المسلمون وحدهم بهذا الدور الجهادي ؟

إن الله سبحانه وتعالى جعل دينه الخاتم أمانه تحملها المسلمون ، وعليهم أن يبلغوا الإسلام لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، إلا أن الكافرين والضالين يأبون ذلك ، ويصدون الناس عن دين الله تعالى ، ولذلك وجب الجهاد على من تحمل أمانة الدعوة إلى الله تعالى لرد الهجمات الموجهة ضد الإسلام والمسلمين .

إن الحق يحتاج إلى قوة تقويه وتحميه ، ولولا ذلك لضاع الحق ، وانتهى ... وليس ذلك بدعا في حياة البشر ... فلقد توصلت الدول الكبرى في العصر الحديث إلى إعداد جيوش ، وقوى أممية لحماية ما يرون من مبادئ ونظم في دول العالم المختلفة ، ويسمونها "قوى السلام" ، و "قوى الفصل" وهي اليوم منتشرة في العالم كله .

فإذا ما دعا الإسلام إلى الجهاد حرّموا عليه ما أحلّوه لأنفسهم مع أن ما في الإسلام هو حكم الله ، ونشاطهم واستعمارهم هو حكم الطاغوت ... وإن ضعف المسلمين وخذلانهم بين الأمم أخفى نظام الجهاد الإسلامي وغيبه ويمكن لأعداء الإسلام من تشويبه ، وصرف الناس عنه إلا أن الحق يبقى هو الحق ، ولن يثبت الباطل طويلا وإن رفعه المبطلون أعداء الله تعالى .

الركيزة الثانية

المؤمنون في كنف الله تعالى

عاش المسلمون في مكة بعد الهجرة ضعفاء مستذلين ، ولكنهم كانوا يعيشون معية الله تعالى ، وكانوا يؤملون من ربهم لينقذهم من ظلم المكّيين وجبروتهم ، وسألوه أن ينصرهم ويمكن لهم بتوفيق من عنده فاستجاب لهم . إن قلوب المهاجرين في المدينة لم تبتعد عن المحاصرين في مكة ، ولذلك بقوا متعلقين بهم حتى حقق الله النصر بفتح مكة ، وتحقيق الحرية لمن فيها ... وما النصر إلا من عند الله .

بين قتال المؤمنين وقتال الكافرين

يقول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
الطَّغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة هدف الجهاد الإسلامى جاءت هذه الآية لتوضح
الفرق بين غاية الجهاد في الإسلام ، وغاية الحرب عند غير المسلمين .

- ٢ -

موضوع الآية

تتناول الآية الحديث عن الفرق بين أهداف القتال في الإسلام فهو في
سبيل الله وأهداف القتال عند الكافرين فهو في طريق الشيطان والهوى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى أن الذين آمنوا يقاتلون
لتحقيق منهج الله ، وإقرار شريعته ، وإقامة العدل الذى يريده الله للناس ، بلا
غرض مادى ، أو أهداف استعمارية يستولون بها على خيرات الناس .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّغُوتِ ﴾ أى أن الذين كفروا
يختلفون عن المؤمنين فى أهداف القتال فهم يقاتون للشيطان ، وتحكيم الجبابة
في رقاب العباد ، والقضاء على منهج الله بين الناس .

إن المؤمنين والكفار يتعارضون تعارضا كليا في غايات القتال فكل منهما
يناقض الآخر ، وهذا يحتم ضرورة المواجهة مما يدعو إلى الجهاد لنشر دين

(٣٥٢)

الله تعالى ، وتحقيق العدل بين الناس ، وعلى المؤمنين أن يقوموا بواجبهم ، ويتحملوا مسئولية الأمانة التي آمنوا بها .

﴿ فَاقْتُلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ﴾ وهذا أمر للمؤمنين ليجاهدوا أعداء الله في

الأرض ، فهم أعداؤهم ، وهم أنصار الشيطان ، يريدون إطفاء نور الله بأعمالهم ، وأقوالهم فجاهدوهم ، واقتلوهم قبل أن يتغلبوا عليكم .

والالتفات في الأمر لبيان أهمية مقاتلة الأعداء ، وتصدير الأمر بالفاء

﴿ فَاقْتُلُوا ﴾ لبيان المسارعة في جهاد الأعداء قبل أن يزداد خطرهم ، وتشتد

قوتهم .

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ أى لا تخافوا أعداء الله ، فهم أولياء

الشيطان ، ومكر الشيطان وخداعه مهما اشتد فهو مع قدرة الله ليس بشئ ، فلا

تخافوهم ، واعلموا أنهم الأضعف ، والأذل ، والله ناصركم ومعينكم إن صدقتم في النية والجهاد .

الخوف من الموت

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

قال الكلبي : نزلت هذه الآية في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ منهم : عبد الرحمن بن عوف ، والمقداد بن الأسود ، وقدامة بن مظعون ، وسعد بن أبي وقاص كانوا يلقون من المشركين أذى كثيرا ويقولون : يا رسول الله ائذن لنا في قتال هؤلاء .

فيقول لهم : كفوا أيديكم عنهم فإنني لم أؤمر بقتالهم .
فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وأمرهم الله تعالى بقتال المشركين كرهه بعضهم ، وشق عليهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة الفرق بين قتال المؤمنين ، وقتال الكفار جاءت هذه لبيان موقف بعض المسلمين من القتال مع حثهم عليه .

(١) أسباب النزول ص ١٣٧ ، تفسير الألوسي ج ٥ ص ٨٥ .

(٣٥٤)

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين ضعف بعض المسلمين وخوفهم من القتال ، وتحثهم عليه لأن متاع الدنيا قليل ، وما في الآخرة خير وأبقى ، وعلى المسلمين أن يقدموا على الجهاد لينالوا ما أعده الله للمجاهدين مع إبراز صورة عملية ، فقد كان هؤلاء المسلمون قبل الهجرة يحاولون رد الأذى ومقاتلة كفار مكة ، وكان الرسول ﷺ يقول لهم : ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ ، فلما هاجروا ، وشرع القتال ضعفوا ، وأملوا في تأجيل الجهاد إلى أن يموتوا .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ الاستفهام في الآية للتعجب والإنكار من أمر عجيب مدهش وهو تناقض بعض المسلمين ، وقد رآه ﷺ ، فلقد كانوا يأتون النبي ﷺ قبل الهجرة يطلبون منه الإذن بقتال المكيين الذين يداومون على أذاهم ، وصددهم عند دين الله ، فكان النبي ﷺ يقول لهم : لا تقاتلوهم ولا تردوا عليهم ، وامتنعوا عن رد عدوانهم ، فإنى لم أؤمر بقتال فاصيروا ، وتحملوا ، ولا تردوا عدوانهم بأيديكم وأطيعوا الله واعبدوه . وكف اليد هو التوقف عن رد العدوان ، وعدم استعمال القوة معهم ، وقد أمر الله المسلمين في مكة قبل الهجرة بالكف عن القتال لأسباب ... أهمها : (أ) قلة عدم المسلمين في مكة فلو أمروا بالقتال لقضى الكفار عليهم جميعا . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ مَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾^(١) .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٦ .

(٣٥٥)

(ب) الدعوة السلمية في مكة أكثر نفعا ، وأجدى للإسلام ، لأن العربى يأنف العدوان ، وقدم ألف الحجيج والعمار حرمة مكة ، وعدم القتال منها ... وخاصة في الشهر الحرام ، فلو قاتل المسلمون فيها لعاداهم الناس وانصرفوا عن الاستماع إليهم .

(ج) انتشار المسلمين في القبائل المكية كلها ، فلو أمروا بالقتال لوقع القتال في كل بيت .

(د) علم الله أن أهل مكة سيصيرون جنودا للإسلام فحافظ عليهم .

(هـ) حاجة الجماعة الناشئة إلى بناء وتهيئة لابد منها لإيجاد إنسان قوى ، وجماعة قوية تتعود الصبر ، والتحمل ، وتصر مع أى اضطهاد على الحق .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أى أطيعوا الله فيما أمركم به ، وانتهوا عما نهاكم عنه .

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ ﴾ أى لما فرض الله القتال ، وشرعه الله لهم وأوجبه عليهم بعد الهجرة إلى المدينة المنورة .

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ أى ظهور جماعة من المهاجرين الذين كانوا في مكة قبل ذلك ، و ﴿ إِذَا ﴾ تدل على الدهشة والمفاجأة من ظهور هذا الفريق .

و ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ تشير إلى أن هذا الفريق من الذين هاجروا ، ويبين أنهم ضعاف الإيمان ، وليسوا من المنافقين ، لأنهم كانوا في مكة يتحرون شوقا لرد العدوان عنهم ، الأمر الذى يؤكد عدم نفاقهم ... وأيضا يمكن انضمام المنافقين إليهم في مقاتلتهم تلك .

﴿ تَخْشَوْنَ النَّاسَ ﴾ أى أن هذا الفريق انقلب حاله فأصبح يخاف من الناس إذا قاتلهم إثارا للدنيا ، وخوفا من الموت .

﴿ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أى أن خوف هؤلاء من الناس يساوى خشيتهم من الله تعالى .

﴿ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ أو أشد من خشيتهم لله ، ولذلك خافوا مقاتلتهم حفاظا على أرواحهم .

ذهب البعض إلى أن الذى يخاف من أناس كخشيتهم من الله وأشد من ذلك هو المنافق .

والأولى اعتبار أن من قال ذلك هم ضعاف الإيمان ، وانما قالوا ما قالوا : ضعفا وجبنا لا اعتقادا ، فلما قوى إيمانهم تابوا عن مقاتلتهم هذه ، وجاهدوا مع رسول الله ﷺ ... ولا مانع من دخول المنافقين معهم في ذلك ، فالقائلون بهذا القول فريق بضم طائفتين هم ضعاف الإيمان والمنافقون .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ هذا هو قول المؤمنين الضعفاء ، فهم يقرون بربوبية الله لهم وينادونه بقولهم : ﴿ رَبَّنَا ﴾ ، ويؤمنون بما فرض عليهم بقولهم : ﴿ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ﴾ ، ويتمنون منه تأخير هذا الفرض إلى أجل قريب يموتون فيه بعيدا عن القتال ، وقولهم ليس اعتراضا على الله ، وليس كراهية لأمره سبحانه وتعالى ، وانما هو ناشئ من طبع البشر فقد جبلوا على حب حكمة ما يؤمرون به من قتال ، ولذلك لم يوبخهم الله تعالى على طلبهم هذا .

ومما يؤكد أن هؤلاء ضعاف الإيمان بيانهم سبب طلبهم ، لأن المنافقين لا يبينون سبب نكوصهم ، بل يخفون ما بقلوبهم ، ويظهرون ما يعارضه ، والله يذمهم ، ويسميهم بعملهم وهو النفاق .

والأجل القريب هو أجل الموت المقدر الذى كتبه الله على جميع خلقه لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾^(١) وهو قريب لحتمية وقوعه .

(١) سورة القصص ، الآية ٨٨ .

﴿ قُلْ ﴾ والأمر لمحمد ﷺ ليقول لهم ما أمر الله أن يقوله لهم .

﴿ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ أى متاع الدنيا قليل لا يتم ، وقصير لا يستمر ، مشوب بالمتاعب لا يصفو ، ولذلك فالحرص على الدنيا ومتاعها حرص على وهم لا يفيد .

﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ أى وثواب الله في الآخرة أفضل وأحسن من الدنيا وما فيها ، وهذا الثواب يخص الله به المتقين الذين يخافون الله ، ويحرصون على الطاعة ، والبعد عن المعصية .

﴿ وَلَا تُظَلِّمُونَ فَتِيلاً ﴾ أى لا يضيع لكم أجر ، ولا ينقص لكم أجل ، فالكل ميت بأجله ، وتعدد الأسباب لا يغير موعد الأجل أبداً ، والفتيل هو نقطة النواة يضرب بها المثل في القلة أى أنكم أيها الخائفون ستجزون بعملكم بلا أدنى ظلم لأن الله لا يظلم الناس شيئاً .

والظلم مجاوزة الحد ، وقد نفى الله وقوع الظلم منه بأدنى قدر ، فهو سبحانه لا يعاقب العاصي إلا بذنب ، ولا يثيب المطيع إلا بطاعة ، ولا يتقدم الأجل أو يتأخر عن مواعده المحدد منذ الأزل أبداً ، وفى هذا رد للذين يخشون الموت ، ويتمنون تأخير تكليفهم بالجهاد إطالة لأعمارهم .

- ٥ -

معنى الآية

يتعجب الله من بعض المؤمنين الأول الذين دخلوا في الإسلام قبل الهجرة وكانوا يلحون على رسول الله ليبيح لهم رد الأذى ، ومقاتلة كفار مكة ... وكان الرسول ﷺ يقول لهم : كفوا أيديكم فإننا لم نؤمر بقتال في مكة ... فلما هاجروا إلى المدينة ، وفرض الله عليهم القتال قالوا لرسول الله لضعفهم : لو

(٣٥٨)

تأخر فرض الجهاد علينا حتى نموت بآجالنا ، ونتمتع بدنيانا ... وهنا يأمر الله رسوله ﷺ بأن يعرفهم بخطأهم لأن متاع الدنيا قليل لا يدوم ، أما متاع الآخرة فهو الأفضل والأحسن ، وقد جعله الله للمتقين الذين يطيعونه ويخشونه وفي يوم القيامة سينال كل جزاء عمله بعدل تام لا ظلم فيه البتة .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الدعوة عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الإسلام هو الالتزام والطاعة

الإسلام دين الله تعالى أرسله الله له الرسول ﷺ وأنزل تعاليمه وحيا ثابتا ومحفوظا ليسير الناس عليه ، ويلتزموا بمنهجه ... ولذلك قال للناس في مكة : كفوا أيديكم ، ولم يشرع لهم الجهاد إلا بعد الهجرة ... والواجب هو الطاعة والالتزام .

والإسلام باق بمصادره ومناهجه إلى يوم القيامة ، والمسلمون مطالبون بالتمسك به ، والعمل بتعاليمه ، والالتزام بطريقه المستقيم .
وتلك حقيقة يجب أن يعيها المسلم دائما ، لأن ما وضعه الله هو الحق ، وهو الأنفع والأجدي ، ولا يصح تقديم فكر الإنسان المحدود على علم الله المحيط .

الركيزة الثانية

الأجل محدد لا يتغير

أشارت الآية إلى حقيقة هامة وهي أن الأجل محدد ثابت لا يتغير أبدا ، والإيمان بهذه الحقيقة يجعل الإنسان يسارع إلى طاعة الله تعالى ، فما قضى الله به محددا منذ الأزل ، ولن يستفيد الإنسان من معصية الله إلا الندم .

والجهاد لن يسارع بالموت ، والقعود لن يطيل العمر ... وأفضل الأعمال
المسارعة إلى الخيرات ، والعمل لثواب الآخرة ، فمتاع الدنيا قليل ، وما عند الله
خير وأبقى .

الموت محدد بالأجل

يقول الله تعالى :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ۚ وَإِنْ
تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ
مِنْ عِنْدِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
حَدِيثًا ۖ ﴾

- ١ -

سبب نزول الآيتين

نزلت الآيتان في المنافقين الذين قالوا في قتلى أحد : لو كانوا عندنا
ما ماتوا وما قتلوا .

وقيل : نزلت في المؤمنين الضعفاء الذين قالوا: ربنا لم كتبت علينا القتال .

وقيل : نزلت في اليهود والمنافقين الذين كانوا إذا أصيبوا بقحط يقولون :

هذه من عند محمد ، وإن أصيبوا بخصب وثمر قالوا هذه من عند الله فرد الله عليهم
بهذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآية السابقة ضعف الإيمان ومدى خوفهم من الموت جاءت
هذه الآية لتبين أن الموت أجل محدد يأتي لصاحبه ولو كان في حرز حصين

(١) أسباب النزول ص ١٣٨ ، تفسير الخازن ج ١ ص ٥٦١ .

(٣٦٠)

وبناء متين قوى ، فكل شئ بأمر الله تعالى ، ولكل أجل كتاب ، يقضى فيه سبحانه بما يشاء .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين أن الآجال محددة ، والموت يأتى لصاحبه في وقته مهما كان موطنه وعمله ، وكل شئ بأمر الله وقدرته ، وما يخالف ذلك ضلال فى الرأى ، وخطأ فى الفهم .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَيَتَمَّا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ ﴾ الخطاب فى الآية للمنافقين واليهود ولضعاف الإيمان ، وفيه بيان أن الموت يأتىهم عند أجلهم ، ويلحق بهم فى وقته مهما تحصنوا وأخذوا حذرهم منه ، و ﴿ يُدْرِكُكُمُ ﴾ تفيد أنهم لن يفلتوا من الموت أبدا مهما كانت حيلهم ووسائلهم فسيلحق بهم بالضرورة يقول الله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾^(١) .

﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ أى ولو تحصنتم ضد الموت فى قصور وحصون مرتفعة مبنية فإنه يلحق بكم فى وقته المحدد ، وفى مكان موتكم المحدد .
﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ وهذا التفات يبين قول اليهود والمنافقين وضلالهم فى معرفة قدرة الله تعالى فإنه لما هاجر النبى والمسلمون إلى المدينة ، وظهر النفاق أمسك الله عنهم بعض الإمساك وانقطع عنهم المطر .

(١) سورة الأعراف ، الآية ٣٤ .

فقال اليهود والمنافقون : مازلنا نعرف النقص في معاشنا وأرزاقنا منذ مجئ محمد وأصحابه ، ويجعلون الرسول سببا في القحط الذى يحل بهم ... لأنهم كانوا إذا أتاهم القحط قالوا : هذا من عند محمد ، وان جاءهم خير قالوا : هذا من عند الله .

والخطأ في هذه المقالة أنهم ينسبون القدرة لبشر ، وهذا ضلال وكفر ... ويجعلون محمدا ﷺ سبب السيئات وهذا كذب وعدوان ، ويتصورون أنفسهم على علم بأسرار القدر وهذا افتئات منهم وظلم كبير .

إن اليهود والمنافقين بقولهم الكاذب يتطهرون بالنبى ﷺ . وحاشاه . ويعملون على التخلص من دين الله تعالى بالإساءة إلى قيادة الرسول ﷺ ... وكل هذا تصور لا يفيد ، ولا يغير الحقيقة الثابتة .

﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ هذا أمر لرسول الله ﷺ ليرد مزاعم هؤلاء ، ويعلم أصحابه كيفية الرد عليهم ، ويعرفهم أن كل ما يقع هو بقدرة الله تعالى . والأمر في الآية وان كان موجها لرسول الله ﷺ فإنه يعم جميع المسلمين فهم مكفون بالدعوة إلى الحق .

فإن قيل : لم يحاسب الله العباد وكل شئ بقدرته ؟

تقول للإنسان ميله وقصده ونيته وهى مناط الحساب ، والفاعل مع ذلك هو الله تعالى .

﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ أى فما شأن

هؤلاء القوم لا يفهمون كلام الله لهم المنزل على رسوله ، ولو فهموه لعلموا أن كل شئ بأمر الله تعالى !!

والمراد بالحديث الذى لا يفهمونه مواظ القرآن الكريم وتعاليمه ، وعدم فهمهم لنصائحه ، وهذا يعنى أنهم لا يفهمون المعنى أصلا ، لأنهم لو فهموا ما

(٣٦٢)

نزل من القرآن الكريم لعلوا أن كل شئ من الله تعالى ، ولو علموا الحق ما قالوا ما قالوه .

أو أنهم فهموا ولم يؤمنوا بما فهموا فكأنهم لا يفهمون أصلا .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن الموت أجل محدد يأتي لصاحبه في موعده مهما تحصن ، وشيد من بروج ، وبنائات ، والأعمار كلها بيد الله تعالى ، ويخطئ اليهود والمنافقون في جعلهم السيئات من الرسول ﷺ ، والحسنات من الله تعالى ، لأن كل شئ من الله خيرا أو شرا ، وعدم فقه الكفار أوقعهم في الضلال والجهل .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الإنسان ميت بأجله

يخطئ الإنسان وهو يتصور أنه يتحكم في أجله ، لأن كل ما يتخذه من حذر ضد الموت لا يفيد ... فملك الموت لا يمنعه بشر ، ومجيئه بأمر الله في وقته لا يتأخر ولا يتقدم ، لا تمنعه الحصون الضخمة ، ولا البنائات العالية ، ولا الاختفاء تحت الأرض أو فوق السماء ... أنه ملك يجوب الكون بأمر الله ليقضى في الناس بما أراد الله سبحانه وتعالى .

ولو تيقن الناس بهذا القضاء في الأجل لعاش مخبتا قانتا ، ولأطاع الله تمام الطاعة ، وأتقاه حق التقوى .

إن الإنسان حين يتيقن أنه عاجز عن تحديد موعد موته ، مع أنه سيموت حتما ، ومحاسب بالضرورة يحرص على أن يكون مسلما ...

(٣٦٣)

إن كافة قوى البشر مهما تجمعت لا تؤخر العمر لحظة واحدة ، فلم تتكبر ، وتشرع لنفسها وتهمل شرع الله تعالى .
إن المسلمين لا عذر لهم في المعصية ، ولا حجة لهم في هجر شرع الله ﷻ ولا فائدة لهم في الحقيقة في الشهوات المادية التي صرفتهم عن دين الله تعالى .

الركيزة الثانية

كل الأمور من عند الله تعالى

لا يقع في كون الله إلا ما أراد ، ولا طاقة ، ولا حول مع قدرة الله تعالى ، وللإنسان في عمله كسب ونية ... وعلى الإنسان أن يسلم بهذه الحقيقة ، ويؤمن بهذا الواقع ، ويتدبر الأمور بعقل وفهم ... وسوف يدرك أن الله على كل شيء قدير .

يدعى البعض تملكهم القدرة العملية ، والإبداع العقلي ... وإذا بهم يفاجأون بالعواصف والرعود ، والزلازل والبراكين ، وبمختلف الحوادث الغريبة العجيبة ... ويقفون أمامها مشدوهين ، ولو آمنوا لكان خيرا لهم ، ولو صدقوا الله لصدقهم ونصرهم .

الركيزة الثالثة

وعين البغض تبنى المساوي

اتخذ أعداء الإسلام من رسول ﷺ موقفا سيئا ، فهم يعارضونه ، ويحاولون صرف الناس عن دعوته ، ولذلك نسبوا السيئات إليه ... وهذه هي العداوة التي يحتاج المسلمون إلى معرفتها والوقوف على حقيقتها ليتمكنوا من مواجهتها ...
إن العدو يرى الخير شرا ، ويؤلمه نجاح خصمه ، ولذلك وجب الحذر منه وعدم عده من أولياء الحق ... وتلك قضية يحتاج إليها المسلمون ... فلا مجاملة في دين الله ، ولا ولاية لكافر على دين الله تعالى ، لأن أعداء الإسلام يعملون على صرف الناس عن دين الله تعالى ، واتخاذهم أولياء لا يفيد ، وقد نهى الله

(٣٦٤)

عن ذلك . فقال تعالى : ﴿ يَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(١) .

الأدب مع الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۚ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما ردت الآية السابقة مزاعم الكفار ضد رسول الله ﷺ حينما قالوا السيئة منه والحسنة من الله ، جاءت هذه الآية لتبين أن كل شئ من عند الله ، وتعلم الناس كيفية التأدب مع الله بعدم نسبة السوء إليه .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الأفعال كلها من الله تعالى ، وأن الأدب مع الله يقضى بنسبة الحسنة إلى الله ، ونسبة السيئة لمن قام بها ، والمسلمون يتعلمون من رسول الله ﷺ ، فلقد جاء للناس يعلمهم ويدعوهم والله شهيد على جميع خلقه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ والمراد به كل إنسان سواه . والمعنى : ما أتاك من نعمة وخير ، فهي من الله تفضلا منه سبحانه وتعالى ، فكل ما يفعله الإنسان ، وما يمكن أن يفعله لا يكافئ شيئا من

(١) سورة التوبة ، الآية ٢٣ .

نعم الله العديدة ، فهناك نعمة الوجود ، ونعمة الخصائص والمزايا التي خلق الإنسان عليها ، ونعمة تفضيله على سائر المخلوقات ، ونعمة تسخير كل المخلوقات لخدمته وإعانتته ... الخ .

يقول الله تعالى في الحديث القدسي : لن يدخل أحدكم الجنة بعمله .

قالوا : ولا أنت يا رسول الله .

قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته^(١) .

﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ أى ما جاءك من سوء ،

وبلاء ، ومشدة ، وأذى ، وضر فهو بسبب من نفسك استوجب هذه السيئة .

والخطاب وان كان ظاهره لمحمد ﷺ فالمقصود به غيره من الناس فهو

كقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾^(٢) ، فقد

أمر الله النبي ﷺ بما كلف به غيره .

ولا يصح أن يقصد النبي ﷺ بالخبر مع أن الخطاب له ﷺ لأن الله

عصمه من السيئة ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

ولا تعارض بين قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ، وبين قوله هنا :

﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ لأن الله هو الموجد لكل ما يقع خيرا

أو شرا ، حسنا أو سوءا ، ونسبتها إلى الله تعالى نسبة حقيقية ... أما نسبتها إلى

العبد فهي نسبة مجازية ، وانما جاز نسبتها إلى العبد من قبيل الأدب مع الله

تعالى ، فهو كقوله إبراهيم عليه السلام الذى حكاه الله تعالى بقوله : ﴿ وَإِذَا مَرَضْتُ

فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾^(٣) فقد أضاف إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه ، وأضاف الشفاء

(١) كنز العمال ج ٣ ص ٣٧ .

(٢) سورة الطلاق ، الآية ١ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية ٨٠ .

(٣٦٦)

إلى الله تعالى مع أنهما من الله تعالى ، وإبراهيم عليه السلام يؤمن بذلك .
﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ أى وأرسلناك يا محمد رسولا للناس
جميعا تبليغهم دين الله تعالى .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أى يكفى أن الله تعالى شهيد على قيامك
بالرسالة ، وتبليغك ما أرسلت به ، وأنه عليم بأحوال الناس جميعا ، وهو يرى
الخلق ويعلم من آمن منهم بك ومن كفر .

- ٤ -

معنى الآية

يبين الله تعالى لرسوله ﷺ أن كل شئ بقدر الله تعالى ، ومن الأدب نسبة
الحسنات إلى الله تعالى ، ونسبة السيئة إلى من أصابها ، مع أن الله خالق كل
شئ ، وقد أرسل الله للناس رسول الله ﷺ بدينه ليعلمهم حقيقة الوجود والحياة ،
وسوف يحاسب الله الجميع فهو خير شاهد عليم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الأدب مع الله تعالى

الأخلاق الكريمة سمة الكرماء ، والإنسان ذو الأخلاق مع قرنائهم محبوب
مقدر ، لأن الأخلاق أدب ينبع من النفس ، ويملأ المشاعر بالحب والتقدير
والإيثار .

وقد تفضل الله على عباده بالخلق والإيجاد ، والنعم والآلاء ، وحق له أن
يعبد وحده ، ويعظم وحده له الملك ذو الجلال والإكرام .

ومن هنا ...

وجب على الإنسان العابد أن يوقر المعبود بحب ، ويعظمه يود ، ويقبل عليه فهو ربه ورازقه واليه المرجع والمآدب .
والأدب مع الله يكون بحسن الأقوال ، وجمال الأفعال ، وضرورة الاعتراف الخاشع بعطاء الله الكبير لينظر الإنسان في نفسه ، وفي غيره ، وفي كل مخلوق ، قرب أم بعد ليعرف الله ، ويراه .
حينما يؤذن المؤذن يجب أن يذكر الله .
وحينما نصحو ، أو ننام ، أو نسكن ، أو نتحرك يجب أن نذكر الله .
لنسبح الله على آلائه ، ونشكره على نعمائه ، ونرجوه على أفضاله ، ونثنى عليه قياما وقعودا ، وعلى كل حال ...
نحن العبيد المحتاجون إليه ، فلنتأدب معه والله يهدي إلى سواء السبيل .

الركيزة الثانية

الرسول حامل لرسالة الله

يعيش الرسول مع الناس يبلغهم ما أنزل الله ، ويوصل لهم الرسالة التي بعثه الله بها للناس ، ليسمعوا ، ويفهموا ، ويعقلوا ، وعليهم أن يطيعوا ويقتدوا .
إن الرسول ﷺ هو قدوة الناس إلى الله بعمله وقوله ، وسلوكه وخلقه ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ... والله فوق الجميع يشهد أعمالهم وأقوالهم ، ويعرف أنصار رسول الله وأعداءه ... ويجازيهم بما عملوا :
﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُلْ لَهُمُ الْطِّيْبَتِ

(٣٦٨)

وَمُحَرِّمٌ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ^٢
فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ^٣ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾^(١) ، وأما أنصار الشيطان فهو وليهم ، يضلهم ، ويمنيهم
وما يعدهم الشيطان إلا غرورا .

طاعة الرسول طاعة لله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ^٤ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِظًا ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

حينما قال رسول الله ﷺ : "من أطاعني فقد أطاع الله ومن أحبني فقد
أحب الله" . قال بعض المنافقين : ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربا كما
اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربا . فأنزل الله هذه الآية^(٢) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن ذكرت الآية السابقة أن الله أرسل رسوله للناس لتبليغ دينه ونشر
رسالته جاءت هذه الآية لتبين أن طاعة رسول الله ﷺ هي طاعة لله تعالى .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٥ ص ٩١ .

(٣٦٩)

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أن طاعة الرسول ﷺ هي طاعة الله تعالى ، وأن من أعرض عن طاعة الرسول ، فهو معرض عند الله تعالى ، وأمره إلى الله يحاسبه ، ويعاقبه .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ أى أن من يطع الرسول فيما أمر وفيما نهى فهو مطيع لله تعالى ، لأن الرسول مبلغ عن ربه ، وكل ما يكلف به الرسول الناس فهو وحى الله إليه ، فليس الدين من عنده ، ولكنه حامل دين الله تعالى ، وهو رسول الله للناس .

وسمى بالرسول لحمله رسالة الله للناس ، وبهذه التسمية تقوم الحجة برسول الله ﷺ على المسلمين ، ويلزمهم طاعته ، وملازمة دعوته .

ومن المعلوم أن سنة رسول الله ﷺ مرتبطة بالقرآن الكريم تبينه بأوجه متعددة ، وبها تعرف تفاصيل الأحكام ، وملاءمة الحكم للفعل كالصلاة والصوم ، والحج ، والزكاة ... وسائر الأعمال التكليفية ، وكلها تحتاج إلى بيان من رسول الله للعمل بها ، ولولا رسول الله معها لما تمكن أحد من أدائها على وجهها ، وكثير من الأحكام الفرعية لا حكم لها إلا في سنة النبي ﷺ .

وإذا كان هذا هو مقام رسول الله ﷺ ، ومقام سنته كانت طاعته واجبة ، ولزم أن تكون طاعته طاعة من اختاره ، وصنعه ، واصطفاه ، وأرسله وهو الله رب العالمين .

إن رسول الله ﷺ متصف بالأمانة والفتانة ، والصدق ، وهو مبلغ للرسالة كما نزلت عليه .

(٣٧٠)

طلب المشركون منه تغيير آيات نزلت . فقال لهم ﷺ ما علمه الله : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾^(١) .
ويؤكد الله تعالى على أن كل ما يقوله الرسول ﷺ ، وينطق به هو من عند ربه ، ولا يزيد عليه شيئا فيقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١٠﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١١﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٢﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾^(٢) .

والسنة النبوية تبين القرآن الكريم وتفصله بتوافق تام ... فلا تعارض أبدا بين قرآن وسنة لأنهما معا وحي من الله ، مصدرهما واحد ، وغايتهما واحدة .
والرسول هو رسول الله لم يدع شركة لله ، ولم يزعم أنه ابن الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾^(٣) .

﴿ وَمَنْ تَوَلَّى ﴾ أى من أعرض عن دين الله تعالى ، وترك طاعة رسول الله فهو معرض عن الله تعالى ، وكافر بدينه .
﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى أعرض عنهم ، ودعهم وشأنهم وكلهم إلى الله فحسابهم عيه سبحانه فإننا لم نرسلك حارسا تحفظ أعمالهم وأقوالهم ، وانما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية للناس جميعا أن الرسول شخص اختاره الله ، وأوحى إليه بالدين

(١) سورة يونس ، الآية ١٥ .

(٢) سورة الحاقة ، من الآية ٤٤ . ٤٧ .

(٣) سورة مريم ، الآية ٩٢ .

(٣٧١)

فهو مبلغ عن الله ، ولذا وجبت طاعته ، فطاعته طاعة الله تعالى ، ومن ترك طاعته وأهمل فيها فأمره إلى الله تعالى ، فهو عليم به وسوف يحاسبه .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

ما على الرسول إلا البلاغ

الله صاحب الأمر كله ، والرسول مبلغ عنه ما قضى به ، وطاعة الرسول هي طاعة الله الذي أرسله ... وإذا بلغ الرسول ما نزل عليه فقد أدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ... ومن شاء من الناس بعد ذلك أن يؤمن ، ومن شاء فليكفر .

إنه لا إكراه في الدين وليس الرسول حارسا على الناس ، ومكرها لهم . والدعاة بعد رسول الله ﷺ يحملون الأمانة ، ويدعون الناس إلى الحق حتى لا يكون للناس عذر بعد ذلك ... وكل ما على الدعاة أن ينهلوا من وحي الله تعالى ويسلكوا مسلك رسول الله في الدعوة ، والتوجيه .

المنافقون والطاعة

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن طاعة الرسول من طاعة الله ، وهي واجبة على الناس جاءت هذه الآية لبيان ضلال المنافقين في ادعائهم الطاعة لرسول الله ﷺ وهم يعملون عكس ما يقولون .

(٣٧٢)

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تبين أن المنافقين يدعون طاعتهم لرسول الله ﷺ وهم في نفس الوقت يضمرون غير ما يقولون ، وقد قصدوا المعصية من قبل زعمهم الطاعة ، والله عليم بهم فاتركهم يا محمد ، ودع أمرهم ، وتوكل على الله فهو كافيك وناصرك ، ومنزل عقوبته على هؤلاء المنافقين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ أى ويقول المنافقون لك يا محمد نحن نطيعك طاعة كاملة فقد آمنّا بك ، وصدقناك فأمرنا بما تريد فنحن طاعة كاملة ، فالقائلون هم المنافقون ، وقد جعلوا طاعتهم المقولة بها نكرة ﴿ طَاعَةٌ ﴾ ليظهروا أن كل شأنهم طاعة لرسول الله ﷺ ، والمقول له هو رسول الله ﷺ بدليل ما بعد ذلك وهو قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أى إذا خرجوا من عندك يا محمد بعد إعلانهم الطاعة نكصوا ، وغيروا ، وبدلوا ... وهم عازمون على هذا ... فقد ﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ﴾ التبييت هو كل أمر يفعل بليل سرا وهو يعنى العزم وعقد النية عليه ... فقد قالوا وقدرنا أمرا بالليل غير الذى قالوه لك بالنهار . فقد قالوا لك بالنهار أنهم على الطاعة ، وهم ينوون من قبل ذلك على المعصية .

وقد ذكرت الآية أن الذى يدبر المخالفة والمعصية جماعة "منهم" لأن الله تعالى علم أن من المنافقين من يبقى على كفره ، ونفاقه ، أما الآخرون فهم على الطاعة التى أعلنوها لرسول الله ﷺ .

(٣٧٣)

ويمكن القول بأن الذى دبروا بالليل هم قادة المنافقين ، والباقون يتبعونهم فيما خططوا له .

﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ أى والله يعلم ، ويثبت ، ويحفظ ما يبيتونه ونووا عليه ، ويعلم نفاقهم وكذبهم في قولهم لك : ﴿ طَاعَةٌ ﴾ .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أى فاتركهم ، ولا تغتر بمقاتلتهم ، وزعمهم الإسلام ودعهم وشأنهم ، ولا تعاقبهم ، فالله سيعاقبهم ، وقد أعد لهم ما يستحقون .
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى واعتمد على الله الذى أرسلك فهو يكفيك أمرهم ، وينصرك عليهم .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى يكفيك أن الله ناصرك ، ومؤيدك ، ومعينك عليهم وعلى غيرهم من الظالمين .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن المنافقين كانوا يأتون لرسول الله ﷺ يعلنون طاعتهم لما يأمرهم به ، وقد بيت قوادهم المعصية ، وبذلك نوا خلاف ما قالوا ، وقد حسبوا الفوز في ذلك وخاب حسابهم ، فالله مطلع عليهم ، وعلى عملهم ، محاسب لهم ، يسجل لهم كل أعمالهم ليعاقبهم بها .

وما عليك يا محمد إلا أن تتركهم لله تعالى ، ولا تغتر بقولهم واسلامهم وسلم الأمر لله ، وتوكل عليه ، فهو سبحانه كافيك وناصرك .

(٣٧٤)

- ٤ -

ركائز الدعوة فى الآيه

توضح الآيه عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الكذب خلق المنافق

توضح الآيه صفة أساسية للمنافق ، وهى الكذب فهو يضمر المعصية ويدعى الطاعة ، ويظهر خلاف ما يبطن ، ولذلك وجب الحذر منه ، وتجنبه لخطورته على المجتمع والناس .

ولذا وجب على المسلمين التفتيش عن المنافقين فهم بينهم يعملون على إلحاق الأذى بهم ... ومن الممكن الوقوف عليهم بالتحري ، ومتابعة سلوكهم وأعمالهم .
وقد بين الله كذبهم وضلالهم ليحذر المسلمون منهم ، ويعملوا على تطهير المجتمع منهم .

الركيزة الثانية

الوقاية من المنافقين

توضح الآيه خطورة المنافقين ، وتبين أهم صفاتهم ، وتذكر طرق مواجهتهم للتخلص من ضررهم ... وذلك بما يلى :

(١) الإعراض عنهم ، وإهمالهم ، وعزلهم ، وبذلك يهون أمرهم ، ويقل ضررهم مع أخذ الحذر .

(٢) التوكل الدائم على الله تعالى فهو سبحانه يعلم سرهم ، ويكشف السوء ، ويجع كيدهم لأنفسهم .

(٣) الالتزام بشرع الله تعالى ، وتطبيق تعاليم الدين لأنها تظهر كل إنسان على حقيقته ، وكفى بالله وكيفا .

وجوب التدبر في القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآية السابقة خصال المنافقين جاءت هذه الآية لتبين خطأ تفكيرهم لأنهم لو تدبروا القرآن ورأوا ما فيه من إعجاز وصدق لعلموا صدق محمد ﷺ من هذا القرآن ولا تبعوه فيما أمر ، وفيما نهى .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن تدبر القرآن الكريم يؤدي إلى الإيمان بأنه كتاب الله تعالى وأن محمدا رسول الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ ﴾ ؟ ... التدبر بصورة عامة هو التفكير ، والنظر الشامل لأي أمر لمعرفة الحقيقة ، ومنشئها ، وعاقبتها .
وتدبر القرآن الكريم يعنى التأمل في معانيه ، وحكمه ، وأحكامه ، ووجوه الإعجاز ، وإبراز طرق التأثير ، ومناهج الخطاب ، وتلون الأساليب التي تدعو الناس إلى الله تعالى .
والاستفهام في الآية للتعجب ، وهو يفيد الأمر ، ومعناه تدبروا القرآن الكريم فهو كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ ﴾^(١) أى توبوا إليه ، وما بين

(١) سورة المائدة ، الآية ٧٤ .

الهمزة والفاء محذوف مقدر بعكس ما بعد "لا" ، والتقدير : أجهلوا فلا يتدبرون القرآن الكريم .

وتدبر القرآن الكريم يدور في جوانب عديدة ... منها :

(١) إثبات إعجاز القرآن الكريم بأوجهه المتعددة لإظهار صدق محمد ﷺ في دعوى الرسالة .

(٢) إثبات فصاحة القرآن الكريم في ألفاظه ، وجمله ، وآياته ، وسوره لدرجة تأثيرها في المستمعين ... لقول الله تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾^(١) .

﴿ يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾^(٢) .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾^(٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾^(٣) .

(٣) إخباره عن الغيب الذي لا يطلع عليه إلا الله تعالى سواء كان الغيب غيب الماضي ، كأخبار الأمم السابقة ، أو غيب الحاضر كالإخبار بما وراء الجوارح ، أو غيب المستقبل وما فيه من أحداث ، وكوارث ، وما سيقع من خير أو ضرر ... وذلك الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، لقد عرف الله

(١) سورة مريم ، الآية ٩٧ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٢٠ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٨٣ ، ٨٤ .

رسوله أخبار الأمم السابقة وأهل اكتاب ، واطلعه على أخبار المنافقين والكافرين .

٤) إطراد صدق القرآن وسلامته من التناقض والاختلاف ، وقد ثبت ذلك بثلاثة أوجه :

أولها : إن إخبار الله رسوله بأحوال المنافقين ، وبتواطئهم على الكذب في السر موافق لما فعلوا بدقة مع أنهم أسروا ، وبيتوا ، وأخفوا .
ثانيها : أنه لا تعارض ولا اختلاف فيه مع كبر حجمه ، وتنزله خلال ثلاثة وعشرين عاما .

ثالثها : تناسق القرآن الكريم في تراكيبه ، وفصاحته ، فمن تتبع القرآن الكريم من أوله إلى آخره لا يجد لفظا ركيكا ، أو معنى متنافرا ، بل هو جميعه على منهاج واحد في الفصاحة والبلاغة .

وبتحقق هذه الأمور يثبت أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، وأن محمد ﷺ صادق في دعوى الرسالة . كما تثبت خيبة المنافقين وهم يكذبون على محمد ﷺ .

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ أى لو

كان القرآن الكريم نزل من عند غير الله ، أو ألفه بشر ما وجدت فيه الحقائق السابقة ، ولوجد فيه التناقض والاختلاف والتعارض بين المعنى واللفظ ، وبذلك يتفاوت النظم ، ويصعب المعنى ، ويناقض بعضه البعض الآخر ، ومخالفة بعض أخباره للواقع ، وتعارضه مع العقل السوى ... إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث مما يؤكد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى .

- ٤ -

معنى الآية

تأمر الآية الناس بتدبر القرآن الكريم ، ومعرفة أحكامه ، وحكمه ، والوقوف على وجوه الإعجاز فيه ليعلموا أن القرآن الكريم كلام الله ويعلموا صدق

(٣٧٨)

محمد ﷺ في الرسالة ، وحين يجد العقل أنه لا اختلاف في القرآن الكريم يؤمن بأنه كلام الله تعالى ، ويصدق بنبوته محمد ﷺ ويدخل في الإسلام صادقاً مخلصاً ، لأن كلام البشر لا يخلو من تناقض واختلاف ، ودائماً يحدث التغيير والتبديل فيه .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

القرآن الكريم كلام الله تعالى

القرآن الكريم كلام الله تعالى ، لا ريب فيه ، هدى للمتقين أنزله الله ليبشر به المتقين ، وينذر به قوماً لدا ... والقرآن الكريم رحمة الله وفضله على الناس ، فهو مصدر الدين والهدى من اتبعه رشد ، ومن تركه فقد ضل سواء السبيل ، وسيبقى الحق في الأرض ما بقي القرآن الكريم .

إن القرآن الكريم خير كله ، وفيه الغناء كله ... فيه الدين الذين ارتضاه الله للعالمين ، وفيه دليل الاقناع ، ومنهج الاستقامة على طريق الله ... يحتوى من القصص والأمثال ، والجدل ، ومختلف الأساليب ما يعد ركائز للدعاة على الزمن كله .

وقد اشتمل القرآن الكريم ما يدل على أنه كلام الله من كافة وجوه الإعجاز التي لا يقدر عليها الإنس والجن ولو اجتمعوا ... وبذلك قدم للناس العظمة كلها ، قدم الدين ، والدعوة إليه ... وعلم الناس طريق العبودية ليتجهوا إلى ربهم عابدين مخبتين ، ويستقيموا على صراطه المستقيم .

والمسلمون مسئولون عن تطبيق تعاليم القرآن الكريم ، والاهتمام به علماً وعملاً .

ولا يصح أن يهجر المسلم هذا القرآن العظيم كلام ربه ومصدر دينه ...

(٣٧٩)

وهجر القرآن الكريم يعنى إهمال حفظه ، وترك تعاليمه ، وتقديم غيره عليه في مجال الحكم والعمل والسلوك ... وما فيه المسلمون اليوم بالنسبة للقرآن الكريم أمر عجيب لا يجوز .
ألا ... فليرجع المسلمون إلى الله ... ويعودوا إلى القرآن الكريم .

الركيزة الثانية

كيفية تدبر القرآن الكريم

تبين الآية أن الوقوف على منزلة القرآن العالية تتم بمقارنته بكلام الناس من ناحية القضايا التي قدمها ، والأخبار التي قصها ، والأساليب التي عرضها ، وسوف يرى العاقل سمو القرآن الكريم في كل ذلك ، فقضاياه عقيدة وشريعة وأخلاق يعجز البشر أن يتصور حقيقتها ويؤلف مثلها... ولكنها قدرة الله وعلمه.
والأخبار الماضية والحاضرة والمستقبلية لا يحيط بها إلا العليم الخبير .
وأساليبه العالية المعجزة لا يمكن للمخلوقات مجتمعة أن تأتي بأقصر سورة من سور القرآن الكريم .

إن تدبر القرآن الكريم بوعى هو الطريق إلى الله تعالى ، وهو المنهج الهادى إلى الحق .

لقد أنشأ العلماء المسلمون علوم العربية ليتمكنوا من فهم القرآن الكريم على قدر طاقتهم ، وأمروا جميعا بالتأمل في عظمة القرآن وتساميه ، وخلوه مع طوله من الاختلاف والتعارض .

وكل هذا يؤكد صدق محمد ﷺ فيما أخبر عن ربه ، ويلزم المؤمن بطاعته والاستقامة على دين الله تعالى ... ويا ليت قومى يعلمون .

الركيزة الثالثة

الإعجاز فوق مجال الإدراك البشرى

حين ننظر إلى إعجاز القرآن الكريم ، ونقارنه بقدرة الناس نجد الفرق واضحا ، والبون شديدا ، وهذا يجعلنا نتحدث عن مجال الإدراك البشرى بصورة عامة في إطار قدرة العليم الخبير حتى لا يغتر إنسان بعقله ، أو يندفع جاهل بحقه ، ونفسيته ، فيدعى ما ليس له ، وما ليس فيه ... وقد يصل حد العدوان إلى إعطاء العقل حق التشريع والحكم ، وتمكينه من السيطرة على دين الله ، وتقديمه على الشرع الحنيف .

إن الله أكرم الإنسان بالعقل ، وميزه به ، وخاطبه بفهمه ، وجعله وسيلة لإدراك آيات الله في النفس ، والكون ، والحياة ، وهى ظواهر يمكن إدراكها ، وتعقلها وفهمها ليعلم الإنسان من ورائها صدق الرسول ﷺ ، وقدرة الله تعالى وعجز البشر مجتمعين أن يخلقوا ذبابة واحدة ولو جمعوا كل قواهم لذلك .

إن هناك أمورا فوق طاقات العقل وقدرته ، وعلى الإنسان أن يأخذها من الدين الذى آمن به ، ومن رسول الله الذى ثبت صدقه ، ومن الله تعالى الذى فصل آياته وفضائله .

إن الإنسان ليس ندا لله ، والعقل البشرى هو طريق الإنسان إلى الله تعالى ... وحين يصل الإنسان إلى الله فعليه أن يأخذ منه الحقيقة ، والحكمة ، والمصلحة ، والقيم ، وذلك بالاعتقاد السليم ، والسير على منهج الله المستقيم .

وملازمة الإنسان لشريعة الله من ضرورات العقل ، لأن العقل محدود بالمكان ، والزمان ، والثقافة ، والتعليم ، والتقاليد ... أما ما يأتى به الله تعالى فهو شامل كامل لشمول علم الله ، وقدرته لكل أمر بلا حد ، ولا انحصار .

ولقد ضرب الله تعالى الإعجاز مثلا للعقل ليقف على محدوديته ويرضى بما أعطاه خالقه من طاقة وتفكير ... وليستمر في الإطار الذى سمح الله له به .

إن العقل يمكنه معرفة الدين ، وفهم النصوص ، وتطبيق النص في عالم الواقع ، والاجتهاد في إطار الدين لتطبيق الكليات والمبادئ على الجزئيات التي تحدث للناس .

ومن المعلوم أن سياسة البشر تعطى كل إنسان بقدر إدراكه ووعيه لتسير الأمور متوافقة منسجمة لأن العقول مختلفة ، والطاقات متنوعة ، ويعجز العقل إن كلف بما لا يقدر عليه ... ألا يؤكد ذلك ضرورة أن يعيش العقل فيما خلق له ، وما يمكنه ، ويترك ما فوق قدراته للعليم الخبير .

لقد ضل كثيرون بسبب وضعهم التفكير العقلى فوق تعاليم الله ، ولم يستفيدوا بما يرون من إعجاز في القرآن الكريم : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ .

المنافقون والقرآن

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن تدبر القرآن الكريم يؤدي إلى الإيمان جاءت هذه الآية لتعلم المؤمنين كيفية التعامل مع الإشاعات ، وضرورة التيقن من الخبر قبل إذاعته .

(٣٨٢)

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن إذاعة الخبر قبل التيقن منه لا يجوز ، والواجب رد الخبر إلى أولى الأمر قبل إذاعته فإنهم الاعرف بالحق ، المدركون لما يذاع ، ولما لا يذاع ، وعلى المؤمنين أن يعلموا معونة الله لهم ، إذ لولا ذلك لكانوا من أنصار الشيطان .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ ﴾ الضمير في ﴿ جَاءَهُمْ ﴾ لبعض المسلمين الذين كانوا يسارعون إلى إفشاء أخبار توجب الأمن أو الخوف بلا تدبر ، ومن غير هدف . ومعنى ﴿ جَاءَهُمْ ﴾ أو وصل إلى أسماعهم صراحة أو ضمنا ، ولم تحدد الآية فاعل المجئ صراحة أو ضمنا لبيان أن الخبر المشاع مجهول المصدر ، والضمير في جاءهم يعود لجماعة المؤمنين الضعيف إيمانهم .
﴿ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ ﴾ أى شئ يوجب الأمن ، أو يوجب الخوف ، والمراد بالأمن كل شئ محبب إلى النفس كالنصر ، والحصول على شئ حسن يتمناه الإنسان ويرجوه ، والمراد بالخوف كل شئ تكرهه النفس ، ولا تريده كالهزيمة والخسارة المادية ... الخ .

﴿ أَدَّاعُوا بِهِ ﴾ أى أشاعوه ، ونشروه بلا تثبت من وقوعه ، وبلا حذر من نشره فقد يؤدى نشر الخبر إلى وقوعه ، وقد يؤدى إلى حدوث بلبلة في الصف الإسلامى ، وينبه الأعداء إلى ما يجب عليهم لمنع أسباب هذا الأمن ، أو مضاعفة عوامل الخوف .

ولذلك نهى الله عن هذه الإذاعة ، ووجه المسلمين إلى الطريقة التى يتبعونها إزاء ما يدركون من أخبار توجب الأمن ، أو الخوف .

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ أى أنهم لو سكتوا ، وتركوا الأمر لرسول الله ﷺ في حياته ، وإلى أولى الرأى والأولياء بعد رسول الله ﷺ لعلموا حقيقة الخبر ، وعرفوا ما يجوز إذاعته وما لا يجوز .

إن رسول الله ﷺ يتلقى الوحي من الله تعالى ، ويبينه لهم ، ولو عادوا بالخبر إليه لوصلوا للحق ، وتيقنوا من العلم المطلوب .

وأولو الأمر بعد رسول الله ﷺ هم أصحاب العقول الفاهمة ، وذوو الرأى الثاقب المتمتعون بنور البصيرة والإيمان ، وهؤلاء يرجعون لوى الله الثابت يدلون على الصواب ، ويعرفون بالواجب المطلوب .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ في الآية للدلالة على أنها تتحدث عن طائفة من المؤمنين ، وعلى أن الإذاعة كانت تخرج من بينهم لضعف إيمان بعضهم .
وقيل : إن الذين أذاعوا هم المنافقون ومعنى ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أى أنهم منهم على حسب الظاهر ، لأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر فيظنهم من لا يعرفهم مؤمنين .

والاستنباط استخراج الشئ من غيره ، ويقوم به أهل الفطنة والعلم والخبرة والتجربة وهؤلاء يدبرون بذكائهم ، ويحددون ما يذاع وما لا يذاع .

إن الصراع في العصر الحديث يقدم العديد من الإشاعات التى لا يصح نشرها بعيدا عن الحقيقة ، ولذلك وجب رد ما يشاع إلى الرسول ﷺ وإلى أولى الأمر صيانة للحق ، وحفاظا على المجتمع .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ أى ولولا عطاء الله لكم ،

وتفضله عليكم ببعثة محمد ﷺ حيث نزل الإسلام ، وآمنت به ، لولا ذلك لحدث لكم ضلال مبين ، وسيطر عليكم الشيطان عدوكم بإشاعاته وأكاذيبه .

(٣٨٤)

﴿ لَا تَبْعُتُمُ الشَّيْطَانَ ﴾ لولا الإسلام لسرتم خلف الشيطان ، وسلكتهم مسالكه ، ولأوردكم سبل الكفر والضلال .
﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهذا الاستثناء يفيد عدة معان تبعا لتعدد المستثنى منه ...

أهمها :

- يذيعون الأمور التي تأتيتهم إلا قليلا لا يذاع .
 - لا تبتعثم الشيطان إلا قليلا من المؤمنين لا يتبع الشيطان .
 - العلماء يستنبطون أحكام القرآن إلا قليلا من العلماء لا يمكنهم ذلك .
- وهذه المعانى كلها جائزة ، والفضل لله في كل حال .

- ٤ -

معنى الآية

يخبر الله تعالى عن جماعة من المؤمنين كانوا يسارعون إلى إشاعة الأخبار التي تصلهم بلا تدبر ، ولا تفحص ، وبلا نظر في أثارها على الإسلام والمسلمين فأرشدهم الله إلى ما يجب عليهم إزاء هذه الأخبار وهو ردها إلى رسول الله ﷺ في حياته ، وبعد مماته ﷺ يردونها إلى أولى الأمر من العلماء الفاهمين والولاة أهل الخبرة والسياسة لإرشادهم إلى ما يذاع ، وإلى ما لا يذاع ... وهذا التوجيه والنصح فضل ورحمة من الله تعالى ، ولولاه سبحانه وتعالى لسلكتم مسالك الشيطان ، واتبعتم ضلاله إلا قليلا منكم ، وهم الذين لا يتمكن الشيطان منهم ، لأنهم لا يسارعون إلى الإذاعة ونشر الأخبار .

(٣٨٥)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

خطورة الإشاعة

الإنسان طلعة بطبعه ، يحب أن يعرف ما يجد من أحداث وأخبار ، ولذلك كانت حاجته إلى وسائل الإعلام على تنوعها وكثرتها .

وقد حث القرآن الكريم على أهمية تفحص الخبر حتى لا يتمكن الفساد من نشر الأكاذيب التي تؤذي الناس بغير حق ... يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيْهِ مَا فَعَلْتُمْ نَتْلُو فِيكُمْ ۖ ﴾^(١) .

إن الفساد ينشرون الأكاذيب ، ويقدمونها للناس في صورة براءة ، ويزينونها أمام العقول ، ويضمون إليها بعض الحقائق ليصدقها من يستمع إليها .
إن الإشاعة سلاح له خطورته ، لأنها تهزم النفس ، وتبعد الإنسان عن الحقيقة ، وتضيع الخطط التي تتبنى عليها ... ولذلك يلجأ الأعداء إلى نشر إشاعاتهم وسط المجتمع ليقع في البلبلة والاضطراب ، وكثيرا ما هزمت الإشاعة جيوشا ، وضيعت عروشا .

إن الرأي العام يقوم على عقل جمعي ، ولذلك يتقبل الإشاعة ويتأثر بها وكان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه تجنب الإشاعة فعندما نقضت بنو قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ في غزوة "الأحزاب" أرسل سعد بن عباد ، وسعد بن معاذ رضى الله عنهما ليسطلعا الخبر ، وأوصاهما أن يتحفظا من ذكر خيانة

(١) سورة الحجرات ، الآية ٦ .

بنى قريظة ، وأن يرمزا إليه بكلمتين حتى لا يشيع الخبر ، وفى غزوة "أحد" وهن المؤمنون حينما سرت فيهم إشاعة أن الرسول قتل ، ولما كشف أحد الصحابة حياة رسول الله ﷺ أمره الرسول بالسكوت حتى لا يعرف الكفار مكانه .

إن كثيرا من الأعمال تحتاج إلى إحاطتها بالسرية ، وعدم إظهارها منعا لاستفادة العدو بها .

وكثير من الأخبار تفتري ، وتنظم لنشر روح الخوف والهزيمة لدى الخصوم .

وقد وضع الإسلام منهجا للتعامل مع الإشاعات بردها إلى منهج الله تعالى الذى يبلغه رسول الله ﷺ ، وقد فهمه العلماء الذين يعرفون دينهم ، ويمكنهم رد الإشاعة إلى الحقيقة الدينية وفق منهج الله تعالى ... ومنها :

(١) عدم ترديد الإشاعة قبل ردها إلى المختصين أولى الأمر . يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾^(١) .

(٢) فحص الإشاعة حين سماعها ، وقياسها على الحقائق العادية لكشف مدى معقوليتها . يقول الله تعالى : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾^(٢) .

(٣) رد الإشاعة إلى المختصين الذين يمكنهم توضيح الحق ، ورد الأكاذيب وهم أولو الأمر القادرون على تحديد الصواب من الخطأ ، وتحديد ما يذاع وما لا يذاع .

(١) سورة النور ، الآية ١٦ .

(٢) سورة النور ، الآية ١٢ .

- (٤) التمسك بالحق الواضح ، والإيمان بالثوابت الدينية والاجتماعية حتى لا تتمكن الإشاعة وأصحابها من تحقيق الأهداف التي يعملون لها .
- (٥) اعتبار مروجي الإشاعة كمن اخترعها ، لأن الضرر يقع بسبب ترويج الإشاعة أكثر من اختراعها . يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾^(١) .

إن المجتمع الإسلامى مستهدف من خصومه ، وأهم وسائلهم هو نشر البلبلة والوهن فيه ، ولذلك كانت أهمية مادعت إليه الآية من ضرورة رد الأخبار إلى المختصين منعا لضررها .

النصر من عند الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ .

- ١ - أسباب نزول الآية

نزلت الآية في مواعدة رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب ، ذلك أن رسول الله ﷺ واعدّه موسم "بدر الصغرى" بعد غزوة "أحد" ، وذلك في ذى القعدة في العام التالى لأحد ، فلما جاء الميعاد دعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى الخروج فكرهه بعضهم ، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين مجاهدا راكبين إلى "بدر الصغرى" فكفاهم الله القتال ، ورجعوا إلى المدينة سالمين ، ونزلت الآية عتابا للذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ^(٢) .

(١) سورة النور ، الآية ١٥ .

(٢) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٦٥ ، تفسير البيضاوى ج ٢ ص ٥٤ .

(٣٨٨)

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة وسيلة من وسائل تحصين الجبهة الداخلية بتعليم المسلمين كيفية التصرف مع الإشاعات والأخبار جاءت هذه الآية لبيان أهمية مواجهة الأعداء بالقتال والجهاد .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تتحدث عن أهمية مقاتلة الأعداء ، ومجاهدتهم أملا في أن ينتهي بأس الذين كفروا بتأييد الله وعونه ، فهو سبحانه الكبير القوى المتعال .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَاقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الأمر في الآية لرسول الله ﷺ حتى لا يدع جهاد الأعداء والانتصار منهم للمستضعفين من المؤمنين .
وقال بعض المفسرين : الأمر لرسول الله ﷺ إلا أن المقصود به الأمة كلها لأنه لم يأت خبر قط أن القتال فرض على النبي ﷺ وحده .
والفاء في الآية متعلقة بقوله تعالى : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ^(١) أى من أجل هذا فقاتل .

﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ لا تكلف غيرك ولا تجبره على الخروج ، بل أخرج للجهاد ، ولو لم يكن معك أحد ، فإن الله هو ناصرك ومؤيدك لا الجنود الذين سيخرجون معك ، وقد وعدك الله بالنصر فلا تقعد عن الجهاد .

(١) سورة النساء ، الآية ٧٤ .

﴿ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى وحث المؤمنين على الجهاد ، وادعهم إليه ، وعرفهم أحكامه ، وبين لهم ثوابه ، وعاقبته في الدنيا والآخرة ، فدعوتهم هى واجبك ، وطاعتهم هى مسئوليتهم أمام الله تعالى .

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَّ بِأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى لعل الله أن يمنعهم بقدرته ويمنع عنكم شدة الذين كفروا ، وعنتهم فيهمزهم ، ويردهم ... وقد فعل ذلك سبحانه وتعالى فقد تخاذل فريق أبى سفيان ، وخاف من الحرب ، ولم يحضر أحدهم إلى "بدر" .

و ﴿ عَسَى ﴾ تفيد الترجى ، وهو الطمع في عون الله ، ونصره ، وهو واجب على المسلم يتمناه مع ربه .

﴿ وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى الأقوى والأشد عن سائر الخلق ، وقد نصركم بقدرته سبحانه وتعالى ، فاطيعوه وتوكلوا عليه سبحانه وتعالى .

﴿ وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ أى وهو سبحانه وتعالى الأقوى في إيقاع العذاب على من يستحقه من الكفار ومن غيرهم .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله فرض القتال على المسلمين ، وتأمّر رسول الله ﷺ بتنفيذ مواعده لأبى سفيان ولو كان وحده ، وتعيب على المؤمنين قعودهم عن القتال بعد أن فرضه سبحانه وتعالى عليهم ، وتأمّر الرسول بحثهم على القتال ودعوتهم للجهاد ، أملا في تحقيق نصر على الكافرين بمعونة الله تعالى فهو الأقوى ، وهو الشديد في الحساب والعقاب .

(٣٩٠)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

وجوب طاعة الله سبحانه وتعالى

أمر الله رسوله ﷺ أن يخرج للجهاد ولو كان وحده ، ويثق في نصر الله تعالى فهو الناصر ، وليس الناس .

إن الله أمر الناس بالطاعة ليظهر المطيع منهم والعاصي ... فهو سبحانه كفيل بنصر عباده وتوفيقيهم ، وهزيمة أعدائهم ، ورد الظلم والعدوان عنهم ، فهو سبحانه الكبير المتعال .

إن نصر الله لا يعتمد على الرجال وحدهم ، فله سبحانه جنود السماء والأرض ، وهو مالك النفوس والقلوب ينصرها بالثبات ، ويهزمها بالرعب والخوف ... وقد حدث أن خالف أبو سفيان الموعد خوفا من قوة المسلمين .

الركيزة الثانية

أهمية تشريع الجهاد

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يحرض المسلمين على قتال الكفار أعداء الله تعالى وأعدائهم لرد عدوانهم ، وصددهم عن سبيل الله تعالى ، لأنهم إن لم يواجهوا بالجهاد سيزدادون طغيانا وعدوانا .

إن المجاهدين يتوكلون على ربهم ، ولذلك ينصرهم . فهو ولي المؤمنين وهو نعم المولى ونعم النصير .

أهمية التماسك الاجتماعي

يقول الله تعالى :

﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٣٩١﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٣٩٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۚ ﴿٣٩٣﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

جاءت الآية السابقة في بيان أهمية الجهاد ، ومواجهة العدو الخارجي ، وجاءت هذه الآيات في تشريع أمور تؤدي إلى التماسك الداخلي لما له من أثر في مواجهة الأعداء .

- ٢ -

موضوع الآيات

تتناول الآيات بعض الآداب الاجتماعية ... منها :

- (١) قيام المسلم بمعاونة أخيه فيما يجلب له النفع ، ولا يضره .
- (٢) ضرورة الالتزام بتحية الإسلام وآدابها .
- (٣) العمل الجماعي فيما يرضى الله تعالى لنيل ثواب الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۚ ﴾ أى من يقيم بمعاونة أخيه في أمر ما ، ويجتمع معه في تحقيق مسأله تخصه ، وتفيده ،

ليجلب له نفعاً أو يرفع عنه بلاء يكن له حظ وافر من الأجر والثواب الذى كتبه الله له لقيامه بمعاونة غيره معاونة طيبة ، ومشاركته في الخير الذى يتمناه .
 جاء في الكشف أن الشفاعة الحسنة هى التى روى بها حق المسلم ، ليدفع عنه بها شراً أو يجلب له نفعاً ابتغاء وجه الله تعالى ، ولم يأخذ عليها رشوة أو ينتظرها ، وكانت في أمر جائز لا في حد من حدود الله ، ولا في حق من الحقوق ، والسيئة ما كانت بخلاف ذلك^(١) .

﴿ وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾ أى ومن يفعل أمراً ضاراً بأخيه المسلم كأن ينقل نميمة ، أو ينشر حديثاً للوقيعة ، أو يذيع سرا له كان يخفيه ... من يفعل ذلك يجعل الله له من السوء مثله أو ضعفه ، ويجعل له نصيباً به يخصه ويرى عواقبه في الدنيا وفى الآخرة .
 ونرى أن الله يعطى على الشفاعة الحسنة نصيباً من مثلها بلا حد لهذا النصيب لكثرة نفعه ، ومع الشفاعة السيئة تعاقب بمثلها أو ضعفها فقط رحمة منه سبحانه وتعالى ، وفتحاً لباب التوبة .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ أى وكان الله محاسباً وقادراً على كل خلقه ، يحفظ أخبارهم ، وأفعالهم ، ويحاسبهم بها .

﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾ أى إذا ألقى مسلم على أخيه تحية فواجب رد هذه التحية بأحسن منها ... والتحية مشتقة من الحياة ، وكان العرب . يقول بعضهم لبعض : "حياك الله" أى جعل الله لك حياة فهى دعاء في صورة الخبر ... فلما جاء الإسلام جعل تحيته "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" ... وهى أفضل من تحية العرب لأن الحياة قد تكون طيبة وقد تكون مردولة ... أما السلام فهو خير كله لأنه يشمل السلام والأمن ، والرحمة والعفو ، والبركة والنماء مع ربط ذلك بعباء الله تعالى .

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ٥٤٩ .

﴿ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ يعنى إذا لم تردوا التحية بأحسن منها فردوها كما هي ،
فهذا هو الفرض الواجب .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ أى أنه سبحانه كان وما يزال
رقيبا عليكم ، عليما بكم ، يحصى عليكم أعمالكم ، وسيحاسبكم عليها خيرا ، أو
شرا .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى هذا شرع الإله الواحد الذى لا شريك له
فأطيعوه والتزموا بأوامره ، لأن الطاعة جزء من العبادة .

﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ اللام للقسم المقدر ، والتقدير : والله ليجمعنكم ، وقد أكد
الله الكلام بالقسم وباللام ، وبنون القسم ، وبالفعل المضارع لبيان أنه سبحانه
وتعالى سيجمعكم بالموت ، ويحييكم في القبور ، ويخرجكم من القبور إلى البعث
والنشور ليحاسبكم جميعا في وقت واحد حيث جمع الخلائق كلهم .
﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ أى سيجمعكم الله يوم قيامتكم من قبوركم ، وبعثكم
وحشركم .

﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى لا شك في هذا البعث والحساب الذى قضى الله به
وعرف العباد بوقوعه .

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ ؟ ... والاستفهام للتكثير ، وهو يعنى
لا أحد أصدق من الله تعالى في حديثه الذى أنزله عليكم ، لتعلموا أن القيامة حق ،
والبعث حق ، والحساب حق ، لما ورد في إثبات ذلك من قرآن وسنة فاعملوا له
واشفعوا شفاعة طيبة ، والتزموا بتحية الإسلام ، واطيعوا الله ورسوله .
وقد وردت الأحاديث تؤيد ما جاءت به الآيات ... ومنها :

- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ جالسا فجاء رجل يسأل فأقبل علينا رسول الله ﷺ قال : اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان رسوله ما شاء^(١) .
- وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : "أي الإسلام خير ؟...؟
- قال ﷺ : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف"^(٢) .
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم"^(٣) .
- وعن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام"^(٤) .
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : "لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام قال : اذهب فسلم على أولئك ، نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك .
- فقال : السلام عليكم .
- فقالوا : عليك السلام ورحمة الله فزادوه ورحمة الله"^(٥) .
- وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليكم ، فرد عليه ثم جلس ، فقال رسول الله ﷺ : عشر لقصره السلام على السلام عليكم .

(١) صحيح البخارى - كتاب الزكاة - باب التحريض على الصدقة ج ٥ ص ٢٥٥ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب الطعام في الإسلام ج ١ ص ١٩ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ج ١ ص ١٨٠ .

(٤) شرح السنة للبخارى - باب التحريض على قيام الليل ج ١ ص ٢٢٢ .

(٥) صحيح البخارى - كتاب أحاديث الأنبياء - باب خلق آدم عليه السلام ج ١١ ص ١٠٧ .

(٣٩٥)

ثم جاء آخر فقال : وعليكم السلام ورحمة الله .

فرد عليه فجلس .

وقال ﷺ : عشرون لأنه زاد "ورحمة الله" .

فجاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فرد عليه فجلس فقال ﷺ : ثلاثون لأنه زاد عن الثاني "وبركاته" (١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن على المؤمن أن يكون في عون أخيه ، ويساعده في جلب المنافع ، ودرء البلاء لينال خيرا بذلك ، لأن من يعمل على إضرار أخيه سيقع في ضرر يماثله أو أكثر منه ، وعلى المسلمين أن ينشروا بينهم تحية الإسلام لينالوا بها الخير والرضوان ، وليعلم الجميع أن الله تعالى سيجمعهم يوم القيامة ، ويحاسبهم ويجازيهم بلا أى شك في حديث الله تعالى فهو الصدق واليقين .

- ٥ -

من أحكام السلام وآدابه

- إلقاء تحية الإسلام سنة على الكفاية ، ويستجب إظهارها وافتشاؤها لقوله ﷺ : "افشوا السلام بينكم" ... والرد واجب على الكفاية كذلك للأمر الوارد في الآية .

ومن جمال الإسلام أن جعل ثواب إلقاء التحية أكثر من ردها مع أن الإلقاء سنة ، والرد فرض .

- ومن السنة أن يسلم المسلم على أهل بيته ، ووالديه وقرابته كلما قابلهم أو غادر لقاءهم .

(١) سنن الترمذى - كتاب الاستئذان والأدب . باب ما ذكر في فضل السلام ج ٥ ص ٢٩٥ .

- ومن السنة أن يسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير .
- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير" ^(١) .
- وفي رواية للبخاري قال : "يسلم الصغير على الكبير ، والمار على القاعد ، والقليل على الكثير" ^(٢) .
- وإذا تلاقى رجلان فالمبتدئ بالسلام هو الأفضل ، لما روي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "إن أولى الناس بالله عز وجل من بدأهم بالسلام" .
- وقيل : يا رسول الله الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام .
- قال : "أولاهما بالله" ^(٣) .
- ويستحب أن يبدأ بالسلام قبل الكلام وطلب الحاجة .
- والسنة أنه إذا مر مسلم بجماعة من الصبيان الصغار أن يسلم عليهم ، لما روي عن أنس رضي الله عنه أنه مر على صبيان فسلم عليهم ، وقال : كان رسول الله ﷺ يفعل ^(٤) .
- وفي رواية لأبي داود أن النبي ﷺ مر على غلمان يلعبون فسلم عليهم ^(٥) .
- وأما السلام على النساء فإن كن جمعا جالسات في مسجد ، أو موضع فيستحب أن يسلم عليهن إذا لم يخف على نفسه ، أو عليهن فتنة لما روي عن أسماء بنت يزيد قالت مر علينا رسول الله ﷺ في نسوة فسلم علينا ^(٦) .

(١) صحيح البخارى - كتاب الاستئذان . باب تسليم الراكب على الماشي ج ١٩ ص ٢٤٥ .

(٢) سنن أبي داود - كتاب الأدب . باب من أولى بالسلام ج ١٣ ص ٤١٦ .

(٣) سنن أبي داود - كتاب الأدب . باب في فضل من بدأ بالسلام ج ١٣ ص ٤١٤ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب الاستئذان . باب التسليم على الصبيان ج ١٩ ص ٢٦٩ .

(٥) سنن أبي داود - كتاب الأدب ج ١٣ ص ٤١٣ .

(٦) مسند الصحابة ج ٤٣ ص ١٢٥ .

وفي رواية الترمذي أن رسول الله ﷺ مر في مسجد يوما وعصبة من النساء قعود فألوى بيده للتسليم^(١) .

- وإذا مر مسلم على امرأة مفردة أجنبية فإن كانت جميلة فلا يسلم عليها ولو سلم فلا ترد هي عليه ، لأنه لم يستحق الرد ، وإن كانت عجوزا لا يخاف عليه ولا عليها الفتنة سلم عليها وترد هي عليه .
وحكم النساء مع النساء كحكم الرجال مع الرجال في السلام فيسلم بعضهن على بعض .

- يكره السلام على الذي يبول ، أو يتغوط ، ونحو ذلك ، فلو سلم مسلم على واحد من هؤلاء فلا يستحق جوابا لما روي عن ابن عمر : "أن رجلا مر ورسول الله ﷺ يبول فسلم عليه فلم يرد عليه"^(٢) .

- ويكره التسليم على من في الحمام ، وقيل : إن كانوا متزيرين بالمآزر سلم عليهم والا فلا .

ويكره التسليم على النائم والناعس والمصلّي والمؤذن وتالي القرآن الكريم خلال الصلاة والأذان والتلاوة .

- ويكره التسليم على المصلين في حال الخطبة لأن الجالسين مأمورون بالإنصات للخطبة .

ويكره التسليم على المبتدع ، والمعلن بفسق ، وكذلك الظلمة ونحوهم فلا يسلم على هؤلاء .

ولا مانع من التسليم على أهل الكتاب ما لم يكونوا محاربين لعموم الأمر بالسلام ، ولأن السلام دعوة ودعاء ، وقد ورد أن إفشاء السلام يكون للإنسان المعروف ، وغير المعروف .

(١) سنن الترمذي . كتاب الاستئذان ج ٥ ص ٣٠٥ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الحيض . باب التيمم ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٣٩٨)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

إعلان الإسلام في كلمة

المسلم مسئول عن دينه ، وعليه أن يعلى شأنه ، ويرفع راياته ، ولذلك حدد الله للمسلمين تحية خاصة بهم تتضمن ذكر السلام ، والرحمة ، والبركة وتجمع بينها ، وتصلها بموجدها وهو الله تعالى .

وهذه المعانى الثلاثة تشمل قيم الحياة العالية فالسلام هو الأمن والهدوء والطمأنينة ، والرحمة تعنى الحنو والتسامح ، والرضا ، وسائر معانى الإنسانية وقيمها ، والبركة هى نمو الخير ، ومضاعفة الفضائل .

وبتحقق هذه المعانى يرى الإنسان سعادة الدنيا والآخرة .

إن تحية الإسلام وردت بصيغة الخبر ، ومعناها الدعاء ، وأثرها في

المجتمع كبير :

(أ) إنها تلطف حياة الأسرة ، وما أجمل التحية الإسلامية تلقى فيها بين

الغدوة والروحة لتستمر معانيها في القلب وعلى اللسان .

(ب) وهى تعد معاهدة سريعة مع الآخرين يعقدها الطرفان في صورة إيجاب

وقبول للمحافظة على روح المودة التى ينادى الإسلام بها .

(ج) إنها تطبيق لشرع الله يعلن بها الطرفان التزامهما بكل ما جاء من عند الله

تعالى ، وأولها هذه المعانى التى تظهرها التحية وهى أصلا من الله

تعالى .

يجب أن يستحضر المسلم خلال التسليم المعانى التى يتضمنها السلام ،

إلقاء أوردا ، ويعيش فيها ، ويوقن بأنه مسئول عن كل عمله في المسلمين أمام

الله تعالى ، وعليه أن يعمل للسلام ، والتحية والبركة .

(٣٩٩)

الركيزة الثانية

تميز الإنسان المسلم عن غيره

حرص الإسلام على تمييز الشخصية الإسلامية بما حباها الله به من عقيدة صافية ، وشريعة شاملة ، وخلق كريم ، ولذلك نهى عن التقليد والتشبه بغير المسلمين .

لقد جاء الإسلام ، والعرب يحيى بعضهم بعضا بقولهم : "الأعم صباحا" و "الأعم مساء" و "حياك الله" فأمرهم بأن يستبدلوا بها تحية الإسلام وهى السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فأطاع المسلمون ، وأفشوها فيما بينهم .
واليوم ...

عدنا إلى معصية الله في التحية ، وشاع بين الناس تحية الآخرين بلقائهم وأخذ المسلمون يقلدون غير المسلمين في التحية ، وفى كثير من أنشطة وأنظمة الحياة .

إن التقليد إحساس بالنقض والضعف ، وشعور بالدونية التى تدفع صاحبها إلى محاولة الترقى ، وادعاء العلو بهذا التقليد .
يحكى أن هرا حاكى صولة الأسد ، وعاش بين الأسود فداسوه بالأقدام ... لأنه حاول تقليدهم فاستحق ما أصابه من دمار .

إن الإسلام عظيم في كل جوانبه ... فلم يفر منه أبناؤه ؟ ... وهل ساءهم استقلالهم عن غيرهم ؟ ... وهل قلدوا غيرهم في العمل والنهضة ، والتقدم أم ماذا ؟

إنى ادعو المسلمين إلى التمسك بدينهم ، والاعتزاز به ... لأن الاعتزاز بغيره لا يفيد ...

إن تباهى المرأة القبيحة بجمال أختها لا يفيدها بل تزيدها جهلا مع القبح الذى هى فيه ، ولن تعود عليها إلا بالقصور والسفه .

التحذير من المنافقين

يقول الله تعالى :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۚ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ ٨٨ ودُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۚ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٨٩ ﴿ .

- ١ -

سبب نزول الآيتين

وردت عدة أسباب لنزول هاتين الآيتين ... أهمها :

قيل : نزلت في الذين تخلفوا يوم أحد من المنافقين فلما رجع المسلمون إلى المدينة قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ لرسول الله ﷺ اقتلهم يا رسول الله فإنهم منافقون ، وقال بعضهم : أعف عنهم فإنهم قد تكلموا بكلمة الإسلام .
عن زيد بن ثابت ؓ قال : لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد ، رجع ناس ممن خرج معه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فئتين ، فرقة قالت : نقتلهم ، وفرقة قالت : لا نقتلهم ، فنزلت الآية فقال رسول الله ﷺ : "إنها طيبة تنفي الرجال كما ينفي الكير خبث الحديد" .

وقيل : نزلت في قوم خرجوا إلى المدينة وأسلموا ثم استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة فاختلف المسلمون فيهم فقائل يقول : هم منافقون ، وقائل يقول : هم مؤمنون فنزلت الآية ...

(٤٠١)

وقيل : نزلت في ناس من قريش قدموا المدينة وأسلموا ثم ندموا على ذلك فخرجوا كهيئة المتنزهين فلما بعدوا عن المدينة كتبوا إلى رسول الله ﷺ : إنا على الذي فارقتك عليه من الإيمان ، ولكننا اجتونا المدينة واشتقنا إلى أرضنا ثم إنهم خرجوا في تجارة إلى الشام فبلغ ذلك المسلمين ، فقال بعضهم : نخرج إليهم ، ونقتلهم ، ونأخذ ما معهم لأنهم رغبوا عن ديننا ، وقالت طائفة منهم : كيف تقتلون قوما على دينكم وان لم يذروا ديارهم ، وكان هذا بعين رسول الله ﷺ وهو ساكت لا ينهي أحد الفريقين فنزلت هذه الآية .

وقيل : نزلت في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا وكانوا يظاهرون المشركين^(١) .

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما تحدثت الآيات السابقة عن ضرورة التماسك الاجتماعي ، وأهميته للمسلمين جاءت هاتان الآيتان لدعوة المسلمين إلى اتخاذ موقف واحد تجاه المنافقين وعدم الاختلاف ، وطاعة الله تعالى ، واتباع منهجه في الحياة .

- ٣ -

موضوع الآيتين

الآيتان تتحدثان عن اختلاف المسلمين إزاء رأيهم في المنافقين إلى فئتين وتدعوان إلى وحدة الجماعة المسلمة إزاء المنافقين الذين انتكسوا ، وخالفوا دين الله تعالى ، وتدعوان إلى ضرورة الحذر منهم فهم يعملون على إضلال المؤمنين ، ويودون عودتهم إلى الكفر ليكونوا مثلهم ، والواجب على المسلمين عدم اتخاذهم أولياء يستتصرون بهم ما لم يعودوا إلى الإسلام بصدق وإخلاص .

(١) تفسير الألوسي ج ٥ ص ١٠٦ ، تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٢١ ، تفسير البيضاوي ج ٢ ص ٥٧ .

(٤٠٢)

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتعجب ، ومعناه ما لكم

اختلفتم في شأن قوم نافقوا نفاقاً ظاهراً ؟ ... وتفرقتم فيهم فرقتين ، فرقة تذب عنهم ، وفرقة تباينهم وتعاديههم .

وهذا الاستفهام يتضمن نهى الذين يذبون عنهم لظهور نفاقهم ، ووضوح بعدهم عن طريق المؤمنين كما توضحه الآية .

﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى والحال أن الله سبحانه وتعالى نكسهم

وأعادهم إلى ضلالهم ، وعمقهم في كفرهم ، فهم مرتدون عن الإسلام بسبب ما ارتكبوه من أعمال خبيثة ، وبما أظهروا من أقوال وأفعال تنبئ عن كفرهم وضلالهم .

﴿ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار ، وهو

موجه للمؤمنين الذين يدافعون عن المنافقين ، ومعناه : أنقصدون تغيير سنة الله في هداية المنافقين ؟ وتظنون أنكم بالدفاع عنهم تقربونهم من الإيمان ؟ إن الدفاع عن المنافقين يغرهم ، ويدفعهم إلى التمسك بنفاقهم إذا رأوا فريقاً يدافع عنهم .

إن من رضى طريق الضلال بعد أن رأى حلاوة الإيمان لا يمكن إقناعه ، فقد فسدت فطرته ، وكثرت مساوئه ، وانتكس على عقبه ، وران العمل السيئ على قلبه ، وصور هذا المنافق معلومة كما هى في أسباب النزول المذكورة .

﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ أى ومن كتب الله عليه في

اللوح المحفوظ الضلال والنفاق فلا سبيل إلى هدايته لأن قدر الله لا يتغير ، وقضائه لا يتبدل .

(٤٠٣)

إن من ظهر نفاقه يجب البعد عنه ، وتركه حتى لا ينشر نفاقه ، ويثير مزاعمه لأنه يحاول تكثير جماعته ، وأخذ المؤمنين إليه في نفاقه وضلاله .

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا ﴾ أى يتمنون كفركم لتكونوا مثلهم في الكفر ، وهم يعملون لهذا التمنى بمودة ظاهرة مدعين الصدق والمصلحة في دعوتهم للنفاق .

﴿ فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ أى متساوون أنتم وهم في الكفر والنفاق .

﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى لا تتخذوا من بينهم وليا تتناصرون معه وتدافعون عنه ، وتوادونه .

والمسلم مكلف بمعاملة غيره على ظاهره ، وعمله ، ولا يتصور أنه يعرف نوايا غيره وقلبه لأن الذى يعلم ذلك هو الله تعالى ، فلا تتخذوا من الكافرين أولياء ما لم يعملوا بعمل المؤمنين الصادقين ، وعمل المؤمن الصادق معلوم لهم ولكم .

﴿ حَتَّىٰ يَهِاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ حتى يخرجوا في سبيل الله تعالى ويجاهدوا في سبيله ، وذلك يتم بالهجرة الصادقة ، والانضمام إلى المعسكر الإسلامى المستقيم .

والهجرة الصادقة أنواع :

- **الهجرة الأولى :** التى كانت في صدر الإسلام ، وتشمل الهجرتين إلى الحبشة ، والهجرة من مكة إلى المدينة ، وفيها خرج المسلمون من مكة إلى المدينة حماية لدينهم ، وصيانة لأنفسهم ، ومعايشتهم لرسول الله ﷺ وقد انتهت هذه الهجرة بعد فتح مكة لقوله ﷺ : " لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية" ^(١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الجهاد والسير . باب وجوب النفير ج ٩ ص ٤٠٩ .

– الهجرة الثانية : هجرة مواطن الكفر والضلال والحق برسول الله ﷺ في مجاهدة الكفار والمنافقين .

– الهجرة الثالثة : هجرة المعاصي إلى الطاعة ، والالتزام بمنهج الله تعالى وهى المقصودة بقوله ﷺ : "والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه" (١) .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى وان أبى هؤلاء المنافقون الهجرة إلى الله تعالى ، واستمروا في نفاقهم فهم أعداؤكم يعملون على هدم الإسلام ، واضلال المؤمنين .
﴿ فَخُذُوهُمْ ﴾ أى خذوهم أيها المؤمنون بالقوة ومعونة الله .

﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ أى اقتلوهم في أى مكان تجدونهم فيه وفى أى وقت وجدتموهم لأن حكم التعامل معهم كالتيعامل مع سائر المشركين يقتلون حيث يوجدون ويتجنبون مجانبه كلية ، وان بذلوا الولاية والنصرة فهم كاذبون .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى لا تتخذوا من هؤلاء المنافقين أولياء توالونهم ويوالونكم ، ولا تتخذوا منهم نصراء لأنهم ينصرون الكفار عليكم .

- ٥ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان عدم جواز انقسام المسلمين إلى فريقين إزاء ظاهرة النفاق لأنه لا يصح الدفاع عنهم فقد نكصوا عهدهم مع الله ، وأضلهم الله بسبب عملهم السيئ ... ولن تفيد موالاتهم والدفاع عنهم فقد ضلوا ضلالا بعيدا ... وتبين الآية أن من أراد الله له الضلالة لعلمه به لن يصدق في الإيمان مهما حاول المسلمون .

(١) صحيح البخارى . كتاب الرقاق . باب الانتفاء عن المعاصي ج ٢٠ ص ١٢٨ .

(٤٠٥)

والمنافقون انتقلوا في الحقيقة إلى معسكر الكفر يتمنون إضلال المؤمنين وادخالهم في الكفر ليكونوا سواء في الضلال .

وينصح الله المؤمنين بعدم اتخاذ المنافقين أولياء ما لم يعلنوا إيمانهم قولا وعملا وذلك بهجرة المعاصي ، والدخول في طاعة الله تعالى ، وسلوك سبيله المستقيم ...

إن أبوا ذلك فخذوهم ، واقتلوهم في أى مكان تجدونهم فيه ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا حيث لا فائدة فيهم أبدا .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآية عددا من الركائز ... منها :

الركيزة الأولى

بيان طباع المنافقين

المنافقون جماعة يعيشون بين المسلمين يعلنون الإيمان ، ويبطنون الكفر ، واخلاصهم لهذا الباطن الذى صدقوا به ، واتبعوه ... وهم متصفون بما يلى :

(أ) يتصفون بالضلال والفسق بسبب ما عملوا لأنهم لما نافقوا وعصوا الله تعالى أضلهم وأعمى أبصارهم بسبب ما قدموا ، ومن يضل الله فما له من هاد .

(ب) عداوتهم للإسلام والمسلمين شديدة ، فهم يحاولون بكل مكرهم ، وكيدهم أن يصرفوا المؤمنين عن دينهم ليكونوا مثلهم في الكفر والضلال ، وبذلك يظهرون الإسلام بصورة منفرة ، ويصرفون المسلمين عن دينهم الذى آمنوا به .

(ج) ضرورة الحذر منهم ، ومواجهتهم الصريحة ، فهم لا يستحقون ملاينة أو هدوءا فهم لا يصلحون أولياء ، ولن ينصروا مسلما .

(٤٠٦)

الركيزة الثانية

كيفية التعامل مع المنافقين

ترشد الآيات المسلمين إلى كيفية التعامل مع المنافقين ، فبعد أن وضحت خصائصهم ، بينت منهج التعامل منهم ، وتتلخص خطوات هذا المنهج فيما يلي :

- (أ) لا ينبغي التردد في معاملة المنافقين مادام نفاقهم قد ظهر ، ولا يصح لمسلم أن يوالى منافقا ظهر نفاقه ، لأنهم بذلك قد ضلوا وكفروا ، ولن يتمكن إنسان من هدايتهم بعد أن أضلهم الله تعالى .
- (ب) لا يجوز اعتبار توبة المنافق إلا إذا هاجر المعاصي ، وتاب توبة نصوحا وعاد إلى الإسلام بظاهره وباطنه .
- (ج) ضرورة التخلص من المنافقين في المجتمع الإسلامي فهم بؤرة الفساد وموطن الأذى ، ولا ثقة في خير يأتي من قبلهم .
- (د) لا يجوز اتخاذ المنافقين أولياء للمؤمنين لأنهم بنفاقهم يعادون المسلمين ولا يريدون خيرا لهم ، وفي هذا المجال يقول الله تعالى لرسوله ﷺ :
- ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعْذُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴾^(١) .

وقد وجه الله المسلمين إلى هذا المنهج في التعامل مع المنافقين ، لأن وجودهم خطر على المجتمع الإسلامي .

إن هذا الموقف الإسلامي مع المنافقين بسبب أنهم دخلوا في الإسلام ظاهرا وتلاعبوا به ، واستهزأوا بدين الله ، وكأنهم يشهدون ضد الإسلام والمسلمين .

(١) سورة التوبة ، الآية ٨٣ .

إن الإسلام يحمي حرية العقيدة ، ولا يجبر أحدا على اعتناق الإسلام ، ولكنه بالنسبة للمنافق يؤدبه ، ويعاقبه على ما اقترف من جرم في حق الإسلام والمسلمين ، لأنه أعلن الإسلام أمام المسلمين ، ومع غيرهم يهزأ بالإسلام ويصرفهم عنه فهو صاد عن سبيل الله .

التوقف عن قتال المنافقين

يقول الله تعالى :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ ۚ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۚ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَاخْذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۖ ﴾

- ١ -

سبب نزول الآيتين

نزلت الآية في الأسلميين ذلك أن رسول الله وادع هلال بن عويمر الأسلمي عند خروجه إلى مكة على أن لا يعينه ولا يعين عليه ، كما اتفق رسول الله ﷺ معهم على أن من وصل إلى هلال من قومه وغيرهم ، ولجأ إليه فلهم من الجوار مثل ما لبنى هلال ، وقيل أراد بالقوم الذين بينهم وبين المسلمين ميثاق بنو بكر بن زيد مناة^(١) .

(١) تفسير البيضاوى ج ٢ ص ٥٨ ، تفسير الخازن ج ١ ص ٥٧٠ .

(٤٠٨)

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضرورة مؤاخذه المنافقين على ردتهم ونفاقهم جاءت هذه الآية تستثنى من هؤلاء المنافقين الذين يلجأون إلى جماعة من اناس بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية الأولى حكم المنافقين الذين يلجأون إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد فإنهم يأخذون حكم هؤلاء المعاهدين ، وبينت الآية الثانية نوعا من المنافقين مذبذب بين قومه وبين المؤمنين ونبعت على قتالهم إن لم يعتزلوا القتال .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

يستثنى الله تعالى من المنافقين الذين أمر بقتلهم صنفين هما :

• الصنف الأول : ويشمل :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصُلُّونَ إِلَىٰ قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ﴾ والمراد بهم الذين

ينتسبون إلى جماعة بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق كالأسلميين الذين ورد ذكرهم في سبب النزول .

والاستثناء يرجع إلى القتل لا إلى الموالاة لأن موالاة المنافقين والكافرين لا تجوز .

﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ أى جاءوكم وقد ضاقت نفوسهم

بالقتال ، فاعرضوا عنه ، وأعلنوا تمسكهم بالسلام ... وهؤلاء هم الجماعة التى ضاقت نفوسهم بالقتال فلجأوا إلى قوم معاهدين ، وأعلنوا للمسلمين أنهم مسالمون لا يريدون القتال .

﴿ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾ أى أعلنوا أنهم رافضون للقتال مع قومهم ضدكم ، أو معكم ضد قومهم ، والتزموا بالسلام الذى أعلنوه .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ ﴾ يذكر الله منته على المسلمين بصرف هؤلاء الناس عن قتالهم ، وادخال الخوف والرعب في قلوبهم من قتالكم ، ولو شاء سبحانه تقويه قلوبهم على القتال لكان ما أراد ، لكنه سبحانه أدخل الخوف في قلوبهم فكفهم عن القتال ، وقلل بذلك عدد مقاتليكم ، وذلك فضل من الله ليعيش المسلمون آمنين في رحاب السلام .

﴿ فَإِنْ أَعَثُّوْكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ أى مادام أن هؤلاء الناس قد تركوا قتالكم أيها المسلمون ، وأعلنوا ذلك قولاً وعملاً ، ولم يقاتلوكم ، أو يعاونوا من يقاتلكم .

﴿ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ﴾ أى أعلنوا الانقياد لكم ، ورجبوا في مصالحتكم والاتفاق على السلام في تعاملهم معكم ، وفى السلم معنى الانقياد والسلام .

﴿ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أى لم يجعل الله لكم حقاً في قتالهم ، والتصدى لهم بعدما ألقوا السلم إليكم ، وصار التعامل معهم وفق العهد والميثاق المتفق عليه أمراً واجباً .

• الصنف الثانى : ويشمل :

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ﴾ وهذا خطاب للمؤمنين ليعلموا صنفاً آخر من المنافقين لم يغادروا المدينة ، واستمروا يقيمون فيها بين المسلمين ، وأخذوا يعملون للسلامة مع المؤمنين ، ومع قومهم فابطنوا الكفر ، وأظهروا الإيمان ، فإذا سألهم الكافرون : بم آمنتم ؟ قالوا : آمنا بالقرء والعقرب والخنفساء يعلنون بذلك عدم إيمانهم ... واذ لقوا الذين آمنوا قالوا

(٤١٠)

لهم : إنا على دينكم ... يريدون بذلك أن يأمنوا الفريقين بإظهار أنهم معهم في كل حال .

وقد نزلت الآية تعرف رسول الله ﷺ والمسلمين بهؤلاء المنافقين حتى لا ينخدعوا بهم وبظاهريهم ، ويعلموا أن هؤلاء ميلهم شديد إلى الكفر ، لأن حديثهم عن الإيمان معكم ضلال وكذب ... لأنهم :

﴿ أُرْكُسُوا فِيهَا ﴾ أى انتكسوا عن الحق ، ودخلوا في الكفر ، ورجعوا القهقري منكسين رءوسهم حسا ، أو معنى ، وصاروا جنودا محاربين مع جنود الكفار .

وحكم هؤلاء معاملتهم بما يستحقون .

﴿ فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوكُمْ ﴾ أى إن لم يترك هؤلاء قتالكم ، وبيتعدوا عن مواجهتكم .

﴿ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ﴾ أى ويعاهدوكم على الأمن والسلام ، والانقياد لكم .

﴿ وَيَكْفُوا أَيَدِيَهُمْ ﴾ أى ويمتنعوا عمليا عن قتالكم .

﴿ فَخُذُوهُمْ ﴾ أى فخذوهم أسرى حين تتمكنون منهم .

﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أى واقتلوهم في أى مكان تجدونهم فيه

فهم خطر يترصد بكم .

﴿ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ أى جعلنا لكم على هذا

الصنف حجة ظاهرة ، وبرهان واضح يوجب عليكم قتالهم .

(٤١١)

- ٥ -

معنى الآيتين

الآيتان تبينان صنفين من المنافقين :

الصنف الأول : فريق من المنافقين يترك جوار المسلمين ، ويلجأ إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق ، وهؤلاء يعاملون معاملة المعاهدين ماداموا قد اعتزلوا القتال ، ونادوا بالسلام ، ولا حجة للمسلمين تجيز لهم قتال هؤلاء .

الصنف الثانى : وهم فريق من المنافقين يعيش مع المسلمين ، ويعمل على أن يكون آمناً مع قومه ، ومع المسلمين بإعلانه الإسلام مع المسلمين ، والكفر مع الكافرين ، ومقاتلة هذا الفريق واجب شرعى إلا إذا اعتزل القتال ، وأعلن الاستسلام ، والانقياد للمسلمين ، والحجة ظاهرة على قتال هذا الفريق .

- ٦ -

ركائز دعوية في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

معاملة المنافقين بما يستحقون

تشير الآيتان إلى أن المنافقين أصناف عديدة ... فمنهم من يؤثر السلامة ويلجأ إلى معاهدين ، وأهل ذمه ، ويلتزمون بما التزموا به ، وآخرون يعيشون محايدين بين قومهم ، وبين المسلمين ، ولا يصح قتالهم ومن المنافقين صنف ضال يعلن الإيمان مع المؤمنين ، ويظهر الكفر من الكافرين وإذا دعى لقتال المسلمين يستجيب للدعوة ، وهذا الصنف محارب ضال يجب قتاله وأسرره ، والضرب على يديه .

وعلى هذا ...

يجب على المسلم أن يتعامل مع غيره وفق ما هو عليه ، وأن يفهم الإنسان الذى يتعامل معه ليقابله بما يكافئه .

(٤١٢)

والعبرة ليست بالكلام المعسول ، والخطط المخادعة ، والواجب البحث عن الحقيقة لتكون المنارة الهادية للسلوك المطلوب .
إن المنافق عدو خطير للمسلمين ، ومودته لهم كاذبة لأنه يخشاهم ، ولذلك فهو يكر ويخادع ... وعلى المسلمين أن يفتنوا إلى هذه الحقائق ليعلموا حقيقة من يتعاملون معه .

الركيزة الثانية **تشريع القتال في الإسلام** **مرتبط بالخلق الكريم**

يهدف الإسلام إلى نشر الخير بين الناس أجمعين ، ولذلك كفل الله الحرية لاختيار الناس بعيدا عن محاولات الإضلال ، وافساد العقول بالشبه ، ونشر الأكاذيب والبطلان .
وقد شرع الله الجهاد لحماية الحق ، وصيانة الحرية ، ومنع الصد عن تبليغ دين الله تعالى .
وقد خلا الجهاد في الإسلام من الظلم والعدوان ، وبعد تماما عن القهر واجبار الناس على اعتناق ما لا يريدون .
والآيات واضحة الدلالة على هذا فهي تنهى عن قتال غير المسلم الملتزم بما عاهد المسلمين عليه ، كما تدعو إلى عدم مقاتلة من يترك قتال المسلمين ، ويلتزم بالسلم .
إنما يدعو الإسلام المسلم إلى قتال البغاة الذين يعيشون بالكذب والخداع ويعلنون الإيمان وهم كافرون ، ويدعون إلى السلام وهم أسرع الناس إلى الاستجابة لمحاربة المسلمين .
إن الجهاد يحمي الحق ، ويحارب الباطل ، ويمكن المسلمين من إعلاء كلمة الله بين الناس .

أحكام القتل الخطأ

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ۖ فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ ﴾

- ١ -

سبب النزول

الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي ، وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ ، وهو بمكة قبل الهجرة فأسلم ، ثم خاف أن يظهر إسلامه لأهله فخرج هاربا إلى المدينة ، فجزعت أمه لذلك جزعا شديدا ، وقالت لابنها الحارث وأبي جهل ابني هشام وهما أخوا عياش بن أبي ربيعة لأمه : والله لا يظلني سقف ، ولا أذوق طعاما ، ولا شرابا حتى تأتيا نى به ، فخرجنا في طلبه ، وخرج معهما الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتى أتوا المدينة فأتوا عياشا وهو في الأطم . فقالوا : أنزل فإن أمك لم يؤوها سقف بعدك وقد حلفت لا تأكل ، ولا تشرب حتى ترجع إليها ولك عهد بالله علينا ، أن لا نكرهك على شيء يحول بينك وبين دينك .

فلما ذكروا له جزع أمه ، وأوثقوا له العهد بالله نزل إليهم ، فأخرجوه من المدينة وأوثقوه ، وجلده كل واحد منهم مائة جلده ، ثم قدموا به على أمه . فلما أتاها قالت له : لا أحلك من وثاقتك حتى تكفر بالذي آمنت به ، ثم تركوه موثقا في الشمس ما شاء الله ، فأعطاهم الذي أرادوا . فأتاه الحارث بن زيد فقال : يا عياش ما هذا الذي كنت عليه ؟

(٤١٤)

لئن كان هدى لقد تركت الهدى .
ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها .
فغضب عياش من مقاتله وقال : والله لألّفاك خاليا إلا قتلتك .
ثم إن عياشا أسلم بعد ذلك وهاجر ، وأسلم الحارث بن زيد من بعده
وهاجر إلى رسول الله ﷺ .
ولبس عياش حاضرا يومئذ ولم يشعر بإسلام الحارث ، فبينما عياش يسير
بظهر قباء إذ لقي الحارث فقتله .
فقال لهم ناس : ويحك يا عياش أي شئ صنعت ؟
إنه قد اسلم .
فرجع عياش إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله إنه كان من أمري
وأمر الحارث ما قد علمت واني لم أشعر بإسلامه حتى قتلته فنزلت الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حكم قتل المنافقين ، وموادعتهم جاءت هذه الآية
لبيان أن المؤمن لا يقتل المؤمن إلا خطأ ، فإذا وقع هذا الخطأ فإن حكمه
الشرعى هو ما ذكرته الآية .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين أن المؤمن الصادق لا يمكن له أبدا أن يقتل مؤمنا متعمدا قتله
مهما كان الخلاف بينهما ، وإذا أخطأ المؤمن ، وقتل أخاه فعليه أن يكفر عن
الخطأ وفق ما جاء في الآية .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٧٢ .

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً ﴾ أى ما صح ، وما

جاز أن يقتل المسلم أخاه متعمدا ، ولا يوجد سبب يجوز ذلك ، فدم المسلم حرام على أخيه . يقول ﷺ : " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وانى رسول الله إلا باحدى ثلاث النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة" (١) .

وحين يحل قتل المسلم بهذه الأمور الثلاثة فإن الحاكم هو الذى يباشر تنفيذ الحكم الشرعى ، وليس لأولياء الدم إلا طلب حقهم من الحاكم أو يخطرونه بعفوهم عن الجانى إذا رأوا ذلك .

﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أى ومن اخطأ وقتل مسلما ، فعليه كفارة القتل الخطأ .

والخطأ فى القتل هو أن يضرب المسلم أخاه بشئ لا يقتل غالبا، ولا يقصد قتله بهذا الضرب .

ومن صور القتل الخطأ أن يرمى المسلم كافرا بآلة قاتلة فتخطاه إلى مسلم .

ومن صورهِ أيضا أن يحاول مسلم قتل ثعبان سام اقترب من إنسان بحجر لينقذ الرجل إلا أن الحجر تخطى الثعبان إلى رأس الرجل فيقتله ، وينجو الثعبان .

وكفارة القتل الخطأ ... هى :

(أ) ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ وتحرير الرقبة يكون بإعتاقها إن كان يملكها ،

(١) صحيح مسلم - كتاب القسامة . باب ما يباح به الدم ج ٩ ص ٢٥ .

أو بشرائها واعتاقها إن لم يكن يملكها ، وإذا لم يجد الرقبة المؤمنة ، وإن لم يستطع شراءها فعليه أن يصوم شهرين متتابعين ، لا يفطر بينهما أبدا ، فإن أفطر بدأ من البداية .

﴿ وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ أى ودفع الدية التى يقدرها الحاكم المسلم لأهل القتيل ليسلوا بها عن فقيدهم ، فإن تصدقوا بالدية ، وتنازلوا عنها كليا أو جزئيا سقط عن القاتل ما تصدقوا به عليه .

﴿ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أى وإن كان المقتول يعيش مع قوم محاربين للمسلمين فقتله المسلم خطأ كأن حاول قتل كافر فقتله .

﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ أى فدية هذا المسلم تحرير رقبة مؤمنة ، وعدم دفع الدية لأهله لأنهم بها يتقون على المسلمين ، وتلك هى كفارته ، فإن عجز عن تحرير الرقبة المؤمنة فعليه صيام شهرين متتابعين .

﴿ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ﴾ أى إن كان المقتول المسلم يعيش مع أهله المعاهدين ، ولهم ميثاق مع المسلمين ، فأمره يختلف عن السابقين لأن الكفارة حينئذ تكون مثل كفارة المسلم الذى يعيش مع المسلمين .

﴿ فَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ أى فكفارة هذا المسلم يؤديها القاتل كاملة لأهله المعاهدين والذميين .

﴿ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُّتَتَابِعَيْنِ ﴾ أى إذا لم يجد الرقبة المؤمنة ليعتقها فعليه أن يصوم بدلاها شهرين كاملين متتابعين .

﴿ تَوْبَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى شرع الله كفارة القتل الخطأ ليتوب بها المؤمن عن خطئه ، ويحذر من الوقوع فيه مرة أخرى .

(٤١٧)

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى كان ومازال سبحانه وتعالى عليما بالقاتل ونيته إن كان خطأ ، أو عمدا ، أو غير ذلك . وهو سبحانه عادل في حكمه وتشريعه يضع حكما مناسبا للواقع الذى شرع له .

فإن قيل : تعمد مسلم قتل مسلم فأخطأه إلى غيره ، فهل يعد هذا عمدا ، أو خطأ ؟

أرى . والله اعلم . أن نية القتل العمد يعلمها الله تعالى ، وسيعاقبه سبحانه وتعالى عليها ... وقتل الثانى هو خطأ محض يوجب كفارة القتل الخطأ ... والله اعلم .

- ٥ - معنى الآية

تبين الآية أن المؤمن لا يقتل أخاه متعمدا أبدا ، وقد يقتله خطأ ، فإن وقع هذا الخطأ وجب على القاتل الكفارة وهى دفع الدية لعصبة القتيل ما لم يعفوا عنها كليا أو جزئيا ، وتحرير رقبة مؤمنة ، فإن لم يجد هذه الرقبة يستبدل بها صيام شهرين متتابعين كاملين لا يفطر خلالهما يوما ، وإن اضطر إلى الفطر عليه أن يبدأ من جديد .

وبستثنى الله دفع الدية إذا كان أهل القتيل محاربين للمسلمين حتى لا يتقوا بها على المسلمين .
وإذا عفا أولياء الدم عن الدية فإنها تسقط ، أما عتق الرقبة المؤمنة فهى بأقية لا تسقط بعفو الأولياء لأن الدية حق الأولياء ، وعتق الرقبة المؤمنة حق المجتمع .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

حرمة دم المسلم

المسلم على المسلم حرام دمه ، وماله ، وعرضه ، وقد عمل الإسلام لتأكيد هذه

الحقيقة بعدة وسائل :

(أ) نادى الإسلام بالأخوة العامة فقال ﷺ : "كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم" (١) .

(ب) أمر الله بالتعاون بين المسلمين ، ونشر المؤدة والمحبة بين سائر الناس فقال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ ﴾ (٢) . وقال ﷺ : "المسلم أخو المسلم" (٣) .

ويقول ﷺ : "والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه" (٤) .

(ج) حث المسلمين على التناصر ، والتناصح وكلف كل مسلم بأن يكون في صحبة أخيه . يقول ﷺ : "المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم" (٥) .

(د) قدم الله للمسلمين تصورا لا يمكن حدوثه ، وهو تعمد أن يقتل المسلم أخاه .

(هـ) شرع الله عقوبة لمن يقتل أخاه خطأ ، وهى الكفارة التى تحدثت عنها الآية وفيها من الغرم الكثير لتكون رادعا للجانى ، وسلوة لأهل المقتول مع مصاحبة الندم والتوبة على ما وقع .

إن رسول الله ﷺ في خطبة الوداع ركز على الأساسيات الكبرى في الحياة الإسلامية ، وكان منها بيان أن دم المسلم حرام على أخيه كحرمة عرفه

(١) أحكام القرآن لابن العربي ج ٧ ص ١٠٨ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الإكراه . باب يمين الرجل ج ٢١ ص ٢٨٢ .

(٤) صحيح مسلم . كتاب الذكر . باب فضل الاجتماع على التلاوة ج ١٣ ص ٢١٢ .

(٥) كنز العمال ج ١ ص ٩٣ .

في التاسع من ذى الحجة وفى مكة المكرمة فقال ﷺ : "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم في يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا" (١) ، وقد وضع الله دماء الجاهلية فلا قتل ، ولا ثأر يجوز بعد هذا اليوم .

الركيزة الثانية

حقوق العباد لا تسقط بالخطأ

يقول النبي ﷺ : "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكروها عليه" (٢) فنص رسول الله ﷺ على رفع الإثم عن وقع في خطيئاً ... إلا أنه سبحانه وتعالى قضى بوجوب الكفارة في القتل الخطأ تقديراً لحرمة المسلم ، وليحذر كل مسلم أن يقع في خطأ يؤدي إلى قتل مسلم ، وينظم حياته على الأخوة والمودة مع المسلمين .

ومن هذا نعرف أن حقوق العباد لا تسقط بخطأ الجاني . فمن اتلف خطأ فعليه إصلاحه ما لم يتنازل أصحاب الحقوق عن حقوقهم ، وإنما ينجليه خطأه من حساب الله له ، لأنه سبحانه يعاقب على السرائر ، فمن حسنت نيته لا يؤاخذ الله على خطيئته مع غيره .

حكم القتل العمد

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (٣) .

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت الآية في مقيس بن صبابه الكناني ، وكان قد أسلم هو وأخوه هشام

(١) صحيح البخارى . كتاب العلم . باب قول النبي ﷺ رب مبلغ أوعى من سامع ج ١ ص ١١٨ .

(٢) كنز العمال ج ٤ ص ٢٣٣ ، جامع الأحاديث ج ١٣ ص ١٣٩ .

(٤٢٠)

فوجد أخاه هشاما قتيلا في بني النجار ، فأتى رسول الله ﷺ ، فذكر له ذلك فأرسل رسول الله ﷺ رجلا من بني فهر إلى بني النجار ، أن رسول الله ﷺ يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابه أن تدفعوه إلى أخيه مقيس فيقتص منه وإن لم تعلموه ادفعوا إليه ديته .

فبلغهم الفهري ذلك فقالوا : سمعا وطاعة لله ، ولرسوله ما نعلم له قاتلا ولكن نؤدي إليه ديته ، فأعطوه مائة من الإبل ، فانصرف الفهري ومقيس راجعين نحو المدينة .

فأتى الشيطان مقيسا فوسوس إليه فقال له : تقبل دية أخيك لتكون عليك سبة ، أقتل الفهري الذي معك فتكون نفس مكان نفس وفضل الدية ، فتغفل مقيس الفهري فرماه بصخرة فقتله ، ثم ركب بعيرا من الإبل وساق بقيتها راجعا إلى مكة كافرا وقال في ذلك :

قتلت به فهرا وحملت عقله .: سراة بني النجار أرباب قارع
وأدركت ثأري واضطجعت موسدا .: وكنت إلى الأصنام أول راجع
فنزلت الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة حكم القتل الخطأ جاءت هذه الآية لبيان حكم القتل العمد .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين أنه إن قتل المسلم أخاه عمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وله عند الله عذاب مؤلم شديد .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٧٦ .

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ أى ومن يقتل أخاه المسلم متعمدا فقد ارتكب جرما كبيرا حرمه الله تعالى ، والتعمد في القتل قصده ، والإصرار عليه باختيار آلة قاتلة ، واختيار الطريقة القاتلة في الضرب والعدوان .

وهذا القتل العمد جريمة كبرى ، وهدم لكيان خلقه الله ، وهداه للإيمان ، وصيره مسلما ينقاد لله رب العالمين ، ولذلك عرف الله بالعقوبة التى يستحقها هذا القاتل المتعمد ليتجنبها المسلمون ويحذروا الوقوع فيها .

﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ أى أن القاتل أخاه عمدا تنزل به عقوبات كبيرة في الدنيا والآخرة .

أما عقوبات الدنيا فأولها القصاص . يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ۖ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ۚ ذَٰلِكَ خَفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ (١) .

وقد سبق تفصيل هذا الحكم (٢) ، وحين نعود لسبب النزول ، ونعلم أن مقيس بن صبابه بعد أن قتل الفهرى ثارا لأخيه أباح النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة ، فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة لتعمده قتل المسلم ، وردته وكفره مع نزول

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧٨ .

(٢) انظر ركائز القدوة . المجلد الثانى ص ١٤٥ .

(٤٢٢)

سخط الله عليه ، وحرمانه من الخير والبركة إن عفى عنه أولياء الدم ، ولم يتب توبة صادقة .

وأما عقوبات الآخرة فهي :

- (أ) يعاقبه الله تعالى بإدخاله جهنم بنارها اللهب ، وعذابها الشديد ، ويخلده فيها ، وقد وصف الله عذابه بالعظيم ونكره لبيان ما فيه من شدة وتتنوع .
- (ب) يغضب الله عليه فيحقيق به كل شر ، ولا يرى شيئاً من متع الدنيا والآخرة
- (ج) يلعنه الله ، ويطرده من رحمته سبحانه وتعالى ، وبذلك يعيش مطروداً بئيساً في الدنيا وفي الآخرة .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن قتل المسلم لأخيه عمدا جريمة كبرى يستحق فاعلها اللعن والطرده من رحمة الله تعالى ، والاقتصاص منه ، وإدخاله جهنم بلهيبها ، وسعيرها .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

توبة القاتل أخاه عمدا

قارن العلماء بين هذه الآية ، وبين قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ^١ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٦﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ

سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنْتِ^١ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾^(١) . فذهب بعضهم وعلى رأسهم ابن عباس ، وابن مسعود رضى الله عنهم إلى أنه لا توبة لمن قتل أخاه المسلم عمدا ، ودليلهم أن آية النساء محكمة ، وكثافة الوعيد فيها واضح . ويرى غيرهم أن باب التوبة مفتوح لكل مذنّب ، ويرون أن آية النساء خبر بوقوع العذاب الأليم ، والخبر لا يغير الحكم السابق ، ويذهبون إلى أن آية سورة النساء مقيدة بما في سورة "الفرقان" ، ويكون التقدير فجزاؤه جهنم إن لم يتب ، ويفسرون موقف ابن عباس وابن مسعود وغيرهما بالمبالغة في الزجر ، والتشديد في إنكار هذا الفعل الشنيع .

والأولى الأخذ برأى من ذهب إلى قبول توبة القاتل عموما لما يلي :
- يقول الله تعالى في آخر القصص : ﴿ ذَلِكْ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾^(٢) . وهذا يدل على أن رحمة الله ينالها القاتل التائب .

- يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾^(٣) .

- يقول الله تعالى : ﴿ حَمَّ ۖ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٠﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾^(٤) .

- يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾^(٥) .

(١) سورة الفرقان ، من الآية ٦٨ - ٧٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٧٨ .

(٣) سورة طه ، من الآية ٨٢ .

(٤) سورة غافر ، من الآية ١ - ٣ .

(٥) سورة النساء ، الآية ٤٨ .

(٤٢٤)

– يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾^(١) .

ودلالة الآيات واضحة في قبول الله توبة من يعود إليه ، ويندم على الذنب الذي وقع فيه ، ويؤدى ما للناس عليه من حقوق من غير تخصيص التوبة عن ذنب معين .

ومن السنة جاء :

– روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما الموجبتان ؟

قال صلى الله عليه وسلم : "من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، ومن مات يشرك به شيئا دخل النار"^(٢) .

– عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تباعدوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تعصوني في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب شيئا من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذبه ، فبايعناه على ذلك^(٣) .

إن الله رحيم بعباده ، ولن يغلق أمامهم باب التوبة ، فهو سبحانه يقبل الكافر بعد إسلامه ، وأمر سبحانه وتعالى باستمرار الدعوة للناس جميعا مهما كانت أفعالهم ، ومعاصيهم .

(١) سورة الزمر ، الآية ٥٣ .

(٢) صحيح مسلم . باب من مات لا يشرك بالله شيئا ج ١ ص ٢٥٢ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب التفسير . باب إذا جاءك المؤمنات مهاجرات ج ١ ص ٢٢١ .

(٤٢٥)

الركيزة الثانية

حاجة المسلمين إلى الترابط

إن قتل المسلم عمدا جريمة لا يتصور وقوعها من مؤمن ضد أخيه ، وقد قرن الله كثيرا بين الشرك ، وبين قتل النفس بغير حق لبيان حرمة الدم ، وصيانة حياة الإنسان فهو من ضرورات شرع الله تعالى .
إن الإسلام يعمل لإخراج أمة تحقق الحياة للناس أجمعين ، ولذلك كانت ضرورات حماية الإنسان المسلم ليقوم بدوره ، عبدا لله في الأرض ، وداعية لدين الله تعالى بين الناس ، ومجاهدا يصد العدوان ، ويحمي الحقوق .

جمال تحية الإسلام

يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنْ ءَلَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

قال ابن عباس : نزلت في رجل من بني مرة بن عوف ، يقال له مرداس بن نهيك وكان من أهل فدك لم يسلم من قومه غيره ، فسمعوا بسرية لرسول الله ﷺ تريدتهم ، وكان على السرية رجل يقال له غالب بن فضالة الليثي فهربوا منه ، وأقام ذلك الرجل المسلم فلما رأى الخيل خاف أن لا يكونوا مسلمين ، فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل ، وصعد هو الجبل ، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون ، فعرف أنهم من رسول الله ﷺ فكبر ونزل وهو يقول لا إله إلا الله

(٤٢٦)

محمد رسول الله السلام عليكم ، فتغشاه أسامة بن زيد بسيفه فقتله ، واستاق غنمه ، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه الخبر ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجدا شديدا ، وكان قد سبقهم الخبر فقال رسول الله ﷺ : "أقنلتموه إرادة ما معه" ؟ ثم قرأ رسول الله ﷺ على أسامة بن زيد هذه الآية .

فقال أسامة : استغفر لي يا رسول الله فقال : "كيف أنت بلا إله إلا الله" ؟ يقولها ثلاث مرات .

قال أسامة : فما زال رسول الله ﷺ يكررها حتى وددت أنني لم أكن أسلمت إلا يومئذ ثم استغفر له رسول الله ﷺ وقال : اعتق رقبة .
وروى أبو ظبيان عن أسامة ؓ قال : قلت يا رسول الله إنما قالها خوفا من السلاح فقال ﷺ : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفا أم لا^(١) ؟

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآية السابقة حرمة دم المسلم جاءت هذه الآية توجه المسلمين إلى أنهم إذا خرجوا للجهاد أن لا يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا حقيقة ما عليه من دين .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية ضرورة معرفة الإنسان معرفة صحيحة قبل المبادرة بقتله ، وأن على المسلمين أن يأخذوا بظاهر الأمور ما لم يتبين لهم عكسه .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ينادى الله المؤمنين بصفاتهم الإيمانية ليسارعوا في الطاعة والامتثال .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٧٨ .

﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الضرب هو السعى في الأرض ، والمراد به السير للجهاد ، لأن الضرب في سبيل الله يعنى الجهاد .

﴿ فَتَكَيَّنُوا ﴾ أى فابحثوا عن حقيقة من تلقون ، ولا تتعجلوا الأمر ، وانتظروا حتى تظهر حقيقة من تواجهون ، وهل هو مسلم أم ماذا ؟

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ أى لا تنفوا الإيمان عن من ألقى إليكم تحية الإسلام ، وتتصورونه يخادعكم ، وكان عليكم أن تتعاملوا مع الإنسان بما يظهر به ، وقد أظهر الإسلام . والسلام والسلم بمعنى واحد ، وهو يفيد أن الذى يلقى تحية الإسلام مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

يقول العلماء : إن الحكم على الأشياء يكون على ظاهرها ، ولذلك إذا رأى الغزاة في بلد ، أو قرية ، أو حى ، يظهرهم شعار الإسلام مكتوبا ، أو ملفوظا مسموعا يجب مسالمة أهله ، وعدم الإغارة عليهم .

لما روى عن عصام المزنى أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيشا أو سرية يقول لهم : "إذا رأيتم مسجدا ، أو سمعتم مؤذنا فلا تقتلوا أحدا" (١) .

﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى تسارعون إلى قتل من سلم عليكم ، وألقى عليكم تحية الإسلام لأخذ أمواله غنيمة لكم كما هو واضح في سبب النزول ...

وكل ما كان معه من أعراض الحياة الدنيا لا يدوم ، ولا قيمة له ، وفيه المنغصات الشهوية العديدة ، ويضيع كثيرا من متع الآخرة .

﴿ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ أى أن حب الغنائم ، والرغبة في الحصول عليها يجب توجيهها نحو الله تعالى بطاعته والاستقامة على أمره فعنده

(١) سنن أبى داود . كتاب الجهاد . باب في دعاء المشركين ج ٧ ص ٢٢٣ .

سبحانه وتعالى الفضل كه يعطيه لمن يشاء في الدنيا والآخرة .

﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ أى أنكم كنتم قبل انتشار الإسلام وعلوه تخفون إسلامكم ، ولا تظهرونه إلا عند الأمن مع المسلمين ، وكنتم مثل المسلم الذى قتلتموه بعد أن ألقى لكم تحية الإسلام . ويمكن أن يراد أنكم كنتم قبل الإسلام تبتغون عرض الحياة الدنيا ، ولا يصح لكم أن تكونوا كذلك في الإسلام .

﴿ فَمَنْ بَلَغَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى أكرمكم الله بالإسلام والهداية فالتزموا بالطاعة ، واستقيموا ، ولا تقتلوا من أعلن إسلامه ، وحياكم بتحية الإسلام . ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أى ابحثوا عن الحقيقة ، ولا تعجلوا بقتل من أظهر الإسلام .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أى أن الله سبحانه عليم محيط بعباده جميعا ، وهو سبحانه عليم بما تعملون بقلوبكم ، وألسنتكم ، وجوارحكم ، وعنده الفضل والعقاب ، يثيب من أطاعه بالفضل ، ويعاقب من عصاه بالعدل .

- ٥ -

معنى الآية

تتحدى الآية المؤمنين بعدم التسرع في قتل الإنسان وعدم اعتبار الظاهر دليلا على الباطن ، فمن ألقى تحية الإسلام فهو مسلم ، وقتله حرام ، وترغيبا في امتثال المجاهدين لأمر الله تعالى عرف المؤمنين بأن غنائم الدنيا عرض زائل لا قيمة لها بالنظر إلى عطاء الله تعالى في الدنيا والآخرة فخرائنه سبحانه وتعالى لا تتفد ، وعطاؤه لا يتوقف ، وهو صاحب الفضل والبركات .

ويجب على المسلم أن يأخذ من الماضى عبره ، وأن يقيس غيره على حياته الأولى ليعلم حقيقة الآخرين ، وليوقن بعلم الله تعالى فلا يخادع ، ولا يجادل في هذا الموضوع وأمثاله .

(٤٢٩)

- ٦ -

ركائز الدعوة الى الآيه

تبين الآيه عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

السرائر لا يعلمها إلا الله تعالى

الحكم على الأمور يكون بظواهرها لأن ذلك هو ما يستطيعه الإنسان ،
أما النوايا والمقاصد فلا يعلمها إلا الله تعالى .

ومن هنا ...

وجب الاهتمام بالظاهر ليكون معبرا عن الباطن ... وقد شرع الله للمسلم
أعماله الظاهرة ، ودعاه إليها ، وحثه على تطابق الباطن مع الظاهر .
ومن ظاهر الإنسان ملبسه ، وحديثه ، وعمله ، ولذلك أمر الله تعالى
لباس ساتر غير شفاف وغير مثير .

كما أمر سبحانه بالصدق في الحديث ، وتجنب الخداع والمماراة ، ودعا
سبحانه وتعالى بالجد في العمل ، والتوكل على الله تعالى .

ووضع الله للمسلمين شعائر يظهرون بها كالأذان ، والمسجد ، والجماعة
، والعديد ... وفي كل ذلك دلالة على أن من يقدم به هو من جماعة
المسلمين .

إن الظاهر هو ما يراه الآخرون ، ويجب أن يكون معبرا عن حقيقة الفرد
والجماعة .

ولذلك ...

ننظر في حياة المسلمين اليوم ، ونستطيع أن نعرف إيمانهم ، فتحية
الكثير ليست إسلامية ، وأزياء الكثير ليست من الإسلام ، والأعمال والأقوال
ملئية بالنفاق والخداع والزور ، وقد لزم التحذير من هذه الظواهر حتى لا يعيش
الإسلام غريبا بين أهله .

(٤٣٠)

الركيزة الثانية **مقارنة بين أعراض الدنيا** **ومغانم الله في الآخرة**

المسلم يعيش حياته الدنيا للآخرة ، وهو يعلم أن الآخرة خير من الأولى يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) ، ولذلك يوجه المسلم عمله لله تعالى لينال سعادة الآخرة ، وقد أشارت الآية إلى عرض الحياة الدنيا التي يقصدها البعض ، وإلى مغانم الله تعالى التي يدعو الإسلام إليها فتبين إن عرض الدنيا قليل ، وعمرها قصير ، ومعه الهموم والأحقاد والكراهية ، ولا يتحقق به رضا النفس ولا يؤدي إلى سعادتها .

أما مغانم الله فهي عديدة ومتنوعة وشاملة للدنيا والآخرة ، إنها تسعد من ينالها ، وترضيه ، وتجعله يشعر بمعية الله تعالى ، وتلك قمة الفوز والسعادة . وفي تنبيه المسلمين إلى هذه الحقيقة تنوير للطريق المستقيم ليتثبتوا بالحق ، ويعلموا حقيقة الناس قبل الحكم عليهم .

والمنافق يظهر الإيمان ولا يعتد به لأنه في موطن آخر يظهر الكفر ، وبهذا يبطل إيمانه بالظاهر أيضا .

إن المجاهدين في سبيل الله تعالى يجب عليهم أن لا يدخلوا أعراض الدنيا في حسابهم ، لأن كل همهم إعلاء كلمة الله تعالى ، والله يقدر لهم عملهم وخلصهم ولا يصح لهم التسرع في إهدار الدم حتى لا يصيبوا مسلما وهم جاهلون .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٦٤ .

فضل المجاهدين على القاعدين

يقول الله تعالى :

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾ دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه لما أُملى النبي ﷺ على قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ من غير قوله : ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ جاءه ابن أم مكتوم رضي الله عنه وقال له : يا رسول الله لو كنت استطيع الجهاد لجاهدت ، فأُنزل الله الآية ^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة ضرورة التيقن من العمل قبل القيام به ، والاكتفاء بالظاهر لأن ذلك هو طاقة البشر ، وقصر الجهاد على طاعة الله ، والاستقامة على منهجه ، فهو سبحانه صاحب الفضل كله جاءت هذه الآية لتبين عدم مساواة القاعدين عن الجهاد مع المجاهدين .

(١) تفسير البغوى ج ١ ص ٥٨٠ .

(٤٣٢)

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أن القاعدين عن الجهاد من غير ضرر لا يتساوون مع المجاهدين ، وبيان أن الله فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر درجة ، وفضلهم على القاعدين بلا ضرر درجات كثيرة .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى لا يعدل القاعدون عن الجهاد من يجاهدون في سبيل الله لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه ، وماله ، مع النية الصادقة ، والقاعد عن الجهاد تخلف عن ذلك .

واستثنت الآية من القاعدين أولى الضرر ، وهم من بهم ضعف وزمانة في البدن والبصر يمنعهم من الجهاد ، فهؤلاء لهم نية في الجهاد إلا أنهم يعجزون عن مباشرته ، وقد كتب الله لهم بنياتهم ثواب المجاهدين .
فعن جابر رضي الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة . فقال صلى الله عليه وسلم : إن بالمدينة رجالا ما سرتهم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض ^(١) .

﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾
أى ميز الله منزلة المجاهدين في الآخرة ورفعهم درجة عن القاعدين من أصحاب الأعذار .

﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ أى أن الله تعالى وعد القاعدين من أصحاب الأعذار والمجاهدين بالجنة لإيمانهم ، وصدقهم مع الله تعالى مع اختلاف الدرجات .

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول - كتاب الجهاد ج ٢ ص ١١٠٦ .

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى وميز الله

المجاهدين على القاعدين الذين لا عذر لهم ، وأعد لهم ثوابا كبيرا ، وأجر عظيم .
والمراد بالقاعدين هنا الذين لا عذر لهم ، ولذلك فضل الله المجاهدين عنهم
بأجر عظيم ، ومنازل متعددة .

وما هذا الأجر العظيم الذى ذكرته الآية ؟

هو في قوله تعالى : ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ﴾ ؟ أى أن هذا الأجر العظيم
درجات متعددة ترتقى بصاحبها في جنات النعيم بمقدار ما قدموا في جهادهم
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم
بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ
نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾^(١) .

عن أبى سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "من رضى بالله ربا ،
وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا وجبت له الجنة ... فتعجب أبو سعيد من هذا ،
وقال : أعدّها يا رسول الله علي ... فأعادها ﷺ عليه ثم قال : وأخرى يرفع الله بها
العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض " .

قال أبو سعيد : وما هى يا رسول الله ؟

قال ﷺ : الجهاد في سبيل الله تعالى وكرر ذلك ثلاثاً^(٢) .

ونلاحظ أن الله تعالى ذكر في الآية الأولى أنه فضل المجاهدين عن
القاعدين درجة واحدة لأنها تعنى أصحاب الأعداء من القاعدين ... كما نلاحظ

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٠ .

(٢) مشكاة المصابيح - كتاب الجهاد ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٤٣٤)

أن الآية الثانية ذكرت أن الفضل يكون بدرجات متعددة لأنها تعنى القاعدين من غير أصحاب الأعذار .

﴿ وَمَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ والواو تعطف مغفرة على درجات لبيان أن المجاهد يتميز عن القاعدين بالدرجات العالية في الجنة ، وبمغفرة الذنوب ، وبالرأفة كل ذلك فضل من الله تعالى .

عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه عز وجل قال : قال الله تعالى : "أيما عبد من عبادي خرج مجاهدا في سبيل الله ابتغاء مرضاتي ضمننت له إن أرجعته أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة ، وإن قبضته غفرت له ورحمته" (١) .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى غفار لذنوب عباده المؤمنين شديد الرحمة بهم .

- ٥ -

معنى الآيتين

تبين الآية أن الله لا يعدل بين المجاهد ، وبين القاعد عن الجهاد في الأجر فقد فضل الله المجاهدين على القاعدين من أصحاب الأعذار بدرجة واحدة ، وعلى القاعدين مما لا عذر لهم بدرجات عديدة ومغفرة للذنوب والرأفة والرحمة من الله تعالى ... وهو سبحانه غفار رحيم بالمؤمنين جميعا .

(١) السنن الكبرى للنسائي ج ٣ ص ١٣ .

(٤٣٥)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الحث على العمل الصالح

ضروري لاستمراره

تأتى آيات كثيرة تدعو إلى الجهاد ، وتحض عليه ... وهذا يؤكد عدة حقائق :

الحقيقة الأولى : إن النفس البشرية تصاب بالملل ، وتلجأ إلى الكسل ، ولذلك كان من الضروري التذكير بالخير ، وتذكيرها بالعمل الصالح ، وإظهار الجزاء الحسن المترتب على هذا العمل .

إن التذكير يؤكد للإنسان ما يعرفه ، ويحيى ما نسيه ، ويبعد عنه السأمة والكسل ، والقنوط .

إن الوصول إلى القمة العالية يبدو صعبا تهابه النفوس الضعيفة ، ولذلك كانت ضرورة الحث والطلب ، لتقوى النفس ، وترتقى إلى الغايات العالية .

الحقيقة الثانية : في فترة التنشئة تحتاج التربية إلى تكرار التوجيه ، واكثار التنبيه ، وتعدد صور الخطاب ، وتنوع وسائل التأثير .

ولذلك رأينا حديث القرآن الكريم عن الجهاد في سبيل الله ، وبيانه لفضله وأثره على الأمة وعلى أعدائها ، وعلى المجاهدين في الدنيا والآخرة .

ومن هنا ...

كان لابد من تنوع الخطاب الدعوى ليناسب تنوع الناس ، واختلافهم جنسا ، وسنا ، وواقعا .

إن التعامل مع الواقع ضرورة تساعد على الفهم ، وتعالج القضايا المثابرة ، وتؤدي إلى الاقتناع .

(٤٣٦)

الركيزة الثانية

أهمية الجهاد في الإسلام

الجهاد في الإسلام يكون لإعلاء كلمة الله في الأرض ، ولذلك فهو خال من الظلم والعدوان .

والجهاد ماض إلى يوم القيامة حماية للحق ، وصيانة للكرامة ، ونشرا للدين الله تعالى .

ولا يمكن تصور انتهاء الجهاد ، أو عدم الحاجة إليه ... وبخاصة أن الدول في العصر الحديث تعتمد على قوتها لتبقى ، وتسود الآخرين ، والشواهد عديدة ومعلومة ... وقد وصل الأمر بالدول الكبرى إلى إعداد القوة لبسط إرادتها على الآخرين ...

والإسلام لا يعتدى على أحد ، ولا يفرض عقيدته على أحد ، وحاجته إلى الجهاد ليعيش بين الأقوياء ، ويصون الحق الذي يمثلته .

لو قعد المسلمون عن الجهاد فسيضيع دينهم ، وتسقط دولهم ، ويتحولون إلى خدم لغيرهم .

لقد ضاعت فلسطين ، فهل يترك المسلمون الجهاد ليحصل لبلادهم ما وقع لفلسطين ؟ وهل احتلال فلسطين لا يعد سببا لوجوب الجهاد على المسلمين ؟ إن الجهاد في الإسلام شامل لكل أعمال التفوق والتقدم ، ولذلك يشمل كل نشاط في المجتمع .

والجهاد الذى نقصده هو الجهاد في سبيل الله ، والمجاهدون فيه هم الشهداء .

مصير المستضعفين في الأرض

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١) .

- ١ -

سبب نزو الآية

نزلت الآية في أناس تكلموا بالإسلام ، ولم يهاجروا منهم قيس بن الفاكه ابن المغيرة ، وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباههما ... فلما خرج المشركون إلى "بدر" خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار فأُنزل الله فيهم الآية (١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة علو المجاهدين على القاعدين جاءت هذه الآية تبين مصير من قعدوا عن الهجرة والجهاد وزعموا أن سبب قعودهم هو ضعفهم ، واستحقوا ما حل بهم .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تتكلم عن الذين ادعوا الضعف ، ولم يهاجروا ، وبقوا في مكة وحل بهم من الفتن ما حل بهم .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ وتوفاهم معناها إيمانهم وقبضت

(١) تفسير البغوى ج ١ ص ٥٨٢ .

(٤٣٨)

أرواحهم ، وهى فعل ماض لبيان حتمية الوفاة ، أو هى فعل مضارع ومعناها تتوفاهم .

والمراد بالملائكة ملك الموت عبر عنه بالجمع للتعظيم ... أو المراد بالملائكة ملك الموت وأعوانه ...

وقيل : المراد بالتوفى الحشر إلى النار ، والمراد بالملائكة زبانيته .

﴿ ظَالِمٍ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى حالة كونهم ظالمين لأنفسهم بالشرك وبقائهم في مكة ، وخرجهم مع المشركين يوم "بدر" ، وعدم هجرتهم إلى رسول الله ﷺ في المدينة .

﴿ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ ... والسؤال للتوبيخ والتفريع تسأل فيه الملائكة هؤلاء الظالمين قائلين لهم : في أى الفريقين كنتم تقاتلون ؟ ... في فريق المؤمنين أم في فريق الكفار ؟

﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى أنهم يجيبون على سؤال الملائكة قائلين : كنا ضعفاء في أرض مكة فعجزنا عن الهجرة .

﴿ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ ؟ ... وهذا سؤال من الملائكة لإنكار ما أجابوا به ، فقد كذبهم الله تعالى في ردهم ، وعرفهم بكذبهم ، وسألهم بلسان الملائكة : وهل ضاقت أرض الله الواسعة ، ولم تجدوا وسيلة للهجرة ؟!! ...

﴿ فَأُولَئِكَ مَأْوُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ و "أولئك" اسم إشارة للبعيد يوضح بعدهم

عن الخير ، لأنهم بكذبهم استحقوا الطرد من رحمة الله تعالى فجعل مقامهم ، ومنزلتهم في الآخرة جهنم يعيشون فيها بين السعير واللهيب .

﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ أى وبئس المصير مصير هؤلاء القوم .

(٤٣٩)

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن من تخلف عن الهجرة ، وبقي في مكة وانضم إلى مشركي مكة ضد رسول الله ﷺ لا يقبل الله أعذارهم الواهية لأنهم يقولون : كنا ضعفاء في مكة وعجزنا عن الهجرة ، وهذا كذب واضح لأنهم خرجوا مع المشركين في "بدر" ، ولذلك فضحهم الله ، وبين كذبهم ، وأنكر ما قالوه وبين لهم إمكانية الهجرة لو أرادوها ، وتوضح الله أن مصير هؤلاء في الآخرة سيئ فمزلهم ، ومقامهم في جهنم ، وبئس المصير .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الضعف بلا عذر جريمة

صاحب المبدأ يعيش له ، ويتحرك من أجله ، ولا يبعده عن النجاح وحصول المأمول مكان أو زمان ، فهو يترك المكان إن رأى النجاح في غيره ، وإن فشل اليوم فسينجح غدا ... وهكذا ... يستمر في سعيه حتى يحقق ما يتمنى .
والآية تشير إلى هذا المعنى ، وتعييب على من لم يهاجر إلى رسول الله في المدينة قبل الفتح بزعم ضعفه ، وتبين له أن أرض الله واسعة ، وكان يمكنه لو أراد أن يهاجر إلى مكان يأمن فيه ولو إلى غير المدينة لهاجر إليه .
إن ادعاء الضعف جريمة يؤاخذ عليها صاحبها حتى لا يعتذر به عاقل .
إن المسلم مسئول عن حماية دينه ونفسه ، وأرض الله واسعة ، وقد أباح الله للإنسان أن يترك موطنه ، والسفر إلى موطن آخر ، هربا من دار الكفر ، ومن أرض البدعة ، ومن أرض انتشر فيها الحرام ، وكثر فيها الأذى وشاع فيها المرض والوباء ، والعدوان على المال ، وطلبوا للدين وللعلم وللمعاش ، وللكسب

(٤٤٠)

والتجارة... وهكذا... وفي كل هذا وأمثاله لا يقبل الاعتذار بالضعف لأن باب السفر مفتوح ، والضعف المبيح للعود غير موجود .

يقول الزمخشري : إن الإنسان إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر الدين لعوائق تمنعه ، أو رأى أنه في غير بلده أقوم بحق الله ، وأدوم للعبادة وجبت عليه الهجرة^(١) .

الركيزة الثانية

إقامة الحجة على من ظلم نفسه

تشير الآية إلى أن الدعاة إلى الله تعالى يجب أن يتسلحوا بالعلم ، ويتميزوا بالفتنة ليتمكنوا من مواجهة الباطل وردّه بالدليل والحكمة .
ولذلك حينما زعم القاعدون عن الهجرة ضعفاً منعهم من الهجرة رد الله عليهم بسعة أرضه ، وكان يمكنهم الهجرة إلى أى مكان لو أرادوا .
إن الباطل لا يقوى إلا بضعف أصحاب الباطل لأنه لا يجد من يصدّه .
ولو وجد الحق رجالاً يدافعون عنه لقوى شأنه ، وساد بين الناس .
يرتفع الظالمون وسط تخويف الناس ، وارهابهم ، ويتحكمون في الضعفاء بالأكاذيب ، ويتعاملون مع غيرهم بالكبر والتعالى .

وقد مثل فرعون مصر هؤلاء الظالمين ، وكان يقول لهم ما حكاه الله عنه في قوله تعالى : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾^(٢)
ولما دعاه موسى ﷺ إلى الإيمان عليه رد عليه ، وقال له : ﴿ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾^(٣) ، وأخذ يشوه موسى ﷺ ،
و ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾^(٤) وصورة هذا الفرعون

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٥٦ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٢٩ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية ٢٩ .

(٤) سورة الشعراء ، الآية ٢٩ .

يكرره الطغاة الظالمون .

ولذلك ...

لا يصح ادعاء الضعف ، والركون إليه عند من يملك القدرة ، ويتمكن من إنقاذ نفسه ولو بالهجرة إلى مكان آمن مريح .

حق أصحاب الأعذار عن الهجرة

يقول الله تعالى :

﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١١﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآية السابقة عقوبة الذين لم يهاجروا ، ويعتذرون بأعذار واهية جاءت هاتان الآيتان لبيان عفو الله عن الذين لم يهاجروا ولهم عذرهم في عدم الهجرة .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان عفو الله تعالى عن الذين لم يهاجروا بسبب العذر الحقيقي ، والضعف الموجود الذي لم يمكنهم من الهجرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ والاستثناء

في الآية منقطع لأن المذكورين في الآية السابقة ليسوا مستضعفين كما زعموا . أما المذكورون في هذه الآية فهم مستضعفون حقيقة ... وهم الشيوخ الكبار ، والنساء ، والصغار ، والعبيد ، فهؤلاء مستضعفون كعياش بن ربيعة

وسلمة بن هشام من الرجال ، وعبد الله بن عباس من الوالدان ، وأمه أم لبابة بنت الحارث من النساء رضى الله عنهم .

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾ أى لا يمكنهم معرفة سبب يخلصهم من الإقامة بين مشركى مكة ، والحيلة لفظ عام يشمل كل سبب يوصل للغاية من نفقه أو قوة أو تدبير .

﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ أى أنهم لا يعرفون طريقا يوصلهم إلى المدينة المنورة ليسلكوه .

إن هؤلاء القوم مستضعفون حقيقة فهم ضعاف في أبدانهم ، عاجزون في حركتهم وتنقلهم ، لا يمكنهم معرفة سبب يخلصهم من مكة ، ويجهلون طريق الهجرة إلى المدينة ... وقد دعا النبى ﷺ لهم فقال : بعد أن رفع رأسه من الركعة الثانية : اللهم نج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن ربيعة والمستضعفين بمكة . اللهم أشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف^(١) .

﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ و "أولئك" إشارة لهؤلاء المستضعفين ، ومعنى البعد فيه لبيان علو مقامهم عند الله تعالى .

﴿ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ ﴾ والضمير في ﴿ عَنْهُمْ ﴾ يعود على هؤلاء القوم وتوضح الآية أن الله تعالى سيعفو عنهم ، وعسى تدل على الرجاء ، ورجاء الله يدل على التحقق .

وفي ﴿ عَسَىٰ ﴾ إطماع وترج ، والله إذا أطمع عبدا حقق الله ما أطمعه فيه وهؤلاء يبين الله لهم أنه سيعفو عنهم، ويغفر لهم عدم هجرتهم لعدم استطاعتهم وعجزهم

(١) صحيح البخارى - كتاب الأدب . باب تسمية الوليد ج ١٩ ص ١٨٩ .

(٤٤٣)

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى كثير العفو ، كثير المغفرة ، والماضى فى حق الله سبحانه وتعالى والحاضر والمستقبل واحد فهو كان ، وكائن ، وسيكون ، وهو على كل شئ قدير .
وتذليل الآية موافق لموضوعها بآتم وجه وأوضح بيان .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الذين بقوا في مكة من الضعفاء الذين لم يجدوا حيلة تمكنهم من الهجرة ، ولم يعرفوا طريقا للهجرة إلى المدينة قد عفا الله عنهم عدم هجرتهم ، لأنه سبحانه وتعالى لا يكلف الإنسان فوق طاقته والله عفو غفور .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هي :

التكليف في الإسلام على قدر الطاقة

تقوم تكاليف الإسلام على اليسر ، وتراعى طاقة الإنسان ، ولذلك كانت التكاليف في مجموعها سهلة خالية من المشقة والعنت والحرص .
قد شرع الله الحج للمستطيع مرة في العمر ، وشرع الصوم في العام شهرا وشرع الصلاة خلال ساعات الليل والنهار خمس مرات موزعة على أوقات النشاط خلال اليوم .
وشرع العقوبات لصيانة حقوق الناس ، وضمان حريتهم في العمل والحركة .
وإذا حدثت مشقة في التكليف بسبب شخصى يسقطه الله تعالى ، ويستبدل به غيره .

فالحود تدرأ بالشبهات ، والوضوء ينتقل إلى التيمم ، والمسح ، وتقصير الصلاة ، ويسقط الصوم وتسقط الصلاة عن الحائض والنفساء ... الخ .
ومن ذلك ما أشارت إليه الآية وهو سقوط واجب الهجرة من مكة إلى المدينة لمن لم يتمكن منها لعدم تمكنه من حيلة أو معرفة طريق .
إن الإسلام منهج الله تعالى جعله الله حياة الناس ، ولذلك راعى طاقاتهم وقدراتهم ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ^(١) ، وقال سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَنَهَا ﴾ ^(٢) ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ^(٣) ... وما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ^(٤) .
هذا هو الإسلام .

دين اليسر والوسطية ، والمتأمل بعقل في كافة تعاليمه وجوانبه يصل إلى هذه الحقيقة بهدوء ، وصدق .

إن الله غفور رحيم ، ومن كانت عادته أن يغفر الذنوب ، ويعفو عن السيئات كان أولى به أن يرخص للعاجزين أمر العبادة ، ويعفو عن أى تقصير يقع منهم بسبب العجز الذى قدره الله فيهم ، ومعهم .

فوائد الهجرة وثوابها

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦ .

(٢) سورة الطلاق ، الآية ٧ .

(٣) سورة الحج ، الآية ٧٨ .

(٤) كنز العمال ج ٧ ص ٢٢١ .

(٤٤٥)

- ١ - سبب نزول الآية

قال ابن عباس : لما نزلت الآية التي قبل هذه الدالة على قبول الله عذر الضعفاء من الهجرة ، وسمعا رجل من بني ليث شيخ كبير مريض ، يقال له جندع بن ضمرة فقال : والله ما أنا ممن استثنى الله عز وجل ، واني لأجد حيلة ، ولي من المال ما يبلغني المدينة ، وأبعد منها والله لا أبيت الليلة بمكة أخرجوني ، فخرجوا به ، يحملونه على سرير حتى أتوا به التتعيم ، فأدركه الموت ، فصفق بيمينه على شماله ثم قال : اللهم هذه لك ، وهذه لرسولك أبايعك على ما بابيعك رسولك ، ثم مات .

فبلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : لو وافى المدينة لكان أتم وأوفى أجرا ، وضحك المشركون ، وقالوا : ما أدرك ما طلب فأنزل الله عز وجل الآية^(١) .

- ٢ - صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أحوال الذين لم يهاجروا من مكة إلى المدينة جاءت هذه الآية لبيان فوائد الهجرة ، ومزاياها ، وثواب المهاجرين .

- ٣ - موضوع الآية

الآية تبين فوائد الهجرة حيث تؤدي إلى إبعاد المهاجر عما يكرهه ، وتوسع رزقه ، وحياته ، وتحقق له ثواب الله تعالى الذي أعده للمهاجرين .

- ٤ - الدلالات اللغوية

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ ﴾ الجملة شرطية تبين جزاء المهاجر في سبيل الله ، والهجرة هي خروج الإنسان من بلده رغم أنفه مع مغاضبة أهله ومقاطعتهم ...

يقال : هجرت فلانا إذا قاطعته ، وخاصمته ، وابتعدت عنه .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٨٣ .

﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الجار والمجرور متعلق بالهجرة التي أوجبها الله تعالى فهي طاعة الله ، ونصرة لدينه الحنيف ، وسلامة للمهاجر من الأذى والفتنة .

﴿ سَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ والجملة جواب الشرط ، وهي تبين أن من يهاجر في سبيل الله تعالى ، ويترك أهله وداره في مكة ، وينتقل إلى المدينة المنورة سيلقى في أرض الله الجديدة مراغما كثيرا وسعة ، والمراغم بمعنى مهاجر ، وهي اسم مكان ومعناها أنه سيجد متقلبا ينقلب إليه ومتحولا يتحول إليه ، ومتزحزا يبعده عن الكفر والضلال ، وحياة طيبة برغم المشركين الذي فارقهم ومنزلا اسمى مما كان فيه .

ووصف المراغم بالكثرة للدلالة على عطاء الله الكثير في أرضه لمن أطاعه ولحق برسول الله ﷺ .

﴿ وَسَعَةً ﴾ معناها بسطة في الرزق ، والهداية ، والتوفيق .

﴿ وَمَنْ سَخَّرَ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى أن ثواب الهجرة يناله المهاجر الصادق بمجرد خروجه من بيته ، فمن مات في الطريق ، أو أسره العدو فله ثواب المهاجر .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى أن الله دائم المغفرة والرحمة فمن قصر في أمر ثم تاب منه ورجع فيه يغفر الله تقصيره السابق ، ويرحمه بعمله بعد التوبة .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن من يطيع الله فيما أوجبه عليه ، ويهاجر إلى رسول الله ﷺ في المدينة سيخلف الله له في هجرته خيرا ، ويهيئ له منقلبا طيبا ، ويوسع له رزقه ، ويهديه ويجزيه ثوابا جميلا .

(٤٤٧)

وتبين أن ثواب الهجرة ليس متوقفا على إتمامها ، بل يتحقق ثوابها لصاحبها بمجرد خروجه من بيته ، فإن منعه مانع من الوصول للمدينة كالموت وغيره فقد استحق ثواب الهجرة كاملا ، والله ذو الفضل العظيم .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

اعتبار النية في الجزاء

يبني الإسلام الإنسان ظاهرا وباطنا ، ويوضح له أن الإيمان ما وقر في القلب ، وصدقه العمل ، وقد أكد هذه الحقيقة بصور عديدة :

- من خالف ظاهره باطنه يكون منافقا ، أو صاحب تقية ... والله يعلمه .
- إن العمل الموافق للنية يتحقق ثوابه لصاحبه إن عجز عن إتمامه .
- إن ثواب الطاعة يتحقق لصاحبها إن لم يقصر في إتمامها وأدائها .

وبهذا يجعل الإسلام القلب منبع العمل ، والاخلاص ضروري للطاعة والاستسلام .

الركيزة الثانية

فوائد السفر والهجرة لله

الأرض كلها أرض الله تعالى ، ولا عذر لإنسان أن يبقى ذليلا في أرض ما ، فلقد أباح الله له السفر والتنقل ، وحقق له بالسفر فوائد عديدة إذا قصد به وجه الله تعالى ، وعزة دينه ، ودعوة الآخرين .

إن السفر يحقق ما يلي :

- يعوص السفر للمسافر عن يفارقهم أناسا آخرين يصاحبهم ويأنس بهم .
- يشعر المسافر بلذة الانتقال ورؤية عالم جديد .

(٤٤٨)

- يتمتع المسافر بجمال التعب والنصب ، وبخاصة إن وفقه الله في عمله وسعيه .
- يقوم المسافر بالدعوة إلى الله تعالى ، وبذلك يصل الإسلام لقوم لم يعلموا عنه شيئاً ، وقد يهديهم الله على يديه .

قصر الصلاة في السفر

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّكُمْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما تحدثت الآية السابقة عن الهجرة جاءت هذه الآية تبين حكم قصر الصلاة أثناء السفر والهجرة .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تتحدث عن قصر الصلاة في السفر .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى وإذا سافرتم سفرا وانتقلتم من مكان إلى آخر بأى وسيلة برا ، أو بحرا ، أو جوا ، ولم يقيد الضرب في الأرض بأمر معين كما قيد الهجرة في الآية السابقة بأنها في سبيل الله لأن الهجرة حددت بترك مكة إلى غيرها قبل فتح مكة ، ولا هجرة بعد الفتح ، أما السفر فهو دائم مستمر إلى يوم القيامة ولذا لم ينقطع حكمه .

﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ أى فلا حرج عليكم ولا إثم فى أن تقصروا من الصلاة .

واختلف العلماء في المراد بقصر الصلاة .

فذهب بعضهم إلى أن المراد التخفيف في القيام والركوع والسجود ... إلا أن الأولى ما ذهب إليه الجمهور من أن القصر يكون في عدد الركعات إلى النصف في الصلاة الرباعية ، وهى صلاة الظهر ، والعصر ، والعشاء فتصير ركعتين ... وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ مِنْ الصَّلَاةِ ﴾ يدل على التبعية ، وذلك يوجب جواز الاقتصار على بعض الصلاة .

وقصر الصلاة الرباعية في حال السفر جائز في حال الأمن كما هو جائز في حال الخوف ، ولذلك تكلم العلماء في قوله تعالى :

﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فقالوا : إن الله تعالى تصدق

علينا بقصر الصلاة ، وهو سبحانه بكرمه لا يرجع في صدقته .

يدل على ذلك ما روي عن يعلى بن أمية رضي الله عنه قال : قلت لعمر بن الخطاب ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فقد أمن الناس .

فقال عمر : عجبت مما عجبت منه ، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : "صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته" ^(١) .

وعن عبدالله بن خالد بن أسيد رضي الله عنه أنه قال لابن عمر رضي الله عنه كيف تقصرون الصلاة وإنما قال الله تعالى ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ؟

(١) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ج ٣ ص ٤٦٢ .

فقال ابن عمر : يا ابن أخي إن رسول الله ﷺ أتانا ونحن في ضلال فعلمنا فكان فيما علمنا أن أمرنا أن نصلي ركعتين في السفر^(١) .

وأخرج النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا رب العالمين فصلى ركعتين^(٢) .

ولا يعد حدوث الخوف شرطاً لقصر الصلاة كما هو ظاهر الآية ، ولذلك قال جمهور الفقهاء : عن قوله تعالى : ﴿ إِنِ خِفْتُمْ ﴾ أن كلمة إن تفيد حصول الشرط ولا يلزم من عدم الشرط عدم المشروط فقوله تعالى : ﴿ إِنِ خِفْتُمْ ﴾ يقتضي أنه عند عدم الخوف لا تحصل رخصة القصر .

وإذا كان كذلك كانت الآية ساكنة عن حال الأمن ، فإثبات الرخصة حال الأمن بخبر الواحد يكون إثباتاً لحكم سكت عنه القرآن الكريم ، وذلك غير ممتنع إنما الممتنع إثبات الحكم بخبر الواحد على خلاف ما دل عليه القرآن الكريم .
فإن قلت : إذا كان هذا الحكم ثابتاً في حال الأمن والخوف ؛ فما فائدة تقييده بحال الخوف ؟

قلت : إنما نزلت الآية على غالب أسفار النبي ﷺ وأكثرها لم يخل من خوف العدو فذكر الله عز وجل هذا الشرط من حيث إنه الأغلب^(٣) .
﴿ إِنِ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ أى ظاهرين في العداوة ، ولذلك شرع لكم ما شرع .

ومن العلماء من يذهب إلى أن قصر الصلاة يتم بالجزء الأول من الآية وأن قوله تعالى : ﴿ إِنِ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ متصل بما بعده لبيان صلاة الخوف .

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول - كتاب التفسير ج ٢ ص ٥٨٦ .

(٢) مسند الصحابة - مسند عبد الله بن عمر ج ١٧ ص ١٠١ .

(٣) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٨٤ .

(٤٥١)

روى عن أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه أن الشطر الأول نزل ، وبعد حول من نزوله نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ خِفَّتُمْ ﴾ مع ما بعده حين سأل الصحابة رسول الله عن صلاة الخوف^(١) .

والأولى أن يكون الشرط متصلا بما قبله محافظة على وحدة الآية وإن تأخر نزوله .

- ٤ -

من أحكام الصلاة في السفر

تكلم العلماء في السفر المسوغ لقصر الصلاة ، وأحكام القصر ، ومدته فقد ذهب الظاهرية إلى القصر في كل ما يسمى سفرا بلا تحديد لمسافته أو وقته ، وذهب الأحناف إلى أن السفر الذي تقصر الصلاة فيه هو ما يحتاج إلى مسيرة ثلاثة أيام بالسير المعتاد ، مع الاستراحة المعتادة أثناء السفر . وغير الأحناف يذهب إلى أن السفر المعتد به هو ما يستغرق يوما وليلة قياسا على أن المرأة لا تسافر بغير ذى رحم محرم معها . يقول النبي ﷺ : "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذى رحم محرم منها"^(٢) .

- ٥ -

معنى الآية

يبين الله تعالى للمسلمين أنهم إذا سافروا سفرا طويلا جاز لهم قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين فقط سواء كانوا آمنين أو خائفين . ففي حال الخوف ليأمنوا عدوهم ، وفي حالة الأمن ليتمتعوا بصدقة الله عليهم ، ورحمته بهم .

(١) تفسير البغوى ج ١ ص ٥٨٦ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الحج . باب سفر المرأة ج ٧ ص ٤٥ .

(٤٥٢)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تشير الآية إلى عدد من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان رافة الله بعباده

السفر قطعة من العذاب ، ولذلك رحم الله المسلمين فشرع لهم تقصير الصلاة خلاله تقوية لهم أمام عدوهم ، وتخفيفا من المشقة عليهم حتى لا يضموا إلى مشقة السفر مشقة العبادة .

والقصر واجب عند جمهور الفقهاء خلافا للشافعية الذين قالوا : إن القصر مباح مستدلين بقوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ الصَّلَاةِ ﴾ لأن رفع الجناح يدل على الإباحة في رأيهم .

إلا أن الجمهور يرى أن هذه الدلالة ليست ضرورية ، فلقد قال الله تعالى عن السعى بين الصفا والمروة : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ، ومع ذلك فمن الطواف ما هو واجب .

ولابد أن يكون السفر الذي تقصر الصلاة فيه لغاية مشروعة .

الركيزة الثانية

أهمية الحذر من الكافرين

التوجهات البشرية عديدة ، لكل مذهب ، ودين ، وأمانيه ، وآماله وقد نزل دين الله تعالى لتحقيق توازن بين الناس ، والمناداة بمعرفة الحق ، وضرورة التمسك ، وكان الأمل أن ينتشر الحق في هدوء وسلام .

إلا أن الكافرين بالله لم يلتزموا بحق غيرهم في التقوى والإيمان فعملوا على القضاء عليهم ، وعلى الدين الذي يؤمنون به .

ومن هنا ...

كان التحذير من الذين كفروا لأنهم يريدون إضلال غيرهم ، ويتصورون أن وجود الإيمان في الناس يعني عدة أمور :

الأمر الأول : إظهار فسادهم وضلالهم لأن الضد يظهر حسنه الضد .

الأمر الثاني : زيادة الإيمان بين الناس يكون على حساب الكفر والضلال .

ولذلك رأينا الكفر على تنوعه ، وتعدد مكامنا ، وفكرا ، وفلسفة ، يتجمع ، ويتوحد ضد الحق لأن الكفار رغم ما بينهم من تعارض يتحدثون أمام الحق :

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١) .

وعلى المسلمين أن يعلموا ذلك ، ويقفوا إيمانهم ، ويتمسكوا بالحق الذي هم فيه .

صلاة الخوف

يقول الله تعالى :

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٢٤﴾﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ

(١) سورة الصف ، الآية ٨ .

(٤٥٤)

قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ
كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿٢٣٦﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيتين

روي عن ابن عباس وجابر رضى الله عنهم أن المشركين لما رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا إلى الظهر يصلون جميعا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم . فقال بعضهم لبعض : دعوهم ، فإن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم (يعنون بها صلاة العصر) فإذا قاموا فشدوا عليهم ، فاقتلوهم . فنزل جبريل ﷺ فقال : يا محمد إنها صلاة الخوف ، وإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ فعلمه صلاة الخوف .

وروي عن أبي عياش الزرقى رحمه الله في سبب نزول هذه الآية . قال كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد فصلينا الظهر فقال المشركون : لقد أصبنا غرة ، وفي رواية غفلة ، ولو حملنا عليهم وهم في الصلاة فنزلت الآية (١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآية السابقة حكم الصلاة في السفر جاءت الآيتان في حكم الصلاة أثناء القتال وهي الصلاة المعروفة بـ "صلاة الخوف" .

- ٣ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان كيفية الصلاة أثناء مواجهة العدو للقتال لأخذ الحذر من غدر الأعداء الذين يتمنون غفلة المؤمنين ، وتركهم سلاحهم ، وقيامهم للميل

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٨٦ .

(٤٥٥)

عليهم وهزيمتهم ... وتوضح الآية الثانية ضرورة مداومة ذكر الله بعد انقضاء الصلاة فهو الناصر للمؤمنين سبحانه وتعالى ، وقد فرض الصلاة ، وعين وقتها ووجبت طاعة الله تعالى ليتحقق نصره وعونه .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ لتوضيح حكم الصلاة أثناء خروجه للغزوة مع المسلمين ليستمروا على النهج الذي يعرفونه من رسول الله ﷺ ، ويصلون كما صلى رسول الله ﷺ بهم لقوله ﷺ : "صلوا كما رأيتموني أصلي" (١) .

وقد ذهب الظاهرية إلى قصر تشريع صلاة الخوف على وجود رسول الله ﷺ مع المؤمنين بينهم لظاهر الآية فهي خطاب للنبي ﷺ ، ولأن الشرط في الآية هو وجوده ﷺ في القتال لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ ﴾ ، وهذا الرأي مرجوح لعدد من الأدلة ... أهمها :

(أ) إجماع الصحابة على القيام بصلاة الخوف بعد رسول الله ﷺ من غير مخالفة من أحدهم ، وقد صلاها الخلفاء الراشدون ، وأمروا بها من غير نكير من أحد من الصحابة .

(ب) إجماع الفقهاء من غير الظاهرية على إقامة صلاة الخوف أثناء مواجهة العدو وفصلوا أحكامها ، وكيفيتها .

(ج) ذهب العلماء إلى أن توجيه الخطاب للنبي ﷺ لا يقصر الحكم عليه ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ (٢) فالحكم عام للمسلمين لا يختص به النبي إلا بمخصص .

(١) صحيح البخارى - كتاب الدعوات - باب الدعاء في الصلاة ص ١٢٥ الآفاق .

(٢) سورة الطلاق ، الآية ١ .

(د) ورود الشرط "إذا" يقتضى ثبوت الحكم عند ثبوت الشرط ، ولا يقتضى العدم عند عدمه .

(هـ) الأحكام الخاصة بالنبي ﷺ يأتى نص واضح يدل على التخصيص مثل قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) ... ولم يرد ما يدل على أن صلاة الخوف خاصة برسول الله ﷺ .

فالأمة مكلفة بذلك ، ولها القيام بصلاة الخوف حين وجود السبب .
﴿ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ ﴾ أى يقسم النبي ﷺ المجاهدين إلى طائفتين ... ويبدا بإمامة الطائفة الأولى ، يصلى بها ركعة واحدة ، وتذهب .
﴿ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ أى يأخذ الجميع أسلحتهم واستعدادهم للعدو أثناء الصلاة بحيث تأخذ الطائفة التى كانت تصلى أسلحتها ولا تشتغل بها أثناء صلاتها ، وتستعد الطائفة الثانية التى لا تصلى بكل ما لديها من سلاح .
ويمكن أن يكون أمر في ﴿ وَلْيَأْخُذُوا ﴾ لإحدى الطائفتين كل على حدة فتأخذ التى تصلى سلاحها معها ، وتأتى التى لا تصلى مراقبة العدو ، والحذر منه .
﴿ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ ﴾ أى إذا أتمت الطائفة الأولى سجودها في الركعة الأولى مع رسول الله ﷺ فليأخذوا موقعهم أمام العدو .
﴿ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ﴾ أى بعد انتهاء الطائفة الأولى من الركعة الأولى مع رسول الله ﷺ تأتى الطائفة الثانية وتصلى خلف رسول الله ﷺ ركعتها الأولى وهو ﷺ يصلى الركعة الثانية .
﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ أى على الطائفة الأولى أن تأخذ

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٥٠ .

الحذر الشديد ، والاستعداد القوى أثناء صلاة الطائفة الثانية ، فإن العدو يدرك أن انشغال المسلمين بالصلاة يكون أكثر ، وهم في الركعة الثانية ، ولذلك كانت زيادة الحذر والاستعداد بالسلاح فإذا انتهت الطائفة الثانية فلنذهب ، وتأتى الطائفة الأولى تتم صلاتها بركعة ثانية منفردة ... وبعدها تأتى الطائفة الثانية تصلى هى الأخرى ركعتها الثانية ، وبذلك تتم صلاتهم جميعا بإمامة النبى ﷺ

﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ

عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً ﴾ أى يتمنى الكافرون ظهور غفلة منكم أثناء بعدكم عن أسلحتكم وأمتعتكم فيقضون عليكم ، ويقتلونكم في حملة واحدة ، وضربة قاضية .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى ولا إثم ولا حرج عليكم أن تضعوا السلاح

مكتفين بأخذ الحذر في حالتين هما :

الأولى : ﴿ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ ﴾ أى إذا اشتد المطر فإنه

يضركم حمل السلاح معه ، ولذا رفع الله الحرج عنكم في عدم حمل السلاح .

الثانية : ﴿ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى ﴾ أى نزل بكم مرض يمنعكم من حمل

السلاح ، وفى هاتين الحالتين رفع الله عنكم الحرج والإثم ، وأجاز لكم أن تتحفظوا .

و ﴿ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ﴾ لأن حمل السلاح مع المرض والمطر يزيد

الضرر فلا تحملوه .

و ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ من العدو حتى لا يفاجئكم بالهجوم ، وأخذ

الحذر ضرورة لأن العدو ينتهز كل فرصة تواتية .

(٤٥٨)

وقد حدث أن نزلت مفاجأة من العدو للنبي ﷺ ، وذلك أنه غزا بني محارب ، وبني أنمار فنزلوا ، ولا يرون من العدو أحدا فوضع الناس السلاح فخرج رسول الله ﷺ لحاجة حتى قطع الوادي ، والسماء ترش بالمطر ، فسال الوادي ، فحال السيل بين رسول الله ﷺ ، وبين أصحابه ، فجلس تحت شجرة فبصر به غورث بن الحارث المحابي فقال : قتلني الله إن لم أقتله .
ثم انحدر من الجبل ، ومعه السيف ولم يشعر به رسول الله ﷺ إلا وهو قائم على رأسه ، وقد سل السيف من غمده وقال : يا محمد من يمنعك مني الآن ؟

فقال رسول الله ﷺ : "الله عز وجل" ، ثم دعا ﷺ : اللهم أكفني غورث ابن الحارث بما شئت .

فاهوى غورث ليضرب رسول الله ﷺ به فأكب لوجهه من زلخة زلخها فندر السيف من يده .

فقام رسول الله ﷺ فأخذ السيف ثم قال : "يا غورث من يمنعك مني الآن ؟ فقال غورث : لا أحد .

فقال : أتشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله وأعطيك سيفك فقال غورث : لا ، ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبدا ، ولا أعين عليك عدوا فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه .

فقال غورث : لأنت خير مني

فقال النبي ﷺ : "أجل أنا أحق بذلك منك" .

فرجع غورث إلى أصحابه فقالوا له : ويلك يا غورث ما منعك منه .

فقال : والله لقد أهويت إليه بالسيف لأضربه به ، فوالله ما أدري من زلخني بين كتفي فخررت لوجهي ، وذكر حاله لهم مع رسول الله ﷺ .

فلما سكن الوادي قطع رسول الله ﷺ الوادي إلى أصحابه وأخبرهم الخبر^(١) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ أى أن الله أعد للكافرين أعدائكم عذابا ، يهينهم في الدنيا والآخرة حيث سيلحق بهم الهزائم ، ويعذبهم في الآخرة بعذاب أليم في نار جهنم أعدها الله لهم .

ومن بلاغة الآية في البيان التأكيد بأن ، وإبراز الاسم الجليل ، وذكر سبب العذاب في تسمية الضالين الكافرين ، وتوضيح شدة العذاب ، وتنوعه بتكثير العذاب ووصفه بأثره ونتائجه في الكافرين .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتُ الصَّلَاةُ ﴾ أى فإذا أقمت صلاتكم في الميدان ، وانتهيت منها فلا تنسوا ربكم ، واستمروا معه .

﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ أى اذكروا الله تعالى ، واستغفروه في كل حالاتكم ، فأنتم محتاجون إليه ، وهو ناصركم ومعينكم .

وقيل : المراد بالذكر الصلاة خلال الليل ، وأثناء النهار .

﴿ فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ ﴾ أى إذا ذهب الخوف ، وعدتم إلى حالة الطمأنينة .

﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ كما هي مشروعة حالة الإقامة كاملة تامة .

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ أى أن الله

فرض الصلاة على المؤمنين ، وحدد كيفيتها ، وركعاتها ، وشروطها ، وأركانها وأوقاتها فحافظوا عليها ، فقد فرضها الله تعالى ، وكتبها على المسلمين .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٩١ .

(٤٦٠)

- ٥ -

من أحكام صلاة الخوف

تناول الفقهاء صلاة الخوف بالتفصيل ، واختلفوا معها اختلافا كبيرا ، وهذا إجمال لأرائهم ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب الفقهاء .

ذهب البعض إلى أن صورة صلاة الخوف تكون بالصورة التي ذكرتها أثناء التفسير .

وذهب آخرون إلى أن الإمام لا يسلم حتى ينتهى الجميع من الركعة الثانية ليسلم معهم .

وذهب البعض إلى أن الإمام يصلى بهم جميعا ركعتين مع الطائفة الأولى ، وركعتين مع الطائفة الثانية .

وذهب البعض أن كل طائفة تصلى ركعة واحدة مع رسول الله ﷺ ، وبذلك تتم صلاتها .

ولكل من هذه الآراء دليلهم من السنة . يقول الإمام أحمد : إن كل الروايات صحيحة ، الأمر الذى يبين أن رسول الله ﷺ صلى بهذه الصور كلها في حالات متعددة^(١) .

هذا بالنسبة لصورة الصلاة .

أما بالنسبة للتوجه نحو القبلة .

فإن كان العدو جهة القبلة تقف الطائفتان خلف الإمام في صفين متوجهين جميعا للقبلة ، ويصلى الإمام بالصف الأول أولا ، والصف الثانى يقف في أهبطه لا يصلى ، وبعد ذلك يصلى الصف الثانى ويخلفه الصف الأول في أهميته . وهكذا حتى يتم الجميع الصلاة .

وان كان العدو على غير جهة القبلة يستقبل الإمام القبلة ، وتأتى الطائفة

(١) زهرة التفاسير ج ٤ ص ١٨٣١ .

(٤٦١)

الأولى للصلاة ، وتبقى الطائفة الثانية متوجهة للعدو ، وتذهب للصلاة حين انتهاء الطائفة الأولى وانصرافها لمواجهة العدو ... وهكذا حتى يتم الجميع الصلاة .
وفى حالة الخوف الشديد والالتحام المباشر يصلى كل في موقعه بقدر ما يستطيع ولو بالإيماء ، وبغير التوجه إلى القبلة .
ويذهب الأحناف إلى أنه لا صلاة في حال الخوف الشديد ، وبعد الاطمئنان يكون قضاء ما فات من صلاة .

- ٦ -

معنى الآيتين

تبين الآية الأولى كيفية الصلاة أثناء مواجهة العدو ، وتذكر الأساسيات العامة لصلاة الخوف ، وتوضح ضرورة الحذر ، والتزام الحيطة في المواجهة ، لأن العدو كافر ضال يتمنى وجود ثغرة في الجبهة الإسلامية ينفذ من خلالها لقتل المسلمين والقضاء عليهم .
ويخفف الله عن المسلمين حمل السلاح أثناء المطر الذى يؤذيهم ، أو المرض الذى يحل بهم ، وعليهم التنبيه والحذر حين وضع السلاح ، وليعلم المؤمنون أن الله معهم ينصرهم ويؤيدهم ... وعليهم بعد الانتهاء من الصلاة مداومة ذكر الله في كل حالاتهم لأن ذكر الله خير معين على النصر .
فإذا انتهت المواجهة ، واطمأن المسلمون فليحافظوا على الصلاة كاملة تامة في أوقاتها وبشروطها ، فقد فرضها الله على المسلمين ، وجعلها ركنا من أركان الإسلام .

- ٧ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الإسلام دين الواقع

برغم أن الإسلام وحى الله تعالى إلا أنه سبحانه وتعالى شرع للناس على قدر

الطاقات والقدرات التي خلقهم بها .
 فالصلاة فريضة مشروعة إلا أنها أثناء الحرب تأخذ صورا جديدة تناسب القتال ، وحالات الترقب والحذر .
 ولو كان الإسلام من وضع الناس لغفلوا عن كثير من التفاصيل التي يحتاج إليها الإنسان .
 إن عدد الركعات يتغير ، وصور الصلاة تتبدل ، والحالات كثيرة ، وقد فصلها الفقهاء لتبقى صورها المشروعة أمام المسلمين يأخذون منها ما يناسب جهادهم ، ومواجهتهم لعدوهم .

الركيزة الثانية الحاجة الدائمة لذكر الله تعالى

لله الأمر كله ، والنصر بيده ، وقد وعد سبحانه عباده بالنصر إذا نصره بالطاعة والالتزام ... فقال تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾^(١) .

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾^(٢) .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾^(٣) .

ووجه سبحانه وتعالى عباده إلى مداومة ذكره ، والتفكير في آلائه ونعمه فقال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطِلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(٤)

(١) سورة محمد ، الآية ٧ .
 (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٢٦ .
 (٣) سورة غافر ، الآية ٥١ .
 (٤) سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .

(٤٦٣)

- ﴿ فَادْكُرُونِيْ اَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِيْ وَلَا تَكْفُرُوْنَ ﴾^(١) .
- ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾^(٢) .
- ﴿ فَاِذَا قَضَيْتُمْ مِّنْ سَكَاةِكُمْ فَادْكُرُوا اللّٰهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ اَوْ اَشَدَّ ذِكْرًا ﴾^(٣) .

والآية التي معنا تدعو إلى ذكر الله تعالى بصورة دائمة ليتحقق النصر فكل شئ بيد الله ، وإذا أراد سبحانه شيئاً قال له : كن فيكون ، وله سبحانه جنود السموات والأرض .
إن ذكر المسلمين لله يضعف عدوهم ، ويهزمهم ... ويعلى شأن الإسلام والمسلمين .

الركيزة الثانية

صلاة الخوف والحرب الحديثة

مع تطور العلوم العسكرية ، وأدوات الحرب ... ووسائل المواجهة نحتاج إلى اجتهد يمكن المسلمين من الصلاة أثناء الحرب .
فالمرابطون على الحدود يؤدون صلاتهم بالصورة الواردة في القرآن الكريم ... ويمكن أن ينقسم الجيش الإسلامى إلى كتائب وسرايا يصلى بكل منهم أمام خاص بهم .
ويمكن تأجيل الصلاة لقواد الطائرات ، ورواد الإشارات على أن يقضوا صلاتهم بعد انتهاء مهماتهم .
والمجال واسع ، ويمكن للعلماء والفقهاء وضع الحكم الشرعى لكل حالة على حدة .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٤٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٠٠ .

ضرورة القوة والصبر في الجهاد

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۚ إِن تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَكُمْ كَمَا تَأْلُمُونَ ۚ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

لما انتهت غزوة "أحد" ورجع أبو سفيان وجماعته إلى مكة أمر الرسول ﷺ أصحابه متابعتهم ، فشكوا الجراحات ، فنزلت الآية . فخرج كل من اشترك في غزوة "أحد" مع رسول الله ﷺ إلى "حمراء الأسد" (١) .
وقيل : نزلت الآية لما تخاذل المسلمون عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة "بدر الصغرى" بعد حول من "أحد" (٢) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة أحكام صلاة الخوف ، ومداومة ذكر الله لتحقيق النصر ، جاءت هذه الآية تدعو المسلمين إلى القوة ، والتحمل في مواجهة الأعداء .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية ضرورة القوة ، وعدم الضعف والتخاذل في تتبع العدو بعد غزوة "أحد" ، وعدم الاعتذار بالألم والجراح ، فالألم موجود عند الأعداء كما هو موجود بين المسلمين إلا أن المسلمين يؤمنون باليوم الآخر ، وما أعده الله لهم فيه ... أما الكفار فهم لا يؤمنون باليوم الآخر فلا أمل لهم فيه .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٩٣ .

(٢) حاشية محيى الدين شيخ زاده ج ٢ ص ٦٦ .

(٤٦٥)

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾ أى لا تضعفوا ، ولا تتخاذلوا في طلب أعدائكم وملاحقتهم ... وسبب ذلك أن رسول الله ﷺ طلب من أصحابه بعد غزوة "أحد" السير في أثر أهل مكة ، وابتغاءهم فشكوا ألم الجراحات فأمرهم رسول الله أن يهتموا بملاحقتهم وأن لا يضعفوا في ابتغائهم ... واحتج عليهم ﷺ ورد رأيهم ... وذلك في قوله تعالى :

﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ ﴾ أى أن حصول الألم قدر مشترك بينكم وبينهم ، ولم يمنعهم الألم من قتالكم ، والأولى أن لا يمنعكم من قتالهم فكيف لا تصبرون مثل صبرهم ؟ ... مع أنكم أولى بالصبر منهم !!!

﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ أى أنكم أيها المؤمنون تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وتعرفون أن الآخرة خير الدنيا ... وهم ليسوا كذلك فرجأوكم في الله يجعلكم تطيعونه ، وتجاهدون عدوكم لتفوزوا بما قدره الله لكم أما هم فلا رجاء لهم في شئ من هذا ... وبذلك يدعوكم الرسول ﷺ إلى طلب العدو ، ويحثكم على عدم القعود لأن رجاء النصر والغلب من الله تعالى الذى وعد به .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى أن الله عليم بأمور عباده جميعا لا يأمرهم إلا بما فيه مصلحة ، ولا ينهاهم إلا عن كل ما يضرهم .

- ٤ -

معنى الآية

يأمر الله تعالى المؤمنين بالقوة والنشاط في متابعة العدو ، وعدم الضعف والاستكانة ... وعدم الاعتذار بالألم والخسائر التى تحدث لأن الألم والخسائر

(٤٦٦)

قدر مشترك بين المؤمنين وبين أعدائهم ... والأعداء لا يتعللون بهذا فكان الأولى بالمسلمين إن لا يتعللوا به ، وبخاصة أن المسلمين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأملهم في الآخرة ، ونصر الله كبير ، وأملهم في عون الله عظيم ... ويؤمن المسلمون بأن الله عليم بكل شئ لا يأمر إلا بما فيه مصلحة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تبين الآية ركيزة هامة ... هي :

أساسيات النصر في الإسلام

الحرب خسارة للمال ، وفناء للنفوس ، ولكنها ضرورة شرعها الله تعالى لتبقى القيم الإنسانية ، ويستمر الحق في الوجود .
وقد شرع الله الجهاد حماية للدين ، وصيانة للعزة ، وضمانا للحقوق التي تحتاجها الناس .
ويعلم الله تعالى أن الجهاد شاق ، ولذلك يسر للمسلمين طريقه وهم يدعوه إليهم .

عرفهم الله تعالى بأنهم أصحاب حق يجاهدون لحمايته بلا عدوان على حق الآخرين ... لأنهم لو تكاسلوا لهان أمرهم ، وتمكن أعداؤهم منهم .
عرفهم الله تعالى أن العدو يضحي لباطله ، وسألهم متعجبا كيف يتركون حقهم بلا حماية !!؟

عرف الله المؤمنين بما يرجوه المجاهد من الله تعالى إن عاد سالما ، أو لقي الله شهيدا ... وبين لهم أن هذا الرجاء لا يراه الكافرون . فكيف يضعفون أمامهم .
عرفهم الله تعالى أنهم يؤمنون به سبحانه وتعالى ، ويؤمنون أنه لا يأمرهم إلا بكل خير . فكيف بهم يقعدون عن ابتغاء العدو ومجاهدته .

(٤٦٧)

توجيهات ربانية فى إطار قصة واقعية

عاش المسلمون مع رسول الله ﷺ حياتهم مع قائدهم الذى جعله الله لهم يستقبل الوحي الإلهى ، ويضعه أمامهم منهجا للحياة ، وطريقا للعمل والسلوك .
وقد اتخذ الوحي الإلهى طريقته المثلى فى تربية المسلمين ، وجعل من الواقع منطلق الحركة والتوجيه ، وكان القرآن الكريم ينزل مواكبا لحركة الناس ، يوجههم ويبين خطأهم ، وصوابهم ، ويدعوهم إلى توجيه شئون الحياة بمنهج الله تعالى .

ومن هنا نجد ارتباط الآيات بأسباب النزول وهذا يفيد مدى الحكمة الإلهية فى التعامل مع الناس .

ومعنى ذلك إن التعاليم الإلهية نزلت من عند الله ، إلا أنها تعايش البشر ... فهى :

(١) تصلح حياتهم ، وتقدم الشريعة المثلى لوضع الأحكام التى تصون الحقوق ، وتنشر العدل والسلام .

(٢) تناسب الآيات إنسانية الإنسان فهى لا تتصوره ملكا خاليا من الشوائب ولا تتصوره حيوانا خاليا من همسات الروح ، ونبضات العقل ، والتفكير .

(٣) لا تقف الآيات بالإنسان عند واقعه الذى هو فيه بل تعمل على الترقى به فى مدارج المعالى شيئا فشيئا حتى تصله بالله ، وتدعه يسعد بالعروج فى مدارك الأصفياء الصادقين .

(٤) ومع ارتباط الإنسان بالله لا يتركه الوحي لعقله ، وتصوراتهِ ، بل تستمر الآيات تعلمه ، وتوجهه ، وتحيطه بالتنبيه وتدفعه إلى العمل ، وتحذره من مزالق الطريق ، وتعرفه بأعدائه الموجودين معه ، ومن حوله ... والبعيدين عنه ، وهم كثير .

(٤٦٨)

وحين نعيش مع آيات سورة "النساء" ، وبخاصة الآيات من رقم (١٠٥) حتى الآية رقم (١١٦) نرى هذا الحقائق . فقد نزلت هذه الآيات في طعمة بن أبيرق ، وعاشت في جريمته وكفره ، وردته وقدمت خلالها دروسا للنبي ﷺ وللمسلمين على الزمن كله .

ولقد ظهر إعجاز القرن الكريم في هذه الآيات ، فهي خطاب للنبي ﷺ ، تحدثه عن قصة طعمة ، وقومه ، وتجعل من الأحداث أنموذج لإصلاح الناس في عصر رسول الله ﷺ وفي كل زمان ومكان ، حيث إبراز العناصر البشرية العامة الموجودة في سائر الناس ، وتوضح خطأها وصوابها ، وتوجه إلى الخير من خلالها .

إن دروس الآيات القرآنية مرتبطة بعلمها ، مبينة لفوائدها ، ولذلك كانت سهولة فهمها ، وسهولة الاقتناع بها ، وتقديمها في دروس هامة متتابعة مع ارتباط كل درس بجزئية في القصة كلها .

وهذا النموذج التوجيهي الموجود في الآيات نقدمه نموذجا للدعاة ليستفيدوا بمنهجية القرآن الكريم في جعل الحدث منهجا للدعوة إلى الله تعالى حيث اختيار جزء من الواقع والانطلاق من خلاله إلى قاعدة كلية نافعة ، ومن حيث نرى الأسلوب ، وتنوعه ، وكيفية التقديم له والتعليق عليه ، والتركيز على ما يراد إبرازه في الموضوع .

إن الآيات وهي تعيش مع سبب نزولها تقدم دروسا للمسلمين وهي تخاطب النبي ﷺ .

وسوف أقدم سبب نزول الآيات ، واتبعها بالدروس المقصودة مع ربط كل درس بمصدره ، وسببه الأول ، والاستفادة في حياة الناس ، وفي مجال الدعوة إلى الله تعالى .

سبب نزول الآيات (١٠٥ - ١١٦)

قال ابن عباس : نزلت هذه الآيات في رجل من الأنصار يقال له : طعمة بن إبيرق من بني ظفر بن الحارث ، سرق درعا من جار له ، يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع في جراب ، فيه دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب ، حتى انتهى إلى دار طعمة ، ثم إنه خبأها بعد ذلك عند رجل من اليهود يقال له "زيد بن السمين" .

فالتمس صاحب الدرع درعه عند طعمة ، فحلف بالله ما له بها من علم .

فقال صاحب الدرع : لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل دارك !!

فلما حلف طعمة تركوه ، واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي فأخذوه .

فقال اليهودي : دفعها إلي طعمة بن أبيرق وشهد له جماعة من اليهود .

وجاء بنو ظفر ، قوم طعمة ، إلى رسول الله ﷺ ، وسألوه أن يجادل عن

صاحبهم طعمة متهمين اليهودي بالسرقة ، فصدقهم رسول الله ﷺ وهم أن

يعاقب اليهودي ، وأن يقطع يده فأنزل الله هذه الآيات^(١) لتوضيح الحق ، وتنبيه

المسلمين إلى عدد من الدروس والتوجيهات التي لا بد من مراعاتها وهم يعيشون

الإسلام مع الناس .

إن هذه الآيات ، وهي تعرض الحادثة التي نزلت بسببها تعمل على

تعريف الناس بالله تعالى ، ويحكمه الحق العادل ، وضرورة قياس الرجال بالحق

وأهمية أن يحيا المسلمون بالحق ، والعدل وفق المنهج الذي أراده الله للناس .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٩٣ .

(٤٧٠)

- الدرس الأول والثاني -

وجوب الحكم بالحق المنزل ، وعدم الدفاع عن الخائنين

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن حثت الآية السابقة المؤمنين على ابتغاء القوم ، والسير خلفهم ، وطاعة الرسول في ابتغاء القوم ، جاءت هذه الآية تدعو إلى الحكم بالحق الذي أنزله الله وبينه .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية ضرورة الحكم بالحق الذي أنزله الله تعالى وأراده لرسوله ﷺ ونهت عن دفاع المؤمن عن الخائن الظالم ، وعن مخاصمة خصومه بالباطل وتدعو إلى ضرورة التثبت قبل الحكم كما في سبب النزول .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ والخطاب لمحمد ﷺ حيث شرفه الله تعالى بإنزال القرآن الكريم إليه ، ليقوم بالحق والصدق ، في كل أمره ونهييه وجميع قضاياه ، وقد أكد الله هذه الحقيقة لرسول الله ﷺ بـ "إن" وجعل إنزال الوحي من الله العظيم على رسول الله مشتملا على الصدق ، والحق ، والعدل والاستقامة ، لتصير تلك المبادئ أساس منهج الله ، وركائز العمل بين الناس .

﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ أى أنزلنا عليك القرآن الكريم

لنقضى بين الناس بالحق الذي أوحى الله به إليك ، وعلمك ما لم تكن تعلم .

وقد أراك الله يا محمد الحق حتى صار علما يقينيا عندك لجريانه مجرى المشاهدة في الظهور والبيان .

وقد حبا الله رسوله بالوحى ، فكان لا يحكم إلا به ، ولا يرى إلا به ، ولا يتكلم إلا به ... يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾^(١) .

وهذا هذا الدرس الأول ، وهو ضرورة تحقيق ما نزل القرآن الكريم له وهو الحكم بما أنزل الله ، فهو حكم بالحق الذى بعد عنه طعمة وقومه ، ويبعد عنه الظالمون دائما .

﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ أى لا تكن يا محمد خصيما للخائنين تخاصم من أجلهم ، وتدافع عنهم ، وتعينهم على الباطل الذى يدعونه فلا تغتر بهم ، وأبحث عن الحق ، واحكم به ، واترك حكم الباطل الذى يريد الخائنون .

والمراد بالخائنين طعمة وقومه لأنهم ظلموا أنفسهم بالكذب ، وألحقوا جريمتهم بغيرهم ، ولهذا عدوا خائنين لأنفسهم وغيرهم . وهذا هو الدرس الثانى وهو ضرورة عدم الدفاع عن المجرمين .

والآية مرتبطة بسببها إلا أن عمومها لكل حدث يشبهها هو المعمول به . وللرسول عذره فيما ذهب إليه ابتداء . فقد تعامل مع الظاهر الذى يشير إلى إسلام طعمة ، وكان الرسول يظنه صادقا ، وكاد أن يحكم له لولا نزول الآية .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله أنزل الكتاب الكريم على محمد ﷺ بالحق الذى لا ريب فيه ،

(١) سورة النجم ، الآية ٣ ، ٤ .

(٤٧٢)

ليحكم به في قضايا الناس كما أراه الله تعالى ، لينشر منهج الله في الحياة ،
والمأمول هو استمرار الرسول ﷺ فيما هو فيه ، ولا ينحاز للخائنين ، ولا
يخاصم عنهم ، ولا يدافع من أجلهم ، وبخاصة بعد ظهور الحق واتضاحه .

- ٥ -

دروس الآية

تتضمن الآية درسين رئيسيين توجه الرسول والمسلمين إليهما ... وهما :

الدرس الأول : ضرورة الحكم بالحق ، وهذا يقضى ضرورة البحث عن
جوانب الحدث ، وعدم الاستماع لطرف دون غيره ، والالتزام بحكم الله بعد
وضوح الحقائق ، ومعرفة حكم الله فيها .

الدرس الثانى : عدم الانحياز في الحكم ، وذلك يكون بالنظره المتساوية
بين الجميع وملازمة الحق مجردا ، والاعتماد على البينة والدليل ، واكتشاف
المنافقين في الصف الإسلامى ، وعدم التسليم في القضاء لطرف واحد ، وعدم
الدفاع عن مذنب عاص ، فهو خائن لنفسه ولغيره .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

الحكم كله لله

تشير الآية إلا أن نزول القرآن الكريم قام على الحق والصدق ، وقد أنزله
الله تعالى على رسوله ليحكم بين الناس بما أراه الله ، وقد التزم رسول الله ﷺ
بذلك ، وواجب المسلمين أن يلتزموا بهذا الهدى في قضاياهم ، وحياتهم .
ولو التزم المسلمون بالعودة إلى حكم الله تعالى لخلت حياتهم من الغش
والخيانة ، ولاستقاموا على الطريق الواضح السليم ، ولسعد القاصى والدانى ،
وقام كل بواجبه ، وهو مطمئن سعيد .

(٤٧٣)

- الدرس الثالث - وجوب الاستغفار الدائم

يقول الله تعالى :

﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

الآية موصولة بما قبلها فهي تأمر النبي ﷺ بالاستغفار عن دفاعه عن طعمة بن أبيرق بعدما ظهرت حقيقته .

- ٢ -

موضوع الآية

تأمر الآية النبي ﷺ والمؤمنين معه بمداومة استغفار الله تعالى فهو سبحانه وتعالى الغفور الرحيم ، ولا يجوز للنبي والمؤمنين أن يجادلوا عن الخائبين ، ويخاصموا عنهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ والأمر لرسول الله ﷺ عطا على الأوامر السابقة

ليستغفر ربه عما هم به ﷺ في معاقبة اليهودي ، وعن جداله عن طعمة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يستر عيوب

عباده ، ويغفرها لهم ، ويرأف معهم في قضائه ، وقدره .

ولكن ...

هل أذن رسول ﷺ حتى يأمره الله بالاستغفار ؟

والجواب على ذلك من وجوه :

- الوجه الأول : أن قوم طعمة لما شهدوا عند رسول الله ﷺ ببراءة طعمة

من السرقة ، ولم يظهر في الحال لرسول الله ﷺ ما يوجب القدح في شهادتهم وصدقهم ، وهم بأن يقضي على اليهودي بالسرقة ، فلما أطلعهم الله على كذب قوم طعمة عرف أنه لو وقع ذلك الأمر لكان خطأ في نفس الأمر فأمره الله بالاستغفار عن تصديقه وهمه وإن كان معذورا .

– **الوجه الثاني :** يحتمل أن الله تعالى أمره بالاستغفار لقوم طعمة لذنبهم عن طعمة ، فلقد ناصروه حمية ، ولم يشتركوا معه في السرقة .

– **الوجه الثالث :** استغفاره ﷺ يحتمل أن يكون لذنب قد سبق قبل النبوة ويحتمل أن يكون لذنوب أمته .

– **الوجه الرابع :** أن درجة النبي ﷺ أعلى درجات البشرية ، ومنصبه أشرف المناصب ، فلعلو درجته ، وشرف منصبه ، وكمال معرفته بالله عز وجل فما يقع منه على وجه التأويل ، أو السهو ، أو أمر من أمور الدنيا فإنه ذنب بالنسبة إلى منصبه ﷺ وقد قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وذلك بالنسبة إلى منازلهم ودرجاتهم والله أعلم .

- ٤ -

معنى الآية

يأمر الله نبيه ﷺ بالاستغفار عن جدله عن طعمه قبل وضوح جرمه ، وكان عليه أن ينتظر نهاية القضاء ، وعد ما فعله ﷺ ذنبا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

- ٥ -

دروس الآية

نستفيد من الآية درسا عظيما وهو ضرورة مداومة الاستغفار لله تعالى وطلب عفوه ومغفرته ... والمسلم مكلف بأن يستغفر ربه أثناء الله وأطراف فهو محتاج إليه ، والمحتاج دائما يقدم لمن يحتاج إليه .

(٤٧٥)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

حاجة المؤمن لله تعالى

العبد مخلوق يحتاج دائما لخالقه ، يعبده ، ويرتبط به لنعمه السابغة ، وفضائله العميمة .

والاستغفار الدائم عبادة لا بد منها لأنها تحقق للإنسان ما يلي :

- (١) تعرفه معنى العبودية التي تجعل العابد محتاجا إلى المعبود في كل وقت وبذلك لا يصاب الإنسان بغرور ، ولا يلعب به شيطان .
- (٢) تيسر العبادة على المعبود لأن الإنسان فيها ، وبها يشعر أنه في معية الكبير المتعال العليم الخبير ، فلا تشغله مادة ، ولا يخفيه عدو لئيم .
- (٣) يشعر المسلم بقيمة دينه الذي يمدده المنهج ، ويجعله جزءا من هذا الوجود المسبح الخاشع لله رب العابدين .

ولذلك :

كان النبي ﷺ يستغفر الله في اليوم أكثر من مائة من مرة ، ويدعو إلى مداومة الاستغفار والذكر لله رب العالمين .

(٤٧٦)

- الدرس الرابع -

النهي عن الدفاع عن الخائنين

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (٤٧٦) .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

الآية موصولة بما قبلها لأنها نزلت في إطار توجيهات الله لرسول الله ﷺ في قضية طعمة وأشباهه .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية توجه رسول الله ﷺ والمسلمين معه إلى عدم الجدل عن طعمة وعن أمثاله من الناس ، فهم يختانون أنفسهم ، والله لا يحبهم .
وتوضح الآية لرسول الله ﷺ منهج التعامل مع القضايا الموجودة حتى لا يجادل عن معتد ، ولا يجامل ظالما .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ والنهي في الآية لرسول الله ﷺ ، وفيه ينهاه الله تعالى عن الجدل عن المذنبين العصاة الذين يختانون أنفسهم بإيرادها موارد التهلكة .
﴿ وَلَا تُجَادِلْ ﴾ والخطاب موصول بمحمد ﷺ ينهاه ربه عن الجدل عن قوم لا يستحقونه كما فعل مع طعمة .

ويراد بالجدل رد الاتهامات الموجهة إليهم ، والدفاع عنهم ، ومخاصمة الغير من أجلهم .

﴿ عَنْ الَّذِينَ سَخَّتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ وهؤلاء هم الذين نهى النبي ﷺ عن المجادلة عنهم ، وهم الذين اتصفوا بالخيانة ، وقد جاءت الصلة وصفا لهم يعرفون بها وكأنها وصف خاص ، صار مسمى لهم ، ومعنى ﴿ سَخَّتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ يظلمون أنفسهم بارتكاب الذنب والإثم ، لأن من أقدم على ذنب فقد خان نفسه ، وأوقعها في العذاب ، وحرمها من الثواب ، فهو كحارس يسرق ما هو مسئول عنه ... ولهذا قيل لمن ظلم غيره أنه ظلم نفسه .

والأمر وإن كان للنبي ﷺ متعلقا بسبب معين ، فإن معناه يعم كل خيانة يقوم بها إنسان ما ، والأمر تكليف لكل مسلم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ ونفى حب الله يقتضى غضبه ، والآية تدل على أن الله غاضب على كل مكثر في الخيانة ، مبالغ في ارتكاب الذنوب والآثام ... وغضب الله على إنسان ما يؤدي إلى لعنه ، وطرده من رحمته ، وادخاله نار جهنم وبئس المصير .

و ﴿ خَوَّانًا ﴾ و ﴿ أَثِيمًا ﴾ صفتا مبالغة دللتا على كثرة الخيانة ، وتعاضم الإثم ... وقد علم الله ذلك في طعمة ورأى الناس طعمة كثير الآثام والذنوب ، فقد ثبت أنه لما نزل فيه القرآن لحق بمكة مرتدا عن دينه ، ثم عدا على الحجاج بن علاط فنقب عليه بيته ، فسقط عليه حجر من الحائط ، فلما أصبحوا أخرجوه من مكة ، فلقى ركبا فعرض لهم . وقال : أنا ابن سبيل ومنقطع به ، فحملوه ، حتى إذا جن عليه الليل عدا عليهم فسرقهم ، ثم انطلق ، فركبوا في طلبه فأدركوه ، فرموه بالحجارة حتى مات .

(٤٧٨)

ومن كانت هذه حاله كان كثير الخيانة والإثم فلذلك وصفه الله تعالى بالمبالغة في الخيانة والإثم .

قال بعضهم : إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات .
ويروى عن عمر أنه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكي وتقول : هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه يا أمير المؤمنين .
فقال عمر : كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة^(١) .

إن الله رحيم بعباده جميعا ، ولذلك يعفو ، ويصفح ، ويدعو ، ويغفر فإذا ما تاب العبد تاب الله عليه ، وإن أصر على المعصية واستمر فيها فهو خوان أثيم يستحق اللعن والطرده والعذاب الأليم .

- ٤ -

معنى الآية

توجه الآية رسول الله ﷺ إلى عدم الجدل عن المذنبين الذين يخونون أنفسهم بإيقاعها في الإثم والعذاب .

- ٥ -

من دروس الآية

توضح الآية درسا له أهميته في حياة المسلمين وهو ضرورة اتباع الحق ، وترك التعصب للقرابة أو الصحبة ، وعدم الجدل عن العصاة والمذنبين لأن الله لا يحبهم .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تشير الآية إلى ركيزة هامة ... هي :

الولاء بين المؤمنين

ولاء المؤمن هو للمؤمنين وحدهم كما قضى الله بينهم . يقول الله تعالى :

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٥٩٤ .

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١) ولذلك كان من الأهمية أن يعيش المؤمن هذا الولاء يحب الله ، ويكره الله ، وبذلك يعيش للناس ولنفسه ، ويؤدى واجبه ، ويشعر بأنه عضو في جماعة كبيرة لها رسالة وهدف ، وتعمل في الدنيا لله رب العالمين .

إن الحق يحتاج دائما إلى رجال ، متماسكين . متحدين . يتعاونون على البر والخير ، ويعيشون في حياتهم على الحق المبين . والإسلام هو قضية الحق في هذا الوجود ، وحاجته دائمة إلى أناس يؤمنون ، ويسلمون ، ويطيعون ، أولئك هم حزب الله . يرحمهم . ويعينهم . والله ولى المؤمنين .

ـ الدرس الخامس ـ

معرفة طباع الخائنين

يقول الله تعالى :

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن نهى الله تعالى عن الدفاع عن الخائنين جاءت هذه الآية تبين أهم صفاتهم .

(١) سورة التوبة ، الآية ٧١ .

(٤٨٠)

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الخائنين يراعون الناس أكثر من مراعاتهم الله ، ويبيتون مكرهم وخداعهم لإلحاق الضرر والأذى بالمسلمين ، والله محيط بهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ﴾ أى يستترون من الناس ويختفون عن أنظارهم حياء من مواجهتهم لأنهم يعلمون عنهم بعض خياناتهم ، وهذه صفات الذين يختانون أنفسهم ، وفى مقدمتهم طعمة ، وقومه ... وما دروا إن الإنسان يعلم بعض الظاهر ، ويغيب عنه الكثير ، ومن الممكن خداعه فيما يدركه بتقديم الأعدار الواهية ، وصنع الخدع والأكاذيب ، واستخفاؤهم من الناس دليل تفاهة عقولهم ، وضعف أفهامهم لأن الله عليم خبير .

﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ أى أنهم لا يستترون من الله ، ولا يخلون من ارتكاب الذنب أمامه ، ولا يأبهون لذلك ... مع أن الله فاعل كل شئ ، وهو معهم في كل وقت ، يراهم ولا يرونه ، وهو معهم بعلمه وقدرته لا يغيب عنه أمر ، ولا تخفى عليه خافية .

ولو قدروا الله حق قدره لجعلوا خوفهم كله من الله ، واستحيوا من الله الحياء الحق .

﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أى أنهم يعدون أمرهم لبيل ويبيتون ما نوا فيزورون مقالاتهم ، ويضمرون الكذب ، ويتصورون أن رسول الله ﷺ سينخدع بإسلامهم الظاهر ، ويصدق زعمهم المخلوق ، ويبرئهم مما فعلوا ويكذب اليهود لكفرهم وعدم إيمانهم ... وجهلوا أن الله عليم بكل شئ ، محيط بكل خلقه يعلم أسرارهم والأخفى منها ، ولن يرضى بباطل أبدا .

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أى أن الله تعالى محيط بكل أعمالهم منذ الأزل ، وقد أخبر رسوله ﷺ بها ، ولذلك انكشفت أسرار الخائنين ، وبانت خباياهم ، ومكائدهم ، ولم ينالوا شيئاً مما خططوا له .

- ٤ -

معنى الآية

توضح الآية خصائص الخونة الأفاكين ، وتبين أنهم يستترون من الناس خوف الفضيحة ، ولا يستترون من الله تعالى رغم أنه معهم في كل حال ، وأنه سبحانه إذا أراد لفضحهم ، ففضوح الدنيا يسير بالنسبة لفضوح الآخرة ، ويصل الخبل بهؤلاء الخونة أنهم يدبرون لخياناتهم ، ويعدون لها بليل أملا في عدم ظهورها ... وجعلوا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وقد أحاط رسوله بأحوالهم وأعمالهم .

- ٥ -

دروس الآية

تبين الآية صفات الخائنين العصاة ، وتعرف المسلمين بهم ليتعاملوا معهم بما يستحقون ، والصفات التي تبرزها الآية هي :

- (١) المرءة ، فهم يراءون الناس ، ويستترون منهم ، ولا يستخفون من الله تعالى مع أنه ﷻ مع جميع خلقه بعلمه وقدرته فهم إذا لا يقدر الله حق قدره .
- (٢) التخطيط المعادى ، فهم يخططون ضد المسلمين بليل ، ويمكرون ويخادعون ، ويبينون ، ويجعلون أن الله محيط بهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

توقير معية الله تعالى

يعيش المسلم حياته عبدا صادقا لربه الذى لا يغيب عنه أبدا فانه هو خالقه ، وحافظه ، وهاديه ، والإنسان هو عبده المحتاج إليه .

ولذلك ...

وجب ان يعمل العبد لله ، ولا يخاف إلا منه ، وأن يدوم مع الرقابة الإلهية التي لا تغيب عنه أبدا .

إن الإحساس بمعية الخالق يقوى الإيمان ، ويرفع الإنسان إلى درجة الإحسان ، ويضع العمل والسلوك ، والعقل ، والفكر ، في المنهج المستقيم ، وخاب كل عاص لله تعالى ، لأنه جهل حقيقة وجوده ، وفعل ما يفعله الظالمون .
إن على المسلم أن يشعر برقابة الله تعالى ، فهو سبحانه مع عباده أينما كانوا ، وكيفما كانوا .

يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ جَوْى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾^(١) .

ويقول ﷺ راويا عن ربه الحديث القدسي ، وفيه يقول الله تعالى : "أنا عند ظن عدي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسي ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير من ملئه"^(٢) ...
وحينما سئل ﷺ عن الإحسان قال ﷺ : "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"^(٣) .

(١) سورة المجادلة ، الآية ٧ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب التوحيد . باب قوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ج ٢٢ ص ٤٠٩ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ج ١٤ ص ٤٥٢ .

(٤٨٣)

- الدرس السادس - **وجوب الانتصار للحق**

يقول الله تعالى :

﴿ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

عندما نهت الآيات السابقة عن المخاصمة عن الخائنين ، وعن الدفاع عنهم جاءت هذه الآية لتبين خطأ الجدل عنهم في الدنيا لأنهم لن يجدوا من يدافع عنهم أو يتولى شئونهم في الآخرة حيث لا يكون إلا الحق والصواب ، ولن يجدوا في الآخرة إلا العذاب الأليم .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تبين أن الذى يقع يوم القيامة هو القول الصادق ، وتترك الجدل عن الخائنين في الدنيا ، وتوضح عدم جدواه لأنهم في الآخرة لا يجدون من يدافع عنهم لعدم وجود حماة للباطل ، ونصراء للكافرين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴾ ها للتنبيه جئ بها قبل ضمير المخاطبين ، وقبل الإشارة للتنبيه . والمعنى : يا أنتم يا هؤلاء ... والخطاب لجماعة من المؤمنين كانوا يجادلون عن طعمة وقومه لإسلامهم الظاهر فكرر الله تنبيههم ليعلموا خطأ الجدل والمخاصمة عن طعمة وقومه .

﴿ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ والجدل هو شدة الحوار من أجل إثبات الرأي الذي يراه صاحبه ولو لم يكن حقا ، وقد كان جماعة من المؤمنين يدافعون بشدة ، ويجادلون بخصومة عن طعمة مع أنه خائن لنفسه فعاتبهم الله تعالى عن هذا الجدل ... والتمس عذرهم بأنهم تعاملوا مع ظاهر طعمة وقومه ، وعدوهم مسلمين مع أن طعمة كان خائنا لنفسه وللناس .

ويظهر العتاب بتصور ما حدث في الدنيا مع غرابته ، والتعقيب عليه بالسؤال عن ما يحدث في الآخرة فقال الله تعالى :

﴿ فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ ؟ ... حين يعذبهم الله تعالى ويقيم عليهم الحجة فمن يجادل عنهم يومئذ ؟

والسؤال للتذكير والتوبيخ حيث لا فائدة في الجدل ، ولا يستطيع مخلوق أن يجادل الله في أمر أبدا ، وبخاصة بعد أن يثبت بطلانه .

﴿ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ ؟ ... والسؤال للتقريع ومعناه ، ومن يكون محافظا عليهم ، ومحاميا يدافع عنهم بعد ظهور حقيقتهم ، ونزول العذاب بهم ... لا أحد .

- ٤ -

معنى الآية

يسأل الله المجادلين عن طعمة وقومه في الدنيا ، وينكر عليهم ذلك لأنهم جادلوا عنهم في الدنيا ظنا في صدقهم ، ولكنهم لا يجادلون عنهم في الآخرة حيث اتضح الحقيقة ، وانصراف الخلق عن الخائبيين .

- ٥ -

دروس الآية

تبين الآية درسا هاما ، وهو ان النصر في الآخرة هو النصر في الحقيقة ، لأن الدنيا لا تساوى شيئا ، والآخرة هي الحياة الحقيقية ، والمتعة هي متعة

(٤٨٥)

الآخرة ، فالفوز منها هو الفوز ، ولا قيمة لدنيا كانت سببا في ضياع الآخرة .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

توضح الآية ركيزة هامة ... هامة :

المكر السئ يحقق بصاحبه

تنتهى الدنيا بهوانها ، وصغائرها ، وتأتى الآخرة بصوابها وحقيقتها ، وتجد كل نفس ما قدمت وأخرت ، وتظهر الحقيقة واضحة جلية ، وحينئذ لا يجد الخائنون أى خير ، ولا يجدون نصيرا ينصرهم ، أو وكىلا يدافع عنهم وحينئذ يلقيهم الله فى جهنم وبئس المصير .

ويتصور كثير من الناس أن المكر يفيدهم فى الدنيا ، وذلك وهم الشيطان ، وغروره ، لأن العمل السئ لا يفيد فى الدنيا ، لأن صاحبه لا يسعد به ولا يطمئن إليه ، ودائما يرى المعصية فيه .

ومنفعة الحرام لا تدوم ، ولا تصفو ، ولا تنتج إلا السوء مثلها ... وزارع المر لا يجنى إلا الحنظل ، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

ومن حقائق الحياة أن الظل لا يستقيم لعود أعوج ، ومن استقام وصل ، ومن اعوج ضل وهوى .

- الدرس السابع -

بيان عاقبة الأعمال السيئة

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة غضب الله على المذنبين الخائنين أنفسهم ، ونهت عن المخاصمة عنهم ، جاءت هذه الآيات لتتحدث عن أصناف المذنبين فمنهم من يتوب ويستغفر ، ومنهم من يسيئ إلى نفسه فقط ، ومنهم من يسيئ إلى نفسه ويرمى بإساءته الأبرياء وقد جعل الله لكل جزاء يعادل أعمالهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

توضح الآيات أحوال المذنبين ، مرتكبي الذنوب لينتبهوا ، ويتداركوا ما فاتهم ، وتبين أن منهم من سيستغفر الله وسيغفر الله له ، ومنهم من سيرتكب إثما وعليه عاقبته ... ومنهم من يرتكب جريمة وإثما ثم يرمى بها بريئا ، وهؤلاء يتحملون إثما خطيرا ، وخطيئة كبرى فقد ارتكبوا بهتاناً وكذباً .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ الجملة شرطية تبين أن من يقوم بارتكاب عمل سيئ يضر به نفسه أو غيره فهو ظالم في هذا العمل الذي لم يؤمر به ، ولم يأذن له الشرع بعمله .

﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ ﴾ أى يندم على هذا السوء ، وذاك الظلم ، ويقلع عنه ويتوب توبة صادقة .

﴿ يَجِدِ اللَّهُ غُفُورًا رَحِيمًا ﴾ يلق الله قد غفر له ذنبه ، ورحمه ، وأحاطه بمعونته ... وفى هذا حض على التوبة ، والاستغفار ، وترك السوء كطعمة وقومه ، ولكل مؤمن إلى يوم القيامة .

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ يستعمل العرب الكسب في فعل الخير ، ويستعملون الاكتساب في فعل الشر إلا أن الآية استعملت الكسب في عمل السوء ، وكان المعنى أن الله يخبر الإنسان الذى يرتكب ذنبا بعودة مضرة الذنب عليه ، والله منزه عن الضر بلا سبب ، وعلى الإنسان أن يكثر من الاستغفار ، ولا ييأس من قبول التوبة فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ ^(١) ، ولذلك نصت الآية على قبول الاستغفار بعد حدوثه مباشرة .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى عليم بأعمال العباد ، حكيم في قضائه وقدره .

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ﴾ أى ومن يرتكب ذنبا صغيرا او كبيرة من الكبائر ويقذف بعمله بريئا .

﴿ ثُمَّ يَرْمِيهِ بَرِيئًا ﴾ لينزه لنفسه عن التهمة التى رمى بها .

﴿ فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا ﴾ أى أن من يفعل ذلك فقد ارتكب كذبا كبيرا لا يتصوره عقل ، يعود عليه ، ويحمله ، ويتحمل أوزاره ، وعقوبته .

(١) سورة طه ، الآية ٨٢ .

﴿وَأَثْمًا مُّيِّنًا﴾ وقد جمع الله على هذا الأثم العقوبتين ، وهما احتمال البهتان ، والإثم المبين ، لأنه كسب الإثم في نفسه ، ورمى به غيره فعاقبه الله بما يناسب فعله وجرمه .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات عدل الله في حكمه ، ورحمته بعباده ، فهو سبحانه يبين للعصاة المذنبين أن نجاتهم في التوبة والاستغفار ، وأن عمل السوء يحيق بفاعله عقابا وعذابا ، ولذلك قضى سبحانه وتعالى بقبول توبة من يتوب وغفران ذنوب من يستغفر ... كما قضى سبحانه بأن يتحمل الأثم عقوبة إثمه ، وأن من يعمل الخطيئة ويرمى بها البرءاء فقد ارتكب جرما كبيرا يستحق به البهتان الكبير ، والإثم العظيم بسبب جريمته الذي ارتكبه .

- ٥ -

درس الآية

تفيد الآية درسا هاما وهو توضيح أن عاقبة العمل السيئ تلحق بصاحبه وحده في يوم يهتم كل إنسان فيه بنفسه وحده . يقول الله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ﴾^(١) .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

إن الله تواب رحيم

تدل الآيات على أن الله سبحانه وتعالى برحمته يقبل توبة العبد إن عاد إليه وتاب واستغفر مهما كان الذنب صغيرا أو كبيرا .

(١) سورة المدثر ، الآية ٣٨ .

وهذا فضل كبير ، وأمر واضح يجعل المسلم يقبل على الله ، ولا يقنط من رحمته سبحانه وتعالى .

وعلم الله ضعف الإنسان ، وتنوع طاقاته ، وكثرة شواغله المادية فقدم له الإسلام يشبع كافة طاقاته ، ويفتح باب الاستغفار لمن أصابه ضعف ، وبعد عن الحق في جانب ما .

إن دين الله تعالى يتعامل مع الإنسان كما خلقه الله ، فيسمو بطاقاته ومملكاته ويتعامل مع إنسانيته وفطرته ، ولا يسوقه سوقا إلى الطاعة ، وإنما يرضيه ، ويعطيه ويمده ب زاد وفير من الحسن ، والجمال ، والخير ، ويجعل مكارم الأخلاق المنهج الأمثل للتعامل والرقى .

إن ربي رحيم ودود ، رعوف بعباده يحب توبتهم ، ويرضى عنهم ، ويعطيهم ، وهو على شئ قدير .

وعلى الدعاة ...

أن يعيشوا هذه الحقيقة ، ولا يجعلوا دعوتهم سيفا مسلطا على رقاب الناس وعليهم ملازمة الرحمة في الخطاب ، وإبراز الجمال في الدين ، وبيان الحرص على المصلحة في الدعوة إلى الله تعالى .

الركيزة الثانية

الدعوة بالترغيب والترهيب

الإنسان شغوف بالخير ، محب للنعيم ... وفي نفس الوقت هو كاره للشر ، نافر من الشقاء ، ولذلك يأتيه الشيطان من أمانيه فيزين له الهوى ويلبس عليه الحقيقة حتى يبدى له السوء حسنا ، ويظهر المعوج مستقيما ويغره بهذا المسلك حتى يضلّه ويفسده .

والله عليم بعباده . فهو خالقهم ، ولذلك يرغبهم في الحق بالحق ، ويخوفهم من الباطل والسوء ، ويبين المآل الحتمى لعمل الإنسان خيرا أو شرا .

(٤٩٠)

وهذا ما يعرف في الدعوة بالترغيب والترهيب ، وهو أسلوب حسن له تأثير كبير في الناس ، لأنه يلامس الفطرة ، ويخاطب الباطن والظاهر ، ويحتاج إلى المهارة في الاستفادة منه ليوضع في موضعه، ويساهم في نجاح الدعوة وهداية الناس ...

وليس من المستحسن الإكثار منه ، والبدء به في الحديث الدعوى والأولى التخير في الترغيب أو في الترهيب ، ووضعه في موضع الدليل ، والنتيجة فهذا أولى للدعاة والدعوة .

- الدرس الثامن -

بيان فضل الله تعالى على رسول الله ﷺ والمؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ هَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

الآية متصلة بما قبلها ، وفيها يبين الله تعالى فضله على رسول الله والمسلمين بكشفه اللبس الذي حاول به طعمة وقومه إخفاء الحق .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين معه أنه لولا فضل الله عليهم لتمكنت طائفة من بنى ظفر قوم طعمة أن يبعدوك عن الحق ، ويخطئوك في الحكم ، وما دروا أنهم يضلون أنفسهم ، ولن يضروك في شئ أبداً لأن الله حافظك وقد نزل عليك القرآن الكريم والسنة النبوية وعلمك من أمور الغيب ما لم تكن تعلم ، وليس في مقدورك وحدك أن تعلم ، وكان فضل الله عليك كبيراً .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ﴾ هذه الآية متصلة بما قبلها ، وهي جزء من قصة طعمة وقد حاول قومه أن يضلوا رسول الله في القضاء

فكشف الله عملهم ، وعرف رسول الله ﷺ يأمرهم ، وذلك فضل من الله ذكره سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ ليقف عليه النبي والمؤمنون معه .

﴿ هَمَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ أى كادت جماعة من قوم "طعمة" وهم يعلمون أن طعمة سارق الدرع أن يبينوا أن السارق غيره ، ويزعمون أن اليهودى هو السارق ، وبذلك يبعدون رسول الله عن الحكم الصحيح ، ولكن الله نجاه من إضلالهم له ، وبين له أن "طعمة" هو السارق .

﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ﴾ يعنى أن وبال إضلالهم راجع إليهم بسبب تعاونهم على الإثم والعدوان ، ومحاولتهم تبرئة طعمة ، والحاق جريمة السرقة بغيره مع علمهم بالحقيقة ، وبذلك عاد وبال عملهم عليهم .

﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ أى واضلالهم لك لا يضررك في شئ لأنك تحكم بالظاهر ، والغيب لا يعلمه إلا الله ، ويتولى إثمه من أقامه على الكذب والبهتان ... والله يتولى الأمر ، ويهدى الصادقين ، ويبعد عنهم كيد الخائنين .

﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أى وأنزل الله عليك القرآن الكريم والسنة النبوية وجعلهما مصدر الحكم والقضاء ، وأساس الدين والهدى فتمسك بهما ، ودع مزاعم الخائنين .

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ أى وأمدك الله بسائر أحكام الشرع ، وأمور الدين ، وكيفية الحكم والقضاء ، وأظهر لك كثيرا مما غاب عنك ، ومنه إفك طعمة وقومه .

﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ أى ولا يزال فضل الله معك وكل من يحاول إضلالك سبيوء بالخسران فالتزم وحى الله تعالى ، وقم بواجب الرسالة ، ولا تجعل لكيد الخائنين مدخلا يعوقك عن اداء ما وجب عليك ، فالله معك ، وقد أعطاك .

(٤٩٣)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية فضل الله على رسوله ﷺ إذ لولاة لتمكن قوم طعمة من إضلال رسوله ﷺ في الحكم بتصديقه المزاعم الكاذبة عن السارق ، واتهام اليهودى مع براءته ، ولكن الله أخزاهم ورد كيدهم في نحورهم ، وأوحى لرسول الله بالحق ، ووقع قومه طعمة في الخزي والضلال فنالوا ما كادوه لغيرهم .
وفضل الله لرسوله مستمر ، ودائم فقد اختاره للنبوّة ، وأنزل عليه القرآن الكريم والسنة ، وعلمه كثيرا من الأمور التى لم يكن يعلمها ، وسيدوم فضل الله تعالى بعظمته وتنوعه ، وعلى رسول الله أن يستمر في الطاعة ، والقيام بما وجب عليه .

- ٥ -

درس الآية

توضح الآية درسا لرسول الله ﷺ وللمؤمنين معه ، وهو "ثبات فضل الله لرسوله وللمؤمنين" لأن إدراك هذا الدرس يحث على مداومة الاستسلام لله وطاعته ، وعدم التأثر بمكائد الضالين ، وتردد المنافقين .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

المؤمن موصول بفضل الله تعالى

يعمل الإسلام على تعبيد الإنسان لله تعالى ليتمتع برحمة الله ، ويسعد بفضلله سبحانه وتعالى ... فأعداء المسلم كثيرون ، ولن يتخلص منهم إلا بإتباع منهج الله تعالى ، والسير على مسار رسول الله ﷺ .

إن استقامة المسلم تنير له الطريق ، وترشده إلى الصواب ، وتنجيه من مكائد الأعداء ومؤامراتهم .

لقد نجى الله رسوله من الضالين والكافرين ، وأوحى إليه بالحق ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، والمسلمون على خطى رسول الله ﷺ يمكنهم أن يحوزوا فضل الله تعالى ، ويتمتعوا بهديه الكريم لى ينير لهم الطريق ويهديهم للتى هى أقوم .

الركيزة الثانية

عوامل الفوز بفضل الله تعالى

تبين الآيات العوامل العملية التى تحقق للمؤمن نعم الله وفضله ... ومنها :

- (أ) الإقرار بفضل الله تعالى ، فلقد خلقه ، وسواه ، وأكرمه بالكون يخدمه ويقدم له ما يحتاج إليه ، وهذا الإقرار يقتضى الذكر والشكر ليدوم ويريد .
- (ب) التوكل على الله تعالى ، ومعناه أن يقوم المسلم بما يجب عليه ويدع النتائج يفعلها الله كما يشاء ، فهو يفكر ويتمنى ، والله يقضى ويدبر .
- (ج) اتباع ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية فهما وحى الله وفيهما السعادة والحياة ، والتمسك بهما تمسك بدين الله تعالى .
- (د) مدارسه العلم الشرعى ، وتطبيقه مع التقوى والعمل الصالح ، وبذلك يفتح له باب المعرفة ، ويشع ضوء الاستقامة إن المسلم يرى بنور الله تعالى ، ويلهم للصواب بتوفيق الله ، ويعيش حياته بنصر الله ، وصدق الله تعالى فى قوله : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾^(١) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٢ .

- الدرس التاسع - النجوى المقبولة عند الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ
إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

الحديث متصل بقصة "طعمة" والآية تبين أنه لا خير في نجوى قوم طعمة لأنه لا خير في أى نجوى إلا إذا كانت في أمر بصدقة ، أو لدعوة بمعروف ، أو توجيه لإصلاح بين الناس مع قصد هذه الأعمال الحسنة لمرضات الله تعالى لينال فاعلها الأجر العظيم من الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أنه لا خير في نجوى طعمة وقومه لأنهم يتناجون بالسوء والضلال أما النجوى الخيرة فهي التى تكون أمرا بصدقة ، أو بمعروف ، أو بإصلاح بين الناس بنية الطاعة لله ، ورجاء نيل مثوبته ، والتمتع بأجر الله العظيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾ والضمير في ﴿ نَجْوَاهُمْ ﴾ يعود إلى قوم طعمة لأنهم كانوا يدبرون معاسرا ضد اليهود ، وضد رسول الله ﷺ فهم يريدون إقامة حد السرقة على اليهودى ، ويوقعون رسول الله في تهمة إقامة الحد على برئ ، وتناجوا في هذا الشأن إلا أن الله كشف سرهم .

والنجوى هى التدبير الخفى بعيدا عن الناس وهو يكون في الخير ، وفى الشر ... والمعنى لا خير يوجد في كثير من تدبير الكافرين والمنافقين ، وتخطيطهم لغيرهم ... وانما نفت الآية الخير عن الكثير ، لا عن الجميع لأن بعض تدبيرهم في حياتهم الخاصة يكون خيرا لهم .

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أى لا خير

فيما يتناجى فيه الناس بصورة عامة إلا ما كان في أعمال الخير كالأمر بالصدقة على الفقير ، والأمر بمعروف في الشرع والعقل وهذا يشمل سائر أعمال البر ... أو أمر بالإصلاح بين الناس ليرفع خصومة ، ويحقق تعاونا ومحبة .

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أى ومن يأمر بصدقة ، أو بمعروف ، أو

بإصلاح فهو الخير .

ووجود الخير في النجوى يفيد أن الله يقبلها ، وينيب عليها ، بشرط أن تكون ﴿أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أى خالصة لوجهه الكريم ، لأن سائر الأعمال تحتاج إلى النية الخالصة لقوله ﷺ : "إنما الأعمال بالنيات" (١) .

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى ومن يفعل الخير خالصا لله فسوف

يؤتيه الله في الآخرة ثوابا كبيرا لا يقدر قدره إلا الله تعالى .

وسمى الله الثواب أجرا لبيان أنه مثوية النجوى المشروعة التى أداها صاحبها ابتغاء مرضات الله تعالى وأن من يعمل عملا خالصا لله تعالى استحق ثوابا جزيلا عند الله تعالى .

وذكر ﴿أَجْرًا﴾ نكرة ، ووصفه بـ "عظيما" لبيان كثرتة ، وتنوعه ،

وعظمته التى لا يعلمها إلا الله تعالى ، ففيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت

(١) صحيح البخارى - كتاب الإيمان ج ١ ص ٨ .

ولا خطر على قلب بشر .

وفى الآية حث على فعل المعروف والمسارة إلى الصدقة ، وضرورة الإصلاح بين المتخاصمين من الناس ، وبذلك يتماسك المجتمع ، ويحقق الأخوة الإسلامية القوية .

وفى الحديث حث على الإصلاح بين الناس ، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا : بلى يا رسول الله ...!!

قال ﷺ : إصلاح ذات البين ، وإن فساد ذات البين هي الحالقة" (١) . وزاد الترمذي رحمته الله عن النبي ﷺ أنه قال : "هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين" (٢) .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة فأخبر رسول الله ﷺ فقال : "اذهبوا بنا نصلح بينهم" (٣) .

وعن أم مكتوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ليس الكذاب الذي يصلح بين اثنين أو قال بين الناس فيقول خيرا أو ينمى خيرا" (٤) .

زاد مسلم في رواية : ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث : يعني الحرب والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل زوجته ، وحديث المرأة زوجها" (٥) فقد أجاز البعض الكذب في هذه المواطن الثلاثة بشرط أن

(١) سنن أبي داود - كتاب الأدب . باب إصلاح ذات البين ج ١٣ ص ٧٨ .

(٢) سنن الترمذي - كتاب الطهارة . باب ما جاء في نضح بول الصبي ج ٤ ص ٢٧٩ .

(٣) صحيح البخاري - كتاب الصلح . باب قول الإمام اذهبوا بنا نصلح ج ٩ ص ١٩٦ .

(٤) صحيح مسلم - كتاب البر . باب تحريم الكذب وبيان المباح ج ١٣ ص ١٠ .

(٥) انظر تفسير الخازن ج ١ ص ٥٩٧ .

(٤٩٨)

لا يضر أحدا ، ويرى أن ذلك هو الطريق الذى يؤثر في المتخاصمين ، ويؤكد الصلح^(١) .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية انه لا قيمة لما يتناجى به طعمة وقومة لبعدهم عن الخير والصواب ، وانما الخير يكون في المناجاة التى يأمر فيها الناصح بصدقة ، أو بمعروف ، أو يؤدي إلى إصلاح بين متخاصمين ... ومن يفعل ذلك مخلصا لله تعالى يجازيه الله به ثوابا عظيما .

- ٥ -

درس الآية

تتضمن الآية بيان درس هام ، وهو ضرورة أن تكون مناجاة المسلمين في الخير ليقبلها الله تعالى ، ويباركها ، ويثيب عليها .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

وتناجوا بالبر والتقوى

تنفى الآية الخير عن نجوى الإثم والعدوان ، ونفى الخير يستتبعه نفى الثواب والجزاء ... وتحض الآية على الخير في كل أعمال البر المادية والمعنوية وهذا يحدد للمسلم المناجاة التى تقربه من الله تعالى ، وتبعده عن النار ، إنها المناجاة الخالصة الداعية إلى البر ، والمعروف ، ومساعدة الآخر بالمال أو بالأعمال .

إن الإسلام يقيم مجتمعه على الخير ، ولا يرضى لعباده السوء والمعاصي .

(١) تفسير البغوى ج ١ ص ٥٩٧ .

الركيزة الثانية **صناعة الإسلام للمجتمع العظيم**

نزلت الآية في طعمة وقومه ، ولكنها تجعلها مناسبة بوضع أسس المجتمع الناهض الذى يعمل الإسلام لإخراجه في عالم الناس من الظلمات إلى النور ، لأنه يوضح معالم هذا المجتمع .
إن هذا المجتمع يتميز بما يلي :

(أ) **المناجاة الخيرة** : من المعلوم أن الإنسان يلتقى بأخيه ، يحادثه ويأتنس به وفى النطاق الصغير كالعائلة ، وجماعة القرية ، ورواد المسجد ... وغير ذلك يلتقى الأفراد ، ويتحدثون في قضايا عديدة مناسبة أو غير مناسبة وهنا يوجههم القرآن الكريم إلى ما يجب أن يكونوا عليه في هذه المناجاة ... إن الله لا يقبل منها إلا ما يكون في الخير ، وتحقيق المصلحة العامة والخاصة .

(ب) **التناصح الأمين** : يدعو الإسلام إلى التزام أفراد المجتمع المسلم بالتناصح ، والتعاون المادى والمعنوى ، فيناجى المسلم أخاه بالحق ، ويدعوه إلى الصدقة ، والعطاء ، والاصلاح .. ومن المعقول أن الإنسان لا يأمر غيره بشئ إلا بعد التزامه بهذا الذى يأمر به ، لأن التكميل لا يجوز قبل الكمال ، وفاقد الشئ لا يعطيه .

(ج) **الإصلاح بين الناس** : المسلم في مناجاة مع أخيه الإنسان ، يعمل على وحدة المسلمين ، ويجتهد في إزالة أى خلاف أو خصومه ليسعد المجتمع بوحدته ، ويرتقى بإسلامه واخلاصه ، وقد ذهب بعض العلماء إلى جواز الكذب قصد الإصلاح لحديث ابن أم مكتوم المذكور .

(٥٠٠)

المشرك محروم من مغفرة الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ
أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَالًا بَعِيدًا ۝١٥١﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

الآيتان خاتمة الآيات التي نزلت في قصة طعمة وقومه مشتملة على
الدروس والعبر التي يمكن استنباطها ، والاستفادة بها وتحذر الناس من مخالفة
رسول الله ﷺ ، والتخلص التام من الشرك والكفر بالله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيتين

الآيتان تبينان أن طعمة بعد ان افتضح أمره ، وظهرت خيانتته خرج من
المدينة مرتدا عن الإسلام ، ولحق بالمشركين في مكة ، ولذلك عرفه الله مصيره
في الآخرة وهو الخلود الدائم في نار جهنم ، وأن الله لن يغفر له مطلقا فهو
سبحانه وتعالى يغفر سائر الذنوب ما عدا الشرك به سبحانه وتعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ﴾ أى ومن يخالف الرسول في دينه ودعوته ،
والمشاققة المخالفة ، والتضاد ، والشقاق يعنى أن يكون كل طرف في شق غير

(٥٠١)

شق الآخر ، ومشاقة الرسول ﷺ على هذا تعنى مخالفته فيما جاء به والعمل بغير ما دعا إليه .

والآية تأخذ حكما عاما يشمل كل إنسان مكلف ، وفى المقدمة طعمة وقومه .

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ﴾ أى من بعد ما ظهر للمشاقق الحق ، وعاش التوحيد ، وعلم مزايا الإسلام وفضائله ... وذلك أن طعمة كان مسلما فلما أظهر الوحي كذبه في إنكار السرقة علم صدق الإسلام الذى أنبأه بما غيب ، ومع ذلك غلبته عنصريته ، وخاف الفضيحة بين المسلمين ، فأشرك وخرج إلى مكة مشركا ، ولم يخف من فضيحة الآخرة مع شدتها ، وقسوتها وملازمتها لعذاب أليم .

﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ويترك طريق المؤمنين وما هم عليه من اتباع منهج الإله الواحد الأحد ، ويسلك مسالك المشركين الذين يعبدون الأوثان والأصنام .

﴿ تَوَلَّى مَا تَوَلَّى ﴾ هذه الجملة جواب الشرط وجزاؤه ، ومعناها ندعه فى الآخرة ونكله إلى ما تولى فى الدنيا ، وما اختار لنفسه .
﴿ وَنُصِّلَ بِهِ جَهَنَّمَ ﴾ أى ونلزمه الإقامة فى جهنم ليحترق بنارها المتأججة .

﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ وبئس هذا المرجع ، وهذا المآل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ وهذا حكم عام آخر لسائر الناس ، ومعناه أن الله تعالى لا يغفر لمشرك شركه ، فقد ارتكب كبيرة لا غفران لها ... لأن الشرك يعنى عدم الإيمان بأن الله هو الواحد ، الأحد ، واتخاذ غيره مما خلق شريكا له فى الألوهية ، ولذلك يدعه الله وشركه .

﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أى أن الله يغفر ما دون

الشرك لمن يشاء من أهل التوحيد وفق إرادته سبحانه .

قال العلماء : كما أخبر الله تعالى أنه يغفر الشرك بالإيمان والتوبة علمنا

أنه سبحانه وتعالى يغفر ما دون الشرك بالتوبة .

أما تعليق المغفرة بالمشيئة ، فهي لمن لم يتب من ذنوبه من أهل التوحيد فمن مات من أهل التوحيد على ذنب صغير أو كبير من غير توبة فهو على خطر عظيم إن شاء غفر الله له ، وإن شاء عذبه بذنبه .

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ وهذا حكم عام يشمل كل

مشرك . ومعناه أن من يتخذ غير الله إلها مع الله فقد بعد عن الهدى الحق وأوغل في الخسران والضياع لدرجة سحيقة بعيدة ... فقد ألغى العقل ، وتصور المخلوق خالقا ، وجعل الإله دمية يلعب بها ... وصير نفسه غافلا عابثا ...

ولم يلجأ لحقائق حياته يسألها :

- ما قيمة الأصنام لتكون إلها ؟
 - وهل الإله أصم ، وأبكم ، وجامد ... لا يسمع ، ولا يتكلم ، ولا يعقل ؟
 - وما الذى يرضى الأصنام ... وما الذى بغضبها ؟
 - ما دور الأصنام والأوثان في الجزاء والعقاب ؟
 - وهل يحيط الإنسان بأسرار وجوده ونشأته حتى ينسى من صنع له ذلك ؟
 - ماذا يدرك الإنسان من حقائق الوجود الواسع حتى يتغافل عن خالقها ؟
- إن من يتخذ مع الله آلهة أخرى من الشجر ، أو الحجر ، أو الحيوان ... أو غير ذلك سفيه ، ضيع نفسه ، وضل ضلالا بعيدا ... ومن يقصد المخلوق في الضر والنفع من دون الله منحرف في التفكير والإدراك ، وبعيد عن الإيمان الصحيح .

(٥٠٣)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن من يخالف الرسول ويترك دينه بعد أن يتبين له الهدى ، ويتبع غير طريق المؤمنين ضال ، كافر ، مصيره مؤلم رهيب ، ومأواه جهنم وبئس المصير ، كما تبين أن الله تعالى يغفر ذنوب عباده بتوبتهم ، ويغفر بلا توبة إن شاء سبحانه وتعالى ، إلا الشرك فإن الله لا يغفر لصاحبه إن مات عليه ، لأن المشرك بالله غوى ، وضل ، وانحرف انحرافا شديدا يبعده عن الإيمان والصواب .

- ٥ -

درس الآيتين

تشير الآيتان إلى درس هام وهو خطورة الشرك بالله فإن الله لا يغفر لصاحبه أبدا فمن مات مشركا خلد في نار جهنم وبئس المصير .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الكفر بعد الإيمان جريمة كبرى

تبين الآية الأولى أن من يكفر بعد الإيمان والهداية ، ويعارض رسول الله والمؤمنين فقد خسر خسرانا مبينا ، وحرّم نفسه من رحمة الله وعطائه .
إن من يرى النور ويعشق الظلام بعده منحرف لا عقل له ، وضلاله كبير ، فهو يسئ إلى نفسه . أولا . بحرمانها من الخير ، وإيقاعها في الضلال والسوء ، وبوردها موارد التهلكة .
وهو . ثانيا . يسئ للحق بصورة مطلقة لأن لسان حاله يقول : إن الهداية التي كنت فيها ليست خيرا كما يدعى المؤمنون ...

(٥٠٤)

وهو . ثالثا . يسئ إلى غيره لأنه يبعدهم عن الحق والخير ، ويوقعهم في الكفر والضلال .

إن الكفر جريمة كبرى وهو أكبر إن وقع بعد الإيمان .
وعلى من يهديه الله للحق أن يتمسك به ، ويتيقن أن الجزاء الحسن والنعيم المقيم في الآخرة يكون للمؤمنين وحدهم ، أما الضالون فإن الله يتركهم لما كانوا معه .

الركيزة الثانية لا غفران للشرك أبدا

الشرك بالله خروج على الدين ، ولا غفران فيه أبدا . فقد قضى الله تعالى بمغفرة الذنوب جميعا ما عدا الشرك به ، ولذلك وجب الحذر من دعاة الشرك وتجنبهم ، لأنهم يثيرون الشبه ، ويعملون للشيطان ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

الركائز الكبرى في قصة طعمة بن أبيرق

نزلت الآيات المذكورة (١٠٥ . ١١٦) من سورة "النساء" مشتملة على قصة طعمة بن أبيرق فوجه رسول الله ﷺ المؤمنين إلى الدروس المستفادة من هذه القصة ، ويبقى هنا أن نستنبط من القصة ركائزها الكبرى ... والدراسة تحتاج إلى :

- أولا -

ملخص قصة طعمة بن أبيرق

سرق طعمة بن أيرق سيفا من جاره "قتادة بن النعمان" وكلاهما من الأنصار ، فلما خاف طعمة افتضاح أمره أودع السيف عند اليهودي "زيد بن السمين" وأعلم قومه بما فعل . ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ وأخبره بأن اليهودي سرق السيف . فهم رسول الله بإقامة الحد على اليهودي ... وجاء بنو أبيرق ،

(٥٠٥)

قوم طعمة يطلبون من رسول الله أن يعتذر لأبيرق وقومه على ملا من الناس ، ويعاقب اليهودى آملين بأن يجيب الرسول ﷺ طلبهم فهم مسلمون ، والرسول يتوقع منهم الإسلام الصحيح .

وكاد رسول الله ﷺ أن يطيعهم فيما طلبوا ، فأنزل الله الآيات تبرئة لليهودى ، وبياناً بأن السارق هو طعمة ، وحينئذ فر طعمة من المدينة ، ولحق مكة مشركاً مرتداً ، وعاش فيها إلى أن قتل يوم فتح مكة ، وهو معلق بأستار الكعبة .

وقد بينت الآية قصة أبيرق بمنهج القرآن الكريم حيث عرض الموضوع وأحاطه بالتوجيه ، وبيان جلال الله وعظمته ، وأهمية الإيمان ، والاستسلام لله رب العالمين .

-ثانياً-

ركائز الدعوة في الآيات

تقدم الآيات عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان صورة الحاكم في الإسلام

رسول الله ﷺ هو الحاكم في الناس ، يدبر شئونهم ، ويوجههم ، ويسوس لهم الدنيا ، ويصون لهم الدين ، وقد وقعت قضية طعمة ، ونزلت فيها الآيات ، وبينت لرسول الله ما يجب عليه فعله ، وعلى نمطه يجب أن يكون الحاكم في الإسلام .

إن رسول الله ﷺ قدوة الخلق أجمعين . يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ

فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ۖ ﴾^(١) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

(٥٠٦)

والحكام على رأس الناس يجب أن يكون الرسول أسوة لهم في سياسة الناس والحياة .
ومن هنا ...

ندرك أهمية الخصائص التي وجه الله إليها رسوله خلال غرض قصة "طعمة" لتكون مناط الأسوة والقُدوة لأولى الأمر من المسلمين ... وأهم هذه الأعمال ما يلي :

أولاً : التمسك بالمرجعية الدينية : وهذه المرجعية معلومة ، ومحددة في مصادر الإسلام ، ولذلك قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾^(١) .

ثانياً : مداومة الاتصال بالله : يجب على المسلمين ، وعلى أولى الأمر أن يستمروا على اتصالهم بالله تعالى في عباداتهم ، وأذكارهم ، واستغفارهم ليكون الله معهم ، يعلمهم ، ويعينهم ، وينصرهم .

ثالثاً : مقاطعة المعتدين على دين الله تعالى : حتى يفيئوا إلى رشدهم ، ويتوبوا عما هم فيه ، وهذه المقاطعة تتم بعدم الدفاع عنهم ، أو المخاصمة من أجلهم ... والمسلم يحتاج إلى معرفة أعداء الله ليتجنبهم ، ولا يمكنهم من الأذى الذي يعملون له .

رابعاً : ملازمة الأعمال الخيرة : أعمال البر كثيرة وهي تشمل الأقوال والأفعال ، والواجب ملازمة أعمال الخير التي أمر الإسلام بها ابتغاء رضوان الله تعالى لينال الجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة .

خامساً : التبصر في عاقبة الأعمال : يفكر المسلم بعقله في إطار دين الله الحنيف وعليه أن يطيع الله ، ويتدبر في عواقب الطاعة والاستقامة ليستمر عليها مخلصاً لله رب العالمين .

(١) سورة النساء ، الآية ١٠٥ .

(٥٠٧)

الركيزة الثانية

حماية الإسلام لأهل الكتاب

تشير الآيات إلى إنصاف الله لهذا اليهودى الذى كاد أن يعاقب بلا ذنب ... إلا أن الله تعالى أنزل الآيات لبراءته ، واطهار الحقيقة .

إن الإسلام دين الحق والعدل ، لا يعرف العنصرية ، ولا التعصب ، ولذلك جاءت الآيات تتصف اليهودى بلا مرأ .

ومن هنا نقول : إن أهل الكتاب آمنون في ظل الإسلام لهم حقوقهم ، وعليهم واجباتهم في إطار من العدل ، والكرامة .

وأهل الكتاب بين المسلمين هم أهل ذمة ، ومعنى ذلك أنهم أصحاب عهد وميثاق ، يلتزم به المسلمون ، وبهذا الميثاق تتحدد الحقوق والواجبات التى تصون الكرامة للجميع .

وتسمية العهد بالذمة لبيان أن الضمير والعقل يلتزم بالميثاق قبل العمل والسلوك .

ولا عبرة لأصوات تعارض هذه الحقيقة . فكلام الله خير شاهد على ما أقول .

الركيزة الثالثة

لا إكراه في الدين

أخذ اليهودى حقه وهو على دينه ، ولم يثبت أن أحدا طلب منه أن يسلم أو يترك دينه ، ولم يرتب حقوقه على غير الميثاق ... وحين نقرأ الآيات نجد أوامر الله تأمر الرسول بعدم مخاصمة هذا اليهودى ، وتأمره بمعاقبة السارق الحقيقى الخائن لنفسه ودينه ... وتضع صورة التعاون مع العصاة الخائنين في صورة مخزية رديئة .

لم يتحدث التاريخ أن يهوديا في المدينة أكره على الدخول في الإسلام ... ولم تسجل الأحداث أن المسلمين بدأوا عدوانا على اليهود ... وكل ما يرويه التاريخ يشير إلى أن اليهود في المدينة هم الذين أضمرُوا العدوان وحاولوا القضاء على الإسلام والمسلمين ، وكانوا دائما شوكة معادية للمسلمين تتعاون مع كل من يبغى المسلمين بسوء .

الركيزة الرابعة **بيان رفعة الإسلام وتساميه**

حين نعود إلى أحداث القصة ، وزمانها ، وظروفها نجد ان القصة تدل على أن الإسلام دين نزل من عند الله تعالى حقا ، لأن الإنسان لا يمكنه مهما بذل ، ومهما كانت قدراته أن يرتقى بتعاليمه إلى هذا المستوى الراقى . أين لإنسان يعيش معركة مع اليهود يجد نفسه مدافعا عنهم ، حافظا لحقوقهم ؟!

وأين لقائد يعيش بين جنوده يصدر قراره بإقامة الحد على أحد جنوده الذين يقاتلون معه أثناء القتال ؟ إن منطق البشر ، وتفكير البشر يقضى بوضع القصة في قمم النسيان . ولو مؤقتا . ليحافظ القائد على سلامة الجبهة الإسلامية ... ووحدة الصف أمام الأعداء ... وفي نفس الوقت لا يفتح للجبهة المعادية ثغرة يدخلون من خلالها لتشيويه الصف الإسلامي كله .

هذا هو منطق البشر بالنسبة للقصة .

أما منطق الله ، فهو إبراز الحق ، والعمل له ، والقضاء فيه بالصواب في كل الأحوال ، ومختلف الظروف ، ولذلك نزل خلال القصة قوله تعالى :
﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لَتَحْكُمَ بِهِ أَوَّلُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَهُ وَلَا

تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١﴾ .

- ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ ﴿٢﴾ .

- ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ ﴿٣﴾ .

ليس الأمر أمر سياسة ، ولا مراعاة للظروف ، ولا العمل للمصلحة ، ولكن الأمر أمن دين ، يثبت الله في الأرض ، وينشره بين الناس بالحق والعدل .
وقد اختار الله هذه الحادثة بأشخاصها ، وزمانها ، ومكانها لينشر منهجه ويضع بين المسلمين موازين الحق والعدل ، ويرسم طريق النهوض في هذه الحياة الدنيا .
إن الإسلام دين الله تعالى يجب أن تؤخذ تعاليمه منه سبحانه وتعالى بصورة دائمة .

- ثالثا -

منهجية الآيات في الدعوة

عرضت الآيات قصة "طعمة" وقومه بأسلوب دعوى يظهر فيما يلي :

أولا : تختار الآية جزءا من القصة ، وتعرضه ، وتستمر هكذا حتى تتضح القصة كلها بعد عرض الآيات كلها .

ثانيا : تبين كل آية الضرر المترتب على الجزء الذي عرضته .

ثالثا : توضح الآية فضل الله على رسوله وعلى المؤمنين بإنقاذهم من الضلال الذي ظهر في قصة "طعمة" ، وأمثالها كثير .

رابعا : توضيح العقوبات التي يستحقها "طعمة" ، ومن يماثله مع سبب هذه العقوبة .

(١) سورة النساء ، الآية ١٠٥ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٠٧ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١١٢ .

خامسا : بيان فضل الله على رسول الله وعلى المؤمنين إذ أنقدهم مما بيت أعداؤهم لهم .

سادسا : تبين الآيات كافة أركان العقيدة فتعرف بالله وصفاته ، وتوضح دور الرسول مع الدعوة ، وتذكر اليوم الآخر بما فيه من حساب وجزاء .

سابعا : تخاطب الآيات في المسلم عقله ، وعواطفه ، وجوارحه ، وبذلك تزداد ثقافته ، ويقوى إيمانه ، ويصير صورة حسنة للعبد القانت الصالح .

ومن هذا أقول للدعاة استفيدوا من منهجية الآيات في الدعوة إلى الله تعالى وتخبروا كلماتكم ، واجعلوها مرتبطة بواقع الناس ، وقسموا الحديث إلى عناصر مترابطة وأشبعوا كل عنصر بالتحليل والتوضيح ... وليكن لكم هدف تسعون إلى تحقيقه .

المشركون يعبدون الشيطان

يقول الله تعالى :

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ۝ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۚ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝ وَلَا ضِلَّهِنَّ وَلَا مَنِهِنَّ وَلَا مَرْبَهُنَّ فَلْيَعْبُدْنِي وَأَعْبُدُوا اللَّهَ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝ يَعْدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ ۚ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة أن الله لا يغفر للمشركين شركهم ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء جاءت هذه الآيات لبيان أن المشركين يعبدون الشيطان الذي يعمل على إضلال المؤمنين بالتهديد والإغراء .

(٥١١)

- ٢ -

موضوع الآيات

يدور موضوع الآيات حول بيان أن المشركين يعبدون الشيطان ، ويتخذون الأصنام آلهة ، ويدعونها إناثهم ، وهؤلاء الكافرون أطاعوا الشيطان في وعده ووعيده ، والكافرون بضلالهم هذا خسروا كثيرا فمأواهم جهنم وبئس المصير ، وذلك جزاء لقبولهم دعوة الشيطان إلى الكفر والضلال .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثًا ﴾ يدعون بمعنى يعبدون ، لأن من عبد إلها فهو يدعو له حاجته ، وإن نافية بمعنى ما ، والمعنى ما يعبد هؤلاء إلا إناثا .

وسبب تسمية الأصنام بالإنث أن أهل مكة كانوا يسمون أصنامهم بأسماء الإناث كالكلات ، والعزى ، ومناة .

وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة أنثى بنى فلان ...

وأیضا فإن كل جماد لا روح فيه يعرف بالأنثى ، ويعرب عنه بضمير الأنثى ... تقول : هذه الأحجار تعجبني ... وهذه الدراهم ترضيني ... وكذلك فبعض العرب كانوا يعدون الملائكة إناثا ، ويتخذونها آلهة ، ويقولون : هن بنات الله .

﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ وما يعبدون حين يعبدون الأصنام إلا شيطانا مریدا عاتيا ، متمردا ، خارجا عن طاعة الله تعالى .

وجعلت عبادة الأصنام عبادة للشيطان لأن الشيطان كان يسكن في جوف الصنم ، ويخرج أصواتا ، ويتراءى للسدنة والكهنة ، ويكلمهم ، فيتصورون بذلك قدرة الصنم فيعبودونه ، ويقودون أتباعهم لعبادته .

وأيضا فإن إبليس أغوى بوساوسه ودسائسه المشركين ودعاهم إلى عبادة الأصنام ، فلما أطاعوه فكأنهم عبدوه ، لأن الطاعة هي العنصر الرئيسى في العبادة .

وابليس ملعون مطرود من رحمة الله تعالى ، وقد أنظره الله إلى يوم القيامة وعرف الناس به ، وبأعماله معهم ... وذلك في قوله تعالى :

﴿ لَعْنَةُ اللَّهِ ﴾ أى طرده الله من رحمته ، وأبعده عن كل خير ، بعد أن أنظره

إلى يوم القيامة ، وبجوز لعن الشيطان ، وكل كافر مات على الكفر كفرعون وهامان ، وتيقن كفره ، وأما غيرهم فالله أعلم بهم ، والأولى الدعاء لهم بالهداية والإيمان ، فقد يؤمنون ويصلح إيمانهم .

وقد بين الله دور إبليس مع الناس بإيراد أقواله التى حكاها الله في قوله سبحانه :

- ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ يعنى إبليس

الملعون في قوله هذا أنه سيتخذ من عباد الله أولياء له ، وهم نصيبه الذى قدرهم الله له ، وهم الأناس الذين يتبعون خطواته ، ويقبلون وساوسه ويعيشون الشهوات البهيمية ، والأعمال المحرمة التى سيجرهم إليها الشيطان عند فساد الزمان ، وكثرة المعصية والضلال ، وهم أغلب الخلق . وهذا النصيب الذى قدره الله لقبول غواية إبليس وذريته يظهر في ضعفاء الإيمان الذين لديهم ميل للمعصية ، ويحبون حياة الفسق والفساد .

والإنسان يؤاخذ بهذا الضلال فهو الذى قام به ، وهو الذى عاش فيه ، وليس الضلال للشيطان ، وانما له الوسوسة والإغواء ... وقد حذر الله تعالى الناس من هذه الوسوس . فمن أبأها نجا ، ومن أطاعها هلك . وأما إبليس وجنوده فهم هالكون لا محاله ومآلهم إلى النار خالدين فيها ، وعلى المؤمن أن يحذره بالطرق التى شرعها الله تعالى ، ودعا الناس إلى النجاة منها^(١) .

— ﴿ وَلَا ضَلٰلَتُهُمْ ﴾ أى ولأبعدنهم عن طريق الحق ، وأغريهم بالباطل

وأوجههم إلى الشهوات ، والمسلم العاقل الفاهم يدرك ذلك حين يوسوس الشيطان في صدره ، وقد فصل الشيطان دوره هنا بعد أن ذكره مجملا في الآية السابقة ... وقد أكد فعله هنا بواو القسم ، واللام الداخلة على جواب القسم ، ونون التوكيد ليحدد دوره مع الناس بدقة ، وعرف الله الناس بعمل الشيطان ليحذروه ، ويطردوا الوسوس عن صدورهم حين تأتيهم .

— ﴿ وَلَا مَنِيْنُهُمْ ﴾ أى ولأتينهم من قبل أمانيتهم وآمالهم حتى يؤخروا التوبة ، ويسوفوا فيها .

إن الشيطان في إضلاله العباد يأتى لأمانيتهم الخفية السيئة ، وبزخرفها لهم ويبسرهم أمامهم ، ويوهمهم بأثرها الجميل ، ويعظمهم بطول العمر ، وامكانية التمتع بالشهوات ، ويغريهم بأن التوبة ممتدة يمكن تأخيرها إلى آخر الزمان .

— ﴿ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ ﴾ أى ولأزين لهم البدع والخرافات حتى يتبعوها ، وأكون أمرا لهم بها .

(١) انظر ص ٨٢ من المجلد الأول .

ويتمكن آذان الأنعام معناه ما كان يفعله المبتدعة من قطع أو شق آذان الأنعام إذا ولدت خمسة أبطن ، وجاء الخامس ذكرا ، فإنهم يحرمون على أنفسهم الانتفاع بها ، ولا يردونها عن ماء أو مرعى ، وكان الضالون يفعلون ذلك ، ويتصورونه قربة لله تعالى ، وهى البحيرة التى حرمها الله عليهم .

— ﴿وَأَمْرُهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ أى أدفعهم إلى تغيير دين الله تعالى وهم يطيعوننى ، كأنى أمرهم ، وذلك بتحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، وتغيير للفطرة ، وتبديل لصورة الإنسان المادية كالوشم ، والنمص ... وغير ذلك .

وهذا التغيير مادی ومعنوی يقول الله في الحديث القدسی الذى رواه عنه رسول الله ﷺ . يقول الله تعالى : "إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإن الشياطين أنتهم فاجتالهم عن دينهم ، فحرمت عليهم ما أحللت ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ، وأمرتهم أن يغيروا خلقى" (١) . والشيطان لا يأمر اتباعه أمرا صريحا ، وإنما يوسوس لهم بالأمانى ، ويزين لهم المعصية ، ويبدو لهم ناصحا صادقا فيطيعونه وكأنه سيد يأمرهم ، وهم عبيد له يطيعونه .

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أى ومن يوالى الشيطان ، ويتبع وساوسه ، ويغتر بزخارفه فقد ضيع نفسه ، وخسر خسارة كبيرة ، فقد حرمه الشيطان رضوان الله ، وأوصله إلى نار جهنم ، وفى ذلك خسران واضح رهيب .

(١) فضائل القرآن للنسائى ج ١ ص ١١ .

﴿ يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ^ط وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى أن

الشیطان يعد أتباعه وأولیاءه ، ویوقع فی قلوبهم ما یغریبهم بارتکاب المعاصی وطاعة الشیطان ، ویمنیهم طول العمر ، وسهولة المعاصی ، وغفران الله .

وكل وعد الشیطان غرور لا قيمة له ، وأوهام لا حقيقة فیها .

﴿ أُولَئِكَ مَأْوُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى ان هؤلاء المتبعین للشیطان مصیرهم

فی الآخرة جهنم یعذبون فیها ، ویقیمون بها .

﴿ وَلَا يَتَّخِذُونَ عَنْهَا حِصًّا ﴾ أى سیلج هؤلاء إلى جهنم ، ولا یجدون

لهم ملجأ فی غیرها ، أو مانعا یمنعهم من دخولها ، والإقامة فیها .

وفی الآیات تساؤلات :

السؤال الأول : هل یعذر أتباع الشیطان لأنه غرر بهم ؟

لا عذر لهؤلاء الاتباع ، فقد بین الله تعالى عداوة الشیطان للإنسان ، ووضح ألامیبه ، ووساوسه ، ووضح دوره فی الإضلال والإفساد ، وأكد کذبه ، وعمله المخادع اللئیم ، وأظهر الله بوضوح ما علیه الشیطان فی ضلاله وفساده فقلوه . أولا . الله ﴿ لَا تُتَّخَذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ ﴾ دلیل على أن الشیطان

یجعل عبادة الأصنام إجبارا للإنسان یضعها فی صورة اختیار ، وهی إلزام خبیث ، وهذا لیس من دین الله تعالى ، ولا یصح أن یتبعه عاقل .

ثانیا : بین الله تعالى أن الشیطان منهمک فی الغی لا خیر فیہ كما وعد وأقسم ، فتكون طاعته بعد بیان ذلك ضلال مقصود یؤخذ فاعله .

ثالثا : بین الله تعالى أن الشیطان ملعون مطرود ، ومن یطیعه ملعون مطرود مثله ولا عذر له .

رابعا : أعلن الشیطان غایتة بوضوح وهی إهلاك أتباعه ، وإیرادهم إلى جهنم ... ومن یتبعه بعد ذلك فقد رضی بالهلاك .

وبذلك لا عذر لاتباع الشيطان بعد وضوح هذه الحقائق أمامهم .

السؤال الثاني : لماذا أعطى الشيطان هذا القدر من الإضلال ؟

قدر الله للشيطان ان يقوم بهذا الدور ليظهر للناس الصواب من الخطأ ، ويتضح المؤمن من المنافق من الكافر .

لقد أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتاب ، وعرف بالحلال والحرام ، وحدد التكاليف ، وعرف بالخير والشر ، وأنصارهما ، ودعاتهما ، وكان لابد من ظهور أناس صالحين ، وآخرين طالحين ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويعمل أصحاب الجنة عملها ، ويسلك أصحاب النار مسالكها .

إن الله خالق الخلق كله ، وأودع في كل خلق ما أراد سبحانه وتعالى ، وكلف بكل حسن جميل ، وأنظر الشيطان بعد ذلك حتى يظهر الخير من الشر ويعرف كل إنسان بميوله ، وأمانيه ، وينال كل ما يستحق من جزاء بعدما بان الطريق وتحددت المعوقات .

السؤال الثالث : أيهم أكثر عددا أتباع الشيطان أم أنصار الله ، وبخاصة أن قوله تعالى : ﴿لَا تُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ يدل على قلة اتباع الشيطان ... وهناك آيات أخرى تدل على كثرتهم مثل قوله تعالى : ﴿لَا حَتَّكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُغْوِيهِمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢) **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ** ؟^(٢)

والرأى الذى ذهب إليه المفسرين هو أن المؤمنين يعظمون ويكبرون قدرا وقيمة وان قل عددهم . أما اتباع الشيطان فهم وان كثر عددهم لا قيمة لهم ... ويمكن أن تتفاوت القلة والكثرة من عصر لعصر ، ومن أمة لأمة .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٦٢ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٣٩ ، ٤٠ .

السؤال الرابع : من أين لإبليس العلم بالعواقب حتى يقول : ﴿وَلَا أُضِلُّهُمْ﴾

﴿وَلَا مَيِّتُهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ﴾ إذ نراه يقسم ويؤكد وقد وقع ما ذكره ؟

إن إبليس حين أبى واستكبر ، واتخذ طريقه في الإضلال ، وأنظره الله إلى يوم القيامة قال ما قال ظنا منه أن مراده تحقق ، ولم يكن يعلم الحقيقة ولن يعلمها أبدا ... وقد صدق ظنه بقدرة من الله تعالى يقول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾^(١) .

السؤال الخامس : ما سر التفصيل في أعمال إبليس وجنوده المادية منها والمعنوية ؟

فصل الله قصة إبليس ، وعمله ، وجنوده ، ووساوسه ، ونزغاته ليكون الإنسان العاقل على بينة من أمره .

وقد تفضل الله تعالى على الإنسان فحدد الطريق ، ووضح المنهج المستقيم ، وبين السبيل المعوج ليحيا من يحيى عن بينة ، ويهلك من يهلك عن بينة كذلك .

لقد بينت الآيات أن وعد الشيطان غرور ، واتباعه هلاك ، ومأوى الأتباع هو جهنم وبئس المصير .

- ٤ -

معنى الآيات

يبين الله في الآيات أن الضالين يعبدون أصناما هي الإناث بينهم وفيها يتمثل الشيطان الرجيم المتمرد على طاعة الله تعالى . فقد لعنه الله تعالى ، وطرده من رحمته .

(١) سورة سبأ ، الآية ٢٠ .

إن الشيطان بكبريائه يعلن خطته وعمله في الطائفة التي تطيعه ، وتتبعه وقد أقسم إبليس لله أنه سيضلهم ، ويزين لهم الأمانى ، وسيدخلهم في بدع كاتخاذ البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، وسيدفعهم إلى تغيير الفطرة ، وترك الحلال ، وعمل الحرام .

إن أتباع الشيطان يتخذونه وليا من دون الله تعالى ، وهم بذلك ضيعوا أنفسهم ، وخسروا خسارة كبرى ، ويكفى أنهم خسروا الجنة ، ورضوا بجهنم وعذابها .

لقد قام الشيطان بإغراء أتباعه ، وخداعهم ، واضلالهم ، وهؤلاء مأواهم جهنم ، لا مهرب لهم منها ، ولا مانع ينقذهم من ولوجها .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

ضرورة الحذر من الشيطان الرجيم

الشيطان عدو للإنسان منذ تكبره وعدم تعظيمه لأدم عليه السلام ، وقد عرفنا الله به ، وحذرنا من وساوسه ، وأساليبه في الإفساد والاضلال .

فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ^(١) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا

حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ^(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة يوسف ، الآية ٥ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ٦ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٨ .

والشيطان عدو لئيم يبدأ من داخل الإنسان ، يثبطه عن الصالحات ، ويغريه بالمعاصي ، ويزين له الشهوات .

وهو عدو مجتهد في إضلاله يأتي للإنسان وقت كسله فيزيده كسلا وخمولا ... وإذا وجده نشيطا حول نشاطه نحو المعصية ... ويؤمل في طول العمر لتأخير التوبة ، ويذكره بمغفرة الله ، ورحمته ليستمر الإنسان في عصيانه .

وهو عدو خبيث يعمل على تحقيق أغراضه فإذا ما حققها تبرأ ممن أطاعه يقول الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) .

ومن عجائب هذا العدو أنه يعلن خطته في الإضلال ، وأساسها أنه يغرر بالمعاصي ، ويزين الفحشاء ، وينشر البدع والخرافات ، ويولد الأمانى في مسلكه العبثى المسمى .

ومن حب الله للإنسان أن جلى خطط هذا العدو ، ووضع المنهج الأمثل للتغلب عليهم .
وعلى هذا ...

يجب على المسلمين تجنب هذا العدو فقد ظهر أمامهم بمبادئه وأعماله ، وتيقنوا من خطورته وآثامه ، ووضح الله لهم نهاية الطريق الذى يوصل من يسلكه إلى جهنم وبئس المصير .

(١) سورة الحشر، الآية ١٦ .

(٥٢٠)

جزاء المؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ ﴿٥٢٠﴾

- ١ -

صلة الآية ما قبلها

لما جاءت الآيات السابقة في عقوبة اتباع الشيطان جاءت هذه الآية لبيان جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تبين أن الله أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، يعيشون فيها خالدين أبدا ، وتؤكد هذا الجزاء الحسن لأنه وعد الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى الذين آمنوا بالله تعالى إيمانا صحيحا فصدقوا بقلوبهم ، وشهدوا بلسانهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ، ودائما يقرن القرآن الكريم بين الإيمان والعمل الصالح لبيان أن العمل الصالح جزء من الإيمان .

﴿ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى سيجازيهم بما يستحقون ، وهو الإقامة في الجنة بجمالها الأخضر ، وغرفها المبنية من الذهب

(٥٢١)

والفضة ، والأنهار الجارية تحتها وما أعد فيها ، من نعم ، وخيرات ، وولدان وهور عين ... الخ .

﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى يقيمون فيها إقامة دائمة لا تنقطع ، ولا تتجزأ .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ هذا الجزاء الذى أعده الله للمتقين وعد حق من الله

لا يتخلف .

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ أى أن وعد الله حق مؤكد ، وليس هناك

من هو أصدق من الله تعالى في قوله ، ووعدده ، وحديثه .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية وعد الله للمؤمنين الصادقين الذين يعملون الصالحات ، وتبين أنهم سيدخلون الجنة بما فيها من نعيم ومتع وأفضال ، وتؤكد أنه وعد حق لن يتخلف أبدا ، لأنه وعد الله تعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

ضرورة المسارعة إلى الإيمان

كل إنسان يتمنى الخير لنفسه ، ويتمنى النجاة من مصائب الدنيا وعذاب الآخرة .

وطريق النجاة الأمثل هو طاعة الله ، والالتزام بدينه ، والتسليم المطلق لرب العالمين .

وقد بين الله تعالى أن الإيمان والعمل الصالح سببان للفوز بجنات النعيم كما وعد الله تعالى .

(٥٢٢)

والمأمول أن يحرص المؤمنون على جنات الله ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قضاء الله العادل في الناس

يقول الله تعالى :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بين الآية في الآيات السابقة عاقبة الكافرين وجزاء المؤمنين تفاخر أهل الكتاب والمسلمون بدينهم وكتابهم وتمنوا الخير لأنفسهم خاصة جاءت هذه الآية لبيان أن الأمر ليس أمر الأمانى ، ولا بد من العمل فالجزاء عليه .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن من يعمل سوءا يجزيه ، ولن ينصره الله ، ولن يتولاه ، ومن يعمل صالحا وهو مؤمن فله الجنة ولن يظلم في قليل أو كثير .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ الأمانى جمع أمنية ، وهى إرادة حدوث صورة حاصلة في النفس مرغوبة ، والخطاب للمسلمين ، ولأهل الكتاب وعبد الأوثان ، فكل منهم أمانى .

فالمسلمون يرغبون الجنة ، والمغفرة من الذنوب لأنهم اتباع محمد ﷺ ...
وأهل الكتاب يتمنون أن تكون الجنة قاصرة عليهم وأن لا تمسهم النار إلا أياما
معدودة لأنهم يتصورون أنفسهم أبناء الله وأحباءه ...
وعبداء الأوثان يتمنون أن لا يكون هناك بعث ولا حشر ولا حساب لأنهم
لم يعملوا شيئا لما بعد الموت ...

يوضح ذلك أن أهل الكتاب والمسلمين تفاخروا .

فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم .
وقال المسلمون : نبينا خاتم الأنبياء ، وكتابنا يقضى على الكتب قبله ،
وقد آمنا بكتبكم ، ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أولى بالله منكم ^(١) .
فنفى الله كل هذه الأمانى ، وخاطب المسلمين وعرفهم بأن أمر الحساب
والعقاب ليس مرتبطا بأمانى الناس مهما كان دينهم ومذهبهم بل هو مرتبط
بالعمل الصالح .

﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا مُّجْزِ بِهِ ﴾ أى أن من يعمل سوءا يجازيه الله به ما
لم يتب عنه قبل موته .

وهذا حكم عام لجميع الناس يعرفهم باستتباع السوء لعواقبه ، فالكافر يعاقب
بكفره ، والمؤمن يجازى بنكبات الدنيا وعذاب الآخرة بقدر ما أساء ، وغيرهما له
عقوبته المعادلة لعمله غير أن الله يكرم المؤمن بتخليصه من ذنوبه بالمصائب
الدنيوية ، والمتاعب الحياتية ما لم يمت وفى رقبته حقوق للعباد .
يقول ابن عباس في رواية أبي صالح عنه لما نزلت هذه الآية شقت على
المسلمين مشقة شديدة وقالوا : يا رسول الله وأينا من لم يعمل سوءا غيرك فكيف
الجزاء ؟

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٠١ .

قال ﷺ : منه ما يكون في الدنيا فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات ، ومن جوزي بالسيئة نقصت واحدة من عشر حسناته وبقيت له تسع حسنات فويل لمن غلبت آحاده أعشاره . وأما من كان جزاؤه في الآخرة فيقابل بين حسناته وسيئاته فيلقى مكان كل سيئة حسنة ، وينظر في الفضل فيعطى الجزاء في الجنة فيؤتى كل ذي فضل فضله^(١) .

وبدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما نزلت : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ بلغت من المسلمين مبلغا شديدا فقال رسول الله ﷺ : "قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها ، والشوكة يشاكها"^(٢) .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال كنت عند رسول الله ﷺ فنزلت : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا تَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : "يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت علي ؟ قلت : بلى يا رسول الله .

فأقرأنيها ﷺ فلا أعلم إلا أنني وجدت انفصاما في ظهري فتمطيت لها . فقال رسول الله ﷺ : ما شأنك يا أبا بكر ؟ قلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، وأينا لم يعمل سوءا ، وأنا لمجزيون بأعمالنا" .

فقال رسول الله ﷺ : "أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس عليكم ذنوب . وأما الآخرون فيجتمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة"^(٣) .

وفي رواية أن أبا بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية ؟

(١) عون المعبود بشرح أبي داود - كتاب الجنائز - باب عيادة النساء ج ٧ ص ٧٨ .

(٢) السنن الكبرى للنسائي ج ٦ ص ٣٢٨ .

(٣) سنن الترمذي - كتاب الطهارة ج ٥ ص ١٣٣ .

(٥٢٥)

فقال النبي ﷺ : غفر الله لك يا أبا بكر ... ألسنت تمرض ؟ ... ألسنت تنصب ؟ ... ألسنت تحزن ؟ ... ألسنت نصيبك اللأواء ؟
قال أبو بكر رضي الله عنه : بلى .
فقال ﷺ : فهو مما تجزون به^(١) .

﴿ وَلَا تَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى لا يجد عامل السوء له وليا يمنعه ، أو نصيرا ينصره من دون الله تعالى .
وقال بعض العلماء : إن الآية خاصة بغير المؤمنين لأن الله ولى الذين آمنوا ، وهو ناصرهم ومعينهم^(٢) .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن حكم الله لا يخضع لأمانى الناس ، وإنما الأمر أمر العمل فمن عمل صالحا يجزى به ، ومن عمل سوءا يعاقب عليه ، ولا يجد له وليا يعينه ، ولا ناصرًا ينصره يفوت عنه جزاء الآخرة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

ليس الإيمان بالتمنى

الإيمان تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح ، والجزاء مرتبط بهذا الإيمان ، فمن صدق إيمانه فاز برضوان الله تعالى إذ لا دخل للأمانى الخاوية ، ولا قيمة لتصديق يخالفه القول والعمل ... إن الله أنزل الإسلام شاملا لكل جوانب الحياة ، محددًا لكافة النظم التى يحتاج إليها الناس ولذلك يكون الحساب على أساس ما شرع الله تعالى .

(١) كنز العمال ج ٢ ص ٣٨١ .

(٢) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٠١ .

(٥٢٦)

لقد جاء الإسلام لصناعة إنسان طاهر نظيف في ظاهره وباطنه ، ولذلك
كان الإيمان نابعا من القلب والضمير على أساس من الاقتناع والرضى ، وبعد
ذلك تشهد الجوارح ، وتتطق بمكنون القلب في توافق بين الظاهر والباطن .
ومن هنا ...

اشتمل الإيمان على التصديق والأعمال مع الاخلاص والصدق بعيدا عن
الأماني الجوفاء ، خاليا من أى تصور لا يؤكد الواقع .
لقد صنع الإسلام بالإيمان خير أمة وجدت على الأرض فأمنت بالله ،
وملأت الوجود بالعمل الصالح ، وحققت للبشرية حياة عملية تسعد الجميع .

عموم الجزاء الحسن

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن العمل هو أساس الحكم والجزاء ، وأن أعمال السوء يعاقب فاعلها عليها ، حيث لا ناصر ولا معين في الآخرة للكفار والمشركين الذين أقاموا حياتهم على السوء ، جاءت هذه الآية تبين للمؤمنين حسن العاقبة ، وأن الله لا يظلم الناس شيئا مهما كان قليلا .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن من يعمل صالحا من الرجال والنساء ، وهو مؤمن ، فجزاؤه الجنة ولن يظلم في شيء أبدا .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

أى إن أى إنسان يعمل خيرا ، ويستقيم على الدين ، ذكرا كان أو أنثى ، وهو مؤمن بالله تعالى يعيش راضيا عن نفسه ، ويدخل الجنة بما فيها من نعيم مادام قد جمع بين الإيمان والعمل الصالح ، فشرط وجود الإيمان أساسى لقبول الصالحات ، ولذلك جاءت الجملة الحالية ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ للدلالة على أن أثر عمل الصالحات مرتبط بحالة الإيمان .

ويلاحظ أن ﴿ مِنْ ﴾ في قوله : ﴿ مِنْ الصَّالِحَاتِ ﴾ للتبعيض لأن المؤمن

لا يعمل كل الصالحات حيث لا يقدر عليها ... ولكنه يعمل ما يقدر عليه منها .

وقد نزلت الآية تطمئن المؤمنين على عملهم ، لأن أهل الكتاب لما نزلت الآية السابقة قالوا للمسلمين : نحن وأنتم سواء .

والآية تبين تميز المؤمنين على غيرهم فعملهم الصالح يجزون عليه خيرا .

﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ أى هؤلاء المؤمنون

يرفع الله تعالى منزلتهم ، ويدخلهم الجنة ، ويمتعم بحسنها ، وجمالها ، وسكانها ... ويعطيهم جزاءهم الذى يستحقونه ، ولا يضيع من عملهم أى جزء ولو كان بمقدار النقيير ... والنقيير هو القشرة في بطن النواة تكاد لا ترى لضآلتها .

ولقد عبر القرآن الكريم بالنقيير لبيان أن المؤمن لا يضيع شئ من عمله ولو ذرة أتى بها يقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴿١﴾

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن من يعمل عملا صالحا وهو مؤمن يدخله الله الجنة ذكورا أو إناثا ، ولا ينقصهم من أجورهم شيئا ولو قليلا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الرجل والمرأة في ميزان الله تعالى

لا يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة ، ويحقق الكرامة لكل منهما في حدود طاقة كل منهما ، وما بينهما من اختلاف في التكليف سببه مراعاة الفوارق الفردية لكل منهما .

(١) سورة الزلزلة ، الآية ٧ ، ٨ .

(٥٢٩)

وها هو القرآن الكريم يبين تساوى الرجل والمرأة في الجزاء على عملهما الصالح ، فكل منهما حين يصدق مع الله ، ويعمل صالحا يدخله الله الجنة ، ويرضيه .

الركيزة الثانية

العدل في الجزاء

تبين الآيات أن الله يجازى كلا بعمله ، وقد أعد للصالحين جنات النعيم وأعد للكافرين نار جهنم فلا ظلم لأحد ، ولا مجاملة لأحد ، إنما يصاحب كل إنسان عمله وتقواه ، وليس الله بظلام للعبيد .
ومن المعلوم أن العدل في الإسلام شامل لكل تعاليمه ولسائر الناس ...
وقد بينه الله ووضحه ليكون عامل جذب للطاعة والاستقامة ، لأن الإنسان يتمنى لنفسه المنزلة الطيبة ، والمستقبل الرغيد ... ومن هنا كان حديث القرآن الكريم عن العدل تشجيعا للعمل الصالح ، والاستقامة عليه .

دين الله للناس أجمعين

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿٣٢﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين ما قلبهما

لما بينت الآيات السابقة أن عاقبة الكافرين النار وجزاء المؤمنين الجنة جاءت هاتان الآيتان لبيان الدين الحسن الذى اختاره الله للناس وختم به سائر الأديان ، وتوضيح فضل الإيمان وحقيقته .

(٥٣٠)

- ٢ -

موضوع الآيتين

تتناول الآيتان بيان الإيمان المقبول عند الله وهو يعتمد على الاعتقاد الصادق في الله ، والخضوع التام والانقياد لله رب العالمين ، فهو سبحانه مالك السموات والأرض المحيط بكل شئ .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ يشتمل الدين على كمال العبودية ، وكمال الاعتقاد في الله الواحد الأحد ... وقد أشارت الآية إلى الاعتقاد الصحيح بقوله تعالى : ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أى انقاد لله ، وخضع له في سره وعلائيته ، وآمن إيماناً جازماً بالله الواحد وبكل كمال يليق بالله تعالى ، إيماناً يشمل قلبه وعقله وجوارحه .

كما أشارت الآية إلى الالتزام بتعاليم الإسلام ومناهجه ، وإلى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ومعناه نتقن العمل لله مخلصين لله فيه .

وبذلك تشمل الآية على كل مبادئ الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا . والاستفهام في الآية للإقرار ، ومعناه ليس هناك دين أحسن من الإسلام المكون من إسلام الوجه لله ، وتحسين العمل بنظم الإسلام جميعا .
وانما كان الإسلام أعظم الأديان لعدة أمور :

(أ) اشتماله على العقيدة الصافية ، والتعظيم الكامل لله تعالى ، وتقرير كل كمال يليق به .

(ب) اشتماله على شريعة شاملة كاملة تقدم النظم ، والمنهج ، للفرد والجماعة والأمة بصورة تنفع العقل ، وترضى العواطف ، وتحقق المصلحة للناس أجمعين .

(ج) قيام الإسلام على تحقيق الكرامة والعزة للإنسان ، وضمان الحرية لسائر الناس على أساس قاعدة أساسية في الإسلام وهى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾^(١) .

(د) يدعو الإسلام أتباعه إلى صنع التقدم والنهضة ، والمحافظة على الطهارة والقوة حتى لا يطمع شيطان في السيطرة عليهم ، أو يحاول عدو أن يطفى نور الله بينهم .

(هـ) اشتمال الإسلام على دين الله الحق فهو شامل لملة إبراهيم عليه السلام ، ولذلك فهو ينادى بالإيمان بسائر الرسل ، وبالعقيدة التى نادى بها جميع الرسل فهى عقيدته ، وقد جعله الله مهيمنا عليها جميعا .

(و) تعاليم الإسلام معلومة ثابتة ، وراغبو العلم به يعلمونه بسهولة، فلا أسرار فيه ولا غموض .

لهذا وغيره كان الإسلام أحسن الأديان في الأرض بين الناس .
واسلام الوجه يعنى إسلام الإنسان بكافة عناصره ، وانما خصت الآية الوجه لأنه أشرف الأعضاء ، وله ينقاد سائر الأعضاء .

﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ يعنى ومن أسلم فقد اتبع ملة إبراهيم عليه السلام لأن إبراهيم عليه السلام دعا إلى دين يوحد الله تعالى ، ويميل عن سائر الأديان إلى الإسلام أحسن الأديان وأوفاهها .

يقول ابن عباس رضى الله عنهما : ومن دين إبراهيم عليه السلام الصلاة إلى الكعبة ، وأداء مناسك الحج ، ونحو ذلك^(٢) .

وقد يتصور البعض من ظاهر الآية إن شريعة دين إبراهيم عليه السلام هى شريعة الإسلام ، وعليه فليس لمحمد شريعة خاصة ...!

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

(٢) تفسير البغوى ج ١ ص ٦٠٣ .

وهذا تصور غير صحيح لأن شرع إبراهيم وملته داخلان في شرع محمد ﷺ ، وملته مع زيادات كثيرة حسنة خص الله بها محمدا ﷺ ، فمن اتبع ملة محمد ﷺ فقد اتبع ملة إبراهيم ، لأنها داخلة في ملة محمد ﷺ ، وشرع إبراهيم داخل في شرع محمد ﷺ وانما قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ لأن إبراهيم ﷺ كان يدعو إلى توحيد الله وعبادته ولهذا خصه الله بالذكر لأنه كان مقبولا عند جميع الأمم ، وكان العرب يفتخرون بالانتساب إليه وكذا اليهود والنصارى . فإذا ثبت أن شرعه كان مقبولا عند الأمم ، وأن شرع محمد ﷺ وملته هو شرع إبراهيم وملته لزم الخلق الدخول في دين محمد ﷺ وقبول شرعه وملته^(١) .

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ والخل هو المحب المخلص في صفائه ومودته ، ونشاطه ، وعمله ، وقد اتخذ الله إبراهيم ﷺ صفيًا له لما قام به في رسالته من جهد وجهاد مع عبدة الكواكب والأصنام ، وعبد الكواكب ، والنجوم ، وعبادة مدعى الألوهية من الناس مثل "النمرود" .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ بين الله في هذه الكلمات سعة ملكه ، وعظيم سلطانه ليرغب الخلق في طاعته ، والاستقامة على منهجه .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ وكان الله عالما بكل شئ من كافة الجوانب مع القدرة عليه فهو الله القوى القدير .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن دين الإسلام أحسن الأديان للناس أجمعين لاشتماله على تنظيم العلاقة مع الله ، ومع الناس ، وتوجيه الجميع إلى الخير لأنفسهم وللناس أجمعين .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٠٣ .

(٥٣٣)

والإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام خليل الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى يملك ما في السموات وما في الأرض وهو بكل شئ محيط .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

عظمة الإسلام في تعاليمه

تشير الآية إلى أن دين الإسلام هو أحسن أديان الله للناس ، وسبب ذلك أنه جاء خاتما للأديان كله ، شاملا لحسنها جميعا ، مؤيدا لكل حق ظهر فيها ... ومعنى ذلك أن دين الله لجميع الرسل حسن إلا أن الإسلام اشتمل عليها جميعا ، وأتمها وأكملها وختم الله الأديان جميعا بها ، فحسن الأديان السابقة جزئى ، وحسن الإسلام كلى ، وانما كان حسن الإسلام كليا لما يأتى :

أولا : نادى الإسلام بالعقيدة التى نادى بها جميع الرسل عليهم السلام لأنها واحدة لا تتغير ، وكل ما أضافه الإسلام في عرضه للعقيدة تنوع أدلة الإثبات ، وتعددها لتشمل كافة طوائف الناس الذين ظهوروا مع الرسل جميعا ، وتلك ميزة طيبة لأنها تمكن الدعاة من مخاطبة كافة طوائف الناس ، فهم هم على نمط أسلافهم الذين ظهوروا على مدار التاريخ .

ثانيا : ترقى أدلة العقيدة، ومناسبتها للرقى العقلى، والكمال الإنسانى فقدمت الأدلة العقلية المجردة مع الأدلة المحسوسة لتناقش الفلاسفة، والعلماء وأصحاب الأديان ، والمفكرين أصحاب المذاهب ... وهؤلاء وغيرهم يحاورون ، ويجادلون ، ولذلك جاءت أدلة العقيدة في الإسلام عديدة صالحة لكافة الأفهام والعقول .

لقد ناقش نوح عليه السلام قومه ، وأراههم الماء الذى أغرقهم ... وناقش إبراهيم عليه السلام قومه بالكواكب والنجوم وتكسير الأصنام ... وهكذا كان الرسل ... فلما جاء

الإسلام نزل القرآن الكريم مع المعجزات الحسية العديدة لإقناع كافة العقول بمختلف الأدلة على تنوعها .

ثالثا : أكد الإسلام دائما بأنه دين الرسل السابقين ، وأنه يسير على خطاهم ، ويعبد الناس الله الإله الواحد رب العالمين ، ومن هنا كان الإيمان بالإسلام إيمانا بأديان الله جميعا ، وإيمانا بسائر الرسل ، وهذا أمر يجعل العقلاء يدخلون في الإسلام لأنه لن يبعدهم عن ما يؤمنون به .

رابعا : جاء الإسلام بشريعة شاملة صالحة لكل زمان ومكان فقد جاءت الرسالات السابقة لزمن معين ، ولقوم معينين كما نرى في شريعة موسى وعيسى عليهما السلام ، فلقد بعثنا لبني إسرائيل ومع ذلك كان التباين بين الشريعتين ، ولذلك قال عيسى عليه السلام : ﴿ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾^(١) ... وهذا التباين ضروري لاختلاف الأحداث ، وتطور الأعمال ... فناسب أن تأتي الشريعة مناسبة لمن نزلت إليهم ، وإن خالفت الشريعة السابقة ، وإن لم تناسب أقواما بعد ذلك .

أما الإسلام فقد أراد الله له أن يكون خاتم الأديان ، وحتى تستمر شريعة الإسلام إلى يوم القيامة جاءت على صورتين :

الصورة الأولى : وتشمل الحوادث التي لا تتغير من مكان إلا آخر ، ومن زمن إلى زمن آخر كالعبادات ، فإنها صالحة بهيئاتها ، وأحكامها دائما .

الصورة الثانية : وتشمل الحوادث التي تتغير ، وفيها تكتفى شريعة الإسلام بتحديد المبادئ الإسلام ، وفتح باب الاجتهاد للعلماء وأولى الأمر ليضعوا الجديد ف إطاره الشرعي في حدود المبادئ الإسلامية الكلية .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٥٠ .

وبذلك تبقى شريعة الإسلام وسط الناس تحدد النظم ، وتربط الأفعال بالأحكام الشرعية الصحيحة .

خامسا : تميز الإسلام بميزة حاسمة ، وهي حفظ مصادره التي نزل الوحي بها ، فهي في أيدي الناس بعد خمسة عشر قرنا كما نزلت من عند الله وستبقى كذلك إلى يوم القيامة فقد قضى سبحانه وتعالى بذلك فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(١) .

ووسائل الحفظ عديدة ، ومعلومة ، وقد وضحتها العلماء ... وبكل هذا يتضح حسن الإسلام العام كما شرعه الله تعالى للناس أجمعين .

الركيزة الثانية

إبراهيم عليه السلام أبو الرسل من بعده

يورد القرآن الكريم دين إبراهيم عليه السلام متوافقا مع دين محمد ﷺ لاتفاقهما في كثير من الأمور ، وبخاصة في العقيدة التي هي من آدم عليه السلام إلى آخر الزمان .

وفي قصة إبراهيم عليه السلام عبر وعظات عديدة تدور حول تنوع الأدلة ، واختلاف أساليب الخطاب ، والتعريف بالناس ، وتقديم منهج متكامل في الدعوة إلى الله تعالى .

ولعل أكبر ما نستفيده هو إبراز أبوة إبراهيم عليه السلام للرسل من بعده ، وليبان أن الأرض سادها أبناء إبراهيم عليه السلام ، فلقد انشطر النور من إبراهيم إلى شطرين ، شطر ذهب إلى "سارة" زوجته الأولى ، ووجد منها بنو إسرائيل ، وفيهم كان الأنبياء إسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، والأسباط ، وموسى ، وعيسى وزكريا عليهم السلام . ومن زوجته الثانية "هاجر" وجد إسماعيل عليه السلام ، والعرب ، ووجد محمد ﷺ

(١) سورة الحجر ، الآية ٩ .

(٥٣٦)

فإبراهيم عليه السلام هو جد بنى إسرائيل والعرب ، ولعل في هذا دعوة للجميع ليؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فهو على خطى جدهم إبراهيم عليه السلام ولم يبدل ولم يغير .
إن الناس يعودون لآدم ، ولنوح ، ولإبراهيم عليهم السلام وعليهم أن لا يتعصبوا لمفاهيم عنصرية لا فائدة فيها .
إن الإسلام دعوة إلى التوحيد ، وإلى التعاون على الحق ، وعلى الدخول في الدين الذي ختم الله به الديانات .

المحافظة على اليتيمة والضعاف

يقول الله تعالى :

﴿ وَبَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَمَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت الآية في ضرورة المحافظة على اليتامى ، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : هذه اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها فيتزوجها ويريد أن ينقص صداقها ، فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق ، وأمروا بنكاح من سواهن .

تقول عائشة رضي الله عنها : فاستفتى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَبَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن

(٥٣٧)

تَنكِحُوهُنَّ ﴿ فبين لهم أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال ، ورغبوا في نكاحها ، ولم يلحقوها بسنتها في إكمال الصداق ، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها .

وهذا خطأ من الأولياء فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها الأوفى من الصداق^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآية عظمة الإسلام وأنه أحسن الأديان جاءت هذه الآية لبيان ما شرع للنساء في النكاح حتى يحافظ على حق الضعفاء كاليتيمة عند وليها ، والصغيرة ، واليتامى بصورة عامة .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين ضرورة المحافظة على اليتيمة وهى عند وليها ، وضرورة إعطائها حقها في المهر والميراث ، مع المحافظة على حق الصغار في الميراث ، وتبين علم الله بكل شئ وتبين أنه سبحانه وتعالى سيجازى الناس على أعمالهم بدقة .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَكَسَفَتْؤُنَاكَ فِي الْنِسَاءِ ﴾ أى ويستخبرونك يا محمد في شأن النساء

وحالهن ، والاستفتاء طلب حكم الله فيما أشكل من أحكام شرعية حكم الله بها . وهذا يدل على حسن إيمان الناس لأنهم يقصدون رسول الله ليعرفوا حكم الله تعالى ، ويلتزموا به ، وليس لهم خيار بعد .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٠٥ .

﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ أى قل لهم يا محمد أن الله يفتيكم في النساء لتستقيموا على حكمه الذى أنزله خاصا لهن في كتابه الكريم .
وفى هذا بيان لتعظيم حق النساء ، وأن الله أنزل لهن قرآنا يتلى إلى يوم القيامة .

﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّىٰ النِّسَاءِ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى يفتيكم ، وقد أفتاكم في آيات القرآن الكريم الخاصة ببيتامى النساء ، وهى الآيات التى نزلت في أول سورة "النساء" .
وفى أمر رسول الله بـ ﴿ قُلِ ﴾ دليل على الاهتمام بهذا الحكم .

وقال بعض العلماء : المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ، وفى هذا دلالة كبرى على الاهتمام بشأن النساء .
ولا مانع من نزول هذه الأحكام في القرآن الكريم على رسول الله ﷺ لأن القرآن الكريم كله نزل من اللوح المحفوظ .

﴿ أَلَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ أى يعرفكم الله أحكام اليتيمة الضعيفة التى لا تؤدى لهن حقهن من المهر والميراث وغير ذلك من الأمور التى فرضها الله لهن .

﴿ وَتَرْغُبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ أى لا تؤتونهن المهر ، وترغبون التزوج بهن ، وعليكم مع هذه الرغبة المحافظة على ما شرع الله لهن من مهر وميراث ونفقة .

﴿ وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ ﴾ عطف على الضمير المجرور في ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أى ويفتيكم الله في المستضعفين من الأولاد الصغار للمحافظة على حقوقهم في الميراث وغيره .

(٥٣٩)

﴿ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ﴾ أى تهتموا بشئون اليتامى بالعدل في المهر ، والميراث والنفقة وغير ذلك .

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ أى أن أى خير تفعلونه وبخاصة مع هؤلاء الضعاف فإن الله يعلمه ، وسيجازيكم عليه .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية سؤال الصحابة رسول الله عن بعض أحكام النساء فعرفه الله بحالهم ، وأمره أن يجيبهم اهتماما بالمرأة ، وضرورة العدل معها في إعطائها حقها في المهر والميراث ، وعدم التحايل في ظلمها ، كما نبهت الآية على ضرورة محافظة الولي على حقوق اليتيمة التى ولى أمرها ، ويرغب في نكاحها ... وكذلك حقوق الصغار واليتامى وسائر الضعفاء ، وسوف يجازى الله كلا بعمله في يوم يحتاج الإنسان فيه لثواب الأعمال الصالحة .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

دقة الفتوى الإسلامية

يحتاج المسلم إلى معرفة دينه ، وعليه أن يلجأ إلى أهل الذكر ليتعلم منهم ويفهم ولذلك شرع الله الاستفسار والسؤال عن أحكام الشرع لمن يحتاج إليه ، وصار على المفتي أن يتقن فهم الموضوع ، والتعمق في كافة جوانب نفسية المستفتى. والإجابة بما يفيد ، وتلك هى الدقة المقصودة من الفتوى في الإسلام لقد جاء بعض المسلمين يسألون رسول الله ﷺ عن النساء فأجابهم رسول الله بحكم الله تعالى .

لقد تعمق الرسول ﷺ في نفوسهم ، وأعمالهم ، وأفئدتهم ، وعاش مع قضيتهم ، وبين حكم الله تعالى للمحافظة على حق اليتيم الضعيف والصغير حتى لا يضرهم وليهم ، ويستغل ضعفهم .

ومن هنا وجب على المفتي أن يعيش مع الأحداث ، ويفهمها بكل دقة وخبرة ، ويفتي بحكم الله لعلاج الحدث وإن كان فيه معارضة السائل .

ولا مانع أن يعم المفتي الحدث المسؤل عنه ، وما يشبهه من أحداث تعميما للفائدة ، وابرزا لحكم الله تعالى في كافة القضايا .

ويجب أن يعود المفتي إلى حكم الله ويبرزه عمليا في حياة المسلمين .

علاج نشوز الزوج

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

عن عائشة رضى الله عنها قالت في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ قالت : نزلت في المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها فيريد طلاقها ، ويتزوج غيرها ، فتقول له : امسكني لا تطلقني ، ثم تزوج غيري ، وأنت في حل من النفقة علي والقسمة لي فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ .

(٥٤١)

وقيل : نزلت في عمرة بنت محمد بن مسلمة رضى الله عنهم وفي زوجها سعد بن الربيع رضي الله عنه تزوجها وهي شابة فلما كبرت تزوج عليها امرأة أخرى شابة ، وآثرها عليها ، وجفا الأولى فأنت ابنه محمد بن مسلمة تشكو زوجها إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية .

وقيل : كان رجل له امرأة قد كبرت ، وله منها أولاد فأراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت : لا تطلقني ودعني أقوم على أولادي ، واقسم لي كل شهرين إن شئت ، وإن شئت فلا تقسم لي .
فقال : إن كان يصلح ذلك فهو أحب إلي .
فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله هذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما تكلمت الآية السابقة عن حقوق المرأة اليتيمة ، والضعفاء جاءت هذه الآية لتتحدث عن علاج نشوز الزوج حين تتوقعه الزوجة ، وتخاف منه .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين طرق علاج نشوز الرجل ، وضرورة القضاء على هذا النشوز بالصلح ، والإحسان ، وتقوى الله تعالى .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِنْ أَمْرًا ﴾ أى وأى امرأة مسلمة تعيش بالإسلام ، وتلتزم بأحكامه .

﴿ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ﴾ أى ظننت نشوز زوجها . وقيل : خافت الإعراض

وتوقعته من زوجها ، والبعل هو السيد والمراد به الزوج سمي بذلك لأنه هو سيد

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٠٥ .

المرأة ، ومعنى ذلك أن المرأة يحسن لها أن تعيش مشاعرها مع الزوج ، وتعرف توجهاته قبل حدوثها ، وتحاول علاج الأحوال التي تطرأ عليه حتى لا تفاجأ بالقطيعة والفرار .

﴿ نُشُوزًا ﴾ يعنى بغضا يدفعه إلى ترك مضاجعتها ، والعبس في وجهها ، وكراهية الحديث معها ، ومعاملتها بخشونة ، والاستعلاء عليها .
﴿ أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ أى كرها يجعله يشيح عنها بوجهه ، ويسكت عن محادثاتها ، ويشتغل بغيرها .

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ أى فلا حرج ولا إثم أن يصلح الزوج والزوجة ما بينهما من خلاف حول النفقة والقسمة أو غير ذلك ، وهو أن يقول الزوج للمرأة : إنك قد كبرت ودخلت في السن ، وأنا أريد أن أتزوج امرأة جميلة شابة أوترها عليك في القسمة ليلا ونهارا ، فإن رضيت فأقيمي ، وإن كرهت ذلك فارقتك وخليت سبيلك ، فإن رضيت بذلك كانت هي المحسنة ولا تجبر على ذلك ، وإن لم ترض بدون حقها كان على الزوج أن يوفيهما حقها من القسم والنفقة أو يسرحها بإحسان وإن أمسكها ووفاهها حقها مع الكراهة لها كان هو المحسن .

يقول ابن عباس : فإن صالحته على بعض حقها من القسمة والنفقة جاز وإن أنكرت ذلك بعد الصلح كان ذلك لها وهو حقها : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ يعنى إقامتها بعد تخييره إياها والمصالحة على ترك بعض حقها من القسم والنفقة خير من الفرقة .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خشيت سودة رضى الله عنها أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت : لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة رضى الله عنها ففعل ﷺ وذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا

(٥٤٣)

صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴿١﴾ فما اصطلحا عليه من شئ فهو جائز ، فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومها ويوم سودة^(١) .

والآية تعالج نشوزا يقع بين الأزواج ، وله واقع في حياة الناس ، ولذلك كان علاجه ضرورة للمحافظة على الزوجية والحياة الأسرية كلها .

إن نشوز الزوج مرض يقع فيه بعض الرجال بسبب من المرأة أو بغير سبب منها ، وعلاجه في الإسلام لا يعنى إباحته بصورة عامة ، ولذلك جاءت الآية تدعو الأزواج إلى التسامح ، والإحسان إلى زوجاتهم ، وتدعو إلى تقوى الله في التعامل معها ، وأن يكون الرجل كريما مع زوجته .

﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ والشح هو أشد أنواع البخل ، ويكون

في المعانى ، والأعراض ، والمعنى أن النفوس تتأبى وتتعالى ولا تريد أن تكون كريمة مع خصومها ، وتتشدد في حالات الخلاف ، ولذلك يذكرها الله بطبعها في الحياة الزوجية ليتجنبها الزوجان أثناء التصالح ، ويتسامحا في حياتهما ، وليتخلص كل منهما مما حدث له ، ويعذر كل منهما شريكه في هذا البخل فهو جبلة في الإنسان ، ونراه في طبع المرأة حيث لا تسمح بالإعراض عنها ، وتقديم غيرها عليها ، ونراه في طبع الرجل حيث لا يقوم بحق الزوجة إذا كرهها أو أحب غيرها .

﴿ وَإِنْ تَحْسَبُوا ﴾ أى في التعامل فتحسن الزوجة إلى زوجها ، ويحسن

الزوج في معاملة زوجته .

﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ أى تخافوا الله وتراقبوه في المعاملات الزوجية ، والمراد دفع

الزوجين إلى الإحسان والتقوى أن لا يتمسك كل بحقه ، بل على كل أن يتنازل

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٠٦ .

عن بعض حقه إحسانا وخلقا ، ويتقى الله في الحياة الزوجية .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أى أن الله يعلم سائر

أعمال الخلق بإحاطة تامة ، وسيجازى عليها .

إن الإسلام يولى الحياة الأسرية أهمية عظمى ، ولذلك دعا إلى منع الخلاف بين الزوجين ، وكلف المرأة بمراقبة تعامل زوجها معها ، وعليها أن تعالج نشوز زوجها حين تتوقعه .

إن الإسلام لا يدفع المرأة إلى مخاصمة زوجها ، ولا معاملته مثل تعاملها مع غيره فله المقام الأعلى بعد حق الله تعالى حتى لا يحدث شقاق ، ولا يقع الفراق .

ولذلك وضع الإسلام منهج إصلاح ما بين الزوجين ، وبينه في ثلاث مراحل ... هى :

المرحلة الأولى : أن يتصالح الزوجان ليصلا إلى قرار يرضاه كل منهما وهذا ما ذكرته الآية ، ودعت الزوج ليكون كريما مع زوجته وأن يحسن تعامله معها ، ويتقى الله فيها .

المرحلة الثانية : إن استمرت الخصومة بين الزوجين فلتقم بينهما حكومة تتكون من حكم من أهله ، وحكم من أهلها ليصلحا بينهما .

المرحلة الثالثة : إذا استقل الخلاف بين الزوجين يكون الفراق بينهما والله يغنى كلا منهما بسعته وقدرته .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية ما على المرأة إذا توقعت نشوزا من زوجها ، وعليها معالجة هذا النشوز المتوقع بالتصالح مع الزوجة ، فهو الخير ، وملاحظة أن التصالح

(٥٤٥)

يحتاج إلى التنازل عن بعض الحقوق ، وارضاء الطرف الثاني ، والإحسان في المعاملة ، ومراقبة الله تعالى ، وتقبل بعض السوء من الطرف الثاني ، لأن النفس جبلت على الأثرة والتعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيه

تتضمن الآيه عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

تحديد الحقوق في الحياة الزوجية

ينظم الإسلام الحياة الزوجية ، ويحدد لكل طرف حقوقه وواجباته ، ويربط الحقوق والواجبات بالمودة والرحمة .
وينظم الإسلام تنال المرأة حقوقها في المهر ، والنفقة ، والعطاء الزوجي والحماية في إطار أسرة تتجب وتربي .
ويعيش الزوج مسئولا عن أسرته ، يطاع أمره ، وتعيش زوجته في كنفه ، وتحفظ له ماله ، وولده ، وعرضه .
وهكذا تعيش الأسرة المسلمة حياة طيبة ، وتقوم بدورها في طاعة الله تعالى .

الركيزة الثانية

أهمية المحافظة على الأسرة

يدعو الإسلام إلى المحافظة على الأسرة بعد إقامتها ، وعدم التسرع عند أى خلل يحدث بين الزوجين .
ومن المعلوم أن القلب يتقلب ، والنفوس تتغايير ، والحياة الزوجية يعتورها الفتور .

وهنا ...

يوجه الإسلام المؤمنين إلى المحافظة على الأسرة ، والتنازل عن بعض الحقوق والتعاون في الإطار الأسرى مع فقدان بعضها ، ويدعو الإسلام إلى الإحسان في المعاملة ، وتقوى الله في التعامل الأسرى ، فهناك فضل يجب أن لا ينسى ، وهناك ذكريات جميلة يجب أن يقدرها الأزواج ، وأن يجعلوها زادا لاستمرار الحياة الزوجية ،

العدل بين الزوجات

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة طرق التصالح بين الزوجين ، ودعت إلى الإحسان في المعاملة جاءت هذه الآية تدعو الزوج إلى أن يحسن إلى زوجته التي كرهها ، ونفر منها بقدر استطاعته حتى يتم الصلح في إطار تقوى الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن العدل القلبي بين الزوجين أمر غير ممكن ، وعلى الزوج أن يجاهد نفسه ، ولا يميل عن زوجته إلى غيرها ميلا كلياً ، وعليه أن يحسن

إلى زوجته ، ولا يدعها معلقة فلا هي زوجة ولا هي مطلقة ، ومن الأفضل الإصلاح وتقوى الله ليغفر الله لهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أى لن

تتمكنوا من العدل التام بين الزوجات مهما بذلنهم من جهد ، وذلك أن العدل بين الزوجات نوعان : نوع يتعلق بالماديات كالمبيت ، والنفقة ، والسفر ، وهذا نوع يمكن العدل فيه ، وتطبيق ما أمر الله به ... والنوع الثانى يتعلق بالقلوب كالحب ، والرغبة النفسية وهذا نوع لا يمكن للزوج أن يعدل فيه ، لأن ميل القلوب ، وتعاطفها وحبها جانب نفسى يحركه الله كما يشاء ، ولا كسب للإنسان فيه ... وهذا هو مراد الآية .

﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ﴾ أى لا تميلوا إلى من تحبونها ميلا شديدا

فلستم منهيون عن حصول التفاوت في الميل القلبي لأن ذلك خارج عن قدرتكم ووسعكم ، ولكنكم منهيون عن إظهار ذلك الميل في القول والفعل .
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط" ^(١) .

وعند أبي داود رضي الله عنه : "من كانت له امرأتان فمال إلى إحدهما جاء يوم القيامة وشقه مائل" ^(٢) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : "كان رسول الله ﷺ يقسم فيقول : اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" ^(١) يعني القلب .

(١) جامع أحاديث الرسول . كتاب النكاح ج ١١ ص ٩٨٩ .

(٢) سنن أبي داود . كتاب النكاح . باب في القسم بين النساء ج ٦ ص ٣٣ .

﴿ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ أى تتركوا الزوجة التى ملتم عنها كالمعلقة بين السماء والأرض فلا هى مطلقة فتتزوج ولا هى زوجة يحسن زوجها معاملتها .

﴿ وَإِنْ تَصَلَحُوا ﴾ بالعدل الممكن في القسمة ومراعاة الفضل .

﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ أى تتقوا الله ، وتلتزموا بتعاليم الله فى العدل بين الزوجات .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يغفر ما وقع من خطأ في المعاملات الزوجية ، فهو سبحانه وتعالى رءوف بعباده كما هو ظاهر في مراعاة الوسع والطاقة في التكليف .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الزوج المسلم يلتزم بالعدل المادى الظاهر بين زوجاته ، أما العدل القلبى فلا يقدر عليه لأنه لا يملكه ، ولا يمكنه التأثير فيه ... ولكن عليه أن يحسن إلى زوجاته بقدر استطاعته لأن ما لا يدرك كله لا يترك كله والله غفور لما سبق رحيم بتكليف الناس في حدود الطاقة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

ضرورة مراعاة الفطرة

الإسلام دين الفطرة ، ولذلك كانت شريعته ملائمة للإنسان على تنوع جنسه ، وفكره ، ومكانه ، وزمانه ، لأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الخلق ، ومنزل الدين ، ومحدد الشريعة .

وحتى يشبع الإسلام كل طاقات الإنسان نراه يعيش مع خواطره ، وأمانيه ، ويتعامل مع ميوله وعواطفه ، ولا يكلفها إلا بما يناسبها .
إن الإسلام يحل الطعام ، والشراب ، والعمل ، والكسب ، والنشاط ، والنوم ، واليقظة ... وهكذا .

وفى المجال الأسرى يشرع الإسلام للتعامل وقت المودة ، وحين الخلاف ويدعو إلى التصالح والوفاق ، وحين يتعلق الأمر بالحب القلبي ، والميل النفسى لا يقضى الإسلام فيه بحكم محدد ، وإنما يدعو إلى محاولة الممكن . فتقول سبحانه : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ﴾ وهو أقصى ما يمكنه الإنسان .

وترى مراعاة الفطرة في كل جوانب الإسلام ، ومن ذلك مراعاته شروط التكليف فلا بد من الإسلام والبلوغ والعقل ، ولا صوم على مريض ونفساء ، ولا حج على فقير وفى كل جانب نرى مراعاة الإسلام لفطرة الإنسان وواقعه .
ومن هنا ...

وجب على الدعاة فهم من يتوجهون إليهم، ويخاطبونهم بما يناسب طباعهم، وثقافتهم ... ويتعاملون معهم بدءا بجوانب القبول ليحدث تلاق وتوافق معهم ، والانطلاق بعد ذلك في ثقة إلى المسائل التى يريد أن يؤمن بها الناس .

إن الإنسان يحب من يعاونه ويتودد إليه ... ولذلك كان قيام الدعوة على النصح والموعظة واشعار المستمع بأن الغاية تحقيق المصلحة . يقول الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾^(١) ويقول تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِى ءُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٤ .

(٥٥٠)

وَاحِدٌ وَخَنُّ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ فنجد الآية تبدأ بالمسائل المسلمة وبعدها نتحدث عن المسائل التي لا يؤمنون بها .

ويقول الله تعالى وهو ينادى أهل الكتاب : ﴿ قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكْتَسِبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

إن حسن الإسلام يحتاج إلى حسن عرضه على الناس ، ليتضح ، وتتمكن العقول من فهمه والعمل بما فيه .

افتراق الزوجين

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما ذكرت الآية السابقة أهمية الصلح بين الزوجين جاءت هذه الآية توضح أن الفرقة هي الحل الأخير ، وعسى الله أن يغنى كلا من الزوجين عن الآخر بسعته وحكمته .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تبين أن الزوجين إذا لم يتمكنوا من التصالح فليكن الفراق ، والطلاق وسيغنى الله كل منهما عن الآخر مادام كل منهما اتبع المنهج الإسلامى في علاج ما حدث من نشوز .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٦٤ .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَأِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ أى إذا لم يتمكن الزوجان من الصلح ولم يستطع الحكام من التقريب بينهما وصار الطلاق أمراً ضرورياً ، وابتعد كل منهما عن شريكه فلا مانع حينئذ من وقوع الفراق ليعيش كل منهما بعيداً عن الآخر .

﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ أى يعطى الله كلا من الزوجين بعد الفراق ما يغنيه عن الآخر ، فيعطى الرجل زوجة أخرى ترضيه ، ويعطى الزوجة رجلاً آخر يتزوجها ، ويحسن معاملتها .

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ أى ان الله سبحانه وتعالى واسع العطاء ، يقدر لكل أمر ما يناسبه .

- ٣ -

معنى الآية

تبين الآية أن الزوجين إذا لم يتمكنوا من التصالح ولزمهما الفراق فإن الله يغنى كلا من واسع عطائه ، وقدرته ، والله واسع عليم .

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

بيان سعة رحمة الله تعالى

رحمة الله بعباده واسعة ، وحبه سبحانه وتعالى لهم عظيمة ، فهو خالقهم بعقل يفهم ، وصورة جميلة ، وممكنهم من الحياة بتسخير الكون لهم ... وأنزل لهم الدين ، وشرع النظم ليعيشوا بمنهج مستقيم ، ويستمتروا في الخير والمودة ، والسلام .

ومن رحمة الله تعالى بالناس استمرار شرعه مع الإنسان في الدنيا حتى يلقي الله ، وينتقل من دار العمل والتكليف إلى دار الثواب والعقاب .

وفى الإطار الأسرى نرى الإسلام ينظم الأسرة ، ويضع التعاليم التى تنتشر فيها المودة والرحمة ، والحب والمودة لتخريج جيل من الصالحين الذين يأخذون من آبائهم ، وأمهاتهم ، واخوانهم كل ما هو خير في العقيدة والخلق والسلوك .

ومن رحمة الله أن الأسرة إذا أصابها الخلاف ، وعجز الزوجان عن التصالح والتلاقى يشرع لها سبل الفراق بصوره المختلفة ، ويحيطها برحمته ويعرف الزوجين بسعة فضله ، وعظيم حكمته ، ويخبرهما بمستقبل يعيشان فيه حياة زوجية مشروعة بقدرة الله ، ورحمته بعباده ، وحكمته البالغة ، والله لطيف خبير .

الأمر بيد الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ تَكْفُرًا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٧﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٨﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن الله يغنى الزوجين بعد الفراق من سعته جاءت الآيات لبيان أن الله مالك الملك وقدرته على العطاء لاحد لها ، وقد أمر الجميع بتقواه ليفوزوا بعطاء الله فهو الخالق القادر المالك للوجود كله .

- ٢ -

(٥٥٣)

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله مالك السموات والأرض يعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، وتبين أن الله تعالى دعا أهل الكتاب القدامى ، ودعا المسلمين إلى تقوى الله تعالى ، لأنهم إن كفروا بالله تعالى ، فكفرهم على أنفسهم ، والله غنى عنهم ، وهو الغنى عن كل خلقه ، وهو العزيز الحكيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى أن السموات والأرض ، وما فيهما ، وما بينهما ، وما فوقهما ، وما تحتها ملك لله تعالى .
وقدمت الآية قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ لبيان أن كل موجود مملوك لله خاصة ، وقد دعا جميع الخلائق إلى الإيمان به سبحانه وتعالى .
﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى طلبنا ، وفرضنا على الذين آتاهم كتاب الله تعالى وهم اليهود والنصارى وغيرهم .
﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى ووصيناكم يا أمة محمد بنفس ما وصينا به أهل الكتاب الذى آتاهم كتاب الله قبل الإسلام .
﴿ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى وصينا كل هؤلاء أن يوحدوا الله ، ويطيعوه ، ويحذروا مخالفته . فالأمر بتقوى الله جزء رئيسى في دين الله منذ آدم عليه السلام .
﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا ﴾ أى وإن تعصوا ربكم ، وتكفروا بما وصاكم به ، ودعاكم إليه ، فجرمكم على أنفسكم ، ولن تضروا إلا أنفسكم .

﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى فلن تضروا إلا أنفسكم لأن الله مالك الملك لن ينفعه إيمان أحد ، ولن يضره كفر أحد ... وأيضا فإن مالك الملك سيحاسبكم بقدرته وحكمته . فقد بلغكم رسالته ، ودعاكم إلى التقوى فمن أطاع أثابه مالك الملك ، ومن عصى عاقبه مالك الملك ، وهو على كل شئ قدير .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ أى أن الله غنى عن جميع خلقه . وهو سبحانه . محمود على نعمه ، ودينه ، وفضله على الناس أجمعين .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أعادت هذه الآية ما ذكر في الآية السابقة مرتين لإظهار ما لله من عظمة وقدره تؤكد حقه في أن يعبد ويتقوى وقدرته على محاسبة الظالمين ، وحاجة الناس في أن يتوكلوا عليه سبحانه . فقد جاءت المرة الأولى في أول الآية السابقة لبيان وصيته الواجبة الاتباع الذى وصى بها الأمم كلها .

وجاءت المرة الثانية لبيان أنه سبحانه غنى عن عباده . وجاءت المرة الثالثة في هذه الآية لبيان أنه سبحانه كاف بقدرته ومالكيته في تحقيق ما يريد ، ويحتاج إليه العباد .

إن الله مالك الملك مستغن عن عباده ، لا يزداد جلاله بالطاعات ، ولا ينقص بالمعاصى ، وهو الغنى فاطلبوا منه ما تطلبون ، وتوكلوا عليه ، واتقوه واعلموا أن التقوى أصل كل خير .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى أنه سبحانه يكفى عباده المتوكلين عليه .

(٥٥٥)

معنى الآيتين

يبين الله تعالى أن مالك الملك قد وصى جميع الأمم بتقواه ، فمن أطاع و اتقى الله تعالى نال ثواب الله تعالى ومن كفر فالله غنى عنه ، وعن جميع الخلائق ، وهى المحمود فعله وفضله .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دعوة الله للأمم كلها

التقوى هى دعوة الله للأمم كلها ، والتقوى هى الخوف المؤدى إلى الالتزام والطاعة ويراد بها أن يعرف الله فلا ينكر ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يعطى ، وأن يعبد فلا يجحد .

إن التقوى تقوم على عنصرين هما ، الخوف والحب ، فبالحب يتجه العبد إلى من خلفه يعبده ، ويتعلق به، ويستسلم له ... وبالخوف يحذر مخالفة الله ، ويتجنب المعاصى ، ويبتعد عن عدم الالتزام بتعاليمه سبحانه وتعالى .
إن التقوى تتم بالعلم والفهم ، والعمل والسلوك ، وقد دعا الله الناس جميعا ، وعلى لسان الرسل جميعا ليفوزوا برضوان الله تعالى ، ويدخلوا جنات النعيم .

الركيزة الثانية

بيان حاجة الإنسان لله تعالى

الكون كبير شاسع ، والمخلوقات فيه عديدة ومتنوعة ، وكلها مملوكة لله تعالى ، وهو سبحانه غنى عنهم جميعا لا تفيد طاعة ، ولا تضره معصية وتقوى الإنسان يعود أثرها على صاحبها .

(٥٥٦)

إن الإنسان محتاج لخالقه ، والعاقل هو من يدرك ذلك ، ويؤمن به ،
ويلقى الله وهو راض عنه .

بيان قدرة الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة مالكية الله لكل مخلوق جاءت هذه قدرة الله على
كل شئ فلو أراد سبحانه وتعالى إفتاء الناس جميعا ، وخلق غيرهم لفعل سبحانه
وتعالى .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية عظم قدرة الله تعالى على فعل ما يريد .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ۝ ﴾ النداء في الآية للمنافقين والمشركين
وان كان ظاهرها للناس أجمعين ، لأنها جاءت للتهديد ، والله مع المؤمنين ودود
رحيم .

﴿ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ ﴾ أى يأت بقوم آخرين غيركم ، وفى هذا تهديد
للكفار والمنافقين .

(٥٥٧)

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ أى أن الله قادر على هذا التغيير فهو الخالق ، وهو على كل شئ قدير .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية قدرة الله تعالى الشاملة ، فهو سبحانه قادر على أن يقضى على الكافرين والمنافقين ويخلق غيرهم فهو قادر على كل شئ .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

في الآية ركيزة هامة ... هي :

بيان رحمة الله بعباده

الله رحيم بعباده جميعا ، فقد خلقهم ، ورزقهم ، وكلفهم ، وجعل لهم الدنيا دار عمل ، وسعى ، واختيار ... وجعل الآخرة دار حساب وجزاء .
إن الله أعطى الناس فرصة كبيرة امتدت مع عمر كل إنسان ... إلا أن هذا التمهيل لا يترتب عليه إهمال .
والعاقل من يجعل عمره فرصة للفوز في الآخرة ، وبخاصة أن سائر التكاليف تعنى صلاح النفس والحياة ، وتتلاءم مع طاقة الإنسان وقدراته ، وترضى النفس والروح ، وتحقق العدل والسلام .

طلب ثواب الآخرة أولى

يقول الله تعالى :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

(٥٥٨)

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت الآية في مشركى العرب ، والمنافقين ، وذلك أنهم كانوا يؤمنون بالله خالقا ، رازقا ، ويعبدون غيره ، ولا يؤمنون باليوم الآخر فكانوا يأملون في ثواب الدنيا فقط ، وكان المنافقون يجاهدون مع رسول الله طلبا للغنيمة الدنيوية فنزلت الآية لتبين سوء هذا الصنيع^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآية السابقة أن قدرة الله شاملة ، فلو أراد أن يذهبكم أيها الناس لفعل ذلك بقدرته جاءت هذه الآية لبيان أن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة ليؤمن به الناس ، ويرجوا الخير عنده ، ولا يقصر عملهم على أعراض الدنيا مثل المنافقين والكافرين

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أن المنافقين والمشركين يرجون ثواب الدنيا ، ولا يؤمنون بالآخرة ، وتوضح لهم ولغيرهم أن ثواب الآخرة أفضل لأن من استحق ثواب الآخرة ، فاستحقاقه لثواب الدنيا أولى ، وكلاهما من عند الله تعالى .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ أى من أرادوا بعملهم عرضا من أعراض الدنيا ، مقرين أن الله خلقهم ، وأنه سيرزقهم في الدنيا ، ويرجون بعملهم وطاعتهم عاجل الدنيا ، ولا ينتظرون شيئا في الآخرة لأنهم لا يؤمنون بها كما في سبب النزول .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٠٩ .

﴿ فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أى أن الذين يطلبون بعملهم في

الدنيا عرضا من أعراضها مخطئون في قصدهم ، ضالون في عملهم ، لأن الله عنده ثواب الدنيا وثواب الآخرة ، فلو كانوا عقلاء فاهمين لطلبوا ثواب الآخرة حتى يحصل لهم ذلك ، ويحصل لهم ثواب الدنيا على سبيل التبعية ، لأن العمل الذى يرجو الآخرة مرتبط بالإيمان الصادق ، والعمل الصالح ، والخير العام الشامل للأقوال والأفعال ، ومن ارتبط بذلك حصل على ثواب الآخرة والدنيا معا ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أى أن الله تعالى سميع للأقوال ، بصير

بالنوايا والقلوب والأعمال ، عليم بمن يعمل للدنيا فقط ، وبمن يعمل للدنيا والآخرة معا ، وسيحاسب الجميع بنياتهم وعملهم بدقة كاملة ، وعدل تام .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن من أراد بعمله وجه الله وثواب الآخرة فعند الله ثواب الدنيا والآخرة يؤتيه لمن يستحقه ... ومن أراد بعمله عرضا من أعراض الدنيا قد يؤتيه الله منها ، ولا شئ له في الآخرة ، وربما كان عمله وبالا عليه .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى

العمل للآخرة هو الحكمة العاقلة

يجد الإنسان في الدنيا نفسه أمام طريقين :

طريق يشبع الشهوات ، ويجرى وراء الملذات ... ويتصور أن الإيمان والتكاليف تحرمه كثيرا من رغباته ، وملذاته ... ولذلك فأصحاب هذا الطريق لا يرجون ثوابا في الآخرة آمنوا بها ، أو لم يؤمنوا .

(٥٦٠)

والطريق الثانى : يحدد المسار العملى الدينى ، ويجعل المنطلق من الله تعالى ، ولذلك فأصحاب هذا الطريق يملأون قلوبهم بالإيمان ، ويعملون بشرع الله ، ويجعلون عملهم وقولهم وخلقهم سلما يصلهم بالآخرة وجنات النعيم .
وحين يتساءل العقل : **أى الطريقين خير مقاما ، وأهدى ؟**

ويجيب العقل نفسه ، ويرى أن الطريق الثانى هو الحق ، لأن صاحبه يعيش راضيا بنفسه وعمله ، فهو يشبع باطنه بالحق ، ويرضى عمله بالسلوك القويم ، وكل ما يلجه أصحاب الطريق الأول يلجه هو بعد ربطه بتعاليم الله تعالى ... إنه يشبع كافة الشهوات ، فيتزوج ويأكل ، ويلبس ، ويتزين ، ويلعب ويمرح ... ويعيش سعيدا في دنياه ، وفى نفس الوقت يعمل لأخراه ، ويفوز بالجنة وبذلك فهو الطريق الأفضل .

أما الطريق الأول فصاحبه لا يشبع مهما نال ، ودائما يشعر بقلّة ما حصل له ، ويعادى ، ويعتدى ، ولا يحكمه قانون عادل ، ولا يلتزم بخلق قويم هذا في الدنيا ، ولا نصيب له في الآخرة .
إن الذى يعمل للآخرة في الدنيا ينال سعادة الدنيا والآخرة ، أما الذى يعمل للدنيا فقط يضيع الآخرة ، ولا ينال الدنيا سعيدا بها أو راضيا عنها .
إن العمل للآخرة هو العمل السديد ، وهو الحكمة العاقلة .

العدل المطلوب في الإسلام

يقول الله تعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ
أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ؕ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا ؕ فَلَا تَتَّبِعُوا
أَهْوََىٰٓ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلُونَا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٦٥﴾

(٥٦١)

سبب نزول الآية

قال السدى : إن فقيرا وغنيا اختصما إلى رسول الله ﷺ فظن رسول الله أن الفقير لا يظلم الغنى . فنزلت هذه الآية للقيام بالقسط بين الغنى والفقير^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية أن العاقل هو الذى يعمل لينال ثواب الآخرة ليفوز بالدنيا والآخرة جاءت هذه الآية بأهم الأعمال التى تحقق ثواب الدنيا والآخرة ، وتتهى عن اتباع الهوى وعدم الميل في الحكم والقضاء .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أن العدل في الحكم ، والقيام بالقسط بين الناس أمر ضرورى مهما كان المخطئ ، لأن العدل أساس الملك ، وأساس سائر القيم ، وحساب الله دقيق وشديد ، وسيجازى بعلمه الواسع سائر الخلق بما يستحقون .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ النداء للتبنيه ، وتوجيهه إلى المؤمنين لحثهم على الطاعة وتنفيذ ما ينادون به ...
﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ أى تمسكوا بالعدل ، وكونوا قوامين له ، شاهدين بالحق لوجه الله تعالى ، وابتغاء مرضاته .
وابتداء النداء الأمر ﴿ كُونُوا ﴾ لبيان أن القيام بالعدل والحق واجب يلتزم به كل مسلم ، ويبنى عليه كيانه ، وكيان المجتمع كله .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٠٦ .

﴿ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى التزموا بشهادة الحق وأقروا بها ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم .

﴿ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ عطف على أنفسكم ، أى ولو كانت الشهادة على آبائكم ، أو أمهاتكم ، أو أقربائكم ، فلا محاباة في الشهادة والحكم بسبب القرابة ، والصحبة ... أو بغير ذلك .

﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أى إن كان الخصوم أغنياء أو فقراء فلا تتأثروا بأحوالهم ، لأن العدل فوق الأحوال ، والأغنياء والفقراء أمام الحق سواء ... وبعد العدل يستمر الأمر بيد الله تعالى فهو سبحانه يتولى أمر الفقراء والأغنياء جميعا ، فأمرهم وأمر الجميع إلى الله تعالى .

﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ والمراد بالهوى الميل النفسى ورغبة المتعة والشهوة أى فلا تتبعوا الميل النفسى ، ولا تتأثروا ببعض المظاهر حين القضاء ، واتقوا الله ، والتزموا بإقامة العدل حتى لا تتركوا الحق والعدل إلى الظلم والجور في الشهادة والقضاء .

﴿ وَإِنْ تَلَوَّأْ ﴾ يعنى أن الشاهد لا يصح له أن يلوى لسانه عن الحق ، ويوجهه إلى الباطل .

﴿ أَوْ تُعْرِضُوا ﴾ أى لا تعرضوا عن شهادة الحق بكتمانها ، أو إقامتها على غير حقيقتها .

ولى اللسان والإعراض عن الحق يشمل الشهود والقضاة والحكام ، وذلك بأن يحرف الشاهد شهادته ، ويبدل لها ، ويبعدها عن الصواب ... أو بأن يميل القضاة إلى أحد الخصمين دون الآخر ... أو يلوى الحكام عن مصالح الناس ويعدلوا عن الاستقامة ، ويفسدوا أمور العباد .

(٥٦٣)

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى عالم محيط بكل أعمال الناس ، وسيحاسبهم عليها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية نداء الله للمؤمنين ليقوموا العدل بين الناس ، ويحكموا بالقسطاس المستقيم ، لا يتأثروا بعوامل بشرية ، أو هوى نفسى ، أو ميل قلبى ، وتأمر بشهادة الحق ولو على النفس ، أو الآباء ، أو الأقارب ، أو بسبب الفقر والغنى ، فالله محيط بعباده ، عليم بهم ، وسيحاسبهم على عملهم في الآخرة ، ويجازيهم بها .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

العدل المطلق أساس النجاة

العدل أساس الملك ، وأساس إقامة حياة اجتماعية سليمة لأن الإنسان حين يشعر بصيانة حقوقه ، والمحافظة على كرامته يؤدي واجبه ، وهو راض بها ، نشط في القيام بما وجب عليه لنفسه ولغيره .

وقد توصل العلماء والمفكرون إلى تحديد حقوق الإنسان بصورة عامة ، وحددتها بحرية الإنسان في القول ، والاعتقاد ، والعمل ، والحركة في إطار لا يضر غيره ، ولا يعتدى على حقوق الآخرين .

وقد سبق الإسلام إلى المحافظة على كل هذه الحقوق ، ولم يصادر شيئا منها ، ونادى بملازمة العدل في التطبيق والقضاء ، وطلب من المؤمنين الالتزام

(٥٦٤)

بالحكم العادل ، والقضاء النزيه بلا تحيز لأحد ، ولا تأثر بقرابة ، أو سلطان ،
أو مال ...

إن العدل في الحكم والقضاء يضمن الحقوق ، ويصون الواجبات ،
ويجمع القلوب والأعمال ، ويؤدى إلى رفعة الأوطان .

الركيزة الثانية

تعزيز التحايل على الحق

تتنادى الآية بابتاع الحق ، وعدم اتباع الهوى ، وترك الحبل لاسقاط الحق
بالعدول عنه ، وإخفاء الشهادة ، ولى الكلمات وإبعادها عن دلالاتها ، فكل تلك
أمر حرمها الله ونهى عنها في الآية .

الدعوة إلى الإيمان الصحيح

يقول الله تعالى :

﴿ يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَأَلْكَتِبَ الَّذِي نَزَلَ عَلَى
رُسُلِهِ وَأَلْكَتِبَ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ .

- ١ -

سبب النزول

قال ابن عباس : نزلت في عبدالله بن سلام ، وأسد ، وأسيد ابني كعب
وثعلبة بن قيس ، وسلام ابن أخت عبدالله بن سلام ، وسلمة ابن أخيه ، ويامين
بن يامين فهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا نؤمن بك
، وبكتابك ، وبموسى ، وبالتوراة ، وعزير ، ونكفر بما سوى ذلك من الكتب

(٥٦٥)

والرسل ، فقال لهم النبي ﷺ : "بل آمنوا بالله وبرسوله محمد وبالقُرآن وبكل كتاب كان قبله" . فأنزل الله هذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما أمرت الآية السابقة بوجوب التزام العدل جاءت هذه الآية بوجوب الإيمان بسائر أركان الإيمان .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين أركان الإيمان التي يجب الإيمان بها ، وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر بما فيه من مواقف ومصير .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا﴾ ينادى الله المؤمنين ، ويأمرهم بالإيمان ...

ولكن من المراد بهم ؟ ...

وما المراد بالإيمان الذى يأمرهم به ؟ ...

ذكر المفسرون أقوالاً فى المراد بهم :

– فقال البعض : فهو خطاب لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام وكتابينهما ، فجاء الأمر إليهم ليؤمنوا بمحمد ﷺ وبالقُرآن الكريم .

– وقال البعض : هو خطاب للمنافقين الذين أظهروا الإيمان ، فقد ناداهم الله بظاهرهم ، وأمرهم أن يؤمنوا إيماناً صادقاً مشتملاً على صدق النية وموافقة الباطن للظاهر المعلن.

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦١٠ .

— وقال البعض : هو خطاب المؤمنين الصادقين ، وأمرهم بالإيمان يعنى استمرارهم عليه فهو الحق والصواب .

— وقال البعض : هو نداء لكل مؤمن بدين من أديان الله تعالى ليكملوا إيمانهم ، ويؤمنوا بالإسلام إيماناً حقيقياً ، وبذلك يؤمنون بالله ، وبسائر رسله للناس .

ولا مانع من اشتغال الآية لكل هذه الأقوال حيث لا تتناقض بينها .

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى آمنوا بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ
وبالقرآن الكريم الذى أنزله على محمد ﷺ وأى كتاب نزل قبل محمد ﷺ على
رسول من رسل الله تعالى .

وانما ذكر "الكتاب" مفرداً ليشمل جنس الكتاب ، ويشمل سائر الكتب السابقة ، ومن المعلوم أن الإيمان بالكتب يعنى الإيمان بالرسول ، والملائكة وبجوانب العقيدة ، والشريعة ، والخلق فهى مذكورة فى هذه الكتب المنزلة .

﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أى أن من يكفر بواحد من هذه الأمور المذكورة فقد ضل ، وكفر ، وزاد ضلاله وكفره .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية نداء الله للمؤمنين من أهل الكتاب ومن غيرهم ومن يرون الإيمان مظهراً لا مخبر له ، هؤلاء جميعاً يناديهم الله تعالى ويأمرهم بأن يؤمنوا بالله وبمحمد ﷺ وبالقرآن الكريم إيماناً يشمل القلب واللسان والجوارح وبينى

(٥٦٧)

الإنسان بمنهج الله ويأمرهم كذلك بالإيمان بسائر الرسل وأديانهم وكتبهم لأن من يكفر بركن من أركان الدين فهو ضال بعيد عن رحمة الله تعالى .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية مواصلة الدعوة والتذكير

المؤمنون أناس صفت قلوبهم ، وهداهم الله للحق ، فأمنوا بالله ، واستقاموا على الطريق ، ومع ذلك يذكرهم الله بما آمنوا به حتى لا يغلبهم النسيان ، أو يضلهم الشيطان ، أو يجرحهم الفاسدون إلى الضلال ... فهم يؤمنون ومع ذلك يدعوهم الله إلى الإيمان بالله ، ورسوله ، وبالقُرآن الكريم ، وسائر الكتب التي نزلت .

ومن هنا ...

ندرك ضرورة مداومة الدعوة إلى الله تعالى ، والتذكير بالحق ، للمحافظة على إيمان المؤمنين ، وتقوية تدينهم وتذكيرهم بالحق ليبقى صوت الحق عاليا ، ولإثبات قوة الحق أمام وهن الشبه والفساد ، ومزاعم المنافقين والمشركين ، ودعوة سائر الناس إلى الإسلام فقد نزل الإسلام للناس أجمعين .

إن الله تعالى يخاطب الإنسان ، وهو عليم بخصائصه ، ولذلك كانت دعوة المؤمن إلى الإيمان ليبقى العقل في الإنسان هو القوة الحاكمة للشهوات والغرائز ، والمحافظة على التوازن في الحياة الإنسانية ... فحين سيطرة العقل تقوى الروح بالإيمان ، وتشبع الشهوات بالعمل المشروع ، وتظهر الأخلاق بالإحسان ، والتقوى ، والسلام .

(٥٦٨)

ومن عظمة الإسلام أن الإسلام يشمل كل حاجات الناس في ماضيهم ، وحاضرهم ، ومستقبلهم .
وبذلك تكون الدعوة رسماً للطريق المستقيم .

الركيزة الثانية

المؤمن مصدق بالحق كله

يصدق المؤمن بالحق كله ، ولذلك فهو يؤمن بسائر الرسل ، وكتبهم ، وعقائدهم ، وبعض قصصهم ليستفيد منه المؤمنون .
ومن عظمة الإسلام تصديقه بسائر الرسل التي أرسلهم الله للناس ، وذلك لأن الشهادة بحق الآخرين دليل على حق الشاهد في ذات نفسه .
ومن عظمة الإسلام أنه شهد للرسل جميعاً بالصدق ، وعرف بأممهم ، وقصصهم ، ولولاه لغاب كثير منهم .
يجب على المسلم أن يكون مخلصاً ، صادقاً ملتزماً داعياً إلى الصراط المستقيم .

تحريم التلاعب بالأديان

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

قال ابن عباس : نزلت في اليهود آمنوا بموسى ، ثم كفروا بعبادتهم العجل ثم بعد ذلك كفروا بعبادته عيسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن .

(٥٦٩)

وقيل : إنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعده ، ثم آمنوا بدادود ثم كفروا بعبسى ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ .

وقيل : نزلت في المنافقين وذلك أنهم آمنوا ثم كفروا بعد الإيمان ثم آمنوا يعني بالسنتهم وهو إظهارهم الإيمان لتجري عليهم أحكام المؤمنين ثم ازدادوا كفرا يعني بموتهم على الكفر ، وبذنوب أحدثوها في الكفر .

وقيل : هم قوم آمنوا ثم ارتدوا إلى الكفر ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا يعني بموتهم عليه^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن من يكفر بركن من أركان الإيمان فهو كافر بالجميع ، ضال موغل في الضلال ، جاءت هذه لتبين أن من الكفر التلاعب في الدين بالإيمان ثم بالكفر ... وهكذا ، فجزاء من يفعل ذلك أليم ، ومآله إلى جهنم وبئس المصير .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين أن من يتابع الكفر بالإيمان ويكرر ذلك عابث لا يغفر الله له ولا يهديه للحق أبدا .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا﴾

أى أن من آمن برسول ثم كفر بدعوته ثم آمن برسول بعده ثم كفر ، وكرر ذلك لا يغفر الله له ... وذلك كما فعل اليهود ، فقد آمنوا بموسى ثم عبدوا

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦١١ .

(٥٧٠)

العجل ، ثم آمنوا بموسى بعده ، وكفروا مرة أخرى ، وآمنوا بدّاود عليه السلام ثم كفروا بعبسى عليه السلام ثم ازدادوا كفرا بمحمد عليه السلام ، وكما فعل المنافقون فقد آمنوا ظاهرا وكفروا باطنا فإن قابلوا مؤمنا أعلنوا إيمانهم ، وان قابلوا كافرا أعلنوا كفرهم ... وكما يفعل الناس الذين يكررون الكفر بعد الإيمان فهم مستهزئون بالإيمان ، متلاعبون بالدين ، ولذلك كان حد الردة لمن يرتد عن الإسلام .

﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ ﴾ أى لا يغفر الله لمن يفعل ذلك لأن تكرار الكفر بعد الإيمان يدل على أن الإيمان لم يستقر في قلبه ، وعلى شكه في الإيمان ، وتلاعبه بالدين واستهزائه بالوحى .

﴿ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ أى لا يوقفهم للخير ، ولا يهديهم للفوز والفلاح

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن من يؤمن ثم يكفر ، ثم يؤمن ثم يكفر وهكذا في إطار دين واحد ، أو ينتقل بين عدد من الأديان يستهزئ بالدين كله ، ولذلك لا يغفر الله له ولا يوقفه ، ولا يهديه للخير أبدا ، ويستحق ما شرع الله في حكمه عليه .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

بيان عبث المرتد عن الدين

الإيمان قائم على الاقتناع والاختيار الحر ابتداء ، ولذلك كانت الدعوة خطابا للعقل ، ومنهجها شاملا لتقديم الإسلام كله .

حين تبدأ الدعوة بإقناع العقل ، ودعوته إلى التصديق ، وتقدم له الأدلة بمختلف الآيات والبراهين ، وتبين أن الإيمان يتضمن القلب والعمل والسلوك .

(٥٧١)

وبعد التصديق العقلى تتادى بالالتزام الشرعى في العمل والخلق لضرورة ملازمته للاقتناع العقلى ، لأن الثقة العقلية تؤدى إلى الطاعة العملية بالضرورة ، شأن المريض يطيع من يداويه فيما يحدده له . وبالتصديق والعمل يتم الإيمان ، ويصير المؤمن منارة للآخرين ، ويصير اقتناعه إقناعا لهم .

ومن هنا ...

حرم الله ردة المؤمن ، وشرع للردة حدا ...
وقد يتصور البعض أن حد الردة مناقض للحرية ، وهذا تصور مردود إن الإسلام يرفض العبث ، ويحرم إلحاق الضرر بالآخر ، ومادام الإنسان أخذ حقه في الحرية ابتداء ، ولم يحدث له إكراه أو ضغط ، فليس له أن يتخذ الدين لعبا ، ولهوا ، وعبثا .
وليس له أن يضر الآخرين ويتهمهم بالضلال والفساد بالآخرين ويضر دينهم .
إن المرتد يعلن بلسان رده أن ما كان فيه هو الباطل ، وأنه عاد للحق ومن هنا يكون الإضرار والإفساد .
إن منطق الدين يلتقى مع مفهوم العقل في منع الإنسان من عمل يضر به غيره .

فالسارق يضر ، وشارب الخمر يضر ، والزانى يضر ، والمرتد يضر .
وواجب لمنع هذا الضرر تحديد عقوبة له .
ولا جدال في إضرار المرتد للدين وأهله ، فهو يضر الدين بزعم بطلانه ، ويضر المؤمنين باتهام عقيدتهم ، وإلحاق الأذى بحياتهم ، وتصور سوء تفكيرهم ، وعدم فهمهم ، وبعدهم عن الصواب .
وان كان الحد هو جزاء المرتد في الدنيا ، فإن جزاءهم في الآخرة أخزى وأنكى ، فهم محرومون من مغفرة الله تعالى ومحرومون من الهداية لصراط الله المستقيم .

(٥٧٢)

بيان عاقبة المنافقين

يقول الله تعالى :

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن المنافق يؤمن ثم يكفر ثم يؤمن ثم يكفر ، ويستمر هكذا لن يغفر الله له جاءت هذه الآية لتبين ما أعد الله للمنافقين من عذاب أليم .

- ٢ -

موضوع الآية

تتناول الآية بيان ما أعد الله للمنافقين من عذاب أليم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ ﴾ التبشير يكون بالأمر السارة ، واستعمل هنا "بشر"

مكان "أخبر" تهكما بهم . والمعنى : أخبر يا محمد هؤلاء المنافقين .

﴿ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يلقونه في الآخرة أعد الله لهم بصورة مؤكدة

، ولذا كان تأكيد بـ"إن" ، وتقدم الجار والمجرور ﴿ لَهُمْ ﴾ لبيان أن هذا العذاب

أعد الله للمنافقين خاصة .

وذكر ﴿ عَذَابًا ﴾ نكرة ووصفه بـ ﴿ أَلِيمًا ﴾ لبيان تنوعه وشدة ألمه ، لا

يعلم قدره إلا الله سبحانه وتعالى .

(٥٧٣)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

بيان هوان المنافقين

لا قيمة للمنافق في ميزان الله تعالى ، فقد خان نفسه ، ودينه ، وسائر من يتعامل معهم ، ولذلك يستهزئ الله به ، ويخاطبه ، وينذره بأسلوب يدل على هذا الاستهزاء .

وقد أعد الله للمنافقين عذابا أليما في جهنم وبئس المصير .

أهم صفات المنافقين

بعد أن بينت الآية السابقة العقوبة التي أعدها الله للمنافقين أخذت الآيات بعد ذلك في بيان أهم صفات المنافقين الخاصة ، وقد سبق بيان بعض الصفات التي يشتركون فيها مع الكفار ... وهي :

- (١) أنهم يعملون لينالوا أعراض الدنيا ولا يعملون للآخرة شيئا .
 - (٢) الجور والميل في الحكم ، والتعصب لذويهم واتباعهم .
 - (٣) تجزئة الإيمان فيؤمنون ببعض الرسل دون بعض ، والإيمان ببعض الكتب دون بعض آخر .
 - (٤) التلاعب بالدين فيكررون الكفر بعد الإيمان كأنهم في ملهى يلعبون .
- وهنا ...

تبدأ الآيات من الآية رقم (١٣٨) إلى الآية رقم (١٤٣) في ذكر بعض الصفات التي اختص بها المنافقون ، وتناقشهم وتبين خطاهم ، وإنى هنا استعرضها آية آية لمناقشة المنافقين في صفاتهم بنفس المنهج الذي سلكته في التفسير .

(٥٧٤)

الصفة الأولى للمنافقين اتخاذ الكافرين أولياء

يقول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيْتَنُورُ
عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية ما قبلها

بعد أن وضحت الآية السابقة مصير المنافقين جاءت هذه الآية لتوضح
صفة للمنافقين التي استحقوا بسببها العذاب ، وتناقشهم فيها ، وتبين ضلالهم .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن المنافقين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، وليس
عند الكافرين ما يفيدونهم به ، لأن الحول والطول كله لله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية تتحدث
عن ولاء المنافقين ، والمراد باسم الموصول ﴿ الَّذِينَ ﴾ المنافقين ، والصلة هي
صفتهم ، وهي اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، فحديثهم عن الإسلام
مع المؤمنين قول كاذب ، وقولهم للكافرين : إنا معكم تعبير صحيح في قلوبهم
فقد اتخذوا الكافرين أولياء ينصرونهم ويستنصرون بهم ، ولا يفعلون ذلك مع
المؤمنين ، ويقولون للكافرين : إنا معكم إنما نحن مستهزئون بالمؤمنين .

والله ينكر عليهم هذه الصفة ، ويبين سبب لجوئهم إليها في قوله تعالى :
﴿ أَيْتَغُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ ﴾ ؟ ... والسؤال للإنكار ، وفيه ينكر الله على
المنافقين طلبهم الغلبة ، والظهور ، والعون ، والقوة من اليهود لظنهم أن محمدا
لن يتم أمره ، ولن يعيش دينه .

وهذا سوء فهم وتقدير من المنافقين للحقيقة فإن محمدا ﷺ عبد الله
ورسوله وقد أيده الله بالمعجزات الباهرة ، وأنزل عليه القرآن الكريم بما يشمل من
معجزات عديدة ، ودائمة .

وقد ظهر سوء فهمهم لبعدهم عن الحقيقة الثابتة .

﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أى أن القوة ، والغلبة ، والنصر بيد الله تعالى
وهو الذى ينصر أوليائه ، ويحفظ دينه ، ويتم لمحمد ﷺ أمره ، ويهزم أعداءه
وقد أخبر سبحانه بذلك .

فقال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

وقال سبحانه عن المؤمنين : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴾ ^(٢) .

وقال عن المنافقين وأمثالهم : ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ
اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا ﴾ ^(٣) .

وأشار سبحانه إلى خسرانهم فقال سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ
أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

(٢) سورة المجادلة ، الآية ٢٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١١٩ .

(٥٧٦)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن المنافقين يتخذون الكافرين أولياء ظنا منهم أن القوة والغلبة فيهم ، ومنهم ، ويعادون المؤمنين لذلك ، ويستهزئ الله بهم لضلالهم ، وينكر عليهم متسائلا : أتقصدون القوة والنصر من اليهود الذين لا يملكون شيئا لأنفسهم ، لأن الله هو القوى العزيز ، ينصر أوليائه ، وينصر دينه والمؤمنين ، ويمكن لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

خيبة موقف المنافقين

الإنسان بصورة عامة يتمنى لنفسه المصلحة ، وكسب ما يريد ، وفق مرئياته ، ولكل طريقه ومنهجه ، والمنافقون فريق من الناس ضلوا الطريق ، وبعدوا عن هداية الله تعالى ... لأنهم علموا الإسلام ، وبلغتهم الدعوة على وجهها الصحيح ... ومع ذلك لم يستفيدوا بهذا العلم بل جرهم النفاق إلى الضياع والسقوط .

حاول المنافقون أن يلجأوا إلى قوة ينتصرون بها ، ووجدوا أنفسهم أمام طريقين :

طريق يصلهم بالله تعالى ، ويدعوهم إلى الصدق في الإيمان ، والإخلاص في طاعة الله تعالى .

وطريق آخر يدفعهم إلى الانحياز للكفار ، والتودد معهم ، ويبتعدون عن المؤمنين ، وينافقونهم في الظاهر ظنا منهم إن خداعهم لن يدركه أحد . وموقف المنافقين في النهاية يؤكد اختيارهم الميل إلى الكفار ، ومعاداة المؤمنين .
وهنا ...

ينكر الله عليهم هذا النفاق ، ويسألهم منكرًا : هل تطلبون القوة ، والظهور من مودة الكفار ، ومخالفة الله ؟ ويبين لهم أن هذا ضلال مبين .

الركيزة الثانية

الإيمان تعظيم لله تعالى

الإيمان بالله تعالى هو أساس الدين ، فتوحيده سبحانه وتعالى واليقين بصفاته جميعا يؤدي إلى طاعته عمليا وخلقيا .
إن الله هو الخالق ، الرازق ، المعطي ، الرحيم ، الودود . فهو سبحانه صاحب الفضل ، واليه يرجع الأمر كله .
إن المؤمن يعلم أن العزة لله تعالى ، وبيده النصر ، والعطاء ، ولذلك يحبه ، ويوقره ، ويجله ، ويطيعه ، ويدعوه ليحقق له الفوز في الدنيا والآخرة .
إن المؤمن يعيش حياته لله ، ولا يرجو سواه ، ولا يخاف إلا منه ، وليس له طريق إلا الاستقامة والطاعة .

إن المسلم بقلبه ، وقوله ، عمله ، وأحواله ينطق بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦١﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٢﴾ ۝ (١)

(١) سورة الأنعام ، من الآية ١٦١ : ١٦٣ .

الركيزة الثالثة **حسن الحوار فى الدعوة إلى الله تعالى**

تقوم الدعوة إلى الإسلام على تحديد المعنى ، وحسن عرض الإسلام ... والآية تقدم هذه المنهجية في المعنى والأسلوب حيث عرفت بالله وصفاته سبحانه وتعالى .

وأسلوب عرض القضية واضح فهو كما يلى :

أولاً : تبدأ الآية بعرض الموضوع وهو اتخاذ المنافقين الكافرين أولياء من دون المؤمنين .

ثانياً : توجه الآية سؤالاً للمنافقين لمعرفة سبب توجيههم ، ويتضمن السؤال بيان خيبة المنافقين ، وإظهار ما هم فيه من ضلال ، وعساهم يرجعون أنفسهم .

ثالثاً : تنتهى الآية بعرض الحقيقة التى غابت عن المنافقين وهى أن العزة لله رب العالمين .

وهكذا يكون منهج التعريف بالدعوة الإسلامية ، القائم على توضيح الموضوع المثار ، ومناقشته ، وتحليل الدليل للوصول في النهاية إلى الحق والصواب .

ويجب أن يتخذ الدعاة هذه المنهجية في سائر كلماتهم حيث المقدمة الموجزة تتضمن إشارة للموضوع ، وبعد المقدمة يأتى الموضوع وأدلتة ، ومناقشة جوانبه ، ورد الشبه المثارة والمحتملة حوله .

وفى النهاية تكون الخاتمة الموجزة المتضمنة الدعوة إلى ما جاء في كلمة الداعية .

الصفة الثانية للمنافقين الاستهزاء بآيات الله

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (١)

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة صفة من صفات المنافقين ، وناقشتها جاءت هذه الآية بصفة أخرى للمنافقين لعرضها ، وردّها ، وواجب المؤمنين حيالها .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن المنافقين يكفرون بآيات الله ، ويستهزئون بها ، وتوضح للمؤمنين عملهم إذا رأوا ذلك من المنافقين ، وهو الإنكار عليهم ، ومقاطعتهم وعدم مجالستهم حتى لا يكونوا مثلهم ، ومشاركين لجريمتهم بالصمت والرضى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ والخطاب للمؤمنين ، وفيه يخبرهم الله بما نزل عليهم قبل ذلك في القرآن الكريم خاصا بمعاملة من يستهزئ بالقرآن الكريم ، ويكفر به من المنافقين والمشركين وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) ، وقد

(١) سورة الأنعام ، الآية ٦٨ .

نزلت الآية في مكة قبل الهجرة حين كان المشركون في مكة يخوضون في القرآن الكريم ، ويستهنئون به في مجالسهم ، ويقولون عنه ما حكاه الله عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ (١) ... فلما هاجر رسول الله ﷺ نحا اليهود منحى أهل مكة ، واستهزأوا بالقرآن الكريم مثل فعل أهل مكة ، وكان المنافقون في المدينة يجلسون مع اليهود ، ويخوضون معهم في الاستهزاء بالقرآن الكريم . فأمر الله المؤمنين بتجنبهم ، والبعد عنهم ، وذكرهم بالحكم الذي نزل عليهم في مكة وأعادهم عليهم وهو قوله تعالى .

﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ﴾
أى لا تجالسوا أيها المؤمنون المنافقين وغيرهم إذا سمعتموهم يستهزئون بآيات القرآن الكريم ، وهو استهزاء لا حقيقة فيه لأنه ناشئ من كفرهم ، وجرمهم ، وضلالهم ، ولذلك حرم الله القعود معهم خلال استهزائهم .

﴿ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ حتى يتخذوا حديثاً آخر غير الاستهزاء ... وحتى للغاية والآية تؤكد على عدم القعود مع المنافقين حتى تتحقق للغاية وهى ترك الاستهزاء بالقرآن الكريم .

﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ﴾ أى إن جلستم مع المنافقين خلال استهزائهم فأنتم عصاة مثلهم ولو أنكرتموها بقلوبكم ، لأن الجلوس في هذا المجلس معصية في حد ذاته ، وتأثمون مثلهم بجلوسكم معهم .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤ ، ٥ .

والمثلية ليست تامة . فالمنافق باستهزائه بالقرآن الكريم كافر ، وجلس المؤمن معصية ... إلا أن المؤمن إن رضى بالاستهزاء فهو ضال مثل المنافقين .

قال العلماء : وهذا يدل على أن من رضى بالكفر فهو كافر ومن رضى بمنكر ، أو خالط أهله كان في الإثم بمنزلتهم إذا رضى به وإن لم يباشره ، فإن جلس إليهم ، ولم يرض بفعلهم بل كان ساخطا له وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر فيه أهون من المجالسة مع الرضا ، وإن جلس مع صاحب بدعة أو منكر ولم يخض في بدعته أو منكره فمن الأولى أن لا يجالسه^(١) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ أى أن الله تعالى سيعاقب الناس من جنس عملهم فكما أن المنافقين والكافرين اجتمعوا على الاستهزاء بالقرآن الكريم في الدنيا فسوف يجمعهم في جهنم يعذبون في نارها وجحيمها .

- ٤ -

معنى الآية

ينبه الله المؤمنين إلى قضية هامة وهى عدم الجلوس مع المنافقين وهم يستهزئون بالقرآن الكريم حتى لا يكونوا مثلهم في الإثم ، فإن أخذوا في كلام آخر خال من الهزء والعدوان فجالسهم ... وليعلم المنافقون أن الله سيجمع المنافقين والكافرين في جهنم كما اجتمعوا على الاستهزاء بالقرآن الكريم في الدنيا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

تجنب المصادمة مع المدعويين

دعوة الناس إلى الإسلام تحتاج إلى حسن مخاطبة الناس ، وعدم التصادم معهم

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦١٢ .

ومن حسن عرض الإسلام البعد عن معاشرة أعداء الإسلام ، ولذلك وجب عدم التصادم مع المدعويين ، ولا يصح البدء بالسب والتضليل ، والأولى استعمال أسلوب القرب من الناس ، لأن العداوة تجلب العداوة ، والمخاصمة لا تؤدي إلى وفاق . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ﴾^(١) . والآية واضحة الدلالة لأن كل أمة معجبة بنفسها ، ويعملها ، وتكون راضية بما هي فيه ... ولذلك لا يصح لعن ما هي فيه ، وسب ما آمنت به لأن ردهم سيكون لعنا وسبا .

وأیضا لابد من مقاطعة كل إنسان يستهزئ بدين الله تعالى ، ويتكلم بسوء عن آيات الله تعالى وعن القرآن الكريم .

إن عرض الإسلام على الناس يحتاج إلى تخير الطرف المناسب زمانا ومكانا ليتمكن الدعاة من شرح الإسلام ، وتبليغه على الوجه المطلوب .

ولابد للدعاة أن يحسنوا عرض الإسلام ، وهذا لا يتأتى لهم إلا بالدراسات النفسية ، والاجتماعية ، والإعلامية ليتقنوا فن إعداد الرسالة الدعوية ، وترتيب عناصرها ، ومناقشاتها ، وتوجيهها نحو الموضوع الذي تعالجه .

الركيزة الثانية

ضرورة المخالفة بين المؤمنين والمنافقين

يختلف المؤمن عن المنافق اختلافا كليا ، ولذلك وجب أن يبتعد المؤمنون عن المنافقين في ضلالهم ، وفسادهم ، ومقاطعتهم حين يعتدون على دين الله تعالى .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٨ .

(٥٨٣)

ويظهر التحذير بوضوح حين تبين الآية أن المؤمنين إذا قعدوا مع المنافقين ، ورضوا باستهزائهم يكونون مثلهم في عقوبة الله ، بل تزداد عقوبتهم عنهم لأنهم سيعاقبون مرتين ، مرة بموافقتهم ، ومرة بالرضى عن استهزائهم بالقرآن الكريم .

ويتأكد التحذير ببيان أن المنافقين والكافرين في جهنم لاشتراكهم في الضلال ، ومعصية الله تعالى .

وينجو المؤمن عن مصير المنافقين بطاعة الله تعالى ، والاستقامة على تعاليم الوحي التي نزل بها جبريل عليه السلام .

ويحتاج الدعاة إلى التميز عن غيرهم ، وبخاصة عن المنافقين وأشباههم لينجحوا في رسالتهم .

إن المدعويين يأخذون من الداعية قوله وعمله ، ولذلك كانت ضرورة تميزه في الخلق والعمل ، وابتعاده عن مجالسه المنافقين وأعداء الله تعالى .

الصفة الثالثة

التربص وسرقة النصر

يقول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوَذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ فَاللَّهُ سَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَنُجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۝١١١﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

الآية متصلة بما قبلها لأنها تعدد صفات المنافقين .

(٥٨٤)

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية خلق المنافقين ، وتعمق الانتهازية فيهم ، فهم يتربصون بالمؤمنين فإن انتصروا وغنموا حاولوا مشاركتهم في الغنيمة بدعوى انهم كانوا معهم ، وان انهزم المسلمون قالوا للكفار كنا تدافع عنكم ضد المؤمنين ، ولم نقصدكم بالرمح ، وتوضح أن الحكم لله العليم الخبير ، وهو الحكم العدل في الدنيا والآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ﴾ اسم الموصول يعود إلى المنافقين الذين ينتظرون نتائج جهادكم وعملكم ليتخذوا لأنفسهم موقفا .

﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ ﴾ أى إن فتح الله لكم ونصركم ، وغنمتم جاء المنافقون يطلبون جزءا من الغنيمة قائلين : لقد كنا معكم .

﴿ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى وإن انتصر الكفار ، وكان لهم نصيب من النصر ، أتاها المنافقون قائلين : ألم نسيطر عليكم أثناء المعركة وكان يمكننا ضربكم وقتلكم لكننا حافظنا عليكم ، ومنعنا المسلمين من قتلكم ، وخوفناهم حتى انهزموا ، وسمى الله تعالى انتصار المسلمين فتحا ، وانتصار الكفار نصيبا تعظيما لشأن المؤمنين وتخسيسا لحظ الكافرين لأن ظفر المؤمنين أمر عظيم ، تفتح له أبواب السماء حتى ينزل النصر على المسلمين ، وأما ظفر الكفار فما هو إلا حظ دنئ ونصيب خسيس لا يبقى منه إلا ما نالوه ولهم في الآخرة العقوبة الشديدة على ذلك النصيب الذي نالوه من المسلمين^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦١٢ .

﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ يعنى أن الله يحكم بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة ... وانما أخر الله الحكم على المنافقين إلى يوم القيامة تقديرا لظاهرهم الناطق بإسلامهم ، وفى يوم القيامة تتجلى الحقيقة ولا مجال لنفاق في هذا اليوم .

﴿ وَلَنْ تَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ أى أن المؤمن سيعلو شأنه ، ولن يعلو عليه الكافر في الدنيا وفى الآخرة .
وما نراه اليوم من علو غير المؤمنين وضعف المؤمنين ، فهو علو مادی أما العقيدة والشریعة والحق فهو ثابت مع المؤمنين ، ولن يحجم أحد ، وستبقى دولة الإيمان إلى يوم القيامة .
والآية حث للمؤمنين على التمسك بالدين ، واتباع الحق ، والإخلاص في العمل والعطاء حتى لا يغلبهم عدوهم ، ويعلو عليهم .

- ٤ -

معنى الآية

الآية تبين أن المنافقين يتصفون بالانتهازية فهم ينتظرون نتيجة الحرب بين المسلمين والكافرين فإن انتصر المسلمون جاءوهم للمشاركة في الغنيمة وان انتصر الكفار جاءوهم بدعوى أنهم كانوا حماة لهم أثناء القتال ، فلم يقتلوا ولم يأسروا ، وكانوا عامل ضعف وتخذيّل للمؤمنين .
وهذا كلام يحكم الله فيه يوم القيامة ، وتبين الآية أن المؤمنين أعلى وأعظم من غيرهم بقدرة الله تعالى

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

الانتهازية خلق لا يرضاه الإسلام

الانتهازية خلق سئ ، ومعناها استغلال نجاح الغير ، وادعاء قيام المنتهز

(٥٨٦)

به ، وهذا الخلق يقوم على الكذب ، والخداع ، ونشر الفساد والعدوان .
إن الانتهازي إنسان منافق يرى القتال بين المسلمين وأعدائهم ، وينتظر
نتيجته ، فإن انتصر المسلمون ادعى انه كان معهم ويطالب بحقه في الغنيمة
وان انتصر الكفار ذهب إليهم وقال لهم : إني كنت آمل انتصاركم ، ولم أكن
صادقا في قتالكم ، ولم أسدد الرمي إليكم .
إن الانتهازي يحاول سرقة النصر من المجاهدين ، وينسبه لنفسه .
ويجب على المسلمين ان يتجنبوا هذا الخلق ، ويجعلوا أملهم في الله تعالى
، والصدق هو طريق الفوز والتمكين .

الصفة الرابعة

ضعف إيمانهم بالله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ
قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

الآية متصلة بما قبلها لأنها تقدم صفة من صفات المنافقين .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية صفة من صفات المنافقين فهم مخادعون ، كاذبون ، مراعون
لا يذكرون الله إلا قليلا ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى .

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ أى أن المنافقين

يعاملون الله ورسوله بطريقة مخادعة كاذبة ، فيظهرون الإسلام ويبطنون الكفر والخداع محاولة إفناع الغير بغير الحقيقة من حيث لا يدري ، والله يجازيهم في خداعهم فيملى لهم ، ويجازيهم على إفكهم وكذبهم يوم القيامة عذابا أليما .

وقيل : أن الله يعاملهم يوم القيامة بنفس أسلوبهم فيعطيه نوراً يوم القيامة ويعطى المؤمنين نوراً فيمضى المؤمنون بنورهم على الصراط ، وينطفئ نور المنافقين فيقعون في جهنم وقد تصوروا قرب نجاتهم .

وقيل : إن المعنى أن المنافقين يتصورون أنفسهم يخادعون الله في قولهم وعملهم ، والله يعاقبهم على خداعهم بعذاب أليم بعد أن تصوروا تمكنهم من الإقلاط بالخداع^(١) .

﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالٍ ﴾ أى وإذا قام المنافقون إلى

الصلاة قاموا متثاقلين في خمول وشعور لأنهم لا يقصدون بها وجه الله تعالى ولا يرجون ثوابها ، ولا يخافون شيئاً من تركها لضعف إيمانهم ، وعدم خوفهم من الله تعالى .

﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ أى أنهم يقومون بالصلاة للرياء والسمعة ، ولا

يقصدون بها وجه الله تعالى ، ولا يرون وجوب الإخلاص في إقامة الصلاة .

﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى وذكرهم الله قليل في كمه وكيفيته

فهو ثقيل عليهم ، ولا يرون في الذكر فائدة فيقولون منه ، وإذا ذكروا الله فلا

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦١٣ .

(٥٨٨)

اعتبار لذكرهم فهو قليل مهما كثر .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن المنافقين يخادعون الله تعالى ، ويكذبون ، ويظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، وسيجازيهم الله تعالى لأنهم مراعون لا يخلصون لله في عبادتهم ، ولا يذكرون الله إلا قليلا لا فائدة فيه .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

بيان أهم صفات المنافقين

تتكلم الآية عن ثلاث من صفات المنافقين تصور ضعف إيمانهم ... وهي :

(١) يخادعون الله في عملهم ، وعبادتهم بمعنى أنهم يحاولون إبراز إيمان لا وجود لهم ، والله يمهلهم .

(٢) يصلون وهم كسالى ، ولا يتأثرون بصلاتهم ، ولا يستفيدون بها .

(٣) مراعاة الناس ، والظهور بمظهر المؤمنين ، وهم ليسوا كذلك ، والله عليهم بهم .

(٤) ذكر الله بصورة قليلة خالية من الخشوع والخضوع .

وعلى المسلمين أن يبتعدوا عن صفات المنافقين حتى لا يكونوا مثلهم .

وأن يحيطوا بهذه الصفات ليعلموا أصحابها ، ويبتعدوا عنهم .

(٥٨٩)

الصفة الخامسة التردد بين الإيمان والكفر

يقول الله تعالى :

﴿ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَتُولَاءٍ وَلَا إِلَى هَتُولَاءٍ ۚ وَمَنْ يَضِلِ اللَّهُ فَلَـنْ
تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

الآية متصلة بما قبلها لأنها تتناول صفة من صفات المنافقين .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية صفة من صفات المنافقين ، وهى ترددهم وتحيرهم بين الإيمان
والكفر ، وبين المؤمنين والكافرين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أى أن المنافقين متحيرون مترددون بين الكفر
والإيمان لأنهم ليسوا مع المؤمنين المخلصين ، ولا مع المشركين المصرحين
بشركهم .

﴿ لَا إِلَى هَتُولَاءٍ وَلَا إِلَى هَتُولَاءٍ ﴾ أى لا هم ثابتون مع المؤمنين ، ولا
هم قائمون مع المشركين .

﴿ وَمَنْ يَضِلِ اللَّهُ فَلَـنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ أى ومن يضلّه الله لا يجد
طريقا للهدى فقد اسود قلبه ، وأغرقته الشهوات ، وعاش بين الفساد والسوء .

(٥٩٠)

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : "مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة"^(١) . فهو متحير متردد ، لا ثقة له في طريق ، ولا قدرة له على التمييز بين الحق والباطل ، ويعيش ضالا بعيدا عن الحق والصواب .

إن المنافق لا يعرف منهاجا ثابتا يتبعه ، ويعجز عقله عن معرفة الحق ، فهو إن لجأ إلى المؤمنين يتصور الحق مع غيرهم ، وإن لجأ إلى الكفار تصور الحق مع المؤمنين .

وهكذا يعيش مذبذبا ضالا .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية ان المنافقين متردون متحIRON فلاحم مع المؤمنين ، ولا هم مع المشركين فقد ضلوا السبيل فأضلهم الله تعالى ومن يضلله الله لا يهتدى .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تشير الآية إلى ركيزة هامة ... هي :

النفاق يناقض الاستقرار

يعيش المنافق مضطربا بين المبادئ والقيم بعدما ألغى عقله ، وهام بين التصورات ولم يصل لقرار يثبت ، وسبب ذلك أنه لم يعمل بعقله ، ولم يستفد بالآيات والبراهين من حوله ، فلا هو رضى بالإيمان ، ولا هو عاش في الكفر .

على الإنسان بصورة عامة أن يفكر ، ويتدبر في الآيات التي يعيشها ، لأن الله ميزه بالعقل ، ومكنه من الفهم ، وجعل العقل أساس التصور والعمل .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦١٤ .

وعلى الدعاة : مناقشة العقل في الإنسان ، وتقديم الأدلة الثابتة ليصل إلى حكم يرتضيه ، ومن المهم أن يتخذ كل إنسان موقفه بوضوح ، وسوف يتبين أن الإيمان الصحيح يوصله للثبات والأمن ، ويحقق له كل ما يرجوه .

إن العقل يؤدي إلى الحقيقة ، ولذلك خلق الله الإنسان به ... ولا يصح لعقل أن يرضى الاضطراب ويعيش بين المتناقضات .

ومن أفضل أدلة الخطاب لغير المسلمين مخاطبة العقل وامداده بالأدلة المبنوثة في النفس والحياة .

ولاية المؤمن للمؤمن

يقول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما ذم الله المنافقين وبين بعض صفاتهم جاءت هذه الآية لتنتهي المؤمنين عن الاتصاف بأهم صفات المنافقين في ولائهم وبرائتهم لأنهم يتخذون الكفار أولياء .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تنتهي المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، لأن ذلك يقيم الحجة عليهم ، ويضعهم في إطار عقوبة الله تعالى .

(٥٩٢)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ينادى الله المؤمنين ليوقظ همتهم ، وانتباههم ، ويذكرهم بإيمانهم الذى يدفعهم إلى الطاعة ، والاستسلام لله تعالى .

وفى هذا النداء ينهى الله المؤمنين عن تولى الكافرين من دون أهل ملتهم ، ودينهم حتى لا يكونوا مثل المنافقين الذين والوا الكافرين فاستحقوا العذاب .
وسبب هذا النهى أن الأنصار في المدينة كان لهم مع يهود بنى النضير وبنى قريظة علاقات حلف، ومودة، ورضاعة، وتجارة . فقالوا: يا رسول الله من نتولى ؟

فقال ﷺ : والوا المهاجرين ^(١) .

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ؟ ... أى أتريدون

أيها المؤمنون أن تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، وبذلك تجعلون لله تعالى عليكم حجة بينة ، وتستحقون عذاب جهنم ، وبئس المصير .
والاستفهام للإلزام ليعلم المؤمنون قبح هذا الفعل فيبتعدون عنه .

- ٤ -

معنى الآية

تتهى الآية المؤمنين عن اتخاذ اليهود أولياء من دون المؤمنين ، وعدم التأثير بالصلات السابقة معهم ، لأن موالة الكافرين ، وترك المؤمنين يؤدي بهم إلى عقوبة الله تعالى ، وهذا أمر منكر يدعوهم الله تعالى إلى عدم فعله .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦١٤ .

(٥٩٣)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية على ركيزة هامة ... هي :

الولاء بين المؤمنين ضرورة

الناس أصناف ثلاثة مؤمنون ، ومنافقون ، وكافرون ، ولكل صنف فلسفته ، وتوجهه ، وطريقته في حياته .

فالمؤمن مستسلم لربه ، مطيع له ، منقاد لسائر تعاليمه .

والكافر منكر لله ، جاحد للدين ، يعيش كما يوجهه عقله وهواه .

والمنافق مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء ، يكذب عليهم جميعا ، ويحاول أن يفوز بما لا يستحقه .

ومن المعلوم ...

أن الإنسان أيا كان يحتاج لغيره ، ويتعامل معه ... وأيضا فإن الإنسان المقتنع بتوجهه يحاول أن يضم غيره إليه ، ويكثر الأنصار والأعوان ... وفي نفس الوقت يخاصم كل فكر أو جماعة تختلف معه .

ومن هنا نشأت قضية الولاء والبراء ، والمراد بالولاء التعاون الصادق الشامل للقلب ، والجسد ، والمعاني والأعراض مما يجعل الموالين كيانا واحدا يخدم هدفا واحدا في أطر متعددة .

والبراء يعنى المقاطعة والمخاصمة بين متعارضين .

والمؤمنون بعضهم أولياء بعض . يقول الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ (١)

(١) سورة التوبة ، الآية ٧١ .

والمنافقون كذلك بعضهم من بعض يقول الله تعالى : ﴿ الْمُنْفِقُونَ
وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ
وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(١).

والولاء موجود بين كثير من الطوائف والهيئات .

ومن هنا حدد الله للمؤمنين ولاءهم فكل منهم ولى لأخيه ، والله وليهم
جميعا .

وهذا الولاء بين المؤمنين يقوى إيمانهم ، وينصرهم ، ويعلى شأنهم ،
ويحولهم إخوة متآلفين مخلصين .

ولا يجوز أن يوالى المؤمن كافرا أو منافقا لأن ذلك يضر الجماعة المؤمنة
، ويسئ إلى الدعوة الإسلامية ، ويؤدى إلى الهزيمة والضياع .

إن أعداء الله يوالى بعضهم بعضا ، ويعملون على إيجاد صنائع لهم بين
المسلمين يتمكنون بواسطتهم من إفساد المسار الإسلامى ، وصرف الناس عن
الثقة ، والتماسك والترابط .

لقد تمكن أعداء الإسلام والمسلمين من الوقیعة بين المسلمين ، وإيهام
المسلمين بمساعدتهم ، وبذلك ضاع الولاء بين المسلمين ... وهذا أمر يوقع
المسلمين في العذاب الأليم لقيام الحجة عليهم .

إن الأخوة بين المسلمين تصنع القوة ، وتحقق النصر ، وتحمى الكرامة
والعزة بين المسلمين أجمعين .

(١) سورة التوبة ، الآية ٦٧ .

(٥٩٥)

مصير المنافقين

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية ما قبلها

بعد أن نهت الآية السابقة المؤمنين من موالاة الكافرين والمنافقين حتى لا يحل بهم عذاب الله جاءت هذه الآية لبيان عقوبة المنافقين الشديدة .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن المنافقين سينالهم عذاب الله الشديد ولن يكون لهم نصير ينصرهم ، أو معين يعينهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ أى أن المنافقين

سيعذبون في الدرك الأسفل من النار ... ذلك أن النار سبع طبقات ، وتسمى الطبقة في النار دركة ... والمنافق يعذب في الدرك الأسفل ويلقى أشد العذاب ويوضع المنافقون في دركهم الخاص بهم .

﴿ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ والخطاب لمحمد ﷺ . ومعناه : ولن تجد يا

محمد من ينصرهم في الآخرة ، ويخلصهم من عذاب الله تعالى .
والمنافق هو من أظهر الإسلام ، ونطق به لسانه ، وأبطن الكفر ، ولم يتفق قلبه مع لسانه ، ولم يلتزم بشريعة الله تعالى .

والآية تشير إلى أن عقوبة المنافق أشد من الكافر ، لأن المنافق مثل الكافر في الكفر ، ويزيد عليه خداعه للمسلمين ، واستهزؤه بهم ، وكذبه عليهم وتعاونه مع الكفار ، ونقل أسرار المسلمين إليهم .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن المنافقين يعذبون في أحط دركات جهنم ، وعذابهم أشد من عذاب الكفار ، وليس لهم نصير ينصرهم ، أو معين يعينهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

النفاق أكثر جرما من الكفر

تبين الآية أن المنافق أكثر جرما من الكافر ، ولذلك يجعله الله تعالى في الدرك الأسفل من النار ، وبذلك يكون عذابه أشد قسوة من الكافر لأنه ساوى الكافر في ضلاله ، وزاد عليه خداع المؤمنين .

يقول ابن عمر رضى الله عنهما : إن أشد الناس عذابا يوم القيامة . المنافقون لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ ^(١) ، ومن كفر من أصحاب المائدة لقوله تعالى : ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) ، وآل فرعون يقول الله تعالى : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ ^(٣) .

وهذا تنبيه للمؤمنين ليبعدوا أنفسهم عن أى شبهة النفاق .

(١) سورة النساء ، الآية ١٤٥ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١١٥ .

(٣) سورة غافر ، الآية ٤٦ .

توبة المنافقين وخلاصه

يقول الله تعالى :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن المنافقين أشد الناس عذابا يوم القيامة جاءت هذه الآية لبيان أن من تاب ، وعمل صالحا ، واعتصم دين الله تعالى من هؤلاء المنافقين ، فإن الله سيجمعهم مع المؤمنين ، وسوف يؤتيهم الله أجرا عظيما .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن من يتوب من المنافقين ، ويخلص لله في توبته ، ويعتصم بحبل الله المتين فإن الله سيجعله مع المؤمنين ، وسينال أجرا عظيما مع المؤمنين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ هذا الاستثناء متصل بالآية السابقة ، وهو يعنى

استثناء الذين تابوا من نفاقهم ، وتبرأوا مما كانوا فيه .

﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ أى اصلحوا الأعمال ، والتزموا بأحكام الله تعالى في كل

أقوالهم وأفعالهم ، وأحوالهم .

﴿ وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ ﴾ أى ولجأوا إلى الله متمسكين بعهده .

(٥٩٨)

﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ أى استقاموا في طاعتهم لله من غير رياء ولا سمعة .

﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أن هؤلاء المنافقين بعد توبتهم وإخلاصهم في طاعة الله تعالى سيجمعهم الله مع المؤمنين ، ويجازيهم بالحسنة مثلهم ، ومعهم .

﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى أن الله سيجازى المؤمنين الأجر العظيم الذى لا يقدره إلا الله سبحانه وتعالى وسيكون التائبون معهم .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن التائبين المخلصين في توبتهم سيجمعهم الله مع المؤمنين في جنات النعيم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تبين الآية ركيزة هامة ... وهى :

تحديد الطريق الصحيح

للمعودة إلى الله تعالى

الإنسان مخلوق ضعيف تتناوبه مؤثرات عديدة ... وقد تؤدي بعضها به إلى الغفلة ، ومعصية الله تعالى ... ومن رحمة الله به أن دعاه إليه ، وحدد له طريق الرجوع إليه إن رغب في جنة الله وحسن ثوابه ، والآية وإن كانت تتحدث عن توبة المنافقين . فإنها تقدم منهج التوبة لسائر الناس .
ويتكون المنهج من النقاط التالية :

أولاً : التخلص من المعاصي والنفاق بصورة كلية ، وذلك يعنى الإقلاع عن الذنب ، وكراهيته وكراهية من يقوم به ، وارجاع الحقوق لأصحابها ، وبذلك يتخلص الإنسان مما لحق به .

ثانياً : تطهير العمل ، وذلك يكون بتحسين ما حسنه الشرع وتقبيح ما قبحه في القول والعمل والسلوك ، وهذا التحسين يقتضى التطبيق التام لكل أمر شرعى ، واتباع منهج الله تعالى في كافة النظم ، وامور الحياة .

ثالثاً : الاعتصام بالله تعالى ، وذلك بأن تكون الغاية من الفعل والترك ابتغاء مرضات الله تعالى ، والعكوف في ظل رحمته سبحانه وتعالى ومرضاته .

رابعاً : الخلوص التام في العبودية ، وذلك بأن يحصر العبد النية كلها في حب الله ، والاستسلام المطلق له .

وهنا يرقى العبد لمنزلة العبودية القانئة فلا يشعر بغير قوة الله ، ولا يخاف إلا من قدرة الله ، ولا يتمنى إلا رضا الله .

وبتلك الخطوات الأربعة يعود الإنسان إلى ربه ، ويرتبط بخالقه العظيم .
والدعاة إلى الله تعالى عليهم مسئولية توضيح هذا الطريق للناس ، وتعريفهم بمتطلبات كل مرحلة .

وليعلموا أنها خطوات متدرجة في مجال التربية والتوجيه يترتب بعضها على بعض .

والدعاة يمكنهم وضع خطة لعودة الناس إلى ربهم على ضوء الواقع ، وتبعا لخطوات المنهج .

ومن المهم بيان الجزاء الأوفى الذى أعده الله للمؤمنين والتائبين فهو أجر عظيم فيه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب رجل .

(٦٠٠)

حق المؤمن في جنات اليتيم

يقول الله تعالى :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا

عَلِيمًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية ما قبلها

بعد أن بينت الآية السابقة ما أعده الله للمؤمنين والتائبين من أجر عظيم جاءت هذه الآية لتؤكد تحقيق هذا الأجر حيث لا يزيده تعذيب المؤمنين شيئاً .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله عدل في قضائه ، ولا حاجة له سبحانه وتعالى لتعذيب المؤمن الشاكر ، فهو الذى يثيب على الصالحات ، وهو العليم بكل شئ .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ هذا استفهام

تقريرى لبيان أن الله تعالى لا يعذب الشاكر المؤمن لأن تعذيبه لا يزيد في ملكه ، وتركه عقوبته لا ينقص من سلطانه ، لأنه الغنى الذى لا يحتاج إلى شئ من خلقه ... وحكمه سبحانه وتعالى قائم على العدل ... وما دمت قد آمنتم وشكرتم فقد أنقذتم أنفسكم من عذاب الله تعالى .

إن التشفى انفعال أساسه الغيظ والحق ، والانتقام أساسه الضعف وانتهاز الفرص ، والأذى أساسه الكراهية والحق ، وكل ذلك محال على الله تعالى .

فهو الكبير ، المتعال ، الرحمن الرحيم ، يعاقب على الكفر والمعاصي ، ويحسن للمستقيمين .

(٦٠١)

والإيمان أساس الطاعات ، والشكر مترتب عليه ، وذكر الإيمان بعد الشكر في الآية لا يعارض هذا لأن الواو تفيد مجرد الجمع بين الإيمان والشكر ، ولا تفيد ترتيبا .

يقول بعض العلماء : الترتيب في الآية واقعى لأن العاقل ينظر بعين بصيرته أولا إلى ما عليه من نعم الله تعالى في خلقه ، وحياته فيشكر الله شكرا عظيما ، ثم إذا تم النظر ثانيا انتهى به النظر إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، والإيمان به ... وبذلك فالترتيب في الآية مقصود .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أى أن الله تعالى يرضى عن المؤمنين ويثيبهم ويوفيهم أجورهم . فهو سبحانه عليم بعباده جميعا ، وسيجازيهم بما يستحقون .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله سبحانه يثبت عباده المؤمنين على طاعتهم ، فهو سبحانه . عادل كريم ، ولن يزيده ظلم لأحد من خلقه .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

عدل الله في الجزاء

خلق الله الإنسان ، ورزقه العقل ، وسخر له النعم والفضائل ، ودعاه إلى الخير ووجهه إلى المصلحة ... ولو شاء سبحانه ما خلقهم ، وما رزقهم وما سخر لهم الكون على سعته وتنوعه .

إن الله هو الرزاق ، وهو المعطى ، ولا حاجة لأحد من خلقه ، وقد قضى الله تعالى بأن يجازى الصالحين المؤمنين على عملهم الصالح ، وقلوبهم الطاهرة ، فهو سبحانه وتعالى عدل في قضائه وحكمته ، وهو الغفور الرحيم .

**تفسير الجزء السادس
من القرآن الكريم**

$$(6.3)$$

توطئة

عشنا مع سورة "النساء" وهى تقدم للمسلمين منهج الله تعالى في بناء الفرد الصالح ، وإيجاد الجماعة الرشيدة ، وإخراج الأمة الصالحة ، لقد ركزت السورة على البناء الاجتماعى بصورة رئيسية حيث عشنا مع تربية الصغير ، ورعاية اليتيم ، وتعليم الضعفاء من النساء والولدان كيف يتعاملون مع أموالهم وواجباتهم ، ورأينا توجيه الأولياء إلى رعاية حقوق من ولاهم الله تعالى أمورهم .

وحددت السورة كيفية انتقال التركة إلى الورثة بطريقة عادلة بعيدة عن مؤثرات الأنانية ، والطمع في إطار حدود الله التى يجب الالتزام بها .

ورأينا السورة وهى تتحدث عن مقدمات الزواج ، وواجباته ، وما يجوز فيه وما لا يجوز .

ولم تغفل السورة ربط كل توجيهاتها بتقوى الله ، وطاعته ، وضرورة ربط السلوك الإنسانى بعقيدة الإيمان بالله تعالى ، والالتزام بشريعة الإسلام الحنيف .

إن الالتزام بتعاليم الله تعالى ، والرجوع إليه عند الخطأ ، والتمسك بالإسلام في الحياة الأسرية دين لا بد منه .

يقول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾^(٢) .

(١) سورة النساء ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٥ .

وبعد أن تستغرق السورة شوطا كبيرا في البناء والتتشئة تأخذ في صورة العلاقات العامة للمسلمين بغيرهم فتوجه إلى أهمية الجهاد ، وضرورة الاستعداد ، والإعداد له ، وجعله خالصا لله وفي سبيله .

وتعلم المسلمين الصلاة أثناء القتال وخلال السفر ، وأهمية المحافظة على الإسلام كله ، لأن الطاعات متلازمة يجبر بعضها بعضا ، والمعاصي تتلاقى بظلالها وضلالها ، ويشد بعضها غيره ، ويسهل طريقه .
إن الصف الإسلامي وهو يواجه أعداءه يجب أن يحذر المنافقين ، ويعزلهم ولا يغتر بضلالهم ومزاعمهم .

ويجب على المسلمين أن يقيموا حياتهم على الحق والعدل ، ولا يتخلفوا أبدا في معاقبة من ارتكب جرما في حق أخيه ، أو اعتدى على ما ليس له .
يقول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا تَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾^(١) .

وعلى المسلمين أن يعيشوا بدين الله ، وموالاته المؤمنين وحدهم ... يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؕ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾^(٢) .

وهكذا عشنا مع سورة "النساء" في البناء ، والتتشئة ، واقامة الأسرة ، وإحياء الجماعة على الحق ، والقوة ، والتصدي لأعداء الله تعالى إلى أن جئنا لأول الجزء السادس حيث جاء ربعه الأول في نهاية سورة "النساء" ، وسار على نهج السورة في موضوعاته وأساليبه ، وركز على التعريف برسول الله ، وبيان أنهم على خط واحد يدعون لدين الله تعالى ، ويعرف بموسى وعيسى عليهما

(١) سورة النساء ، الآية ١٢٣ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٤٤ .

(٦٠٦)

السلام فهما أقرب الرسل إلى محمد ﷺ ، ودينهما هو أقرب الأديان إلى الإسلام ، ويناقد بعض القضايا التي ذكرها أهل الكتاب وهو ينصحهم بعدم الغلو في الدين ، وملازمه التوحيد الخالص فهو دين الله تعالى .

وتختتم السورة آياتها بذكر ميراث الكلاله ، وكأنها تذكر بموضوعها الأساسي وبناء الحياة الإنسانية على قاعدة إيمانية خالصة .

يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿^(١) .

إن نهاية سورة "النساء" تتوافق في موضوعها العام مع السورة كلها ... وكلها تتضافر في بيان الموضوع بصورة تفصيلية جلية .

تحریم الإساءة للإنسان

(١) سورة النساء ، الآية ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٦٠٧)

يقول الله تعالى :

﴿ لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

انتهى الجزء الخامس بآيات تحدثت عن توبة المنافقين ، واخلاصهم ، وتبين أن الله لن يعذبهم بعد قبول توبتهم ، وجاءت هذه الآية تحرم الجهر بالسوء من مسلم لأخيه مع إباحة طلب حقه إن ظلمه غيره .

- ٢ -

موضوع الآية

تتناول الآية بيان أن الجهر بالسوء من مسلم ضد مسلم آخر لا يجوز فمن ظلمه غيره ، فله الشكوى ، والدفاع عن نفسه ، وإظهار عدوان من اعتدى عليه ، وتبين أن الله سبحانه وتعالى سميع عليم بكل قول وفعل ، وسيحاسب عليها في الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ ﴾ السوء هو ما يضر الإنسان ويؤذيه من الأقوال ، والأعمال ، والأحوال ، فعلا ، أو تركا ، عاما ، أو خاصا .
والجهر هو النطق الواضح ، المسموع للآخر ، ولا مانع يمنع من انتشاره ، وإذاعته .
والجهر بالسوء يضر الفرد والمجتمع ... ويترك صورة قبيحة في موضوعه تجر الضرر لغيرها .

ولذلك حرم الله الغيبة والنميمة ، والإفك ، وإشاعة الفاحشة ، وضرورة التثبت من الخبر ، والاعتماد على العلماء المؤمنين الفاهمين للرجوع إليهم فيما يذاع ، وفيما لا يذاع .

وعدم الحب يقتضى الغضب ، ومعنى أن الله لا يحب الجهر بالسوء أى أنه سبحانه وتعالى يغضب من جهر المسلم بالسوء ضد غيره بغير سبب ، أو بطريقة لا تناسب السبب .

وغضب الله من الجهر بالسوء يعنى تحريمه ، وقد حرم الله القول السئ واطهار العمل القبيح ، واللجوء إلى الأحوال والسلوكيات القبيحة .

﴿ مِنْ الْقَوْلِ ﴾ خص الجهر بالسوء بالأقوال بـ ﴿ مِنْ ﴾ البيانية ، وذلك لأن الجهر ألصق بالأقوال ، وتلحق الأعمال بالأقوال لأنها تؤدى إليها .

﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ هذا استثناء من الجهر بالسوء ، فللمظلوم أن يجهر بالظلم الذى وقع عليه لا يتجاوزه ، كأن يقول : سرق منى ، أو غصب منى أو يشكوه لينال حقه ... يقول الحسن البصرى : هذا فى الرجل يظلم الرجل فلا يدع عليه ، ولكن ليقل : اللهم أعنى عليه ، اللهم استخرج لى حقى ... اللهم حل بينى وبين ما يريد ... ونحوه^(١) .

وكون الاستثناء متصلاً يقتضى أن يكون الجهر المستثنى فى إطار الظلم وحده ، وهو الذى يحبه الله تعالى ، يقول النبى ﷺ : "لتأمرن المعروف، وتتهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأخذنه فى الحق أطرا ، أو ليضرين بعضكم رقاب بعض ثم تدعونه فلا يستجاب لكم"^(٢) .

وقيل : إن الاستثناء منقطع ومعناه أن الله لا يحب أن يظهر المظلوم ظلم الظالم بصورة عامة .

(١) تفسير البغوى ج ١ ص ٦١٤ .

(٢) تفسير الخازن ج ١ ص ٦١٥ .

(٦٠٩)

والأولى جعله متصلاً لأن العلماء بينوا أن الأولى عدم جواز إفشاء أحوال الناس المستورة لأنه يؤدي إلى الغيبة ، ووقوع المظلوم فى الريب والعدوان .
﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يسمع كل ما ينطق به عباده ، ويعلم كل أفعالهم ، وأقوالهم ... فليتق الله كل مسلم ، ولا يقول إلا الحق ، ولا يجهر إلا بما هو حق ... وبذلك يثاب على تقواه ونيته .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله تعالى لا يرضى بالسوء ، ويغضب من وقوعه بين الناس ، فهو سبحانه لا يحب إعلان سوء واطهاره إلا أن يبين صاحب الحق حقه ، ويبرز الظلم الذى وقع عليه ليرفعه ... والأولى الستر والعفو .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

توضح الآية عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

جهر المظلوم مرتبط بخلق الإسلام

دفع الظلم واجب ، ويحتاج الدفع إلى فهم وعقل حتى لا يتحول إلى ظلم آخر ، ولذلك وجب الالتزام بتعاليم الإسلام فى دفع الظلم بصورة عامة ...
ومنها :

- أن يكون الجهر بالخصومة محل الظلم أمام وال أو قاض يملك ردها واعطاءه حقه ... ولا يقصد به التشنيع ، واذاعة الضرر بين الناس .
- أن لا يتجاوز المظلوم حدود موضوعه ، وأن يلتزم بالحق والصدق ، وليعلم أن الله سميع عليم لن يغفر لظالم ظلمه ، أو يتسامح مع كذاب أثيم .

(٦١٠)

- أن يدرك المظلوم أن من ظلمه أخوه فى الدين فليدع له ، ولا يفجر فى خصومته ، ولا يقابل الفجور بمثله حتى لا يقع فى دائرة النفاق .
- أن يعلم المسلم أنه مسئول عن ستر أحوال أخيه ، ولذلك كان العفو أولى .

الركيزة الثانية

غاية الإسلام إيجاد مجتمع نظيف

يهدف الإسلام إلى إيجاد مجتمع إسلامى نظيف يتعاون فيه الناس على البر والتقوى ، ويبتعدون عن الإثم والعدوان ، ولذلك حافظ عليه من انتشار السوء فيه ، فنادى بعدم الجهر بالسوء ، وعدم إظهار الأعمال القبيحة ، والصور الهابطة ، ومختلف السلوكيات التى تسيئ للمجتمع والناس .

لقد شرع الله للطريق آدابه ، وللتحية أسلوبها وأخلاقها ، ونشر بين المسلمين روح الحب والألفة والتعاون .

إن الجهر بالسوء ، والفحشاء بين الناس يجعل الأمر عاديا بعد مدة ويتحول الأمر إلى عادة اجتماعية يصعب التخلص منها .

إن كثيرا من المعايير الاجتماعية السائدة سببها التساهل فى ظهورها أولا .

ومن هنا ...

وجب تربية النفوس على كراهية السوء وعدم الإساءة إلى الغير قولاً وعملاً وحالاً .

إن ضمير صاحب الخلق يبعده عن السوء ، ويؤذيه أن يسمعه ويبدو دائماً بسمت جميل ، وخلق كريم ، وسماحة هادئة .

ومن السوء الذى يضر المجتمع والأفراد ما يذاع ، وينشر ، ويصور فى صور خيالية تمثيلية مليئة بالفسق ، والسوء ، والأذى ... وهذه لها آثار ضارة كثيرة لما للإعلام من أثر .

(٦١١)

إن الحياء لا يأتي إلا بالخير ، ومن المحافظة على الحياء صيانتة فى
مكمن النفس ، وابعاد الأذى عنه ، وتطهيره من أى سوء يذاع ، ومن أى شئ
يعيش معه .

الركيزة الثالثة

الحقوق لا تضيع

قد يتصور صاحب الحق أن حقه يضيع عليه إذا لم يجهر بالسوء ،
والشتم ، واللعن يوجهه إلى من ظلمه ... وليس الأمر كذلك .
فقد أقام الإسلام دولة ، ونظم القضاء ، وشرع تعيين قضاة ، وأمر بالحكم
العادل المستقيم ... وعلى من يقع عليه ظلم اللجوء إلى مؤسسات العدل
والقضاء .

إن نيل الحقوق لا يعد جهرا بالسوء ، والأمر تقدر بقدرها .
وفى العصر الحديث كثرت المظالم ، وتعددت مصادرها والكشف عنها
يحتاج إلى إذاعتها ، ونشرها بالوسائل الحديثة للإعلام ، وهنا يباح الجهر
بالظلم والمطالبة بالعدل ... ومن الأولى عدم تحديد الظالمين ليبقى الأمر فى
دائرة البحث عن الحق ، والمطالبة به .
وقد يحتاج تحذير الناس من الظلم إذاعته ، ونشره لينتبه الناس ، ويتجنبوا
الظلم والظالمين .

التسامح بين المسلمين

يقول الله تعالى :

﴿ إِن تُبَدُّوْا حَيْرًا أَوْ تُخَفُّوْهُ أَوْ تَعْفُوْا عَن سُوْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآية الأولى تحريم نشر السوء بصورة عامة مع إباحة أن يدافع المظلوم عن مظلومته بطريقة حسنة جاءت هذه الآية لبيان أن الله يعلم كل ما يفعله العباد من خير أو شر ، ويجازى عليه ، وهو العفو القدير فاعفوا وتسامحوا .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تبين أن إظهار الخير أو إخفائه يعلمه الله تعالى ، وهو سبحانه يعلم عفوك وتسامحك ويجازيكم عليه ... وهو سبحانه العفو القدير .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِن تُبَدُّوْا حَيْرًا ﴾ أى إن تظهروا أعمال البر ، وتنتشروا الإسلام بخلقه ، وعمله ، وسلوكه ... وإيراد ﴿ حَيْرًا ﴾ نكرة يشمل الخير كله .
 ﴿ أَوْ تُخَفُّوْهُ ﴾ أى وإن تستروا الخير وتكتموه ، ولا تظهروه .
 ﴿ أَوْ تَعْفُوْا عَن سُوْءٍ ﴾ أى وإن تتسامحوا فى سوء ، أو ظلم وقع عليكم فإن الله تعالى يعلمه ، ويجازيكم عليه حسنا .

(٦١٣)

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوءًا قَدِيرًا ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى كان وسيزال

كثيرا لعفو ، عظيم القدرة فتشبهوا بالله ، وانشروا العفو ، والتسامح فيما بينكم .
وجاء ذيل الآية داعيا إلى العفو لأن الله يبالغ فى العفو والمغفرة ، والكيس
هو من سارع لينال شيئا من فضل الله تعالى .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية للمسلمين أنهم إن أظهروا الخير الذى يؤدونه ، أو يخفونه ، أو
عفوا عن سوء وظلم فإن الله يعلمه ، ويجازى عليه خيرا فهو سبحانه عفو قدير .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية بيان ركيزة هامة ...هى :

جزاء العمل الصالح لا يضيع

جعل الله الإسلام عمله صالحا كله ، لأن كل أعمال الإسلام تقوم على
دعامتين رئيسيتين هما :

الدعامة الأولى : خلوص النية مع الحق سبحانه وتعالى .

الدعامة الثانية : التخلق الصادق مع الخلق .

وعلى أساس هاتين الدعامتين قامت الشريعة كلها ، وكان الدين كله ،
لأن خلوص النية مع الخالق سبحانه وتعالى تعنى الصدق فى العبادة ،
والإخلاص فى الطاعة ...

والتخلق مع الخلق يؤدى إلى إيصال النفع لهم ، ودفع الضرر عنهم .

فالخير المنطلق من النية إيجابا أو سلبا يلتقى مع الخلق والخلق عطاء أو
دفعاً فيقع عند الله فى موقع يرضاه ، ويقبله .

إن الإسلام فى جملته تنظيم العلاقة مع الله ، والارتقاء بالضمير والسلوك ، ونشر التعاون الخير بين الناس ... وبقدر تحقيق ذلك يتحقق الإسلام ، وبمقدار البعد عنه يكون البعد عن تعاليم الإسلام .

إن الله عليم بسائر خلقه ، وسيجازيهم على أعمالهم ، ولن يضيع عمل صالح أبدا ... يقول الله تعالى :

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(١) .

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾^(٢) .

إن العمل الصالح لا يضيع ، وأثره باق فى البنين والذرية ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

عدم الإيمان ببعض الرسل كفر بالجميع

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾^(١) .

- ١ -

سبب نزول الآية

نزلت الآية فى أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ فاليهود لا يؤمنون بعيسى وبمحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، والنصارى لا يؤمنون بمحمد ﷺ .

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٠ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٩٦ .

(٦١٥)

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن المنافقين ، وجاءت هذه الآية للحديث عن أهل الكتاب وغيرهم الذين يؤمنون ببعض الرسل ، ويكفرون ببعض آخر .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الإيمان ببعض الرسل ، والكفر ببعض الآخر تفريق بين الله ورسله ، وهؤلاء هم الكافرون حقا ، ولهم عذاب أليم .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ هذه الآية تتكلم عن مذاهب اليهود والنصارى ، فإن اليهود آمنوا بموسى والتوراة ، وكفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام ، وكفروا بالإنجيل والقرآن الكريم ، ويتصور هؤلاء أنهم آمنوا بالله تعالى ، وان كفروا ببعض رسله .

﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ أى يريدون بذلك أن يتخذوا طريقا وسطا بين الإيمان بالكل ، وبين الكفر بالكل ... وخبر ﴿ أَنْ ﴾ محذوف تقديره إن الذين يفعلون ذلك جمعوا كثيرا من المخازى ، وبذلك تذهب النفس فى تفسير المخازى كل مذهب ، وتتم الآية بخبرها المقدر هذا .

(٦١٦)

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن النصارى قد اخطأوا حين كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن الكريم وخطأ اليهود حين كفروا بعتسى ومحمد وكتابينهما عليهما الصلاة والسلام ، لأن التفرقة بين الله ورسله لا سبب له ، وهو ضلال فى المذهب والتفكير .

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

دين الله واحد

الله إله واحد ، وهو خالق الخلق ، ومرسل الرسل ، ومنزل الدين والكتب ، وقد جعل دينه قائما على عقيدة ثابتة على الزمن كله ، نادى بها الرسل جميعا ، وقد أعان رسله بمعجزات تثبت صدقهم ، ولذلك وجب الإيمان بأن دين الله الواحد مع الإيمان بسائر الرسل بعد ظهور معجزاتهم وثبوتها .
إن الكفر بالمعجزة كفر بمقدرها وبمن ظهرت له ، والكفر بالرسول مع ظهور دلالات صدقه كفر بالله مرسله ... ومن المعلوم أن كل رسول يصدق بمن سبقه ، ويمهد لمن يلحق به ، ولذلك قال عيسى عليه السلام كما حكى الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِىْ اِسْرَءِيلَ اِنِّىْ رَسُوْلُ اللّٰهِ اِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىْ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُوْلِ يَّآتِىْ مِنْۢ بَعْدِىْ اَسْمُهُۥٓ اَحْمَدُ ۖ فَاَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوْا هٰذَا سِحْرٌ مُّبِيْنٌ ۝۱﴾ (١) .

وليس من الحكمة أن يكذب الإنسان غيره فيما يدعو هو إليه ، لأنه بذلك يكذب نفسه والعاقل لا يرضى بذلك ...

(١) سورة الصف ، الآية ٦ .

(٦١٧)

لقد دعا الإسلام إلى الإيمان بموسى وعيسى عليهما السلام ، وإلى الإيمان بأنبياء بنى إسرائيل ، وسار على خطاهم فى عقيدة الله الواحد الأحد ، وكملهم بشريعة صالحة للجميع ، ولذلك كان من الضرورى أن يؤمن الجميع به .
ولو آمن أهل الكتاب بأن دين الله واحد لا سلموا !!!... ولو تفحصوا الإسلام لرأوا تعاليمه تؤيد تعاليم سائر الرسل لأمنوا بالإسلام مع إيمانهم بما هم عليه من دين .

الكفر بالرسول كفر بالله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما تحدثت الآية السابقة عن من يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض آخر جاءت هذه الآية لتبين أن هذه التفرقة كفر بالله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تبين حكم الله تعالى فيمن يؤمن ببعض الرسل ، ويكفر ببعض آخر وتؤكد كفرهم الواضح .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ الإشارة إلى هؤلاء الذين يؤمنون ببعض الرسل ، ويكفرون ببعض آخر ، ويفرقون بين الله ورسله ... وفى الإشارة بالبعيد ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ بيان لبعدهم عن الحق والصواب .

وقد أخبر الله عنهم بالجملة الخبرية ﴿ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ لبيان أن كفرهم كفر حقيقى ، لأن إيمانهم ببعض بسبب معجزاتهم التى أثبتت صدقهم بينما البعض الذى كفروا به معه المعجزة أيضا ... فإن كانت المعجزة هى سبب الإيمان لوجب عليهم الإيمان بالجميع ، وإن لم تكن للمعجزة دخل فى الإيمان للزمهم الكفر بالجميع .

وأیضا : فإن طاعة الله تقضى التصديق بجميع رسله بلا تفرقة بينهم ، فلقد أخبر الله عنهم ، وخبره ثابت صادق ، ولذلك كان التكذيب ببعض خبره تكذيب لكل أخباره ، وما جاز على أحد المثليين جاز على المثل الآخر .
﴿ حَقًّا ﴾ أى أن كفرهم كفر ثابت كامل بالدليل اليقيني ، وجعل الجملة خبرا للمبتدأ الأول تأكيد على ما تحمله من معنى ، وكأنهم هم وحدهم على ذلك الكفر .

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ أى وهيانا للكافرين جميعا عذابا يهينهم، ويصليهم بنار جهنم ، وبذلك ثبت كفرهم ، وظهر ما أعد الله لهم فى الآخرة .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض آخر كافرون بالجميع ، وهم الكافرون فى ميزان الله تعالى ، وقد أعد الله لهم عذابا يهينهم ويؤذيهم بصورة خاصة .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

فى الآية ركيزة هامة ... هى :

الإيمان طاعة لله تعالى

من لوازم الإيمان طاعة الله تعالى ، لأن الإيمان يقوم على الحب والخوف

والتقدير ، والتعظيم ، وكل ذلك يتناقض مع المعصية ، لأن من أحب أطاع ، ومن خاف استقام ، ومن قدر التزم ، ومن عظم عاش خاضعا للتعظيم المتعال .
وقد أمر الله بالإيمان بجميع من أرسلهم لعباده ، فقد دعوا جميعا لعقيدة واحدة ، وأخلاق واحدة ، واختلافهم فى الشرائع أمر ضرورى مشروع ... ولذلك وجب الإيمان بجميع الرسل مع الإيمان بالله ليتحقق الإيمان .
واختلاف الشريعة لا يتعارض مع الطاعة ، ولا يعنى اختلاف الشريعة اختلاف الدين ، لأن الشريعة تعنى التطبيق الدينى للأحداث ، وهذا يختلف من مكان لمكان ، ومن زمان لزمان ، ومن جماعة لجماعة ، وهذا الاختلاف التشريعى موجود فى سائر الأديان .

المؤمنون هم المؤمنون بالرسل جميعا

يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حكم من يؤمن ببعض الرسل ، ويكفر بالبعض الآخر جاءت هذه الآية لتبين حكم المؤمنين بجميع الرسل عليهم السلام .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن المؤمنين بجميع الرسل لهم أجرهم عند الله فهم المؤمنون حقا .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ الواو للاستئناف لبيان حكم جديد

خاص بالذين آمنوا بالله ورسله جميعا من غير تفرقة بين الرسل فى الإيمان .
﴿ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ أى ولم يفرقوا فى الإيمان بين الرسل
فيكفرون ببعض ، ويؤمنون ببعض ، فهؤلاء هم المؤمنون حقا ...
وهنا أمور :

الأمر الأول : الإيمان بالرسول ، أى رسول ، واجب بظهور المعجزة على يديه ، لأنها دليل صدقه ومادامت المعجزة هى طريق إثبات الرسالة لبعض الرسل وحب الأخذ بها مع كل من ظهرت المعجزة معه ، وليس المطلوب الإيمان بالأنبياء الكذبة الذين لا دليل على صدقهم ، ولا معجزة تؤيد مدعاهم .

الأمر الثانى : الإيمان بالرسول جميعا مرتبط بزمان المؤمن ، فمن مات زمن موسى عليه السلام لزمه الإيمان بموسى ، ومن معه ، ومن سبقه ، ولا يلزمه الإيمان بمن يأتون بعده ، فهم لم يوجدوا فى زمنه ... وهكذا مع كل الرسل ، فمن عاش زمن رسالة محمد ﷺ لزمه الإيمان بمحمد ﷺ وبجميع من سبقه .

الأمر الثالث : التصديق بالرسول يقتضى التصديق بكل ما أخبر به ، وقد صدق كل رسول بسابقه ، ومهد لمن سيأتى بعده ، ويشر به ، ولذلك كان الإيمان بسائر الرسل جزءا من الإيمان بالرسول الذى يؤمن الإنسان به .

﴿ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ﴾ أى أن الله سيؤتى هؤلاء الذين آمنوا بجميع الرسل وكتبهم أجورهم التى يستحقونها ، وإيراد ﴿ سَوْفَ ﴾ مع عطاء الله تعالى يقتضى تحقق الأجر لأن الرجاء من الله تحقيق لوقوعه .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى والثابت الحق هو أن الله غفور لذنوب عباده رحيم بهم ، وسوف يغفر الله لهؤلاء المؤمنين ، ويرحمهم .

(٦٢١)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الذين يؤمنون بجميع الرسل مع إيمانهم بالله ، ولم يفرقوا بين الرسل هم المؤمنون حقا ، وقد وعدهم الله بالأجر الكامل العظيم ، وبالمغفرة والرحمة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تبين الآية ركيزة هامة ... هي :

حاجة الناس إلى التوحد على الحق

ينادى الله الناس ليؤمنوا به ، ويؤمنوا بجميع من أرسلهم ، وبذلك يتوحد الخلق ، وينتهي الصراع والتضارب ... ولو عقل البشر للزموا الطاعة المطلقة لله الذي خلقهم ، ولآمنوا بالرسول سبلا صنعهم الله ليصل الناس إليه بواسطتهم . ومن الأولى أن يتعاملوا مع كافة السبل ، ويأخذوا منها لأنها جميعا تنتهي بهم إلى الله ، فمرجع الناس أجمعين إليه ، ومن العجيب أن يجد الإنسان طرقا عديدة توصله لأمانيه ولا يستفيد بها .

تعنت اليهود مع الرسل

يقول الله تعالى :

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿٦٢﴾ ۝ ﴾ .

(٦٢٢)

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن ذكرت الآيات السابقة بعض ضلالات اليهود مع الإسلام ورسول الله جاءت هذه الآية لتعرض بعضا آخر من ضلالاتهم .

- ٢ -

موضوع الآية

نتناول الآية بيان تعنت اليهود في أسئلتهم المنكرة مع محمد ﷺ كما تعنتوا في أسئلتهم مع موسى ﷺ .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ والخطاب لمحمد ﷺ يبين الله له فيه سفاهة

السائلين ، وتنثبه في مواجهتهم ... وبيان ذلك أن اليهود وعلى رأسهم كعب بن الأشرف ، وفنحاص بن عازوراء سألوا رسول الله أسئلة تعنت واستكبار .

﴿ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى أنهم سألوا رسول الله ﷺ أن

ينزل عليهم كتابا من السماء ، وقد طلبوا عدة صور لهذا الإنزال ... منها :

- طلبوا أن ينزل القرآن الكريم جملة واحدة كما نزلت التوراة .
 - طلبوا أن ينزل القرآن الكريم مكتوبا في ألواح سماوية كما نزلت عليهم ألواح مكتوبة .
 - طلبوا أن ينزل عليهم كتاب خاص بهم وحدهم .
 - طلبوا أن تنزل عليهم عدة كتب ، لكل منهم كتاب خاص به ، يبين له صدق محمد ﷺ ، ويدعوه إلى الإيمان به .
 - طلبوا منه رؤية الكتاب مجسدا أمامهم وهو ينزل على محمد ﷺ .
- وطلب إنزال الكتاب بأى صورة من الصور تعنت وسفاهة لعدة أسباب :

السبب الأول : الكتاب ينزله الله تعالى لصنع الناس بمنهج الله تعالى ، وقدر الله لا يتوقف على اقتراح البشر ، ولو كان الوحي ينزل تبعا لاقتراح البشر ما صنع شيئا ، ولما تغير في الأرض فساد ، ولا يصح تصور أن يقود البشر مسار الوحي ، ولا يجوز تدخلهم في نزول منهج الله للناس .

السبب الثاني : القرآن الكريم نزل لصنع أمة وبناء إنسان ، والأولى إزاء هذا الوضع أن ينزل منجما . كما يقول الله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۖ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾^(١) . ويقول سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۚ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾^(٢) .

السبب الثالث : ثبتت رسالة الرسول ﷺ بعدد من الأدلة قبل طلبهم ، فلا معنى لطلبهم بعد ذلك لأنه نوع من التعنت والرفض .

السبب الرابع : مواجهة الرأي بمناقشته ، ورده بما يكافئه أما طلب اليهود فهو هروب من الحوار ، وذلك بدعوتهم إلى أمور لا صلة لها بما دعاهم إليه ﷺ ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ ۖ أَىٰ أَنْ يَتَّبِعَهُمُ الْيَهُودُ مَعْرُوفُونَ ۚ بِهَذَا التَّعْنَتِ مِنْذُ تَوَاجَدَهُمْ مَعَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَدْ سَأَلُوهُ أَسْئَلَةً أَكْبَرَ ، وأكثر تعنتا من سؤالهم لك ، وانما اعتبر الله أسئلة اليهود المعاصرين لموسى عليه السلام أسئلة لليهود المعاصرين لمحمد ﷺ لأنهم جميعا على مذهب واحد ، وهو معاندة الرسل ، والتعنت معهم وكأن الخلف على خطى أسلافهم .

(١) سورة الإسراف ، الآية ١٠٥ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٣٢ ، ٣٣ .

﴿ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أى قال اليهود لموسى عليه السلام هذه المقالة ،

وذلك حينما خرج سبعون منهم مع موسى عليه السلام لملاقاة الله وقالوا له عليه السلام : نريد مشاهدة الله عيانا ، وهم ظالمون فى ذلك فهم يطلبون أمرا يحيله العقل ، لأن الله تعالى لا تدركه الأبصار ، وهذا ظلم لله ، ولأنفسهم ، ولموسى عليه السلام .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أى نزلت بهم صاعقة أهلكتهم بسبب

ظلمهم فى طلب رؤية الله عيانا ، والصاعقة نار محرقة تنزل من السماء تصيب من تنزل عليه .

﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْيَقِينُ ﴾ أى ان اليهود

اتخذوا العجل إلها وعبدوه ، بعد أن جاءتهم البراهين البينة الدالة على وحدانية الله وصدق موسى عليه السلام بسائر المعجزات التى ظهرت على يد موسى عليه السلام وبما حصل معهم من قدرة الله تعالى .

وفى هذا دلالة على تعنت اليهود وسفهمهم ، وعدم استفادتهم من الآيات البينة ، والبراهين الواضحة ... وأهمها :

- بيان قدرة الله تعالى فى وقوع الصاعقة بهم ، وفيها ما فيها من الدلالة على قدرة الله تعالى .
- وقوع العذاب بهم جميعا بقدرة غير مرئية دليل على أن الله تعالى منزه عن تصوراتهم المادية ، فليس الله مادة ولا عرضا .
- وقوع العذاب بهم دليل على صدق موسى عليه السلام ، فلقد حذرهم وأنذرهم وتحقق ما أنذرهم به .
- إخبار اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ بما حدث لأسلافهم زمن موسى عليه السلام دليل لهم على صدق محمد ﷺ .

(٦٢٥)

وايراد هذا الحديث لمحمد ﷺ تسليية له ، وتثبيت لقلبه إزاء تعنت اليهود وعنادهم فهذا هو موسى عليه فقد تعنتوا معه رغم ما أتاهاهم من معجزات قاهرة فقد سألوه أسئلة تدل على عننتهم ، فلقد جبل اليهود على العناد فلا تبتئس يا محمد بما يقولون ، ويفعلون .

﴿ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ﴾ أى لم نستأصلهم بكفرهم وعبادتهم للعجل ، ولكن عفونا عنهم بعد توبتهم أملا فى إيمان بعضهم ، أو أن يؤمن بعض من يأتى من أصلابهم .

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴾ أى آتينا موسى معجزات باهرة ، وقوة عالية ، ونصرناه عليهم نصرا كبيرا .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية تعنت اليهود مع محمد ﷺ فى طلبهم نزول القرآن الكريم لهم على صورة خاصة ليؤمنوا ، وهذا تعنت ومشاقة منهم لأن أدلة صدق رسول الله جاءتهم فلا داعى لهذه المطالب التى لا تجوز ... ولكنها سفاهة مع الرسل فحيلتهم وطبعهم واحد ، فلقد سبقهم أجدادهم زمن موسى ﷺ وطلبوا رؤية الله جهرا ، وقد عاقبهم الله تعالى بنار نزلت من السماء أحرقتهم ، فلما تابوا قبل الله توبتهم ... إلا أنهم بعد ذلك لما ذهب موسى لملاقاة ربه اتخذوا العجل إلها وعبدوه وعفا الله عنهم ، وأعطى موسى ﷺ قوة وسلطانا هزمهم كما هزم من قبلهم فرعون وقومه .

(٦٢٦)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيه

تشير الآيه إلى بعض الركائز ... منها :

الركيزة الأولى

التعريف ببعض طبائع اليهود

تشير الآيه إلى بعض صفات اليهود التى كانت فيهم قديما وحديثا ، وكأنها فيهم طبع ثابت ، وجبله مستمرة ... وأهم هذه الصفات :

التعنت : والمراد به ما يفعلونه بغيرهم ، فهم يطلبون أمورا من معارضيتهم لا تفيد شيئا ، ولا سبب لطلبها ... وكل همهم إعجاز الآخر ، وادعاء تمسكهم بالحق بزعم أن طلبهم لن يتحقق ، وقد بين الله أن هذا تعنت منهم لأن الباحث عن المعرفة ، يسترشد عنها ، ويبين حاجته ، ومن يريد النصح يقصد المصلحة لمن ينصحه ولنفسه .

اللجاجة : وهى كثرة المراء ، والتردد ، والإلحاح فى الطلب ، فقد آمنوا بموسى عليه السلام وخرج بهم من مصر ، ورأوا شق البحر ، وظهور طريق يابس فيه بقدرة الله ، وبعد ذلك يطالبون موسى برؤية الله جهارا ليؤمنوا بوجود الله تعالى وكأن كل ما حدث لا يدل على وجود الله ، وقدرته .

المادية : يميل اليهود إلى المادية فى حياتهم ، ولذلك طلبوا رؤية الله جهارا ، وتصوره سبحانه بطلا يصارع ، وجسدا ينزل ويعيش بين الناس ، وهذا منهم إفك وضلال مبين .

الأنانية : يتصور اليهود لأنفسهم حياة خاصة بين الناس ، ويقولون : نحن أبناء الله وأحباؤهم ، وأنهم أولياء الله خاصة ، وأنهم شعب الله المختار ... وهذه أنانية مفضوحة لأن الجميع أبناء آدم وآدم من تراب .

(٦٢٧)

إن اليهود فى طلبهم من موسى ومن محمد صلى الله وسلم عليهما لا يبحثون عن معرفة ، ولا يقصدون نصحا ، وانما يهدفون إلى إضاعة الوقت ، بطلب أمر مستحيل لن يتحقق .
ومن هنا ...

وجب على المسلمين أن يلحظوا هذه الطباع فى اليهود حتى لا يعيشوا بينهم به ، وحتى لا يحولوا الدعوة الجادة إلى سفسطة كلامية لا تفيد .

الركيزة الثانية

الله ينصر عباده المخلصين

تشير الآية إلى أن الله تعالى ينصر المخلصين من عباده ، ويقضى على التعنت والسفة الموجه ضدهم فقد نصر موسى عليه السلام على اليهود ، ومكنه منهم بسلطان قوى واضح ، وعلى نفس النمط ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به على الزمن كله .

إن اليهود قوم ماديون يتصورون الله جسدا ، ويظنون قوته رجالا وجنودا ... إلا أن الله تعالى أخذهم بنار نزلت عليهم من السماء فأحرقتهم وأعطى موسى سلطانا قويا ، أخزاهم به وهزمهم .
والمسلمون فى حاجة أن يكونوا عبيدا لله تعالى لينصرهم الله تعالى .

مخالفة اليهود للميثاق

يقول الله تعالى :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا إِلَيَّابَ سَجْدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

الآيات متواصلة فى بيان جرائم اليهود فقد نقضوا الميثاق ، ولم يطيعوا الله عند دخول الباب ، وفى الصيد يوم السبت ، مع أنهم أعطوا الله الميثاق المؤكد على الطاعة والاستسلام .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أن اليهود عاهدوا الله على أمور خالفوه فيها ، ولم يلتزموا بها وهى أن يدخلوا الباب ساجدين ، وأن لا يصطادوا السمك يوم السبت ، وقد رضوا بذلك وعاهدوا الله عليه .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ أى ورفعنا فوقهم الجبل المسمى بـ "الطور" فى سيناء ، وقربناه من رعوسهم حتى ظنوا أنه واقع عليهم ، وأصابهم الخوف ، وكان ذلك تحذيرا لهم حتى لا ينقضوا العهد الذى أخذه الله عليهم ، وذلك أن بنى إسرائيل امتنعوا عن قبول التوراة والعمل بما فيها ، فرفع الله فوقهم الطور حتى أظلمهم ليخافوا فلا ينقضوا الميثاق ، وكان العهد يتضمن ثلاث قضايا هى :

القضية الأولى : ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا أَبْوََابَ سُجْدَا ﴾ أى ادخلوا القرية

التي عرفهم الله بها ساجدين مطأطيء الرعوس معلنين بذلك خضوعهم لله تعالى قائلين "حطة" أى حط عنا يا ربنا خطايانا لكنهم دخلوا قعودا على إستمهم ، وقالوا : "حنطة" أى إعطنا برا وقمحا .

القضية الثانية : ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾ أى لا تتجاوزوا فى

يوم السبت ما أحل الله لكم ، ولا تتعدوا بفعل ما حرم عليكم فى هذا اليوم ... وقد حرم الله عليهم العمل والصيد فى يوم السبت لكنهم خالفوا وعملوا واصطادوا فى يوم السبت حينما رأوا كثرة السمك وظهوره .

القضية الثالثة : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أى أخذنا منهم عهدا

مؤكدًا شديدًا بأن يعملوا بما أمرهم الله تعالى ، وان ينتهوا عما نهاهم عنه ، ويستقيموا على دين الله تعالى الذى جاءهم به موسى عليه السلام .

وقد أعطى اليهود العهد على هذه القضايا ، والجبل فوق رعوسهم ، فعلموا قدرة الله تعالى ، وكان عليهم أن يلتزموا بما عاهدوا الله تعالى لكنهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه ، وخالفوا الله فى كل ما عاهدوه عليه .

إن طريقة أخذ الميثاق تشير إلى جبلة ثابتة فى نفوس اليهود ، فهم يخافون أكثر مما يعقلون ، ولا يستسلمون إلا إذا شعروا بقدرة وقوة من يتعاملون معه .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله تعالى رفع الجبل فوق رعوسهم حتى أظلمهم وخوفهم من سقوطه عليهم ، وقال لهم : ادخلوا الباب سجدا ، ولا تصطادوا يوم السبت والتزموا بدين الله تعالى وأمرأ ونهيا ، وأخذ منهم العهد والميثاق على هذه القضايا .

(٦٣٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيه

تتضمن الآيه عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الإيمان عهد مع الله ، والتزام بتعاليمه

بعث الله رسله بدينه فقاموا بالدعوة إليه ليلتزم من يؤمن بتعاليم الله تعالى ، والدين خشوعا لله ، وخضوعا له ، فى حب وخوف ، والتزام بالطاعة والانقياد ، وكأن الإنسان بإيمانه قد عاهد الله على أن يكون عبدا مخلصا لله تعالى مستمسكا بمنهج الله الذى ينزل الوحي به على رسول الله ﷺ .

فالإيمان بالله ليس شعارا لا معنى له ، وليس قولاً لا عمل معه ، وليس فكرا خاليا من المضمون والمحتوى .

ومن هنا ...

ننادى أتباع الرسل ، وعلى رأسهم المسلمون بضرورة أن يصدقوا فى إيمانهم مع الله ، ويلتزموا بكل ما جاء الدين به ، وأن يصيروا عبادا لله تعالى بمنهج الله الذى يبلغه رسول الله ﷺ للمؤمنين به .

الركيزة الثانية

كيفية التعامل مع اليهود

تشير الآيه إلى طبيعة ثابتة فى اليهود ، وهى أن الله يدعوهم إلى الحق ويناديهم بما يحقق لهم الخير والمصلحة ... ومع هذا فإنهم لا يفكرون ولا يتجاوبون إلا وهم فى حالة الخوف والحذر ، فقد أخذ الله منهم الميثاق والعهد والجبيل فوق رؤوسهم يكاد أن ينطبق عليهم .

ومن هنا ...

يتضح أن اليهود يحتاجون إلى أقوىاء يتعاملون معهم ، لأنهم لن يسمعو الضعيف وإن كان الحق معه ، قد أشار رسول الله ﷺ إلى هذه الطبع فقال ﷺ : إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد^(١) ولقد ابتلى العرب والمسلمون بهؤلاء اليهود فاستولوا على جزء غال من بلادهم ، وأعلنوا استعدادهم للحوار والمناقشة تضییعا للوقت ، ولعبا بالعقول ، فلقد صنعوا لأنفسهم قوة ، ومكنوا لسياساتهم مع قوى العصر الحديث ... وأحاطوا العرب والمسلمين بدسائسهم ، ومؤامراتهم ... وأوجدوا لأنفسهم صنائع تحميهم ، وتدافع عنهم .

إن مناقشة اليهود تحتاج إلى قوة تحميها ، وتحدد مسارها ... ولذلك يتساءل العقل المسلم عن هؤلاء المسلمين الذين يمكنهم التعامل الجاد مع اليهود بمنطقهم وخلقهم .

أين المسلمون بقوتهم ، وحقوقهم ، وجهادهم ؟
لن يستسلم اليهود لقوم ضعفاء ، ولن ينال العرب والمسلمون حقهم وهم يعيشون الضعف والهوان .

إن بيت المقدس ثالث الحرمين ، ومسرى رسول الله ﷺ وملكيته للمسلمين ثابتة منذ الفتح الإسلامي ، واستلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمفتاح بيت المقدس ... وتخليصه من الاحتلال الصهيوني واجب كل مسلم ومسلمة ، وأى تقصير في تحريره سيحاسب الله عليه .

(١) صحيح البخارى . كتاب الحدود . باب كراهية الشفاعة في الحد ج ٢١ ص ٤٩ .

(٦٣٢)

جرائم اليهود

يقول الله تعالى :

﴿ فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ وَكَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

الآية متصلة بما قبلها لأنها تتحدث عن جرائم اليهود في نقض الميثاق والكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء ، ودعواهم انغلاق الفهم عليهم لدرجة أنهم لا يفهمون شيئاً .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تبين جزءاً من جرائم اليهود مع الله ، ومع أنفسهم ، ومع الأنبياء .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

الآية تبين مخالفة اليهود للعهد والميثاق الذي أخذه الله منهم ... فلقد خالفوا ما اتفقوا عليه مع موسى عليه السلام ... ومن ذلك :

- ﴿ فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ ﴾ أى فبسبب نقضهم الميثاق ، وعدم التزامهم

بالعهد ، فلقد خالفوا الميثاق مخالفة كلية فبدل أن يدخلوا الباب ساجدين دخلوا جالسين على أستهم ، وبدل أن يقولوا : حطة أى حط عنا خطايانا . قالوا : حنطة ، وبدل التزامهم بدين موسى عليه السلام عارضوه وعملوا بنقيضه ... وبذلك النقض استحقوا ما حل بهم في الدنيا ، وما سيحل بهم في الآخرة .

- ﴿ وَكُفِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى وانكارهم الآيات الدالة على وجود الله وقدرته سواء كانت كونية ، أو إنسانية ، أو تنزيلية .
- ﴿ وَقَتِّلْهُمْ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أى وقتل الأنبياء بعد ثبوت نبوتهم بلا استحقاقهم له ولا سند لهم فى هذا القتل .
- ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أى وقلوبنا فى أغطية وأغشية تمنعها من الفهم فهى لا تفقه ما تسمعه ، وما يقال لها ... وذلك لأن ﴿ غُلْفٌ ﴾ جمع أغلف بمعنى الأغطية والغشاوة .
- وقيل : إن ﴿ غُلْفٌ ﴾ جمع غلاف ، ويكون المعنى ان قلوبهم مليئة بالعلم عليها أغلفة تحفظها ، فلا حاجة لها إلى ما يدعو إليه موسى عليه السلام .
- وقد رد الله عليهم بأن كفرهم هو سبب معاصيهم فقد طبع الله قلوبهم بالمعاصى حتى أسودت وعجزت عن اتخاذ موقف سليم ، وذلك فى قوله تعالى .
- ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ أى ليس الأمر كما يقولون ، بل طبع الله على قلوبهم بالمعاصى التى تجمعت نقاطها السوداء على القلب فطبعته بالران الذى ذكره الله فى قوله : ﴿ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(١)
- وذلك بسبب كفرهم ومعاصيهم لأن المعصية تأتى بمثلها، والكفر لا يأتى إلا بسوء .
- ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى بسبب معاصيهم لا يؤمنون بسائر الأنبياء مع إيمانهم بموسى عليه السلام ، أو يؤمن منهم عدد قليل كعبد الله بن سلام .

(١) سورة المطففين ، الآية ١٤ .

(٦٣٤)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أنه بسبب نقض اليهود لعهدهم مع الله وكفرهم بآيات الله ، وقتل الأنبياء ، وادعائهم انغلاق قلوبهم على الفهم ... بسبب ذلك طبع الله قلوبهم وأعماهم عن الحق فقل المؤمنون منهم ، وقصر إيمانهم على بعض الرسل دون بعض .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

فى الآية ركيزة هامة ... هى :

الجريمة لا تنفد

لقد كفر اليهود بالله فأمنوا ببعض الرسل ، وكفروا بالبعض الآخر ، وكان هذا الكفر سببا فى ضلالهم كله ، فقتلوا الأنبياء ، ولم يستفيدوا بآيات الله وغلقت قلوبهم بالران ، وختم الله على قلوبهم .
إن المعصية تجر مثلها ، والاستمرار فى المعاصى يبعد النفس عن الحق بعدا شديدا ويضعها فى مجال تأثير الشيطان الرجيم .
والأولى بالمؤمن أن يتوب عن سوء إذا وقع فيه ليتوب الله عليه ، وينقذه من ضلال الفاسدين .

(٦٣٥)

جريمة اليهود مع مريم ابنة عمران

يقول الله تعالى :

﴿ وَكَفَرَهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ۝١٦١ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

الآية تعدد جرائم اليهود مع مريم عليها السلام ، فهي متصلة بما قبلها .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية كفر اليهود واتهامهم لمريم ابنة عمران رضى الله عنها لولادتها ولدا بلا أب هو عيسى بن مريم عليهما السلام .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَكَفَرَهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴾ يعنى ويسبب كفرهم

وقولهم فى مريم حين رموها الزنى لولادتها عيسى ابنها من غير أب ، وهم بذلك أكدوا كفرهم بالله لأنهم أنكروا قدرة الله على خلق إنسان بلا أب ، مع أنهم يؤمنون بقدرة الله على خلق آدم عليه السلام بلا أب ولا أم .

وسمى الله قولهم فى مريم بأنه بهتان عظيم لأنهم قالوه بعد أن أظهر الله من المعجزات عند ولادة مريم ومن ولدها ما يثبت براءتها ومنزلتها ، ومن ذلك قول الله لها : ﴿ فَنادَئِهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝١٦٢ ﴾ وَهَئِئَإِيكَ يَجِدُ النَّخْلَةَ يُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا ۝١٦٣ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي

(٦٣٦)

عَيْنًا ۖ فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ
الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿١﴾ ، وقول ولدها وهو فى المهد : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي
الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ
عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ ﴾ (٢) ولذلك كان كذبهم كبيرا
متعمدا .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية استحقاق اليهود عذاب الله تعالى لأسباب عديدة ، منها قولهم
الكاذب فى مريم واتهامها بالزنى مع أن الله أحاطها بالمعجزات منذ ولادتها ،
وعند كفالتها وحملها ، وكل ذلك يؤكد براءتها ... ولكنهم قالوا ما قالوه ، وكان
قولهم سببا لما حل ويحل بهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

اصطفاء الله مريم "عليها السلام"

يشير الله إلى كفر اليهود بقولهم الكاذب فى مريم ، فلقد كذبوا عليها ،
واتهموها مع ظهور براءتها أمامهم بأكثر من سبيل .

(١) سورة مريم ، الآيات ٢٤ . ٢٦ .

(٢) سورة مريم ، الآيات ٣٠ . ٣٣ .

(٦٣٧)

إن الله تعالى يعلى قدر مريم عليها السلام ويرفع مقامها ، وقد حررها للعبادة ، واصطفاه على كثير من النساء .
لقد طهرها الله تعالى ، وجعلها أما بلا أن تتصل برجل ، واختار وليدها رسولا لبنى إسرائيل .

وعلى كل مسلم أن ينزل مريم عليها السلام منزلتها ، ويحيطها بالتقدير والتعظيم فهي من خير نساء العالمين ، واحدى القلائل ممن كمل عقلهم رضى الله عنها وأرضاها .

وحين يتحدث القرآن الكريم عن مريم عليها السلام يركز على بشريتها فى قوله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ۚ ﴾^(١) ، وإثبات شريتها عليها السلام لا يسئ إلى كرامتها ، ولا ينزلها عن مكانتها ، وإنما يظهر حقيقتها لرد مغالاة قوم جعلوها إلهاً أو أما لإله .

وللعقل أن يتساءل :

— لماذا لم تظهر هذه المنزلة لمريم عليها السلام قبل ولادة عيسى عليه السلام ، وقبل ظهور دعوته ؟

— وهل يوجد الله مع الحوادث ، وينتهى بنهايتها ، فحاشا لله ، فهو سبحانه رءوف رحيم : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۚ ﴾^(٢) .

(١) سورة المائدة ، الآية ٧٥ .

(٢) سورة الحديد ، الآية ٣ .

(٦٣٨)

جريمة اليهود مع المسيح عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿٦٣﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٦٤﴾ ۝ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

الآيات تتواصل مع ما قبلها فهي تعرض جريمة اليهود مع عيسى عليه السلام بعد أن كانت الآيات السابقة فى جرائم اليهود الأخرى .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان جريمة اليهود مع عيسى عليه السلام ، وتوضح كذبهم وضلالهم ، وتعرف بأن الله نجاه منهم بأن شبه به غيره فقتلوه ، ورفع الله عيسى إليه فهو سبحانه العزيز الحكيم يفعل ما يشاء .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ ادعت اليهود أنهم قتلوا المسيح بن مريم ، وصدقهم النصارى فى ادعائهم ، وكذبهم الله تعالى ، وبين لهم أنهم لم يقتلوه .

ومع أن اليهود لم يقتلوا المسيح فقد عد الله قولهم المزعم جريمة لأنه يدل على أنهم أرادوا قتله واتخذوا لذلك كافة السبل ، وفسدوا عليه عند الرومان وكذبوا عليه وافترخوا وكل ذلك جرائم وجهوها لعيسى عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ إن عد هذا من قول اليهود فهم يقولونه جريا على زعم عيسى لهم لا إيماننا به ، والأصح أنه من قول الله تعالى ليرفع به درجة المسيح ، ويعلى شأنه فى مواجهة قبائح اليهود .

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ ينفى الله ادعاءهم ، فهم لم يقتلوه ، ولم يصلبوه .

﴿ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ ﴾ أى ألقى الله شبه عيسى على غيره حتى قتل وصلب ونجى الله المسيح عليه السلام ، وفى إلقاء شبه المسيح على المصلوب أراء ... أهمها :

— ما رواه الطبرى بسنده عن وهب بن منبه أنه قال : أتى اليهود عيسى بن مريم ومعه سبعة عشر من الحواريين فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليه صورهم الله كلهم فى صورة المسيح .
فلما رأى اليهود ذلك قالوا : لقد سحرتمونا ، لتبرز لنا عيسى ، أو لنقتلنكم جميعا .

فقال عيسى لأصحابه : من يشتري منكم نفسه اليوم بالجنة .
فقال رجل من الحواريين : أنا ، وخرج إليهم وقال : أنا عيسى .
فأخذوه ، وقتلوه ، وصلبوه ، وظنوا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام وظنت النصارى ذلك أيضا ورفع الله عيسى إليه من يومه ذلك^(١) .

— أن اليهود لما علموا أنه حاضر فى البيت الفلانى مع أصحابى ، أمر يهوذا رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له : "طيطابوس" أن يدخل على

(١) تفسير الطبرى ج ٩ ص ٣٦٨ .

عيسى ويخرجه ليقتله الرومان ، فلما دخل عليه الرجل رفع الله عيسى من سقف الباب والغى شبهه على الرجل فظنوه هو فقتلوه .

— أنهم وكلوا بعيسى رجلا يحرسه ، ويراقبه ، وصعد معه إلى الجبل فرفع الله عيسى ، وألقى شبهه على الرجل فقتلوه ، وهو يقول : لست بعيسى^(١) .

— أن اليهود لما علموا أنه حاضر في البيت الفلاني مع أصحابه ، أمر يهوذا رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له "طيطابوس" أن يدخل على عيسى ويخرجه ليقتله الرومان ، فلما دخل عليه الرجل رفع الله عيسى من سقف الباب وألقى شبهه على الرجل فظنوه هو فقتلوه^(٢) .

— أنهم وكلوا بعيسى عليه السلام رجلا يحرسه ، ويراقبه ، وصعد معه إلى الجبل ، فرفع الله عيسى ، وألقى شبهه على الرجل فقتلوه ، وهو يقول : لست بعيسى .

وقد نفى الله القتل والصلب ليرد على اليهود والنصارى لأنه تصوروا الشبيه هو عيسى عليه السلام وصدقوا بصلبه وقتله وقيامته .

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ والذين اختلفوا في المسيح هم اليهود والمسيحيون فقد اختلفوا في حقيقته ، ونبوته ، والإلهيته ، وتكونه من عناصر إنسانية ، والإلهية كما اختلفوا في أى العناصر قتل في المسيح عليه السلام ؟ وأيها رفع ؟ ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ أى أنهم يشكون في أمور عديدة تتعلق بالمسيح ولا يقطعون بها مع اختلافهم حولها .

﴿ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ أى أن كل أقوالهم في عيسى عليه السلام ناشئة عن الظن الخالى من اليقين .

(١) تفسير الرازى ج ١١ ص ١٠٢ .

(٢) تفسير الطبرى ج ٩ ص ٣٦٩ .

(٦٤١)

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ أى لم يقتلوه بصورة يقينية ، ولم يصل ظنهم إلى درجة العلم ، وبقوا فى الشك والتوقع .

﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ أى أن الله طهره ، وأنقذه منهم ، ورفعهم من بينهم إليه سبحانه وتعالى بروحه وجسده .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ وكان الله قويا يفعل ما يشاء ، حكيما فى صناعته وتقديره .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآيتان أن قول اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه جريمة كاذبة ، فهم لم يقتلوه ، ولم يصلبوه ، ولكن الله شبه به غيره فقتلوه وصلبوه ، وظنوا أنهم قتلوا المسيح ، ولم يتيقنوا من ظنهم هذا ، واليقين أنهم لم يقتلوه .
لقد رفع الله المسيح إليه حيا بروحه ، وجسده ، ليطهره ، ويرفع شأنه ويبين لليهود ضآلتهم ، وجرمهم فى حق عيسى عليه السلام .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

نجاه عيسى عليه السلام من عدوان اليهود

نجى الله عيسى بن مريم عليهما السلام من اليهود الذين حاولوا قتله بأن شبه لهم .

وقد رفع الله المسيح إليه ، واليهود هم أعداؤه فى الأرض ، وبقي النصارى على تصور أن اليهود قتلوا المسيح وصلبوه .

(٦٤٢)

ومع ذلك برأوهم من دمه ، وأصدروا عفوا عن اليهود ، وهذا ضلال لا يجوز ...

إن المسيح لم يقتل ولم يصلب ، واليهود برءا من هذا الاتهام ، وإن كانوا مجرمين فى حق غيره .

ولكن :

- من أين للنصارى حق إعفاء اليهود ؟
- وما الذى فعله اليهود حتى يعفى عنهم ؟

الركيزة الثانية

سر القول بصلب المسيح

يرى النصارى أن ذنب آدم عليه السلام حين خرج من الجنة فى رقاب أبناء آدم وذريته إلى أن خلصهم عيسى عليه السلام منه بالقتل والصلب ، وبقبوله عليه السلام هذا القتل والصلب خلص النصارى من سائر ذنوبهم إلى يوم القيامة .

إن هذا الخلاص وهم لا يجوز ، لأنه يعنى أنه لا حساب لأحد من النصارى فقد خلصه المسيح من كل ذنب .

وما قيمة التدين بعد هذا الخلاص ؟

وهل ارتبط هذا الخلاص بما يعرف عند النصارى بأكل لحم المسيح ، والشرب من دمه ، والتعميد ، والاعتراف ؟ ...

وهل يتمتع اليهود بهذا الصلب وبخاصة من كان قبل عيسى عليه السلام ؟

إن الله يحاسب كلا بعمله ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وكل إنسان مسئول مسئوليته ذاتية .

(٦٤٣)

حتمية إيمان اليهود بعيسى عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة جرائم اليهود مع عيسى ومريم عليهما السلام جاءت هذه الآية لبيان أن أهل الكتاب جميعا سيؤمنون بعيسى عليه السلام حين نزوله في آخر الزمان ، وحين سيبعثه الله يوم القيامة شهيدا على الناس .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أنه ما من أحد من اليهود والنصارى إلا وسيؤمن بعيسى عليه السلام قبل أن يموت حين نزوله إلى الأرض في آخر الزمان ، وحاكما بشريعة الإسلام .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ أى وما من أحد من اليهود والنصارى .

﴿ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أى وما من أحد من أهل الكتاب

إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام حين ينزل في آخر الزمان ، ويحكم الناس بشريعة الإسلام ، والمراد بأهل الكتاب المذكورين الذين سيكونون معاصرين لنزول عيسى عليه السلام وعلى هذا المعنى يعود الضمير فى ﴿ مَوْتِهِ ﴾ إلى ﴿ بِهِ ﴾ ضمير عيسى عليه السلام ... ويجوز أن يعود الضمير إلى أى من أهل الكتاب ، والمعنى ما

(٦٤٤)

من أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن قبل موته بعيسى عليه السلام لأن الله تعالى يجلى الحقيقة لكل يهودى ونصرانى عند حضور ملك الموت فيؤمن به فى هذا الوقت^(١) .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أى ان عيسى عليه السلام سيشهد على أهل الكتاب يوم القيامة ، فقد بلغ الرسالة كما جاءته من ربه ، واتخذ أهل الكتاب مواقفهم منه ، وسيشهد عليهم عند الله تعالى ويقرر غلوهم فيه وفى دين الله تعالى ليجزى الله كل بما قدمت يداه .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن عيسى عليه السلام سينزل إلى الأرض فى آخر الزمان يحكم الناس بشريعة الإسلام ، وسوف يؤمن به كل واحد من اليهود والنصارى قبل أن ينتقل عليه السلام إلى ربه ، وسيشهد عيسى عليه السلام على أهل الكتاب بما فعلوا .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

المسيح عليه السلام على خطى محمد صلى الله عليه وسلم

تؤكد الآية على قضية إيمانية وهى عودة المسيح عليه السلام إلى الناس ونزوله إلى الأرض فى آخر الزمان ، بقتل المسيح الدجال ، ويحكم الأرض بشريعة الإسلام ، كما تؤكد الآية أنه ما من أحد من أهل الكتاب فى هذا الوقت إلا وسيؤمن بدعوه عيسى عليه السلام قبل ان يموت ، وقبل أن يموت الكتابى نفسه .

(١) تفسير الرازى ج ١١ ص ١٠٦ .

(٦٤٥)

وسيبعث الله الخلائق يوم القيامة ، وعليهم شهداء يشهدون عليهم بما عملوا فى الدنيا ، ويعاقبهم بعملهم فى يوم القيامة ، وسيشهد المسيح عليه السلام على أهل الكتاب هؤلاء الذين آمنوا به عليه السلام .

من جرائم اليهود

يقول الله تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ
بِالْبَاطِلِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

الآيتان متصلتان بما قبلهما فهما تعددان جرائم اليهود ، وتشير إلى عفو الله للمذنبين .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان بعض جرائم الله فقد ظلموا أنفسهم بصددهم عن سبيل الله ، وأخذهم الربا ، واستيلائهم على أموال الناس بالباطل ، ولذلك حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم ، وأعد الله لهم عذابا أليما .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ والذين هادوا هم اليهود ، وذلك لقولهم
لله تعالى : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى عدنا ورجعنا إليك ... ومع ذلك ظلموا

أنفسهم ، وارتكبوا العديد من المعاصى فى قولهم ، وفعلهم ، وكفرهم بآيات الله تعالى على ضوء ما جاء فى الآيات السابقة .

﴿ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ أى عاقبناهم فى الدنيا بتحريم بعض الطيات التى كانت حلالا لهم ، ليعودهم الحرمان ، ويبعدهم عن الشهوات ، ويعلمهم ضرورة إخضاع النفس لحكم الله تعالى .

ومن المعلوم أن الظلم نوعان : ظلم للخلق بالعدوان عليهم ، وظلم مع الدين بالإعراض وصرف الناس عنه ، وقد بينت الآية ذلك .
وهذان النوعان يتداخلان فى أعمال اليهود .

﴿ وَبَصَدَّتْهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ أى صدهم أنفسهم وغيرهم عن الحق ، وبذلك ظلّموا غيرهم .

﴿ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ أى انهم أكلوا الربا بصوره المختلفة مع أنهم نهوا عنه ، لأن المال لا يلد مالا لكنهم تعاملوا بالربا ، وأسلفوا الأموال ، وأخذوها مع زيادة بلا عمل ، وهذا هو الربا الذى نهاهم الله عنه ، وحرّمه عليهم .

﴿ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ أى واستيلاؤهم على أموال الناس بالرشوة والاحتكار ، والتحايل فى أكل أموال الناس .

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى واعد الله للكافرين من اليهود عذابا أليما يستحقونه لكفرهم وجرائمهم ، وظلمهم .

وقد بينت الآية أن الله أعد للكافرين ﴿ مِنْهُمْ ﴾ خاصة لبيان أن بعضهم ليس كافرا وهم الذين علم الله إيمانهم واسلامهم ، وقد بينهم فى الآية التالية عند الحديث عن الراسخين فى العلم منهم .

(٦٤٧)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن اليهود ظلموا أنفسهم بالأقوال والأفعال وكفروا بالله تعالى واستحقوا ما قضى الله عليهم به .

فحرم عليهم سبحانه الطيبات التي أحلت لهم في الدنيا وأعد لهم عذابا أليما في الآخرة بسبب تعاملهم بالربا وأكلهم أموال الناس بالباطل مع كفرهم وقتلهم الأنبياء ، وتعنتهم مع موسى عليه السلام .

- ٥ -

ركائز في الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

إقامة الحجة على اليهود

تقدم الآية أهم المفاصل التي نشرها اليهود بين الناس ، وأفسدوا كثيرا بها ... أهمها :

(أ) الصد عن سبيل الله ، وذلك بمنع الناس عن الإيمان ، فلقد قتلوا الأنبياء وحاولوا قتل عيسى عليه السلام ، وحاربوا كل نصراني آمن بعيسى عليه السلام ، مع أنه عليه السلام جاء لهم مكملًا لدعوة موسى عليه السلام .

واستمر صد اليهود عن الدين بعد مجئ الإسلام ، فلقد كانوا في المدينة بعد الهجرة شوكة في ظهر المسلمين فهم أنصار للكفر والضلال في كل وقت ومكان ، وقد عرفوا بكثرة صدهم الناس عن الحق ، والعمل على استغلال خيرات الآخرين .

(ب) التعامل الربا ، فلقد حرم الله الربا ، ودعا المسلمين إلى تركه وعدم التعامل به إلا أن اليهود استمروا يتعاملون بالربا ، وبخاصة مع غير اليهود ... ووضعو له الأنظمة والمؤسسات حتى ساد العالم كله ، وظهرت الرأسمالية بطغيانها المادى ، وسحقها للفقراء .

(ج) الاستيلاء على حقوق الآخرين ، سواء كان مالا أو عقارا حتى تمكنوا من الاستيلاء على وطن بأكمله تحت مزاعم عديدة دعموها بالأكاذيب وقووها بالإعداد والتخطيط .

وهؤلاء هم العرب والمسلمون يئنون من عدوانهم واستيلائهم على فلسطين ، وفيها بيت المقدس ثالث الحرمين ، ومسرى رسول الله ﷺ تحت دعاوى كاذبة ، وعلل واهية ، ولذلك عاقبهم الله فى الدنيا فحرم عليهم طبيبات أحلت لهم ، وأعد لهم فى الآخرة العذاب الأليم .

يجب على المسلمين أن يعرفوا فنون اليهود فى الحياة ، ويستعدوا لهم حتى يتمكنوا من التخلص منهم ، ومن مظلالمهم ، وعدوانهم ، ويحرروا بيت المقدس ويسترجعوا فلسطين من احتلال اليهود لها فهى أمانة فى عتق كل مسلم .

المؤمنون من اليهود

يقول الله تعالى :

﴿ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما تحدثت الآيات السابقة عن جرائم اليهود ، وكفرهم ، وظلمهم جاءت هذه الآية لتتحدث عن بعض اليهود الذين سيدخلون فى الإسلام ويصلح إيمانهم به .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تتحدث عن اليهود الصالحين الذين رجع علمهم ، وصدق إيمانهم ودخلوا فى الإسلام صادقين وحافظوا على عقيدته ، والالتزام بشريعته .

الدلالات اللغوية

﴿ لَكِنَّ الرَّاْسِخُوْنَ فِي اَلْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾ والضمير في ﴿ مِنْهُمْ ﴾ يعود إلى اليهود لبيان أن الله استثنى منهم طائفة صالحة ، هداهم الله للحق ، وآمنوا بالإسلام ، ودخلوا فيه صادقين وعلى رأسهم عبد الله بن سلام ﷺ .

و ﴿ لَكِنَّ ﴾ تفيد الاستدراك والاستثناء ... والراسخون في العلم هم الثابتون على الحق ، البالغون في المعرفة حد البصيرة النافذة ، والعقول الصافية وهم الذين أسلموا من أهل الكتاب لأنهم بعلمهم المتين وصلوا إلى الحق فأمنوا بمحمد ﷺ وصدقوه ، وصاروا مسلمين ، وعلموا أن الخير في إيمانهم .
وقد دلت الآية أن رسوخ هؤلاء في العلم ثابت بالعلم والتطبيق العملي أما العلم فقد أشار الله إليه بقوله :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ عطف على الراسخين بيانا لهم ، فهم الذين يؤمنون بالله ورسله جميعا ، وهم الراسخون في العلم .

﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ الجملة خبر للمذكورين لبيان ما يؤمنون به فهو الحق ، فهم يؤمنون بالقرآن الكريم المنزل إليك يا محمد ، ويخالفون بذلك غيرهم من اليهود .

﴿ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أى ويؤمنون بسائر الكتب المنزلة من قبلك على رسل الله تعالى جميعا .

وأما العمل والتطبيق فقد بينه الله تعالى بقوله : ﴿ وَالْقِيَمِينَ اَلصَّلَاةَ ﴾ نصب على الاختصاص . والمعنى وأخص منهم المقيمين الصلاة ، وانما خص الصلاة بالتنبيه لأنها عمود الدين ، وأساس التقوى من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين .

﴿ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ عطف على ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ لأنه من صفاتهم وأعمالهم ، فهم بصدق إيمانهم يؤدون العبادات كاملة ، ويلتزمون الشريعة والأخلاق .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى أنهم يؤمنون بكافة أركان الإسلام وعلى رأسها توحيد الله تعالى ، والإيمان اليوم الآخر وهما القضيتان الرئيسيتان فى العقيدة ومعهما يؤمنون بكافة الأركان .

﴿ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى أن هؤلاء الراسخين فى العلم المؤمنين بالله ، المستقيمين على منهجه عملا وخلقاً رفع الله قدرهم ومنزلتهم ، وسيؤتيهم ما يستحقون من أجر عظيم لا يدرك كنهه إلا الله سبحانه وتعالى .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن من اليهود من يبتعد عن ضلالهم، وجرائمهم ، وكفرهم وهم الثابتون فى العلم ، الأقوياء فى الفهم ، وهم المؤمنون الصادقون الذين يؤمنون بالله ، ويقومون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويصدقون بجميع أركان الإيمان ، أولئك لهم عند الله أجر كبير جزاء صدقهم وإيمانهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تشير الآية إلى عدد من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

فضيلة الإيمان بجميع الرسل

أنزل الله الإسلام خاتما لسائر الأديان مصدقا لصحيحها ، ومصححا لما حرف فيها ، ومكملا بما يحتاجه الناس .

وقد دعا الله الناس جميعا للإسلام فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر .
وقد وعد الله من آمن بجميع الرسل بالثواب الجزيل ، وبين أنهم من
الراسخين فى العلم ، الثابتين على الحق ، المستحقين لأجر عظيم يكافئهم به
الله رب العالمين .

إن الإيمان بجميع الرسل يظهر الإيمان الحق ، لأن كل الرسل أوحى الله
إليهم ، وأيدهم بمعجزاته ، ولذلك كان من الأولى الإيمان بهم جميعا ... لأن
الكفر ببعضهم ضحالة فى العقل ، ونقص فى الفهم والإدراك .

الركيزة الثانية صلة العلم بالإيمان

اشتهر بين الناس مقالة تحمل دعاء هو "اللهم إيماننا كإيمان العوام"
لتصورهم أن العامة أكثر تسليما ، وأحسن التزاما ، وبعدا عن الجدل والمراء .
وايماننا بدور العلم فى الإيمان وجب الدعاء بـ "اللهم إيماننا كإيمان العلماء"
فهم بعقلهم يفهمون ، ويعلمهم يدركون الحقائق ويميزون الحق من الباطل .
وأيضا فقد دخلت الخرافة حياة العوام ، وسيطر عليهم الجهل ، ولعب بهم
شياطين الإنس والجن ، وصاروا سخرة السادة الكبار يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(١) وحين يسود الجهل يحتاج الناس إلى العلماء
الفاهمين . يقول الله تعالى : ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٢) ...
والراسخون فى العلم هم الثابتون على الحق ، المدركون للحقيقة ، الذين
يرون حتمية وجود خالق لهذا الكون ، يحكمه ، ويدبر كافة شئونه ، وتتجه إليه

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

(٢) سورة النحل ، الآية ٤٣ .

المخلوقات بالطلب ، والدعاء ، والرجاء ، والعبادة .
 إن هذه الحقائق تؤكد ضرورة العلم للإيمان ، ولذلك كان العلماء ورثة
 الأنبياء ، واليهم يرجع البيان والتبليغ .
 وفي مقدمة العلماء يكون الدعاة إلى الله ، ينشرون الإسلام ، ويدافعون عنه
 ويواجهون الصادقين عنه من اليهود ، ومن غيرهم ... ولا بد أن يكونوا قدوة
 صالحة لغيرهم حتى يؤتيهم الله أجورهم ويدخلهم مدخلا كريما فى جنات النعيم .

وحدة الدين عند الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا
 إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
 وَمُوسَى وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

يقول ابن عباس : قال سكين وعدى بن زيد : يا محمد ما نعلم أن الله
 أنزل على بشر من شئ من بعد موسى فأنزل الله الآية .
 وقيل : الآية جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم
 كتابا من السماء جملة واحدة فأجاب الله عز وجل عن سؤالهم بهذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما تحدثت الآيات السابقة عن جرائم اليهود ، وعن من آمن منهم جاءت
 هذه الآية لتبين أن دين الله واحد أوحى به إلى رسله جميعا .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٧٣ .

(٦٥٣)

- ٣ -

موضوع الآية

توضح الآية وحدة دين الله تعالى ، فلقد أوحى الله به إلى رسله جميعا على هيئة واحدة ، وفي موضوع واحد هو دين الله تعالى .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾

والآية خطاب لمحمد ﷺ ليعلم ويعلم غيره أن الله أوحى إليه كما أوحى للأنبياء من قبله ، والوحي هو الإعلام في خفاء ، وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ وهو مع أصحابه وزوجاته فيشاهدون ظواهره ، ولا يسمعون شيئا حتى يخبرهم به رسول الله ﷺ .

وقد بدأت الآية بذكر نوح عليه السلام لأنه أبو البشرية الثاني ، والفترة بينه وبين آدم عليه السلام أب البشرية الأول كان الناس على التوحيد ، وبذلك أخذت الدعوة إلى الله صورة جديدة بدءا بنوح عليه السلام .

ومراد الآية إظهار أن وحي الله ثابت لجميع الأنبياء ولا يصح الإيمان ببعض الرسل ، والكفر ببعض آخر .

والمعنى : أنكم يا معشر اليهود تقرون بنبوته نوح وجميع الأنبياء المذكورين في الآية ، وقد أوحى الله إلى هؤلاء الأنبياء ، وأنتم يا معشر اليهود معترفون بذلك ، وما أنزل الله على أحد من هؤلاء المذكورين كتابا جملة واحدة مثل ما أنزل على موسى عليه السلام وقد آمنتم بهم ، فلم لا تؤمنون بمحمد ﷺ مع ان القرآن الكريم أنزل عليه منجما كإخوانه الرسل ؟

وقد بدأت الآية بنوح عليه السلام لأنه أول نبي بعث بشريعة ، وأول من أنذر على الشرك ، وقد أنزل الله عليه عشر صحف منجمة ، وهو أول رسول عذبت

أُمته لردهم دعوته ، وهو أطول الأنبياء عمرا ، وقد بقى فى قومه ، فلم ييأس وصبر على أذى قومه طول عمره ، ودعاهم بكل وسائل الدعوة وطرقها .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾

وهؤلاء هم ذرية إبراهيم عليه السلام ، وهو يعرف بأبى الأنبياء لأن الأنبياء من بعده من صلبه ، فى شطرين ، من زوجته "سارة" و "هاجر" .
فمن "سارة" كان أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام .
ومن "هاجر" كان محمد صلى الله عليه وسلم ، والأسباط هم أبناء يعقوب عليه السلام وعددهم اثنا عشر .

﴿ وَعِيسَىٰ وَيُوحَنَّا وَهَارُونَ وَسُلَيْمَنٌ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴾

وذكر هؤلاء الأنبياء لبيان فضلهم ، وعظيم قيامهم بالدعوة .
وخص داود بذكر اسم كتابه "الزبور" مع خلوه من الأحكام لما فيه من تسبيح ، وتقديس ، وتمجيد ، وثناء على الله عز وجل ، وقد نزل الزبور منجما ، وقد بلغت سوره مائة وخمسون سورة .

وكان داود عليه السلام يخرج إلى البرية ، ويقرأ كتابه ، وكانت الخلائق تعجب بقراءة داود ، وتخرج خلفه لتستمع لقراءته فى صفوف متراسة وراءه فى الصف الأول يصطف العلماء ، ثم عامة الناس ، ثم الجن ، ثم الشياطين وكانت الطير ترفرف فوق الناس ، وتأتى الدواب وتقوم بين يديه ... واستمر الحال على ذلك حتى كثر الذنب فتوقف .

ولم تورد الآية موسى عليه السلام لأن التوراة نزلت عليه جملة واحد فأيراده لا يفيد القضية التى نزلت الآية لإثباتها .

والتمائل فى الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر الأنبياء يظهر فى أمرين :
الأمر الأول : هو نزول الكتاب الموحى به منجما .

(٦٥٥)

الأمر الثاني : وحدة العقيدة أثر لوحدة المصدر ، ووحدة موضوع الاعتقاد ومن المعلوم أن وحدة الدليل تؤدي إلى وحدة المدلول عليه .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله تعالى أوحى لرسله جميعا ، وأنزل لهم كتباً بطريقة منجمة ، والواجب الإيمان بالقرآن الكريم كما تم الإيمان بكتب الرسل السابقين وأيضا فإن نزول الوحي بعقيدة واحدة يقتضى الإيمان بها عند سائر الرسل لقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۗ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾^(١)

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الدعوة عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية المماثلة فى الاستدلال

حينما عارض اليهود رسالة محمد ﷺ بدعوى أن القرآن الكريم نزل منجما بينما التوراة نزلت دفعة واحدة عرفهم الله تعالى ببطلان استدلالهم بهذه الآية ، وفيها عدة جوانب فى الرد :

الجانب الأول : محمد ﷺ يماثل الرسل جميعا بظهور المعجزات على يديه ، وقد آمنتم بهؤلاء الرسل ، فلا حجة لليهود فى الكفر بمحمد ﷺ .

(١) سورة الشورى ، الآية ١٣ .

الجانب الثانى : أنزل الله الكتب على سائر الرسل غير موسى عليه السلام منجمة ، وقد آمن بهم اليهود ، فلم يكفرون بالقرآن الكريم مع أنه يشبه الكتب السماوية فى التحجيم !!!

الجانب الثالث : فى قوله تعالى : ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ إشارة إلى الوحي لجميع الأنبياء من بعد نوح عليه السلام إلا أن الله خص إبراهيم عليه السلام وبينه بالذكر لبيان أن إسماعيل عليه السلام رسول الله كإسحاق عليه السلام الذى آمنتم به ، والواجب الإيمان بالرسول من ذريتهما لا كما فعل اليهود . فقد آمنوا بأبناء إسحاق ، ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الجانب الرابع : أخبار القرآن الكريم عن هؤلاء الرسل غيب يدل على أنه جاء من عند الله تعالى ، ويثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم .

الجانب الخامس : إيمان المسلمين برسل الله السابقين دعوة إلى أن يؤمن الآخرون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الإيمان بالكل أولى من الإيمان ببعض دون البعض .
وهكذا ...

نرى الاستدلال بالمثل لإثبات أحد المثليين برهان قوى لأن الدعوة إلى الإيمان بشئ سبق الإيمان بمثله أمر يسير ، لأن الإيمان السابق يعد دليلا لما يماثله بعد ذلك .

ومن هذا الباب إيراد القصص القرآنى ، وذكر مواقف الأتوام مع الرسل فإنها تعد دليلا لدعوة الإسلام .

الركيزة الثانية

الرسول هم قدوة الدعاة

أوردت الآية عددا من الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيان فضلهم ، ودعوتهم إلى الله تعالى ويعتبر الرسول قدوة الدعاة . يقول الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ

(٦٥٧)

الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَفْتَدِهٖ ۖ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنِّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ .

والدعاة يمكنهم أن يستفيدوا من هؤلاء الرسل فى عدة جوانب دعوية ، فهم يعرفون منهم طرق عرض الدعوة ، والجدل حولها ، كما يمكنهم معرفة أساليب الدعوة ، وطرقها إلى الناس ... ويمكنهم معرفة طبائع المدعويين ، وطرق التأثير فيهم ، ويمكنهم معرفة جوانب العقائد ، وأهم الشبه التى تثيرها العقول حولها ، ومنهج إقناعهم بها .

ولعل أهم ما يستفيدة الدعاة هو التحمل ، والصبر على دعوة الناس وإدراك أن وظيفتهم هى البلاغ المبين ، والبيان الصادق الأمين فى خلق كريم وعلم دقيق ، وحب للناس ، والتزام بتعاليم الله تعالى .

منهجية الإيمان بالرسول

يقول الله تعالى :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ﴿١﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

لما نزلت الآية السابقة قال اليهود : لم تذكر الآية السابقة موسى عليه السلام فنزلت الآية ، وبيّنت أن موسى عليه السلام من رسل الله ، وقد نزل الوحي عليه ، وكلمة الله على وجه خاص به (٢) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٧٤ .

(٦٥٨)

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما ذكرت الآية السابقة أن نزول الوحي بالكتب على رسل الله كان منجما ما عدا موسى عليه السلام الذى لم يذكره مع الرسل جاءت هذه الآية لتبين أن هناك رسلا لم يقصصهم القرآن الكريم ، وأما موسى عليه السلام فهو رسول الله ، وقد كلمة الله تكلিما مباشرا .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أن رسل الله عديدون منهم من قصهم الله فى القرآن الكريم ، ومنهم من لم يقصصهم ، وتبين أن الله كلم موسى عليه السلام تكليما مباشرا .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من الرسل من قصصنا هم عليك من قبل وسميئناهم ، وعرفناك أخبارهم ، وأخبار قومهم .
﴿ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أى ورسلا آخرين لم يذكر الله لك أسماءهم ، ولم يعرفك بأخبارهم وذلك بإرادة الله تعالى .
ولذا وجب الإيمان بإرسال الله رسلا عديدين لا يحصيهم إلا الله تعالى إجمالا ، ويجب الإيمان تفصيلا بمن قص الله أمرهم .

﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ أى خاطبه مخاطبة من غير واسطة ، وهذا رد آخر لليهود الذين يطالبون بنزول القرآن الكريم جملة واحدة ... فكما أن الله خص موسى عليه السلام بالتكليم ، وشرفه به ، ولم يكن ذلك قادحا فى نبوة غيره

(٦٥٩)

من الأنبياء فكذلك نزول التوراة على موسى ﷺ جملة واحدة لا يقدح فى نبوة غيره ممن نزل عليهم الكتاب منجما قبله أو بعده .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله قص فى القرآن الكريم بعض الرسل ، ولم يقصص بعضا آخر ، وقد أرسل الله موسى ﷺ وفضله بتكليمه مباشرة ، ومن الواجب أن لا يكون بما تميز به موسى ﷺ عذر لليهود فى عدم إيمانهم بمحمد ﷺ وبكل ما جاء به .

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآية

تبين الآية ركيزة هامة ... هى :

الإيمان بسائر الرسل ضرورة إيمانية

أرسل الله رسله للناس ، وكلفهم تبليغ دينه لهم ، وعدد الرسل كبير لا يحصيهم إلا الله تعالى ، والواجب الإيمان بهم جميعا على أن الإيمان بهم يكون بصورة **مجملة** ، بمعنى أن نؤمن بأن الله أرسل رسلا عديدين عصمهم من الخطأ ، وأنزل عليهم كتبه ودينه ، والله هو الذى يحصى عددهم ، ويعلم حقيقتهم ، ويجب أن يؤمن إيماننا تفصيليا بمن ورد ذكرهم ، وجاء قصصهم فى القرآن الكريم ، وعددهم خمس وعشرون رسولا ذكر الله منهم ثمانية عشر رسولا فى قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۖ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٢١ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٢٢ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ

(٦٦٠)

كُلُّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ ^(١) وذكر الباقيين فى سور أخرى ، وقد جمع عالم الرسل
جميعا فى قوله :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية .: من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هود شعيب صالح وكذا .: ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

مهمة الرسل مع الناس

يقول الله تعالى :

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّعَلَّاءَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ
وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الرسل وذكرت أن منهم من قص
القرآن الكريم سيرته ، ومنهم من لم يقصص جاءت هذه الآية لتوضيح دور
الرسل مع الناس .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تبين وظيفة الرسول بين الناس فقد أرسل الله رسله للتبشير والإنذار
والبلاغ المبين قطعاً لأعداء الناس حتى لا يتعللوا بعدم إرسال الرسول إليهم ،
فقد أرسل رسله يعرفون بالدين ، ويدعون الناس إلى ما يجب عليهم .

(١) سورة الأنعام ، من الآية ٨٣ . ٨٦ .

(٦٦١)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أى أن الله أرسل رسله للناس يدعون إلى دين الله ، ويبلغونهم الرسالة بأساليب متعددة ، تبشر المطيعين ، المصدقين للرسول الملتزمين بدين الله تعالى بالثواب الجزيل ، والعاقبة الحسنة ... وتتنذر العصاة المخالفين المكذابين للرسول بالنار والعذاب الأليم .
والمعنى المقصود هو بيان دور الرسول مع قومه ، فهو يبلغهم دين الله الذى جاء به لهم بكل ما فيه من عقيدة وشريعة وخلق ، معتمدا على البيان ، والأسلوب المؤثر ... ومنه استعمال تبشير المطيعين بالثواب الجميل ، وإنذار العصاة بالعذاب الأليم .
والتبشير والإنذار يتم فى كتاب الله تعالى سواء نزل منجما ، أو جملة واحدة ، فلم التعنت لنزول القرآن الكريم منجما ؟!

بل إن إصلاح أحوال الناس ، وتبليغهم الدين ، والتأثير فيهم يتم أكثر بنزول الكتاب منجما ... وذلك أن النفوس قبل بعثة الرسول ، وانزال الكتاب لم تكن تعرف شيئا من العبادات ، أو أحكاما شرعية للحياة ، أو مكارم الأخلاق التى يدعو إليها الدين ... فلو دعوا وحالتهم هكذا ، ونزل الكتاب دفعة واحدة ، وجاءهم الدين مرة واحدة لثقل عليهم الدين ، ونفروا من تعاليمه وأيضا فإن الكتاب المنزل يعيش مع حياة الناس بوجههم ، ويهديهم ، ويعرفهم بمراد الله تعالى ... والأولى لذلك أن تنزل تعاليم الله شيئا فشيئا كلما حدث أمر نزل حكمه ، وكلما جد جديد نزل القرآن الذى يناسبه .

يقول ﷺ : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۖ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۝﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾^(١) .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٣٢ ، ٣٣ .

﴿لَعَلَّأَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أى حتى لا يحتج

الناس على الله فى عدم تدبيرهم بأنهم لم يروا نبيا يعلمهم ، ويرشدهم ، ويوقظهم من غفلتهم ، ويساعدهم على النظر والتأمل ، ويوقفهم على تعاليم الله تعالى التى يعجز العقل عن الوصول إليها وهذا دليل على أن التكليف يبدأ بالشرع .

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أى وأن الله تعالى قوى فى عقابه وحسابه

، حكيم فى إرساله الرسل ، وانزال الكتب منجمة ، أو دفعة واحدة .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله يرسل الرسل لتبليغهم دين الله تعالى بوسائل وأساليب لها تأثيرها فى الناس ، وذلك بتبشير المؤمنين المطيعين ، وانذار الكفار والعصاة وبذلك تسقط حجة الضالين ولا يقولون : لم يأتنا رسول يدعونا . فكيف لنا أن نكون موحدين مؤمنين ؟ ولذا كانت حكمة الله تعالى أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

البلاغ المبين هو وظيفة الرسول والدعاة

الرسل آحاد من الناس اصطفاهم الله تعالى ، وصنعهم ، وبعثهم ، وأنزل عليهم الوحي لتبليغه ، ونشر دين الله فى العالمين ... ومهمة الرسول هو حمل هذه الأمانة وإيصالها إلى من نزلت لهم فإن بلغوها فقد قاموا بما جاعوا له .

إن هذا البلاغ يجب أن يكون واضحا ، يجمع حوله الناس ، ويؤدى إلى تحريك عوامل الفهم والإدراك فى المدعوين ، ويعرف جوانب الدين وأحكام الله فى كل

جوانب الحياة ، ويبشر بما فى الآخرة من نعيم ، ويخوف مما فيها من جحيم .
والدعاة هم خلفاء الرسل فى الدعوة والبلاغ ... ولذلك يجب عليهم تبليغ
ما هم مكلفون به بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدل الهادف الجميل وعليهم
أن يبذلوا أقصى الجهد ، ويصبروا على مشاق الدعوة ، وصعوبة العمل فهو فى
سبيل الله تعالى .

الركيزة الثانية

قطع أعمار الناس

بعث الله رسله للناس قطعاً لأعمارهم ، وإقامة الحجة عليهم يوم القيامة
فلقد رزقهم الله العقل ، ووضعهم فى إطاره المحدود ، فهو مناط الخطاب ،
وموطن الفهم والإدراك ... وليس له فى قضايا الغيب كشف أو إدراك .
ولذلك جاء الرسل بالدعوة ليتم الحساب بعد الرسالة ، وبعد توجيه العقل
لمراد الله تعالى ليقوم بدوره مع الوحي الذى حمله الرسل إليه وليس له أن يغير
فيه ... وكل ما عليه أن يفهمه كما نزل ، وبحمله إلى الناس كما أمر الله ... ولا
يخرج عن إطاره ، ويستمر فى تفهم الوحي وإيصاله للناس .
إن مهمة الدعوة هى البلاغ المبين ، والالتزام بالإسلام الذى حملوا
مسئولية إبلاغه للناس وفق منهج الله تعالى .
أن الله خلق الناس ، وعلم قدراتهم ، ومن العدل التعامل مع هذه القدرات
المخلوقة ، وحتى لا يكون لهم حجة أنهم لم يعرفوا مراد الله فى حياتهم ...
وبذلك يكون لهم حجة .

إن من عدل الإسلام إسقاط التكليف ما لم يكن بلاغ ، وإبقاء حجة للناس
ما لم يأتهم رسول .

وبإرسال الرسل تنقطع الأعذار ، وتقف العقول فى إطارها ، ويعمل الناس
وفق المنهج الذى نزل لهم من عند الله الرحمن الرحيم .

عدم التأثر بأقوال الضالين

يقول الله تعالى :

﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ
وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة كفر اليهود بالقرآن الكريم لنزوله منجما جاءت هذه الآية لتبين أنه لا قيمة لقول اليهود هذا ، لأن الله يشهد بصدق ما أنزل إليك فقد أنزله على علم تام ، وحكمه البالغة لتبلغه للناس ، وتصلحهم به .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله يشهد بنبوتك يا محمد ، ويشهد بما أنزل إليك فقد أنزله تاما يسعد الناس ، ويحيى الوجود ، ويشهد الملائكة بذلك ، وهذا كاف فى الرد على هؤلاء اليهود ، وفى إثبات صدق القرآن الكريم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ لما أنكر اليهود نبوة محمد ﷺ وأبوا الإقرار بنزول الوحي إليه قال الله له : لا يهملك جحود هؤلاء اليهود ، وكفرهم بما أوحيت به إليك ، لأن الله يشهد لك بالنبوة ، ويشهد بما أنزل إليك من كتابه ، ووحيه ، وذلك بالبيان ، والبلاغ .
فالآية استدراك على مفهوم ما قبلها ، ورد لتعنت اليهود وصلفهم .

﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ أى أنزل القرآن الكريم إليك ملتبسا بكل ما يشمله من علم فالله سبحانه عالم بتأليفه ، ومضمونه ، واعجازه ، وغايته ، وموقف الخلق منه وقت نزوله ، وفى كل وقت ، فلا تبتئس ، فالله يكفيك .

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ أى والملائكة أيضا يشهدون بنبوتك ، ويؤمنون بإنزال الكتاب إليك ، فهم جاملوه ، وهم الذين أوصلوه إليك ، وهم خلق مطيعون بالله : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾^(١) ومنهم حملة الوحي الذى بلغوك القرآن الكريم ، وكل ما أوحى الله إليك به .

وايراد شهادة الملائكة هنا يفيد عدة أمور :

الأمر الأول : إثبات شهادة أمينة صادقة ، لا تقول إلا الحق فقد أفاض الله عليهم ، وأشاع فى مراتهم المجلوة العلم بما يوحى به إلى رسوله ، فشهادتهم لا تكون إلا حقا .

الأمر الثانى : بيان أن إثبات نبوة النبى تحتاج إلى إعمال العقل مع أدلة الدعوة الهادية ، كما تحتاج إلى التسليم والانقياد لمن لديه علم بالله تعالى ، وقد أهمل اليهود عقولهم فلم ينظروا فى شئ من أدلة صدق النبى ﷺ وهى عديدة ولم يتدبروا فى دعوتهم إلى الله تعالى ، فبقى عليهم أن يستسلموا لشهادة غيرهم من الملائكة ، ، فهم يثقون فيهم ، وفى شهاداتهم .

الأمر الثالث : بيان شهادة كثير من الخلائق بصدق محمد ﷺ ، وقد عزل اليهود أنفسهم بتكذيبهم . فالملائكة تشهد بالحق ، وصالحو الجن يشهدون بالحق والمؤمنون يشهدون بالحق ... وانكار اليهود وسط كل هؤلاء لا قيمة له .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِدًا ﴾ أى وحسبك يا محمد أن الله يشهد لك فهو كافيك وان لم يشهد لك غيره ، فمن شهد له رب العالمين فلا ينبغى له أن يلتفت إلى تكذيب هؤلاء اليهود وغيرهم .

(١) سورة التحريم ، الآية ٦ .

(٦٦٦)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله تعالى يشهد لرسوله محمد ﷺ بالصدق في النبوة ، وفي نزول الكتاب ، فقد أنزل القرآن الكريم محاطا بعلم الله تعالى ، ولذلك يشهد الملائكة جميعا بما شهد الله به ، وهذا كاف في إرضاء النبي ﷺ فمن شهد الله له لا يهتم بشهادة غيره بعد ذلك .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

ثبوت الوحي إلى رسول الله ﷺ

بعث الله رسوله للناس ، وأنزل عليه القرآن الكريم ، وقد حاول اليهود رد القرآن الكريم بدعوى أنه أنزل على رسول الله ﷺ منجما ، وقد ثبت الله رسوله وحضه على عدم التأثر بمزاعم اليهود ... ويكفيه أن يشهد الله بصدقه فقد أنزل سبحانه القرآن الكريم من عنده محاطا بكل صيانة وحفظ ، والملائكة يشهدون بذلك .

إن ثبوت القرآن الكريم واضح بأدلته ، فلقد تحدى الرسول معارضييه أن يأتوا بمثل القرآن الكريم فعجزوا ، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ، وتحداهم بأن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا فدل عجزهم على أن القرآن الكريم كلام الله ، وإن محمدا رسول الله .

إن اليهود هم أعداء الإسلام ، ولن يتوقفوا عن الهدم ، ونشر الضلال والفساد بشبه واهية كنزول القرآن منجما مخالفا للتوراة التي نزلت دفعة واحدة ... ونسوا أن الكتب السماوية قبل التوراة نزلت منجما وهم يؤمنون بها .

إن مواقف اليهود العدائية عديدة ، ويجب الحذر منهم ، والعمل على رقي الأمة ، والمحافظة على دينهم وقيمهم .

أفعال الكافرين ومصيرهم

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿٣٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٩﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات ما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضلالات اليهود ، وجحودهم رسالة محمد ﷺ وانكارهم نزول القرآن الكريم جاءت هذه الآيات لبيان مصير الكفار جميعا ، وعقوبتهم التى يستحقونها .

- ٢ -

موضوع الآيات

الآيات تبين أن الذين كفروا بالله تعالى ، وصدوا غيرهم عن دين الله تعالى قد زاد ضلالهم ، وتعمق فسادهم كثيرا ... فقد ظلموا أنفسهم وغيرهم بما فعلوا ، ولذلك قضى الله عليهم بعدم المغفرة ، وعدم الهداية إلى الصواب وانما يدفعهم إلى طريق جهنم ليدخلوها وهم مستحقون لها ، وذلك أمر يسير على الخالق فكل ما يريده سبحانه بقضيه بـ "كن" .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۖ ﴾ أى أن هؤلاء الجاحدين

لوحى الله تعالى قد قاموا بعملين :

الأول : ﴿ كَفَرُوا ﴾ أى انهم أنكروا وجود الله تعالى وانكار نبوة أنبيائه ، وانكار الوحي إليهم .

الثانى : ﴿ وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى أبعدوا غيرهم عن الإيمان ، ومنعهم من اعتناق الإسلام ، بنشويه الدليل ، واثارة الشبه ، وانكار الحق ... وبإنكار نعت محمد الموجود فى كتبهم ... وبغير ذلك .
والصد هو صرف الناس عن الحق ، ومنعهم من فهمه ، والوصول إليه وعليه كان فعل اليهود .

وهؤلاء القوم بعملهم هذا ضلوا أنفسهم وأضلوا غيرهم ، وصار من الصعب إقلاعهم عن الضلال ... ولو أفلحوا عنه لبقى عليهم إثم من أضلوهم .
﴿ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أى توغلوا فى الضلال ، وعاشوا فى سراديبه ، وظلماته وصاروا قادة فيه ، ولذلك كان بعد ضلالهم ، وعمق فسادهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا ﴾ الظلم مجاوزة الحد ، وهؤلاء الكافرون تجاوزوا حد الكفر إلى الظلم فيه فظلموا أنفسهم بالكفر والجحود ، وظلموا الله بعدم التسليم والانقياد ، وظلموا محمدا ﷺ بإنكار نبوته ، واخفاء نعته الموجود فى التوراة ، وظلموا غيرهم بالإضلال ، وأخذهم إلى الكفر والجحود ... فهو ظلم يشمل كل ظلم قام به هؤلاء ... وكفرهم بعض من هذا الظلم .

﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ لسابق حكمه على أنه : ﴿ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾^(١) .

﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ ولا يوفقهم لطريق الخير والصواب ، لأنهم لا يستحقونه بنياتهم وعملهم .

(١) سورة النساء ، الآية ٤٨ .

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وهذا استثناء من السابق ومعناه أن الله يوجههم إلى طريق الضلال الذى اختاروه ، وهو ما هم عليه من ضلال فى الدين وفساد فى العمل والسلوك ، وانحطاط فى الخلق والأمانى حتى يدخلوا جهنم مستحقين لنارها التى عملوا لها .

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أى ان حالهم مستمر فى عذاب جهنم لا ينقطع ، ولا يخفف .

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أى أن الله غالب على كل شئ ، وأن عذابهم أمر يسير ، وبذلك أبطل فهم الكافرين أنهم لن يغلوا ، ولن يقدر عليهم أحد .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن هؤلاء اليهود كفروا بالله ، وأنكروا نبوة محمد ﷺ ، ومنعوا غيرهم من الدخول فى الإسلام بوسائل عديدة فهم ضلوا وأضلوا وأوغلوا فى الضلال والكفر ، وصاروا له قادة .

إنهم مع كفرهم ظلموا أنفسهم وغيرهم فاستحقوا عقوبة الله التى عرفهم بها وهى أنه لا مغفرة لهم ، ولا توفيقا لخير ، ولا هداية لطريق الصواب .

إنما يوجههم الله لما يناسب كفرهم وضلالهم ، وهو ولوج الطريق الذى يوصلهم إلى جهنم ، مأواهم الدائم ، ومستقرهم المستمر ، وذلك يسير على الله ، فهو على كل شئ قدير ، وانما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

(٦٧٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... منها :

الركيزة الأولى

قيام الحجة على أعداء الحق

تتكلم الآيات عن أعمال الكفار ضد دين الله والناس ، وهذا يفيد عدة أمور :
الأمر الأول : إقامة الحجة على المجرمين ببيان ما قاموا به من ظلم
لغيرهم ، ونشرهم الفساد بين الناس .

الأمر الثاني : تعريف الناس بطرق الضلال المؤدية إلى الخلود في نار
جهنم حتى لا يقعوا فيها .

الأمر الثالث : دعوة الناس إلى عدم الاغترار بالكافرين فقد عادوا الله
تعالى ، ولا خير فيهم البتة .

الأمر الرابع : تسلية رسول الله ﷺ ، وتعريفه بمصير أعدائه الذي أنزله
وصدوا الناس عنه ، وظلموا ظلما بعيدا .

إن الإنسان بعمله يستحق ما يلقاه ، والحجة قائمة عليه .
والواجب إظهار البرهان ، وإبراز الدليل في كافة المواقف حتى لا يبقى
عذر لأحد ... ويعرف الظالمون مصير ما هم فيه .

الركيزة الثانية

المعاصي تؤدي إلى الضلال الكبير

البدايات الأولى لأي عمل أساس لغيرها لأنها تيسر لأشباهها ، وتمتد
بجذورها ، وفروعها ، وتسود حياة أصحابها .

ومن هنا ...

وجب تنشئة الصغار عن حب الله ، وطاعته ، وتعظيمه ليشبوا على
ما نشأوا فيه .

إن العصاة يزداد عصيانهم لأن الله يجعل عصيانهم وبالا عليهم ،
ولا يهديهم طريق الخير والصواب ، ولن يغفر ذنوب الكافرين .

الله غنى عن إيمان الكافرين

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ
وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أمر النبوة ، والطرق الموصلة إلى الإيمان بها
ووعيد من أنكرها ، جاءت هذه الآية خطابا للناس تدعوهم إلى الإيمان بمحمد
ﷺ ودعوته ، وتعرفهم أن الله غنى عن إيمانهم .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية للناس جميعا أن الله بعث لهم رسولا ، وأيده بالمعجزات ليبلغهم
دينه الحق ، المبين وحى الله الثابت ، وخير لهم أن يؤمنوا بما جاءهم من الله
فهو الحق ، وليعلموا أن الإيمان يعود عليهم بالنفع ، ولن يفيد الله فى شئ وأنهم
إن كفروا فلن يضرروا الله شيئا فهو سبحانه مالك السموات والأرض ، لا يحتاج
لشئ من خلقه ، وهو العليم بكل شئ ، الحكيم فى حكمه وقضائه وقدره .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ هذا نداء للناس جميعا من أهل الكتاب ومن غيرهم

من يؤمن ومن لم يؤمن .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ والمراد

بالحق فى الآية هو الإسلام الذى نزل به جبريل ﷺ ليبلغه محمدا ﷺ .

وقد ذكرت الآية دواعي الإيمان بالله ، واعتناق الإسلام ...

وهي أنه دين الله المتميز ما يلي :

(أ) ﴿ جَاءَكُمْ ﴾ أى أن الإسلام ليس وضعاً بشرياً ، أو تأليفاً إنسانياً ، فلقد

جاء للناس من خارجهم .

(ب) ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ فالإسلام هو الحق المطابق للمصلحة ، المحقق لسعادة الدنيا والآخرة .

(ج) ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى أن هذا الدين القائم على الحق جاءكم من عند الله الذى خلقكم ، ورباكم ، واعتنى بكم ، وما ينزل عليكم من الله تعالى هو الحق الذى لا شك فيه .

(د) ﴿ فَعَامِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ أى أن الإسلام هو خير من أى شئ سواه بل هو

الخير كله ، وما عداه ضلال مبين فآمنوا به ، واستقيموا على منهجه .

وهذه المزايا الثابتة فى الإسلام بدهية ، فقد بلغه رسول الله محمد ﷺ ودعا إليه ، وهو ﷺ مؤيد بالمعجزات التى أثبت صدقه فى دعوى النبوة ، وبثبوت صدقه ﷺ يثبت أن الإسلام هو الدين الحق الذى جاء من عند الله تعالى ليحقق الخير للمؤمنين الصادقين .

﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى إن تكفروا

بالحق الذى جاءكم به محمد ﷺ فلن ينصركم الله بكفركم ، فهو سبحانه يملك السموات والأرض ، ولا تساؤون شيئاً مع ملك الله ، ولن يحتاج الله لخلقه أبداً فهو الغنى الحميد .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ أى والله عليم بعباده ، حكيم فى قضائه

وقدره ، يحاسب بدقة ، ويجازى بعدل ، وهو الغفور الرحيم .

(٦٧٣)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله تعالى ينادى الناس جميعا ليؤمنوا بالحق الذى جاءهم من عند الله تعالى ، ونزل به الوحي على رسول الله ﷺ لأن الإيمان هو الخير للناس دون سواه ، وليعلم الناس أن الله لا يفيد إيمانهم ، ولا يضره كفرهم ، فهو سبحانه غنى عن خلقه ، وهو المالك لكل مخلوق سواه ، وهو العليم بكل شئ ، الحكيم فى كل قضائه ، وقدره .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

بيان حاجة الناس إلى الله

حينما يبتعد الناس عن الله يضل أمرهم ، ويفسد حالهم لأنهم ابتعدوا عن خالقهم ، ورازقهم ، ومالك الأمر فيهم .
إن الإنسان بصورة عامة محتاج إلى الله تعالى يحييه ، ويعطيه ، ويحقق له الأمل والرجاء .
وحاجة الإنسان إلى الله ماسة لأن الكون كله يسخره الله كما يشاء وقد أكرم الإنسان بتسخير الكون له .
والواجب أن يستمر المخلوق فى طاعة الخالق ، لينال الخير فى الدنيا والآخرة .

تحريم الغلو في الدين

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
 إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ
 مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ
 وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما نادى الآية السابقة الناس جميعا ودعتهم إلى الإيمان بالحق الذي
 جاءهم من الله تعالى وحذرتهم من الكفر جاءت هذه الآية تنادى أهل الكتاب
 باتباع الحق وعدم الغلو في الدين .

- ٢ -

موضوع الآية

تتناول الآية النهي الموجه لأهل الكتاب ليعتدوا بالدين ، والنزاهة
 الحق في الأقوال والأفعال مع تطبيق هذا النهي على واقعهم ، فهم يغالون في
 المسيح عليه السلام ويتلثنون الألوهية ، ويرفعون المسيح إلى درجة الألوهية ، مع أنه
 رسول الله وروح منه وكلمته إلى مريم فولدت عيسى عليه السلام

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ ﴾ هذا النداء خاص بأهل الكتاب جميعا ، اليهود

والنصارى على اختلاف مذاهبهم . وهذا أولى من جعل النداء خاصاً بالنصارى لأن المنادى به وهو ترك الغلو فى الدين وقع من اليهود والنصارى .

﴿ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ والغلو مجاوزة الحد ، والمبالغة فى أمر حتى يخرج عن حقيقته . كمن يغالى فى إنسان يحبه فيرفعه إلى مستوى الملائكة أو أكبر ، أو يغالى فى كراهيته فيصوره شيطانا رجيماً .

وقد غالى اليهود والنصارى فى دينهم ، وامتد غلوهم إلى عيسى ومريم عليهما السلام . فأنكر اليهود نبوة عيسى عليه السلام ، ورموا أمه الحصىة بالزنى وزعموا أنه ولد غير رشيد ، فخطوه بسبب غلوهم إلى أدنى منزلة بلا صدق ولا خلق .

وأما النصارى فقد غالوا فى عيسى عليه السلام فزعم بعضهم أنه الله . وذكر أغلبهم أن عيسى عليه السلام جوهر واحد مركب من ثلاثة أقانيم ، أقنوم الأب وهو ذات الله ، وأقنوم الابن وهو عيسى ، وأقنوم الروح القدس ، وهو الحياة التى حلت فى عيسى ... إلا أنهم يجعلون كل أقنوم جوهرًا كاملاً مستقلاً ويذهب هؤلاء إلى أن عيسى عليه السلام مركب من عنصرى الإنسان والله ، فعنصر الإنسان فيه من قبل أمه ، وعنصر الألوهية أتاه من قبل الله ، ويرون أن الناسوت واللاهوت امتزجا فى عيسى ، وجاءه روح القدس بالحياة العلوية فصار إلهاً مركباً من العناصر الثلاثة .

ويذهب النصارى إلى أن هذا المركب الثلاثى لا ينفصل ، ولا يتجزأ كضوء سلط على زجاجة مليئة بالماء، فإنها تبدوا فى صورة واحدة . وهذا هو الغلو فى الدين الذى نهى الله عنه .

﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أى لا تغالوا فى إيمانكم بالله فى

إيمانكم بالله ، وتزعموا فيه ما لا يصح معه ، وذلك كقول اليهود : إن الله صارع إنساناً على الأرض ، وأن الإنسان هزمه ، ورؤيتهم فى ضرورة أن يكون الله

مجسدا أمامهم ... وكقول النصارى فى عيسى عليه السلام أنه ابن الله ، وانه يشارك الله فى الألوهية ، وأن الله ثالث ثلاثة .
ولذلك كان النهى لأهل الكتاب لعدم النقول على الله ، وترك الكذب فى شأنه سبحانه وتعالى .

والقول الحق فى الله أنه إله واحد لم بلد ، ولم يولد ، ولم يتخذ زوجا ولا شريكا ، وهو سبحانه غنى عن كل هذه المزاعم ... لأن من المعلوم أن التوالد بصورة عامة يكون لحفظ النوع من الانقراض ، فبالتوالد يخلف المولود من سبقه الهال ، ولذلك لا تتوالد الملائكة ، فمن كانت نشأته فى الحادث للبقاء والدوام لا يتوالد ... فمن باب أولى لا يتخذ الله ولدا ، فهو سبحانه أزلى أبدى ، منزه عن الأمثال والأشباه .

وأيضا فإنه سبحانه وتعالى بين فى كل آية نزهته عن الولد أنه مختص بما فى السموات والأرض خلقا ، وملكا ، وسلطانا ، ومن كان هذا شأنه لا يتوهم منه أن يتخذ زوجة أو وولدا .

وأيضا فإن الله موجود قبل عيسى عليه السلام ، ومنذ الأزل يملك السموات والأرض وما فيهن ، وعيسى عليه السلام ولد من أمه الموجودة فى الأرض بين الناس فهو مخلوق مملوك ، وبذلك فلا تماثل بين القديم والحادث ، ولا بين الخالق والمخلوق ، وهذا يرد أن يكون المسيح ابنا لله ، ولا شريكا له فى الألوهية .

وأيضا فإن الله سبحانه وتعالى منذ الأزل عالم بكل المعلومات ، قادر على كل المقدورات وهذا كاف فى الألوهية ... فلو فرضنا آله آخر يحدث ، أو شريكا يأتيه فى منتصف الطريق فإن كان الله محتاجا إليه فهو ناقص ، والناقص لا يكون إلها ، ويكون السؤال عن ألوهيته للمخلوقات قبل عيسى عليه السلام وان كان الإله لا يحتاج لغيره . وهو الحق . يكون الغير معطلا لا فائدة فيه ولا حاجة إليه فى الألوهية .

وبذلك يتضح الحق وهو توحيد الله ، وارساله للرسول ، وانزاله الدين للناس ، وعلى البشر اتباع الرسل فيما أوحى الله به إليهم فهو الحق .

﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ هذا هو الحق في عيسى عليه السلام وبيانه أن عيسى عليه السلام رسول الله نزل عليه الوحي ، وأكرمه الله بالمعجزات منذ حمل أمه به ، ونسبه إلى أمه هو الحق فلا أب له .

﴿ وَكَلِمَتُهُ ﴾ أى خلق الله عيسى بكلمة منه لأنه سبحانه إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ، والوجود شاهد على ذلك فقد خلق الله آدم بلا أب وبلا أم ، وجعل هذا ذكراً ، وهذا أنثى ، وجعل من كل خلقه زوجين ... فالله إله واحد ﴿ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ أى أوصل الكلمة إلى مريم ، وحققها في حملها بعيسى عليه السلام .

﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ كسائر الأرواح . فقد ألقى الله روحه في جسد آدم ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٨﴾^(١) .

وانما أضاف الروح إليه فى هذه الآية للتشريف والتكريم .

ويقال : الروح هى نفخ جبريل في جيب درع مريم فحملت بإذن الله . وانما أضافه إلى نفسه بقوله "منه" لأنه وجد بأمر الله .

قال بعض المفسرين : إن الله تعالى لما خلق أرواح البشر جعلها في صلب آدم عليه السلام ، وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام فلما أراد الله أن يخلقه أرسل بروحه مع جبريل إلى مريم فنفخ في جيب درعها فحملت بعيسى عليه السلام .

(١) سورة الحجر ، الآية ٢٨ ، ٢٩ .

وقيل : إن الروح والريح متقاربان في كلام العرب ، فالروح عبارة عن نفخ جبريل عليه السلام وقوله "منه" يعني إن ذلك النفخ كان بأمره واذنه .

وقيل : أدخل النكرة في قوله وروح على سبيل التعظيم ، والمعنى روح وأي روح من الأرواح القدسية العالية المطهرة .

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبده ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل^(١) .

و ﴿ مِنْهُ ﴾ في قوله : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ لابتداء الغاية ، ولا يصح أن تكون تبغيضيه لاستحالة التجزئ على الله تعالى .

حكى أن بعض النصارى ناظر بعض علماء المسلمين ، وقال في القرآن الكريم ما يشهد بأن عيسى جزء من الله تعالى مستدلا بقوله تعالى : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ على اعتبار أن من تبغيضه .

فعارضه المسلم وقال له "من" لابتداء الغاية . وهي كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾^(٢) أى صادرة منه ... فلو قلنا : إن "من" تبغيضه للزم أن تكون تلك الأشياء جزءا من الله .

﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى فصدقوا يا أهل الكتاب بوحدانية الله ، وأنه لا ولد له ، وصدقوا بجميع رسله فيما جاءكم به من عند الله ، وصدقوا بعيسى عليه السلام .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٢٥ .

(٢) سورة الجاثية ، الآية ١٣ .

﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ﴾ انتهوا عن تصوركم لله الواحد ، ولا تقولوا أنه مركب من ثلاثة أقانيم .

﴿ أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى انتهوا عن هذا الكفر ، لأن ترك هذا القول خير لكم من القول به .

وسبب هذه الخيرية أنكم تتركون الضلال والكفر ، وتتمسكون بالإيمان والتوحيد وهو الحق الذى يجب التمسك به .

﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ فيجب الإيمان به فهو . سبحانه . الخالق ، الرزاق ، لا شريك له .

﴿ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أى نقس الله تقديسا يليق به سبحانه وتعالى فليس له ولد ، لأن وجود الولد يقتضى تجزؤ الأب ، لأن الولد جزء من أبيه ، والله منزّه عن التجزئة ، وليس له ولد .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى أن الله يملك السموات والأرض وما فيهما ، وما فوقهما ، وما بينهما ، وعيسى ومريم وسائر الأنبياء عبيده ومملوكون لله ، فلا يعقل أن يتخذ زوجة أو ولدا من عبيده . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فهو سبحانه منزّه عن التجزؤ ، وعن كافة صفات الأعراض والأقسام .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى كاف فى تدبير جميع خلقه ، والكل محتاج إليه ، والتوكل على الله تعالى واجب فهو القدير المتعال .

- ٤ -

معنى الآية

تتادى الآية أهل الكتاب جميعا بترك الغلو فى الدين ، والقول فيه بما لا يصح

عقلا وشرعا ، وتتاديههم حتى لا يقولوا فى الله بما لا يليق ، وليعلموا أن المسيح عيسى عليه السلام رسول الله ، وكلمة الله التى أوصلها لأمه مريم ، وروح الله التى أودعها فى جميع خلقه ، فآمنوا بالله الواحد ، وبما يتصف به من كل كمال يليق به ، ولا تقولوا إنه ثالث ثلاثة فهو كفر صريح ، ولم يطلبه المسيح أو أمه ... فانتخوا يا أهل الكتاب عن هذه المقالة الكافرة لأنها لا تليق بمقام الله الواحد الأحد ، المالك لكل مخلوق فى السموات والأرض وما بينهما . فهو الخالق القدير ، واليه يرجع الأمر كله ، وقدرته كافية للمخلوقات كلها .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

رد غلو أهل الكتاب

الاعتدال هو ملازمة الحق بلا زيادة أو تنقص فيه ، وصاحبه يسعد به لأنه يشعر بالثبات والصدق ، ولا يحتاج للتأويل ، والتفسير ، والمخاصمة . والشيطان يجد فى المراء ، والمغالاة مدخلا لتحقيق ما يعمل له . إن الله سبحانه وتعالى أمد رسله بدءا بآدم ، ومرورا بنوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وموسى ، وهارون عليهم السلام ... وانتهاء بمحمد صلى الله عليه وسلم بمعجزات عديدة تأخذ بالألباب ، فلقد رأى قوم نوح موجا كالجبال أغرقهم جميعا ما عدا نوح عليه السلام ومن آمن به ، ورأى قوم إبراهيم عليه السلام النار بردا وسلاما ... وهكذا كل الرسل ، ولم يغال قومهم فيهم بل أخذتهم تلك المعجزات إلى وحدانية الله ، فعلموا أنه الإله القدير .

أما أهل الكتاب فقد جعلوا معجزات الله لعيسى عليه السلام سببا لرفعه فوق الناس جميعا وجعله إلها ، أو شريكا لله مع أنه عليه السلام نفى ذلك فقد سأله سبحانه

وتعالى قائلا له : ﴿ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^(١)
 فأجابه ﷺ : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ
 قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
 الْغُيُوبِ ﴿٣٨﴾ مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ
 عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾^(٢) .

وقال غالى اليهود قبل النصرارى وقالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ ﴾^(٣)
 وقالوا : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى ﴾^(٤) .

إن الخلق جميعا عبيد الله ، فهو خالقهم ، ورازقهم محييهم ومميتهم ،
 ومحاسبهم على أعمالهم يوم الدين .
 ومن هنا ...

كانت المغالدة فى الدين مردودة ولن يقبلها الله تعالى .

(١) سورة المائدة ، الآية ١١٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١١٦ ، ١١٧ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ١٨ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١١١ .

المسيح عبد الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

لما قال النبي ﷺ لوفد نجران أن عيسى عليه السلام عبد الله قالوا له : إنك تعيب صاحبنا بذلك فقال لهم النبي ﷺ : إنه ليس بعار على عيسى عليه السلام أن يكون عبدا لله . فنزلت الآية (١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما نهت الآية السابقة أهل الكتاب عن الغلو في عيسى ابن مريم عليهما السلام جاءت الآية ، لتبين أن عيسى عليه السلام يقر بعبوديته لله تعالى ، فهو رسول كسائر الرسل اختاره الله تعالى لدعوة بني إسرائيل .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين أن المسيح عليه السلام عبد لله تعالى ، ويسعد بذلك ، ولا يرضى الغلو فيه ومثله في هذا الإقرار الملائكة المقرون ، لنهم يعلمون أن الاستكبار وعدم الاعتراف بهذه العبودية يؤدي بهم إلى عذاب أليم لأن الله سبحانه وتعالى سيبعث الخلائق جميعا ويحشرهم للحساب والجزاء .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٢٨ .

(٦٨٣)

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾ أى لن يأنف المسيح

ويستكبر ، ولن يتعاضم أن يكون عبدا لله تعالى فهو خالقه ومرسله .

﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى ولن يستكف الملائكة المقربون كذلك

لعلمهم ويقينهم بمقام ربهم ، وعلى رأسهم حملة العرش والكروبيون ، وجبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وعزرائيل ، ورضوان ، ومالك وغيرهم من أفاضل الملائكة ... فهم جميعا لن يستكفوا أن يكونوا عبيدا لله تعالى .

وانما ذكرت الآية الملائكة مع عيسى عليه السلام لبيان أن الملائكة مع علو قدرهم ، وعظم مهامهم ، وبالغ معرفتهم لن يأنفوا عن العبودية لله تعالى ، ومن باب أولى لن يتكبر المسيح مع علو قدره ، وسمو منزلته ، واصطفاء الله له أن يكون عبدا لله تعالى .

وأیضا فلقد كان البعض يقول : الملائكة بنات الله فبين لهم أنهم مع قربهم من ربهم لن يأنفوا من العبودية لله تعالى .

﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾

أى ومن يتأفف من عبوديته لله ، ويستكبر عن عبادة الله ، ويتعاضم على طاعة الله فسوف يحشره إليه مع كافة الخلائق ويحاسبه معهم ، والأمر يومئذ لله .

- ٥ -

معنى الآية

تين الآية أن عيسى عليه السلام لن يتكبر على الله ولن يتأفف من عبادة الله تعالى ولا الملائكة يتأففون أيضا لعلمهم مقام الله ، ويقينهم أن عبادته وطاعته خير وأولى من الاستكبار ، وأن الله سيحاسبهم مع الجميع بعد بعثهم وحشرهم وسيجازى كلا بما عمل .

(٦٨٤)

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآيه

تتضمن الآيه ركيزة هامة ... هى :

بيان بشرية المسيح ﷺ

الوجود كله خلق الله تعالى ، وبيده سبحانه وتعالى ، يصرفه كيف يشاء
ولما غالى أهل الكتاب فى المسيح ﷺ أمرهم الله عدم المغالاة فى الدين ، لأن
المغالاة تخفى الحقيقة ، وتضع المغالى فى دائرة الأوهام والخرافات .

إن المسيح والملائكة لن يأنفوا من العبودية لله فهم مطيعون الله ، ملتزمون
بأمر الله ، قائمون بما وجب عليهم .

إنهم يجعلون عبوديتهم طريقا لرضوان الله تعالى ، ويعلمون إن الجميع
سيرجعون إليه سبحانه وتعالى ، فى حشر شامل للحساب والجزاء ، ولذلك
يعدون للأمر عدته .

والواجب ...

أن يعيش الإنسان هذه العبودية لينال الجزاء الحسن فى الدنيا وفى الآخرة
، فقد أقر بذلك أولو العزم من الرسل ، والملائكة المقربون ، والسابقون من
المؤمنين ... والله الموفق .

أحوال المؤمنين والمتكبرين يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ۗ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا تَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن المسيح والملائكة لن يستنكفوا عن عبادة الله تعالى وأن من يستنكف عن عبادة الله فسوف ينال من العذاب ما يستحقه يوم القيامة جاءت هذه الآية لتبين جزاء المؤمنين الطائعين ، والكافرين المستكبرين يوم الحساب .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تبين أن الناس ينقسمون أمام عبادة الله قسمين فريق يؤمن ويطيع ويعبد فيوفيه الله أجره ، ويزيده من فضله ... وفريق يستنكف عن العبادة فيعذبه الله تعالى ، ولا يجد غير الله ينصره ويتولاه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ۗ ﴾ أى يجازى الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما يستحقون من أجر ، ويزيدهم ثوابا من عنده لطاعتهم واستقامتهم .

(٦٨٦)

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنَكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى

الذين أنفوا من عبادة الله تعالى واستكبروا على طاعته سبحانه وتعالى فلهم فى الآخرة عذاب مؤلم شديد .

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أى لا ينجيهم من

العذاب أحد ، وليس لهم نصير غير الله تعالى .

والآية السابقة تكلمت عن الذين يستنكفون عن عبادة الله ، وتحدثت عنهم هذه الآية ، وزادت عليهم الذين منوا وعملوا الصالحات لزيادة غمهم وحزنهم حينما يرون ما يناله المؤمنون ... وأيضا فإن الآية سيقى للترهيب فناسبها أن يأتى الترغيب معها .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الناس أمام عبادة الله فريقان ... فريق مؤمن ، مطيع ، عابد وهؤلاء يوفىهم الله أجورهم ويدخلهم الجنة ، ويزيدهم من فضله ... وفريق متكبر عاص بعيد عن طاعة الله ... وهؤلاء لهم عذاب أليم فى الآخرة ولا ناصر ولا معين لهم من دون الله تعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

المؤمنون والكافرون فى الآخرة

ينقسم الناس فى الآخرة إلى فريقين ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير أما فريق الجنة فهم المؤمنون الملتزمون طاعة الله ، القائمون بصالح الأعمال وهؤلاء يوفىهم الله أجورهم ، ويزيدهم برضوان منه ، ويمدهم بالسعادة والنعيم .

(٦٨٧)

أما فريق النار فهم الكافرين المشركون والعصاة الذين اتقوا من عبادة الله ، وتكبروا على طاعته ، ولم يتبعوا رسله فأولئك يعذبهم الله عذابا أليما يستمرون فيه فى الآخرة .

والعاقل من يتخير لنفسه وهو فى الدنيا دار العمل ، ويسعى للجنة بعملها ، ويبتعد عن طريق النار بآثامها ومعاصيها .

إنى رى بعباده رعوف رحيم ، غفور ودود ... ولذلك يبين لهم ، ويحببهم فى الإيمان ، ويرغبهم فى الطاعة مع أنه غنى عن أعمال خلقه ، والله ذو الفضل العظيم .

دعوة الناس إلى الإيمان

يقول الله تعالى :

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾

- ١ -

صلة الآية ما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضلالات اليهود ، وتصحيح الخطأ فى أمر عيسى عليه السلام جاءت هذه الآية ختاماً لهذا الجدل بدعوة الناس جميعاً إلى دين الله تعالى فهو خاتم الأديان ، ورسوله هو خاتم الرسل .

- ٢ -

موضوع الآية

الآية تنادى الناس جميعاً ، وتدعوهم إلى الإيمان بالإسلام فهو دين يخاطب العقل ويقنع البرهان .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ هذا نداء للناس كافة فى آخر سورة "النساء" ، وهو

(٦٨٨)

نفسه نداء أول السورة ، وكأنه يشير إلى أن سائر ما جاء فى سورة "النساء" جاء للناس أجمعين .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ والبرهان هو محمد ﷺ ، وقد سماه الله برهانا لأنه عليه الصلاة والسلام جاء للناس ومعه معجزات الله العديدة وعلى رأسها القرآن الكريم ، وكلها برهان على صدقه فى دعوى النبوة ، وصدق رسالته التى بلغها للناس ، وتركها فيهم إلى يوم القيامة ...
ولأنه عليه الصلاة والسلام فى ذاته برهان على الحق الذى نادى به ، ودعا إليه ، فلقد عرف بالصدق والأمانة فقلوه عن الله هو الوحي الدال على مراد الله تعالى .

وقد أرسله الله تعالى للناس بدين الله تعالى ، وجعله حجة قاطعة لأعداء جميع الخلائق ، فعنده إصلاح لفساد الناس ، وفى دينه نقلة للخلائق من الظلمات إلى النور .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ أى أنزلنا إليكم القرآن الكريم بيانا للخفى وتجديدا لما غاب واندثر . فهو نور يكشف منهج الله تعالى ، وينور القلوب بالإيمان ، ويسحق الظلم والظلام بفضل الله تعالى .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله يدعو الناس جميعا للإسلام ، ويعرفهم بأن محمدا ﷺ برهان لهم على الحق قمعه المعجزات ، وهو هدم للباطل ، وإثبات لدين الله تعالى فقد نزل عليه القرآن الكريم هاديا للحياة ، ومعمرا للكون ، ومنورا للقلوب والأعمال .

(٦٨٩)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

فى الآية عدد من الركائز ... هى :

الركيزة الأولى

محمد رسول الله ﷺ حجة على الناس

يخاطب الله الناس ، ويعرفهم بأن محمدا رسول الله ﷺ بعثة الله للعالمين حتى لا تكون لهم حجة لهم بعد ذلك ، لأن رسول الله ﷺ يتصف بأمر ... منها :

(١) هو برهان وحجة على ما دعا إليه فمعه المعجزات ، ومعه الدين الهادى إلى سواء السيل .

(٢) كتابه هو القرآن الكريم ، وهو نور يزيغ الظلام ، ويظهر الحق ، ويبين المنهج الصحيح الذى يوصل إلى جنات النعيم .

الركيزة الثانية

عالمية الدعوة الإسلامية

الإسلام دعوة عالمية خاتمة لسائر الأديان ، فلا دين معه ، ولا دين بعده ولذلك كانت دعوته للناس جميعا ، وكانت شريعته صالحة لكل زمان ومكان .

ولعل ما يؤكد هذه العالمية احتواء الإسلام على سائر الديانات السابقة ، وهيمنة القرآن الكريم على سائر الكتب .

(٦٩٠)

جزاء المؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما دعت الآية السابقة الناس إلى الإسلام جاءت هذه الآية لتبين الجزاء الجميل الذى سيناله المؤمنون فى جنات النعيم .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله أنزل وحيه على رسول الله محمد ﷺ وجعله نورا ساطعا فى بيان دين الله تعالى ، والتعريف بمنهجه لإصلاح الحياة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ ﴾ أى الذين صدقوا بالله إلها واحدا فعرفوه ، وعبدوه ، وأدوا له حقه فى الانقياد والطاعة .

﴿ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ أى وتمسكوا بما جاءهم من عند الله تعالى ، ووكلوا أمرهم إليه ، فهو سبحانه وليهم فى الدنيا والآخرة .

﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أى سيدخلهم الجنة رحمة بهم ورأفة .

﴿ وَفَضْلٍ ﴾ أى يتفضل الله عليهم وهم فى الجنة بالعتاء الوفير ، وفيها ما فيها من خير ونعيم .

(٦٩١)

﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴾ أى يوفقههم الله لإصابة الفضل ، ويسدد عملهم فى الطاعة والانقياد .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله يوفق المؤمنين للخير ، ويدخلهم فى جنته ، ويعينهم على الصواب ، ويبسره لهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تبين الآية ركيزة هامة ... هى :

بيان حياة المؤمنين فى الآخرة

تناولت سورة "النساء" عديدا من النظم الإسلامية ، وعاشت مع الآخرة ودعت إلى الإيمان ، وحذرت من مؤامرات الكفر والضلال ، وناقشت أهل الكتاب فى غلوهم وظلمهم لأنفسهم ولغيرهم .

وجاء ختام السورة بيانا لحياة المؤمنين فى الدنيا والآخرة فهم فى الدنيا يعملون الصالحات ، ويستقيمون على منهج الله تعالى ، ويتوكلون عليه سبحانه وتعالى ، ويعتصمون بطاعته ، وأما فى الآخرة فسيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار رحمة من الله وفضلا ، ويهديهم إلى جنات النعيم .

ميراث الكلالة

يقول الله تعالى :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ أَمْراً هَلكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ هَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

عن جابر بن عبد الله قال : مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين فأغمي علي فتوضأ النبي ﷺ ثم صب علي من وضوئه فأفقت فإذا النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله كيف أصنع في مالي ؟ كيف أقضي في مالي ؟ يا رسول الله إنما يرثني كلاله ، فنزلت آية الميراث .

قال شعبة : فقلت لمحمد بن المنكدر ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ قال : هكذا نزلت .

وفي رواية لأبي داود يقول جابر ﷺ : اشتكيت وعندي سبع أخوات ، فدخل علي رسول الله ﷺ فنفخ في وجهي فأفقت فقلت : يا رسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلثين ؟ قال : أحسن . قلت : بالشطر ؟ قال : أحسن ثم خرج وتركني فقال يا جابر لا أراك ميتاً من وجعك هذا ، وإن الله قد أنزل فبين الذي لإخواتك فجعل لهن الثلثين .

فكان جابر يقول أنزلت هذه الآية : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ في .

(٦٩٣)

وروى الطبري عن قتادة أن الصحابة أهمهم شأن الكلالة فسألوا عنها نبي الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية .

وروى عن ابن سيرين قال نزلت : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ والنبي ﷺ في مسير له وإلى جنبه حذيفة بن اليمان فبلغها النبي ﷺ حذيفة وبلغها حذيفة عمر بن الخطاب وهو يسير خلفه فلما استخلف عمر سأل حذيفة عنها ، ورجا أن يكون عنده تفسيرها ، فقال له حذيفة والله لأتلك لعاجز إن ظننت أن إمارتك تحملني أن أحدثك فيها ما لم أحدثك يومئذ . فقال عمر : لم أرد هذا رحمك الله^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

هذه الآية آخر آية في سورة "النساء" ، وهي تتناول أحكام ميراث الكلالة الذين يدلون للميت من قبل الأب ، وقد سبق إيراد أحكام ميراث الكلالة من جهة الأم في أول السورة ، ولهم نصيب محدد فذكره الله مع أصحاب الأنصباء ، وبذلك تربط هذه الآية آخر السورة بأولها .

- ٣ -

موضوع الآية

الآية تبين أحكام ميراث الكلالة من جهة الأب ليتبعه الناس .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ والخطاب لمحمد ﷺ ، وفيه بيان أن الناس جاءوا إليه ﷺ يسألونه أحكام الكلالة فأجابهم عنها .

(١) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٢٩ .

﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ أى قل لهم يا محمد إن الله يبين لكم أحكام ميراث الكلالة .

والكلالة أقارب الميت من غير أصوله وفروعه ، فالأب وان علا ، والابن سفل ليسا من الكلالة .

ويسمى الميت كلالة لأقربائه ، والأقرباء كلالة بالنسبة للميت .

﴿ إِنْ أَمْرُوْهُمَا هَلَكَ ﴾ أى مات لأن الموت هلاك دائم عن الدنيا .

﴿ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أو والد يرثه ، وله كلالة .

﴿ وَلَهُ أُخْتٌ ﴾ أى له أخت من أبيه وأمه ، أو من أبيه فقط فهي كلالة ترثه .

﴿ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ أى لها نصف التركة نصيبا لها ، وإذا انفردت يرد عليها النصف الثانى على رأى الجمهور .

﴿ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَّمْ يَكُنْ هَا وَلَدٌ ﴾ أى يرث الأخ فى كل مال أخته إن لم يكن لها ولد ولا زوج .

﴿ فَإِنْ كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ وان كان الميت ذكرا أو أنثى لا ولد له وله إخوة من الرجال والنساء فإن التركة توزع عليهم للذكر مثل حظ الأنثيين .

﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ أى يعرفكم الله أحكام ميراث الكلالة ، ويفتيكم فيما سألتكم عنه حتى لا تخطئوا فى توزيع التركة .

﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى أن علم الله شامل لكل شئون خلقه ومن هذا العلم العلم بأحكام الإرث وبما يحتاجون إليه .

(٦٩٥)

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أحكام ميراث الكلاله فى كل حالاتهم .

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآية

تبين الآية ركيزة هامة ... هى :

الحكم لله الواحد الأحد

جاء بعض المسلمين يسألون رسول الله ﷺ ويستفتونه فى بعض الأحكام التى يحتاجون إلى معرفة حكم الله فيها .

فما معنى هذا ؟

تدل إجابة رسول الله ﷺ على الحقيقة التى تسود حياة المسلمين إلى يوم القيامة .

أجابهم رسول الله ﷺ : قل الله يفتيكم .

نعم ...

الله يحكم بينكم ، ويعرفكم بحكمه ، ويفصل بينكم بمنهجه سبحانه وتعالى فدين الله يعنى الخضوع لحكمه ، والاستسلام له ، والانقياد التام فى كل قول ، وفعل ، وحال .

وليس للعقل أن يشرع ، أو يحكم ، أو يستقل بنظام ... وإنما له أن يفهم الحكم ، ويحيط بموطن القضاء هـ ، والاستفادة به أثناء القياس والتمثيل ، وينحصر الاجتهاد العقلى فى إطار الفهم ، والتطبيق ، والتدبر .

إن العقل جزء من الإنسان ، وهو مخلوق معه ، متأثر بما يتأثر به الإنسان ولذلك فهو محدود الإدراك ، يحده الزمان ، والمكان ، وتوجهه العادات والأعراف ، والثقافة مما جعله عاجزا عن التشريع ، وفهم ما وراء الطبيعة .

نعم ...

يتمتع العقل البشرى بتكريم واكبار ، فهو مناط توجيه الوحي ، واليه كان خطاب الدعوة ، ودوره في حفظ القرآن الكريم والمحافظة عليه ضرورة لازمة ... والإيمان الحق ينبع منه ويفيض بعد ذلك على الجوارح علما وعملا .

نعم ...

الله يفتيكم فيما تسألون ، وفي كل شئون الحياة ، وكل قضايا الدنيا والاخرة .

هذا هو الإسلام ... وهذا هو الإنسان معه .

والله ولي المؤمنين ...

(१११)

الخاتمة

(٦٩٩)

(٧٠٠)

الخاتمة

الحمد لله . والصلاة على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعد ،،،

فقد وفقني الله في تفسير سورة "النساء" على النحو الموجود في هذا الكتاب .

وأؤكد أن رجائي في مؤلفاتي في تفسير القرآن الكريم هي خدمة كتاب الله تعالى ، وخدمة الدعوة إلى الله تعالى بإبراز الركائز الدعوية التي يتفهمها الدعاة ، ولأنهم قدوة لغيرهم .

وليس من دوافعي أي كسب شخصي دنيوي فقد هداني الله للخير وأمدني بالفضل .

وأمل النصح من إخواني ، ومساعدتي في هذا الجهد ، ومواصلة الطريق إن لم أتمكن من الانتهاء منه .
واعتذر عن أي خطأ أقع فيه ، واستغفر ربي فهو غفار رحيم ، وأسأله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد .

والحمد لله رب العالمين ...

إلى هنا ينتهي المجلد الرابع بالانتهاء من تفسير سورة "النساء"

وبعده يبدأ المجلد الخامس وأوله تفسير سورة "المائدة"

والله الموفق ،،

$$(\gamma, \gamma)$$

فهرس المجلد الرابع

$$(\gamma, \beta)$$

(٧٠٤)

فهرس المجلد الرابع

الصفحة	الموضوع	رقم الآية من سورة النساء
٧	المقدمة	.
١٣	التعريف بسور "النساء"	.
٢٧	ضرورة تقوى الله تعالى	[١]
٣٦	وجوب المحافظة على أموال اليتامى	[٢]
٤١	جواز تعدد الزوجات	[٣]
٤٩	المهر حق خالص للمرأة	[٤]
٥٢	الحجر على السفهه	[٥]
٥٥	كفالة اليتيم حتى يبلغ رشيدا	[٦]
٦٠	حقوق الرجال والنساء فى الميراث	[٧]
٦٤	إعطاء الأقرباء بعض المال من التركة	[٨]
٦٧	الحرص على اليتامى	[٩]
٦٩	سوء عاقبة من يأكل مال اليتيم ظلما	[١٠]
٧١	آيات المواريث	[١١ ، ١٢]
٨٢	ضرورة تطبيق أحكام الميراث	[١٣ ، ١٤]
٨٦	عقوبة المرأة إذا أتت بفاحشة	[١٥]
٩٠	عقوبة مرتكب الفاحشة من الرجال	[١٦]
٩٤	التوبة المقبولة عند الله تعالى	[١٧]
٩٨	التوبة غير المقبولة	[١٨]
١٠٢	تكريم الإسلام للمرأة	[١٩]
١١٠	الصداق حق للمرأة	[٢٠ ، ٢١]
١١٦	المحرمات من النساء	.

١١٦	تحريم زوجة الأب	[٢٢]
الصفحة	الموضوع	رقم الآية من سورة النساء
١١٩	التحريم بالنسب والرضاع والمصاهرة	[٢٣]
١٢٥	تفسير الجزء الرابع	.
١٢٧	توطئة	.
١٢٧	تحريم المرأة المتزوجة	[٢٤]
١٣٥	تكريم الإمام حين الرغبة في نكاحهن	[٢٥]
١٤٥	المقارنة بين منهج الله ورغبات الضالين	[٢٨ ، ٢٦]
١٥٣	تحريم العدوان على المال	[٣٠ ، ٢٩]
١٥٧	اجتناب الكبائر	[٣١]
١٦٥	الرضا بشرع الله والالتزام بالطاعة	[٣٣ ، ٣٢]
١٧١	قوامة الرجل ومشكلات الأسرة	[٣٤]
١٨٧	علاج الشقاق بين الزوجين	[٣٥]
١٩٣	تقوية العلاقات الاجتماعية	[٣٦]
٢٠٤	صفات المتكبرين المادية	[٣٧]
٢٠٨	ملازمة الرياء للكبر	[٣٨]
٢١١	تبكيت المتكبرين العصاة	[٤٠ ، ٣٩]
٢١٧	شدة حسرة المتكبرين الضالين	[٤٢ ، ٤١]
٢٢٣	الأمر بالصلاة في تيقظ وطهارة	[٤٣]
٢٣٤	عداوة اليهود للمسلمين	[٤٥ ، ٤٤]
٢٣٨	تحريف اليهود لكلام الله تعالى	[٤٦]
٢٤٥	دعوة اليهود إلى الإسلام	[٤٧]
٢٥٠	لا غفران للشرك بالله تعالى	[٤٨]
٢٥٩	من صفات اليهود "المدح الكاذب للذات"	[٥٠ ، ٤٩]

(٧٠٦)

٢٦٦	من صفات اليهود "عبادة المال وقول الزور"	[٥٢ ، ٥١]
٢٧٢	من صفات اليهود "البخل والحسد والتعالى"	[٥٥ . ٥٣]
الصفحة	الموضوع	رقم الآية من سورة النساء
٢٧٧	مصير الكافرين في الآخرة	[٥٦]
٢٨٢	المؤمنون يوم القيامة	[٥٧]
٢٨٧	أداء الأمانة	[٥٨]
٢٩٢	وجوب طاعة الله ، ورد التنازع إليه	[٥٩]
٢٩٩	صورة المنافقين العملية	[٦٣ . ٦٠]
٣٠٨	طاعة الرسول واجبة	[٦٤]
٣١٢	الحد القاطع للإيمان	[٦٥]
٣١٧	جزاء المؤمنين الصادقين	[٦٨ . ٦٦]
٣٢٥	جزاء من يطيع الله ورسوله	[٧٠ ، ٦٩]
٣٣٣	الدعوة إلى الجهاد وأخذ الحذر	[٧١]
٣٣٦	المنافقون والجهاد	[٧٣ ، ٧٢]
٣٤٤	وجوب الجهاد	[٧٥ ، ٧٤]
٣٥٠	بين قتال المؤمنين وقتال الكافرين	[٧٦]
٣٥٢	الخوف من الموت	[٧٧]
٣٥٨	الموت محدد بالأجل	[٧٨]
٣٦٣	الأدب مع الله تعالى	[٧٩]
٣٦٨	طاعة الرسول طاعة لله تعالى	[٨٠]
٣٧١	المنافقون والطاعة	[٨١]
٣٧٥	وجوب تدبر القرآن الكريم	[٨٢]
٣٨١	المنافقون والقرآن	[٨٣]
٣٨٧	النصر من عند الله تعالى	[٨٤]

(٧٠٧)

٣٩١	أهمية التماسك الاجتماعي	[٨٧ . ٨٥]
٤٠٠	التحذير من المنافقين	[٨٩ ، ٨٨]
٤٠٧	التوقف عن قتال المنافقين	[٩١ ، ٩٠]
الصفحة	الموضوع	رقم الآية من سورة النساء
٤١٣	أحكام القتل الخطأ	[٩٢]
٤٢٠	حكم القتل العمد	[٩٣]
٤٢٦	جمال تحية الإسلام	[٩٤]
٤٣٢	فضل المجاهدين على القاعدين	[٩٦ ، ٩٥]
٤٣٨	مصير المستضعفين في الأرض	[٩٧]
٤٤٢	حق أصحاب الأعداء في الهجرة	[٩٩ ، ٩٨]
٤٤٦	فوائد الهجرة وثوابها	[١٠٠]
٤٤٩	قصر الصلاة في السفر	[١٠١]
٤٥٥	صلاة الخوف	[١٠٣، ١٠٢]
٤٦٦	ضرورة القوة والصبر في الجهاد	[١٠٤]
٤٧٢	وجوب الحكم بالحق وعدم الدفاع عن الخائنين	[١٠٥]
٤٧٥	وجوب الاستغفار الدائم	[١٠٦]
٤٧٨	النهى عن الدفاع عن الخائنين	[١٠٧]
٤٨٢	معرفة طباع الخائنين	[١٠٨]
٤٨٦	وجوب الانتصار للحق	[١٠٩]
٤٨٩	بيان عاقبة الأعمال السيئة	[١١٢.١١٠]
٤٩٤	بيان فضل الله على رسوله ﷺ والمؤمنين	[١١٣]
٤٩٨	النجوى المقبولة عند الله تعالى	[١١٤]
٥٠٣	المشرك محروم من مغفرة الله تعالى	[١١٦، ١١٥]
٥١٤	المشركون يعبدون الشيطان	[١٢١.١١٧]
٥٢٣	جزاء المؤمنين	[١٢٢]

٥٢٥	قضاء الله العادل فى الناس	[١٢٣]
٥٣٠	عموم الجزاء الحسن	[١٢٤]
٥٣٣	دين الله للناس أجمعين	[١٢٦، ١٢٥]
الصفحة	الموضوع	رقم الآية من سورة النساء
٥٤٠	المحافظة على اليتيمة والضعاف	[١٢٧]
٥٤٤	علاج نشوز الزوج	[١٢٨]
٥٥٠	العدل بين الزوجات	[١٢٩]
٥٥٤	افتراق الزوجين	[١٣٠]
٥٥٦	الأمر بيد الله تعالى	[١٣٢، ١٣١]
٥٦٠	بيان قدرة الله تعالى	[١٣٣]
٥٦٢	طلب ثواب الآخرة	[١٣٤]
٥٦٥	العدل المطلوب فى الإسلام	[١٣٥]
٥٦٩	الدعوة إلى الإيمان الصحيح	[١٣٦]
٥٧٣	تحريم التلاعب بالأديان	[١٣٧]
٥٧٦	بيان عاقبة المنافقين	[١٣٨]
٥٧٨	الصفة الأولى للمنافقين : اتخاذ الكافرين أولياء ...	[١٣٩]
٥٨٣	الصفة الثانية للمنافقين : الاستهزاء بآيات الله تعالى	[١٤٠]
٥٨٨	الصفة الثالثة للمنافقين : التريص وسرقة النصر	[١٤١]
٥٩١	الصفة الرابعة للمنافقين : ضعف إيمانهم بالله تعالى	[١٤٢]
٥٩٣	الصفة الخامسة للمنافقين : التردد بين الإيمان والكفر	[١٤٣]
٥٩٦	ولاية المؤمن للمؤمن	[١٤٤]
٥٩٩	مصير المنافقين	[١٤٥]
٦٠٢	توبة المنافق وخلصه	[١٤٦]
٦٠٥	حق المؤمن فى جنات النعيم	[١٤٧]
٦٠٧	تفسير الجزء السادس	.

٦٠٩	توطئة	.
٦١٢	تحريم الإساءة لإنسان	[١٤٨]
٦١٧	التسامح بين المسلمين	[١٤٩]
٦١٩	عدم الإيمان ببعض الرسل كفر بالجميع	[١٥٠]
الصفحة	الموضوع	رقم الآية من سورة النساء
٦٢٢	الكفر بالرسول كفر بالله	[١٥١]
٦٢٤	المؤمنون هم المؤمنون بالرسول جميعا	[١٥٢]
٦٢٧	تعنت اليهود مع الرسل	[١٥٣]
٦٣٣	مخالفة اليهود للميثاق	[١٥٤]
٦٣٧	جرائم اليهود	[١٥٥]
٦٤٠	جريمة اليهود مع مريم "عليها السلام"	[١٥٦]
٦٤٣	جريمة اليهود مع عيسى عليه السلام	[١٥٨، ١٥٧]
٦٤٨	حتمية إيمان اليهود بعيسى عليه السلام	[١٥٩]
٦٥٠	من جرائم اليهود	[١٦١، ١٦٠]
٦٥٣	المؤمنون من اليهود	[١٦٢]
٦٥٧	وحدة الدين عند الله تعالى	[١٦٣]
٦٦٣	منهجية الإيمان بالرسول	[١٦٤]
٦٦٦	مهمة الرسل مع الناس	[١٦٥]
٦٧٠	عدم التأثر بأقوال الضالين	[١٦٦]
٦٧٣	أفعال الكافرين ومصيرهم	[١٦٩، ١٦٧]
٦٧٧	الله غنى عن إيمان الكافرين	[١٧٠]
٦٨٠	تحريم الغلو في الدين	[١٧١]
٦٨٨	المسيح عليه السلام عبد الله تعالى	[١٧٢]
٦٩١	أحوال المؤمنين والمتكبرين يوم القيامة	[١٧٣]
٦٩٣	دعوة الناس إلى الإيمان	[١٧٤]
٦٩٦	جزاء المؤمنين	[١٧٥]

$$(\gamma \cdot)$$

٦٩٨	ميراث الكلاله	[١٧٦]
٧٠٥	الخاتمة	.
٧٠٩	فهرس موضوعات الآيات	.

وبهذا ينتهى الجزء الرابع ، ويليه الجزء الخامس

الكتب المطبوعة للمؤلف :

- (١) دعوة الرسل إلى الله تعالى .
- (٢) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي .
- (٣) السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني .
- (٤) القول الدقيق في سيرة وعصر الصديق ﷺ .
- (٥) نظم الدرر في سيرة وعصر عمر ﷺ .
- (٦) حسن البيان في سيرة وعصر عثمان ﷺ .
- (٧) القول الجلى في سيرة وعصر علي ﷺ .
- (٨) دراسات في الملل والنحل (دراسة موسوعية للأديان والمذاهب) .
- (٩) الدعوة الإسلامية . أصولها . ووسائلها من القرآن الكريم .
- (١٠) الدعوة الإسلامية في العصر الحديث .
- (١١) قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين .
- (١٢) النظام السياسى فى الإسلام .
- (١٣) النظام الاقتصادى فى الإسلام .
- (١٤) أصول الدعوة الإسلامية .
- (١٥) عوامل النجاح من خلال تجربة حية ، ونماذج رائدة .
- (١٦) الرسالة الغراء تربية الأبناء .
- (١٧) خيال الروح فى زمن الصبا (ديوان شعر كتب قبل ستين عاما) .
- (١٨) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الأول .
- (١٩) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الثانى .
- (٢٠) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الثالث .
- (٢١) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الرابع .

والله ولى التوفيق ،،،